بسم الله الرحمن الرحيم

جامعـــــــــــة اليرموك
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قســــم أصـــول الـــديـــن
دكتوراه التفسير وعلوم القرآن

أسلوب الردع في القرآن الكريم

(The Method of The Deterrence In the Holy Quran)

إعداد
عبد الله أحمد حسين الزيوت

إشراف
الأستاذ الدكتور: شحاده العمري

حقل التخصص ــ التفسير وعلوم القرآن

الخميس: ٢١/رجب / ١٤٢٩هـ
الموافق: ٢٤/ تموز/٢٠٠٨م

أسلوب الرَّدع في القرآن الكريم

إعداد الطالب:

عبد الله أحمد حسين الزيوت

ماجستير تفسير وعلوم قرآن جامعة آل البيت ٢٠٠٢م

قدمت هذه الأطروحة إستكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة تخصص التفسير وعلوم قرآن في جامعة اليرموك/إربد /الأردن.

وافق عليها

شحاده احميدي العمري .... مشرفًا رئيسًا

أستاذ التفسير وعلوم القرآن / جامعة اليرموك

محمد علي الزغول .... عضوًا

أستاذ التفسير وعلوم القرآن، جامعة آل البيت

ياسر أحمد الشمالي .... عضوًا

أستاذ الحديث وعلومه،جامعة اليرموك

عبد الرزاق موسى أبو البصل .... عضوًا

أستاذ مشارك في الحديث وعلومه ، جامعة اليرموك

عبدالله محمد الجيوسي .... عضوًا

أستاذ مساعد في التفسير وعلوم القرآن ، جامعة اليرموك

٢١/رجب/ ١٤٢٩هـ

تاريخ تقديم الأطروحة ٢٤/٧/٢٠٠٨م

الإهداء

إلى روح من صبر على تربيتي وأحبّ لي كل خير

والدي ....

إلى من سهرت عليّ الليالي الطوال ودعت لي بالتوفيق

والدتي ....

إلى الزوجة ...... إلى الأولاد .....

إلى أشقائي .... وشقيقاتي

إلى كل من دعا لي بدعوة صالحة

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع

الشكر والتقدير

أعظم الشكر وأجزله وأكمله لله تعالى على عظيم فضله، وجزيل إحسانه أن أتم عليّ إحسانه ونعمته، ووفقني إلى إنجاز هذا العمل لخدمة كتاب الله تعالى.

وعلّه من الإحسان أن يُذْكَرَ الفضلُ لأهله ولا يغمط حقهم، فلذا أتوجه بالشكر الخالص والعرفان الجميل إلى أستاذي الدكتور شحاده احميدي العمري الذي شرفني بالإشراف على هذه الرسالة ، وأولاني من نصحه وإرشاده وتوجيهاته التي خدمت هذا الموضوع بصورة لائقة .... فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر وجميل العرفان إلى الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة ، وعلى ما سيقدمونه لي من ملاحظات قيمة وتوجيهات نافعة.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعة اليرموك ممثلة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية وأعضاء الهيئة التدريسية فيها وموظفيها .

وأختم بالشكر الجزيل إلى الأهل والأقارب والأصدقاء وإلى كل من أسدى إليّ معروفًا ولو بأدنى كلمة.

إلى أولئك كلّهم خالص الشكر وعظيم التقدير والامتنان .

دليل المحتويات

الملخّص

الزيوت ،عبد الله أحمد ، أسلوب الرّدع في القــرآن الكــريم ، أطروحــة دكتــوراه، جامعــة اليرموك، ٢٠٠٨م (المشرف: أ.د شحاده العمري)

قدمت هذه الدّراسة الموسومة بــ(**أسلوب الرّدع في القرآن الكريم**) بيانًا لهذا الأسلوب القرآنــي الفريد ؛ الذي يحمل في مضامينه الدلالة على المحاذير المترتبة على الوقــوع فــي الــشّر، أو الإعراض عن وسائط النجاة منه ، وبعد تعريف كلٍّ من الأســلوب والــرّدع لغــةً واصــطلاحًا خلصت الدراسة إلى أنّ أسلوب الرّدع هو أحد الطّرق الدعوية ، وجاءت هذه الطريقة الخاصــة التي سلكها القرآن الكريم لكفّ المخالفين عن مخالفة أوامر الله ﷻ ومنعهم من ارتكابها ؛ ليحقّق للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة ، وطرق الرّدع جاءت في لفظي (كلا) و(ما كان) ، وهمــا اللفظان اللذان وردا في آيات الردع ، ومما يلحق بالردع أيضًا ضرب الأمثال ، وأخذ العبر ممــا حلّ بالأمم السّابقة ، وقد ذكرت خصائصه ؛ من الشّمول والمــساواة والتّنــوع وســموّ الغايــة والتّدرج، وقربت مجالات الرّدع المنقسمة بين الرّدع عن معصية الله ﷻ ؛ من الاغترار بالكرم لجحود النّعم ، والاغترار بالإمهال للإقدام على العــصيان ، والــرّدع عــن إيــذاء النّبــيّ ﷺ والمؤمنين ، والرّدع عن الانشغال بالدّنيا عن الاشتغال للآخرة ، وعرضت الدراسة للمخــاطبين بالردع في القرآن الكريم من المؤمنين والكافرين ليردعهم عن أمور إذا مــا واقعوهــا قــاربوا الهلاك في الدنيا، ونالهم العقاب في الآخرة ، وهذه الدراسة ذكرت العقوبــات التــي شُــرعت لتهذيب الأفراد مما اجترحوه من المعاصي ، والحؤول دون مواقعة الآخرين لهــا ، وحــضّت على الوسائل التي تردع أعداء الإسلام عن إذلال المسلمين في أبدانهم وأفكارهم وأوطانهم .

(الكلمات المفتاحيّة : تفسير موضوعيّ ، العقوبــات وآثارهــا ، الأســلوب القرآنــي ، مقاصــد التّشريع، الأسلوب التربوي).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله العظيم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ، ومَن يضلل فلن تجدَ له وليًا مُرشدًا.

الحمد لله الذي جعل القرآنَ الكريمَ منهجًا لحياتِنا، وسراجًا منيرًا لعقولِنا، وهاديًا للتي هي أقوم.

وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لاشريكَ له، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه ، صاحبُ المقامِ المحمودِ والحوضِ الموردِ، المخصوصُ بجوامعِ الكلمِ ، صلى الله تعالى عليه وسلّمَ وباركَ كلّما ذكره الذاكرونَ وغَفِلَ عن ذكره الغافلون ، صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيتِه الطيّبينَ الطاهرين، وصحبِه الغُرِّ الميامين ، والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدّينِ ما تعاقب الليلُ والنهارُ، وبعد ؛ فإنَّ أحقَّ ما يشتغل به الباحثون وأفضلَ ما يتسابقُ فيه المتسابقون مدارسة كتاب الله ﷻ ومداومة البحث فيه، والكشف عن علومه وحقائقه ، وإظهار إعجازه ، وتجلية محاسنه.

والقرآن الحكيم هو حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ، وهو بحر زاخر لا يُدرك غوره ، ولا تنفدُ دُرَرُه ، وعطاؤه متجدد في كل عصر ، وعطاؤه لا ينفد في كل فرع من فروع العلم ، يُبهِرُ النَّاس بكل عجيبه ، ويُتحِفُهم بكلِّ دُرة فريدة ، وجوهرة نفيسة ... ومهما تعمقتَ فيه فإنَّ نفسك لا تقنع بما أخذت ، ولستَ بالغًا نهاية ما وجدتَ ؛ لأنه لا تنقضي عجائبُه ، ولا يَخلَقُ على كثرة الرَّد.

نزل القرآن الكريم ــ الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ــ من لدن عالم الغيب والشهادة ، الخبير بمسالك النفوس ودروبها، العليم بما يُصلحها ويقومها ، وجاء القرآن

العظيم شاملاً لجميع مناحي الحياة ، فلم يترك جانبا من جوانب حياة الإنسان إلا وتناوله بالبيان الواضح الذي لا غموض فيه؛ ليحقق أسمى الأهداف وأنبل الغايات.

لقد جاء القرآن الكريم بالأساليب الحكيمة في دعوة الإنسان إلى ما فيه خيره وصلاحه وسعادته في العاجل والآجل ، ومن تلك الأساليب الناجعة التي تسترعي الإنتباه وتشدُّ الفكر أسلوب الرّدع الذي تنوعت أساليبه وتعددت مجالاته ؛ فقد تنوعت أساليبه ليناسب حال المخاطبين، وما طُبعت عليه نفوسهم من تباين في التكوين والاستعداد ، وتعددت مجالاته لتشمل جميع ما يُصلح الإنسان، ويهذب سلوكه، ويُعلي منزلته في الدنيا والآخرة ، ومن هنا رغبتُ في الكتابةِ في هذا الموضوعِ لِما له مِنْ أهميةٍ بالغةٍ في الدعوةِ إلى اللهِ ﷻ خاصةً في هذا العصرِ الذي كَثُرَت فيه الفتَنُ والإحَنُ والمِحَنُ.

ولذا فقد اقتضت طبيعةُ الدراسةِ لهذا الموضوعِ تقسيمَهُ إلى مقدمةٍ ، وخمسةِ فصولٍ وخاتمةٍ.

أما المقدمةُ فقد ضَمّنتُها أهدافَ الدراسةِ ، ومنهَجَها ، والدراساتِ السابقةَ .

وأما الفصل الأوّل: فتناولت فيه مفهوم الرّدع ؛ حيث خصّص المبحث الأوّل لبيان الرّدع لغةً واصطلاحًا، وتبعه المبحث الثّاني للحديث عن ألفاظ ثلاثة تحمل معنى الرّدع وهي الزّجر والنّهي والنّكال.

الفصل الثّاني: ذكرتُ فيه طرقَ الرّدع في القرآن الكريم وخصائصه، وقد حصرت طرق الرّدع في القرآن الكريم في ثلاث كليّات رئيسة ، لكل منها مبحث:

فالمبحث الأوّل: الرّدع بـ(كلا) و(ما كان) ، والمبحث الثّاني: الرّدع بضرب الأمثال ؛ فبعد التعريف بضرب المثل ومتعلقاته عرّجت على استعمال القرآن الكريم للأمثال في الرّدع.

والمبحث الثّالث: الردع ببيان ما حل بالأمم الماضية ؛ فقد ذكر الله ﷻ القرون السابقة التي تنكبت طريق الحق ، وسعت للصد عن سبيل الله ﷻ، فحلت عليهم نقمه ، وحل بهم عذابه ؛

وذلك للرّدع عن سلوك سَنَنِهم الموجبة لوقوع ما حل بهم ، فمن سنة الله ﷻ الثابتة إيقاع العقوبة بمن فعل مثل فعلهم .

المبحث الرابع:خصائص أسلوب الردع ومزاياه ؛ المتمثلة بالشمول، والمساواة ، والتنوع ، وسمو الغاية ، والتدرج بين القول والعمل.

الفصل الثالث: مجالات الردع في القرآن الكريم.

تنقسم مجالات الردع بين ركني التوحيد وأتباعه ، والانشغال بالدنيا عن الاشتغال للآخرة ، ولذا فقد جاءت المجالات في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الردع عن جحود وحدانية الخالق وعصيانه؛ وأُمَّهات جحود وحدانيته ﷻ وعصيانه : الإشراك به، والاعتزاز بالآلهة ، والتفريط بحق الله ﷻ ، والاغترار بكرمه وجحود نعمه ، وعصيانه بالصد عن طاعته.

المبحث الثاني: الرّدع عن إيذاء النبي ﷺ ، وعن إيذاء المؤمنين ؛ فإيذاؤه متمثل بعصيان أمره، وإيذاء شخصه وأهله ، والمنتسبين إليه من آل بيته الأطهار ، وإيذاء المؤمنين المتمثل ببهتهم والتشهير ببعض هناتهم.

المبحث الثالث: الردع عن الانشغال بالدنيا عن الاشتغال للآخرة.

لما كانت الدنيا والآخرة لا تجتمعان في قلب ، فإذا دخل أحدُهما أخرج صاحبَه ، فقد حضّ القرآن الكريم على الحرص على الباقي ، والتقليل من الآني والفاني ، فردع عن الإفراط في حب الدنيا ، والانشغال بالتكاثر منها عن العمل للآخرة ، وردع أيضًا عن ظن أن الإنعام علامة إكرام وأن المنع منه علامة إهانة مما يدعو إلى الحرص على ما تحصل منها، وحسبانه مدعاة للخلود في هذه الدنيا.

الفصل الرابع :المخاطبون بالردع في القرآن الكريم المؤمنون والكافرون.

حيث جاءت هداية القرآن الكريم للعالمين ؛ فردعه للمؤمنين عن مخالفة الأوامر إنما هو للإبقاء على إيمانهم ، ودفعهم للحفاظ عليه ، والدفاع عنه ، ونشره ؛ ولذا فقد ردعهم عن مخالفة أوامره وأوامر رسوله ﷺ التي تُذهب ريحهم ، وتُوقعهم في العقاب الدنيوي والأخروي، وردعهم عن قتل النفس التي حرم الله ﷻ إلا بالحق ، وردعهم عن خشية غيره عند الدعوة إليه ، كما ردع المؤمنين القادرين على النَّفار في سبيله عن القعود عن الجهاد في سبيله .

وردعه للكافرين عن كل ما يبقيهم على كفرهم ، أو يطمعهم في المنفعة عند الله ﷻ من غير إيمان ؛ فردعهم عن أطماعهم واقتراحاتهم في الدنيا ، وردعهم عن الطعن في القرآن الكريم ، والادعاء بأنه أساطير الأولين ، وردعهم عن الاستهزاء باليوم الآخر ، وردعهم عن طلب الرجوع إلى الدنيا عند الموت ، وما يتمنونه يوم القيامة من طلب الفداء حتى ينجوا من عذاب الله ﷻ ولا يردهم عن الطلب إلا مثل قوله ﷻ: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] .

الفصل الخامس: العقوبات التي شرعت للردع وآثارها.

معلوم أن بعض الناس يتعظون ، بمجرد رؤية ما حل بغيرهم ، ومنهم من لا يتعظ إلا إذا أصيب بذات نفسه ، ولذا فقد شرعت العقوبات الدنيوية للرّدع عن التعدي على حدود الله ﷻ وحقوق العباد في المجتمع ، والردع عن الاعتداء على دولة الإسلام من أعداء الخارج.

وكما شرعت العقوبات لردع الأفراد ،شرعت عقوبات أخرى لردع المجتمعات لما لذلك من أهمية على الفرد والمجتمع .

وأخيرًا: أثبت أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج .

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الآتي:

أولاً: بيان معنى الرّدع في اللغة والاصطلاح .

ثانيًا: إبراز طرق الرّدع التي استعملها القرآن الكريم في إصلاح الناس والمحافظة على مصالحهم ، والحدّ من الانحرافات الكثيرة التي عانت منها المجتمعات القديمة ، ولا تزال المجتمعات المعاصرة تعاني منها.

ثالثًا: الوقوف على خصائص أسلوب الرّدع في القرآن الكريم ومزاياه.

رابعًا: الوقوف على مجالات الردع في القرآن الكريم.

خامسًا: بيان الأصناف التي خوطبت بالردع في القرآن الكريم.

سادسًا: الكشف عن بعض لطائف كتاب الله تعالى ـ المُعْجِـز في نظمه وبيانه ـ وأسراره ، والإفادة من تَعاليمه وتوجيهاته .

سابعًا: بيان العقوبات التي شُرعت للردع عن ارتكاب الجرائم ، والاعتداء على الآخرين.

ثامنًا: الردّ على بعض الشبهات التي يُثيرها المشككون من أعداء الإسلام وخصومه؛ كالادعاء بأن العقوبات قاسية ، ولا تلائم الجرائم المقررة لها.

تاسعًا: بيان آثار العقوبات التي شُرعت للرّدع على الفرد والمجتمع.

الدِّراسات السَّابقة

لم يعثر الباحث ــ حسب المعلومات المتوفرة لديه ــ على دراسة مستقلة تتحدث عن أسلوب الرّدع في القرآن الكريم ، أو تذكره بصريح العبارة ، ولكنه وجد للمفسرين عند تفسيرهم للآيات المشتملة على الرّدع أقوالاً متناثرة هنا وهناك تشير إلى هذا الموضوع ، وتحمل في طياتها الدّلالات على أنّهم كانوا على دراية بأسلوب الرَّدع واستخدامات القرآن الكريم له ، ووجد أيضًا دراسات متناثرة لها صلة بموضوع هذه الدراسة ، منها:

١- **رسالة (كلا) في الكلام والقرآن، لابن رستم الطبري**[١] : وهذه الرسالة تقع في أربع عشرة صفحة ، ذكر فيها أن (كلا) لا تخرج عن معنيين: أحدهما: (ألا لا) في الردع والزجر، وعندها يتم الكلام ، والثاني: بمعنى (ألا) التي يستفتح بها الكلام للتنبيه ، ثمّ فسّر (كلا) في القرآن الكريم على هذين المعنيين ، وأورد الآيات التي تنطوي تحت كلٍّ منهما.

٢- **مقالة (كلا) ، لأحمد بن فارس** [٢] : وهي تقع في أربع عشرة صفحة ، استعرض فيها الأقوال المختلفة في معنى(كلا) ، وذكر أن الأقرب أنها تقع في تصريف الكلام على أربعة أوجه ، هي: الرّد ، والردع ، وصلة اليمين(وافتتاح الكلام بها كـ ألا) ، والتحقيق لمابعدها من الأخبار، ثم ذكر ما جاء منها في كتاب الله ﷻ على ترتيب هذه الوجوه ، وفي ختام حديثه صرح بأن هذه الوجوه الأربعة يجمعها وجهان : رد وردع ، وهما متقاربان ، وتحقيق وصلة يمين ، وهما متقاربان.

---

(١) ابن رستم الطبري ،رسالة(كلا) في الكلام والقرآن ، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمّار ،عمّان ، ط١، ٢٠٠٢م، قال المحقق: لا تذكر كتب التراجم التي بين أيدينا تاريخ ولادة ابن رستم أو تاريخ وفاته ، ولكنها تشير إلى أنه عاش في القرن الرابع الهجري .[انظر: مقدمة المحقق : ٧].

(٢) ابن فارس (٣٩٥هـ) مقالة (كلا) ،تحقيق: أحمد فرحات، دار عمّار- عمّان،ط٢٠٠٢،١م.

٣- **شرح كلا وبلى ونعم، لمكي القيسي**[٣]: وفي هذه الرسالة الموجزة ذكر المصنف اختلاف النحويين في الوقف على (كلا) والابتداء بها ، ثمّ اختار لها ثلاثة معانٍ : الرد والإنكار لما تقدم قبلها من الكلام في الوقف عليها ، و(حقًا) ، (ألا) الاستفتاحية ، في الابتداء بها، وأجاز اجتماع المعنيين ـ (حقًا) و (ألا) ـ فيها في الابتداء ، ولم يستبعد انفراد أحدهما بها.

وخلُصَ من تتبع الآيات التي وردت فيها(كلا) إلى تقسيمها أنها على أربعة أقسام : أولها: ما يحسن الوقف فيه على (كلا) فيها مع دلالتها على معنى ، كما يحسن الابتداء به على معنى آخر. وثانيها: ما لا يحسن الوقف على(كلا) وإنما يحسن الابتداء بها. وثالثها: ما لا يحسن الوقف فيه على (كلا) ولا الابتداء بها ، ورابعها: ما لا يحسن الابتداء بـ(كلا) فيها ولكن يحسن الوقف عليها. وعدّ الآيات التي تنطوي تحت كلٍّ من هذه الأقسام.

٤- **الإعلان عن الحدود الشرعية وأثره في الرّدع العام ، للعتيبي**[٤]، بيّن فيه جرائم الحدود المقدرة ، وأدلتها في الفقه الاسلامي، وطرق إثباتها، ثم ذكر كيفية تنفيذ العقوبات الحدية، ثم تحدث عن أثر إعلان تنفيذ العقوبات الحدية في تحقيق الرّدع العام والطمأنينة العامة.

٥- بحث موجز بعنوان: **ردع الإنسان عن الطُغيان في ضوء قوله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ ، للعمري**[٥] ، تحدّث فيه عن سبب نزول الآيات ، وصلتها بسورة العلق ، وثنى بتحليل كلمات تلك الآيات والكلام عن بلاغتها إفرادًا وتركيبًا ، أتبعه بذكر مظاهر الطُغيان ومخاطره .

---

(٣)مكي بن أبي طالب القيسي(٤٣٧هـ) ،شرح كلا وبلى ونعم ، تحقيق :أحمد حسن فرحات، دار المأمون لتراث، ط١٩٧٨، ١م.

(٤) العتيبي ، صالح بن علي بن ذعار، الإعلان عن الحدود الشرعية وأثره في الرّدع العام ، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ، ط١، ٢٠٠٠م .

(٥) شحاده حميدي العمري ، أستاذ التفسير وعلوم القرآن ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة اليرموك ـ الأردن ، والبحث منشور في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ،المجلد ٢٢ـ العدد الأول ـ٢٠٠٦.

وكيف استطاع القرآن الكريم بهذه الكلمات الموجزة أن يضع دستورًا متكاملا للـردّع عـن طغيان الإنسان على أخيه الإنسان؛ إذ الطُّغيان هذا أصل لكلّ طغيان. وأسلوب القرآن الكريم هو المنسجم مع منطق العقل السَّليم؛ فالنَّقل والعقل متفقان على قبح الطُّغيان في كل زمان ومكان.

ومن هنا يرى الباحث أن هذا الموضوع لم يعط حقّه من الدراسة بشكل متكامل ، ولم يحـظ بدراسة مستقلة من قبل ، فجاءت هذه الدّراسة لتتناول الطُّرق التي سلكها القرآن الكـريم لـردع الإنسان عن كلِّ ما يضرُّ به في الدُّنيا والآخرة ، وتستقصي الآيات المتضمنة للرَّدع في القـرآن الكريم ، بالتَّفصيل الَّلائق ، والترتيب المناسب ، وهذه الدراسة تناولت أسلوب الرّدع في القـرآن الكريم ،على شكّل دراسة موضوعية مستوعبة للآيات المـشتملة علـى الـرّدع ، واسـتخدمت الأسلوب البياني ؛ للوقوف على بلاغة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ الصالحة لردع كل مـن المخاطبين بالطريقة الناجعة الملائمة له ، مستنبطة هذا الأسلوب من الدراسة التحليلية للآيـات التي جاء فيها الرّدع ، وذلك بدراسة صلة الآيات المشتملة على الرّدع بما قبلها ، وبهـذا تكـون هذه الدراسة دراسة موضوعية ، بيانية ، تحليلية.

منهج الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على المناهج الآتية:

أولاً: المنهج الاستقرائي ؛ وذلك في جمع الآيات التي فيها ردع ثمّ تقسيمها إلى مجموعات للوصول إلى أحكام عامة.

ثانياً: المنهج الوصفي ؛ لتصنيف آيات الردع إلى مجالاتها.

ثالثاً: المنهج التحليلي ؛ وذلك بعرض الآيات القرآنية وتحليلها تحليلاً مناسباً لأغراضها، لاستخراج ما في الآيات من معاني ونتائج.

رابعاً: المنهج النقلي ؛ لنقل آراء العلماء والاستشهاد بها.

خامساً: المنهج الجدلي للرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام وخصومه.

وقد اتبعت في هذه الدراسة الخطوات الإجرائية التالية:

١. جمع الآيات القرآنية التي فيها ردع ، ثمّ تقسيمها إلى مجموعات للوصول إلى أحكام عامة ، وذلك بعد الرجوع إلى أمهات كتب التفسير وغيرها من المصادر والمراجع التي يمكن الإفادة منها في تحقيق هذا الغرض.

٢. كتابة الآية الكريمة التي فيها ردع ، ثم بيان وجه مناسبتها لما قبلها ، وإذا كان للآية سبب نزول ذكرته وأشرت إلى مظانه في كتب أهل العلم.

٣. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٤. عزوت الأحاديث إلى مصادرها ذاكراً الكتاب والباب ورقم الحديث، مع تخريجها معتمداً على ما ذكره العلماء في ذلك.

٥. حرصت عند إيراد أقوال أهل العلم على التوثيق المعتمد في البحث العلمي ، فما نقلته نصاً جعلته بين قوسين ، وما نقلته باختصار أو أفدته من مصدر أو مرجع فغالباً ما أكتفي في العَزْوِ بقول انظر كذا ... ، مشيرًا إلى مكان وجوده بذكر الكتاب والجزء ورقم الصفحة .

٦. ما ورد في البحث من مسائل أو مصطلحات أو معاني يُحتاج إليها ولا يمكن إيرادها في المتن بينتها في الهامش وأحلت إلى مظانّها في كتب العلماء.

٧. ترجمت في الهامش للأعلام ، وذلك عند ورودها أول مرة في صلب البحث فقط.

٨. اعتمدت في ترتيب المصادر في الهامش على التسلسل الزمني حسب تاريخ وفاة المؤلف، فبدأت من الأقدم فصاعداً.

٩. أعددت الفهارس الفنية للدراسة ، فأعددت فهرسًا للآيات ، وفهرسًا للأحاديث النبوية، وفهرسًا للأعلام المترجمة ، وفهرسًا لمصادر البحث ومراجعه.

وأخيراً: لا يسعني إلا أن أقول: إن هذا جهد بشري معرض للنقص والتقصير، وذلك سنة الله في خلقه، فالكمال لصاحب الكمال سبحانه وتعالى ، وأقول: إن عملي هذا هو جهد مقل ومليء بالعيوب والنقص ورحم الله امرءًا أهدى إليّ عيوبي.

ABSTRACT

Al Zuit, Abdallah Ahmad, the Method of Determent in the Holy Qoran, Doctoral Dissertation, Yarmouk University, 2008 (Supervisor: Prof. Dr, Shehada Al-Amary)

This study entitled "*the Method of Determent in the Holy Qoran*" aimed at identifying this distinctive Qoranic Method from its varied aspects. Having defined the terms of Method and determent linguistically and technically, the study concluded that the Method of determent is a missionary one used by the Holy Qoran intimidating from deviation from Allah's orders, and preventing violations, so that human happiness can be realized in this and hereinafter days. Deterring words were "*Kalla*, and *ma Kana*" that are the two words cited in the deterring Qoranic verses. Another type of determent is exemplifying by the destiny of old nations with its characteristics being totality, equality, heterogeneity, supremacy of the mission, and gradualism. I made converged the seemingly diverged areas of determent. From one hand there was deterring from disobeying Allah, as, for example, the deceptiveness of generosity leading to denying graces, and deceptiveness of a respite leading to dare committing disobedience, and from the other hand deterring from insulting the Prophet "*may Allah blesses him*" and believers, and deterring from being occupied by the mundane life more than the Hereinafter. The study addressed such

kinds of people deterred by the Holy Qoran including believers and disbelievers so that they would be prevented from doing things that otherwise would expose them to peril and damage in this mundane life and rewarding them punishment in the Last Day. This study cited the penalties that are endorsed for sake of wrongdoers to be purified from their sins, and deterring others from doing them, and urged on deterring means thereby frustrating enemies of Islam from insulting the Muslim people in their bodies, thoughts, and homelands.

Keywords: Objective Exegeses-Effects of Punishments-The Qoranic Method-Endpoints of the Legislation

تمهيد

مدخل إلى أسلوب الرّدع في القرآن الكريم

تمهيد

مدخل إلى أسلوب الردع في القرآن الكريم

لم يخلق الله ﷻ الخلقَ عبثًا ، ولم يتركهم همـلاً ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥] ، وإنّما خلقهم لحكمة يعلمها، وأوجدهم لغاية يريدها، بها سعادتهم في الدنيا والآخرة إنْ هم قاموا بها ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]

فقد خلق الله ﷻ الجنّ والإنس من أجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وهو ﷻ الغني عنهم ، فلا يُريد منهم رزقًا ولا إطعامًا ؛ لأنّ الله ﷻ هو الـرزّاقُ ذو القـوة المتـين الـذي لا رازق للإنسان وغيره إلا هـو ﷻ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر:٢-٣].

ولأجل تحقيق تلك الغاية الجليلة بعث الله ﷻ رسلَه ـــ عليهم الـصلاة والـسلام ـــ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبيـــــاء:٢٥] ، أرسلهم الله ﷻ ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النـساء:١٦٥]

وختم هؤلاء الرّسل بنبيّنا ورسولنا محمد ﷺ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

وقد خصّ الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ من بين رسله بأن أرسله ﷺ إلى خلقه جميعًا من الإنس والجن من بعثته إلى قيام الساعة ، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

فالخطاب في الآية الكريمة عام يدخل فيه النّاس جميعًا ؛ الأحمر والأسود ، والعربي والعجمي ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنّه خاتم النبيين ، وأنّه مبعوث إلى النّاس كافة ، وهو المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أنّه ﷺ رسول الله ﷻ إلى كافة النّاس [١]،قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ:٢٨] ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ــ فيما رواه الإمام مسلم بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ــ : أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ؛ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ" [٢].

وأنزل الله ﷻ الكُتب من أجل أن يعرفه الخلقُ ؛ ليعبدوه ﷻ وحده ولا يُشركوا به شيئًا، كما قال تعالى :﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل:٢] ، وقال ﷻ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد:٢٥] ، "والقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه ، وإنّ الشرك لظلم عظيم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا

---

(١)ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت،ط٥، ١٩٩٦م، ٢/٢٤٤.

(٢)الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) صحيح مسلم ،دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، رقم : (٥٢٣) ١/٣٧١.

المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهـذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات"[١].

وقد ختم الله ﷻ كتبه بالقرآن العظيم ، وجعله مُصَدِّقًا لها ، ومُهيمنًـا عليهـا؛ أي : "شـهيدًا عليها أنها حق من عند الله، أمينًا عليها، حافظـا لهـا"[٢]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ (٤٨) ﴾ [المائدة:٤٨] .

فهو أشملُ الكتب السماوية السابقة، وأعظمُها، وأكملُها، وهو الكتاب المهيمن على غيره مـن الكتب ، ولا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت:٤١-٤٢]

وهو معجزة خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﷺ ، الباقية على مرّ الدهور والأزمان ، والمحفوظ بحفـظ الله ﷻ ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر:٩]

فالقرآن الكريم هو كتاب الإسـلام الذي أكمل الله ﷻ به كلَّ الأديـان ، ورضـيه ﷻ للنَّـاس كافـــــة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ (٣) ﴾ [المائدة:٣] ، ولن يقبل ﷻ من أحدٍ دينًا غيره ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران:٨٥] ؛ أي: ومن يطلب دينًا غيرَ دين الإسلام ليدين

---

(١)ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر أيوب (٧٥١هـ) الجواب الكافي ، مكتبة المعارف ــ الرياض، ط١، ١٩٨٧ م، ١٩١ .

(٢)الإمام الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١١هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق:أحمد شـاكر ،مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م، ٣٧٧/١٠.

به ، فلن يقبل الله ﷻ منه ، وهو في الآخرة من الباخسين أنفسهم حظوظَهـا مـن رحمـة الله ﷻ(١).

وقد توعّد الله ﷻ من كفر بهذا القرآن العظيم ، وبما جاء به خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﷺ بالعذاب في نار جهنَّم ، فقال تعالى :﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧] ؛ " أي: ومن كفر بالقرآن الكريم من سـائر أهـل الأرض، مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ممن بلغه القـرآن، فالنّار موعده"(٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَـدِهِ ، لا يَـسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِـنْ أَصْحَابِ النَّارِ"(٣).

هداية القرآن إلى خيري الدنيا والآخرة:

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم على رسوله ﷺ ، وأخبر أنّه بيّن فيه كلّ ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم ودنياهم ، وكل ما تتوقف سعادتهم عليه في الدنيا والآخرة ، فلم يترك باباً من أبواب الخير والصلاح إلا أمرهم به ، ودعاهم إليه ، وحثّهم عليه ، ولم يترك بابًا مـن أبـواب الـشّر والفساد إلا نهاهم عنه ، وحذّرهم ونفّرهم منـه ، قَالَ تَعَالَى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩].

---

(١)الإمام الطبري، جامع البيان ، ٥٧٠/٦.

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤٢٢/٢.

(٣) صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ ، رقم: (١٥٣) ، ١٣٤/١.

قال الجصاص[1]:"يعني به ــ والله أعلم ــ: تبيان كل شيء من أمور الدين بالنص والدلالة ، فما من حادثة جليلة ولا دقيقة إلا ولله ﷻ فيها حكم قد بينه في الكتاب نصًا أو دليلاً، ... فما بينه الرسول ﷺ فهو عن الله ﷻ ، وهو من تبيان الكتاب له لأمر الله ﷻ إيانا بطاعته واتباع أمره ، وما حصل عليه الإجماع فمصدره أيضًا عن الكتاب ؛ لأن الكتاب قد دلَّ على صحة حجة الإجماع وأنهم لا يجتمعون على ضلال، وما أوجبه القياس ، واجتهاد الرأي ، وسائر ضروب الاستدلال ... جميع ذلك من تبيان الكتاب ؛ لأنَّه قد دلَّ على ذلك أجمع ، فما من حكم من أحكام الدين إلا وفي الكتاب تبيانه "[2].

كما أخبر ﷻ أنَّه يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاته ﷻ سبلَ السلامة والنجاة من كل خوفٍ وشقاء ، ويخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ، فقال ﷻ :﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥- ١٦].

---

(١) هو الإمام احمد بن على الرازي المعروف بالجصاص، كان إمام الحنفية في عصره، وكان في غاية الزهد والورع، وله تصانيف كثيرة منها: أحكام القرآن، وشرح مختصر الطحاوي، توفي (٣٧٠هـ) (انظر: اللكنوي الهندي، محمد عبد الحي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، دار المعرفة، بيروت ص ٢٧ – ٢٨).

(٢)الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي (٣٧٠هـ) أحكام القرآن، تحقيق :عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١، ١٩٩٤م ،٣/٢٤٦.

وأكد الحقُّ ﷻ أنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأعدلها وأصوبها ، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾

[الإسراء:٩]

إنَّ هذا القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم على إطلاق هذا اللفظ ، فهو يهدي للتي هي أقوم في شأن الفرد ، وفي شأن المجتمع ، وفي شأن الأحكام ، وفي شأن الاقتصاد ... ويهدي للتي هي أقوم في كل شأن من شؤون الحياة.

قال صاحب الظلال عند تفسيره لقوله ﷻ:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾: "هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ؛ فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمانٍ أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحةَ للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق"[1].

ثم يتابع صاحب الظلال كلامه فيقول في قوله ﷻ:﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ :" ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على

---

(١) سيد قطب، (١٣٨٧هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٢٢، ١٩٩٢م، ٤/٢٢١٥ .

الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعاً بالحياة.

و﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء ، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال"[١].

ثمّ يبين صاحب الظلال علاقة النّاس بعضهم ببعضٍ في ضوء قوله ﷻ: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ ، فيقول : "ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادًا وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولاً وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يَصلُح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان"[٢] .

وقد ذكر الشيخ الشنقيطي[٣]أن الله ﷻ أجمل في هذه الآية الكريمة جميع ما في القرآن الكريم من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها ، وساق مسائل متعددة بيَّن فيها بعض ما أشارت إليه الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي أقوم وأعدل ، وذكر أن الشريعة التي جاء بها القرآن الكريم مدارها على ثلاثة مصالح ، هي : درء المفاسد: المعروف عند علماء الأصول

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/٢٢١٥ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/٢٢١٥ .

(٣)هو: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ،حفظ القرآن وعمره عشر سنوات، وطلب العلم على عدد من علماء بلده، ثمّ استقر في المدينة المنورة، ودرّس في المسجد النبوي الشريف، وتلقى الناس عنه، من مؤلفاته :أضواء البيان ، دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، توفي عام(١٣٩٣هـ). [في أول كتاب أضواء البيان ،١/٧-٦٤].

بالضروريات ، وجلب المصالح :المعروف عند علماء الأصول بالحاجيـات ، والتّحـسينيّات ، وكل هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها[١].

وهذه المصالح تُعرف عند علماء الأصول بمقاصد الشريعة ، يقول الإمـام الـشاطبي[٢] مـا ملخصه : تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق ، وهذه المقاصد لا تعـدو ثلاثـة أقسام: الأول : ضروريّة ، والثّاني : حاجيّة ، والثّالث : تحسينيّة .

فأما الضّروريّة : هي الّتي لا بدّ منها لقيام مصالح الدّين والدّنيا ، بحيث إذا فقدت لـم تجـر مصالح الدّنيا على استقامة ، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة يكون فوات النّعيم، والرّجوع بالخسران المبين ، ومجموع هذه الضروريات خمسة ، وهي : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل.

وأمّا الحاجيّات : فهي ما يفتقر إليها من حيث التّوسعة ورفع الضّيق المؤدّي في الغالـب إلـى الحرج والمشقّة اللاحقة بفوت المطلوب ، فإذا لم تراع دخل على المكلّفين ــ علـى الجملـة ــ الحرج والمشقّة ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد المتوقع في الضّروريّات الخمسة ، ومن هذه الحاجيّات الرخص في العبادات ، والتمتع بالطيبات.

وأمّا التّحسينيّات: فهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات ، ويجمع ذلك مكارم الأخلاق[٣].

ولأنّ تفصيل ذلك يطول سأكتفي بتوضيح هذه المقاصد التي هدى فيها القرآن العظيم للطريـق التي هي أقوم الطرق وأعدلها بإيجاز، وعلى النحو الآتي:

---

(١) انظر: الشنقيطي(١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر ــ بيروت، ١٤١٥هـ ٣/١٧ــ٥٤.

(٢) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ ، من أهل غرناطة . مـن مـصنفاته : "الموافقات في أصول الفقه" و "الاعتصام" . توفي سنة(٧٩٠ هـ).[الزركلي، الأعلام ،١/ ٧٥] .

(٣) الإمام الشاطبي (٧٩٠هـ)، الموافقات ، تحقيق: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت ، ٢/٨-١٢.

أولاً: المقاصد الضرورية:

١ــ حفظ الدِّين :

ولحفظ الدين وحمايته من اعتداء المعاندين ، وعبث العابثين شُرِعَ" القتل والقتـال ؛ فالقتـل للردة وغيرها من موجبات القتل ، لأجل مصلحة الدين ، والقتال في جهاد أهل الحـرب"(١)،قال تعالى:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة:١٩٣]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[النساء:٧٥].

وقد توعد الله ﷻ المرتدين الذين تركوا الدين بعد أن آمنـوا مختـارين ، فقـال ﷻ : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة: ٢١٧] ، وشرع لهم عقوبة القتل ، فقال الرسـول ﷺ :" مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"(٢).

٢ــ حفظ النَّفس:

فقد جعل الله ﷻ النفس مصونة لا تنال إلا بحقٍّ ، فحرّم ﷻ قتل الإنسان نفـسَه ، أو قتـل غيـره ، فقـال ﷻ:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وقـال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النـساء:٢٩] ، وأوجب القصاص في القتل العمد ، والديَّة والكفارة في القتل خطأ.

---

(١)انظر: الزركشي ،بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٩٤هـ) **البحر المحيط في أصول الفقه**،تحقيق: محمـد تـامر، دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط١، ٢٠٠٠م، ١٨٩/٤.

(٢) **صحيح الإمام البخاري**، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة ، رقم: (٦٥٢٤)، ٢٥٣٧/٦.

وحفظًا للنفس أوجب الله ﷻ على الإنسان أن يُمدَّ نفسه بوسائل الإبقاء على حياته ، فقال ﷻ:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١].

فقد "أحل الله ﷻ في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة ، فأما ما تدعو الحاجة إليه ، وهو ما سَدَّ الجَوْعَةَ وسكَّن الظمأ ، فمندوب إليه عقلاً وشرعًا ، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ؛ ولذلك ورد الشرع بالنَّهي عن الوصال ؛ لأنَّه يضعف الجسد ويميت النفس ، ويضعف عن العبادة ، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل"(١).

وقال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

٣ــ حفظ النسل :

فمن أجل الحفاظ على النسل شرع الله ﷻ الزواج ؛ ليكون منه التوالد والتناسل ، فقال ﷻ:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴿٧٢﴾﴾ [النحل:٧٢].

وحرّم الله ﷻ الزنا ، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢] ، وشرع العقوبة الرّادعة لذلك ؛ أما غير المحصن فجلد مائة جلدة ، قال ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢]، وأما المحصن فالرجم حتى الموت .

وحرّم ﷻ انتهاك الأعراض وخدشها بالقــذف بالزنــا ، فقــال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

٤ــ حفظ المال :

---

(١)القرطبي، أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٣م،١٢٣/٧.

ولأجل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق وهم مضطرون إليها [١] نهى ﷻ عن كل ما يجرُّ إلى أكل مالٍ بالباطل ، فقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة:١٨٨].

٥ـ حفظ العقل :

وللحفاظ على العقل الذي هو مِلاكُ التَّكْلِيفِ ، وقوام كل فعل تتعلق به مصلحة ، واختلاله مؤدٍ إلى مفسدة عظمى [٢]، حرَّم الله ﷻ كل ما من شأنه أن يؤثر على العقل ويضر بـه كـالخمر ، فقال ﷻ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٩٠] ، كما شرع الحدُّ لشارب الخمر.

ثانياً: المقاصد الحاجيّة:

وهي تدور على التوسعة والتيسير ورفع الحرج والرفق ، كقصر الصلاة ، والتيمم ، وفطـر الصائم بعذر السفر والمرض ، وأكل الميتة للمضطر ، والتمتع بالطيبات من الحلال على جهـة القصد من غير إسراف ولا إقتار [٣]، وقد هدى القرآن الكريم لهذا المقصد بأقوم الطرق وأعدلها، ومن ذلك قوله ﷻ:﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النساء: ١٠١] ، وقوله ﷻ:﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥] ، وقوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:١٠].

---

(١) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد(٥٠٥ هـ) **المستصفى في علم الأصول** ، تحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ، ١٧٤.

(٢)الغزالي ، المستصفى ، ١٧٤ ، الزركشي ، **البحر المحيط في أصول الفقه** ،١٨٩/٤.

(٣) انظر: الشاطبي ، **الموافقات** ، ٢٩/٤-٣١.

ثالثاً : المقاصد التّحسينيَة:

إنَّ المتدبر للقرآن الكريم يجده يحضُّ على محاسن العادات ومكارم الأخلاق ويأمر بها في كثيرٍ من آياته ؛ كالصدق ، والصبر ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والتواضع، والوفاء بالعهد ، والعدل، والإحسان ، والإعراض عن اللغو ،... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق التي أمر الله ﷻ بها ، ورغَّب فيها ، ومن الآيات الدالة على ذلك [1]، قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[التوبة:١١٩]. وقوله ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[النساء: ٣٦].

وغير ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن الكريم من محاسن العادات ومكارم الأخلاق.

تنويع الأساليب في القرآن الكريم

لقد شملت هدايةُ القرآن الكريم جميعَ المصالح العامة والمقاصد الكليّة التي جاء التشريع الإسلامي بحفظها ورعايتها، وشملت أيضًا النّاس كلّهم في كل الأمكنة ، وفي كل الأزمنة، دون تمييز بين جنسٍ وآخر ، أو عِرقٍ وآخر ، أو لون وآخر، أو بيئة وأخرى.

---

(١) انظر : دراز ، محمد عبد الله ، دستور الأخلاق في القرآن ، مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط١٠ ، ١٩٩٨م،٦٨٩-٧٧٠.

ولمّا كان القرآن العظيم كتاب هداية نزل لِهداية النّاس ـ في كل عصر ومصر ـ للحــقّ ، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وتبصيرهم بســبل الوقاية والنّجاة من الــشرور والآثام ، وكان النّاس متباينين في مداركهم وأفهامهم ، مختلفين باختلاف بيئــاتهم واســتعداداتهم ...[١] كان من الحكمة أن تتنوع أســاليب القرآن الكريم وأن تتعدد طرقه ؛ من أجــل أن تلائــم أحوال النّاس على اختلاف بيئاتهم وقيمهم وعاداتهم، وما طُبعت عليه نفوسهم مــن تبــاينٍ فــي التكوين والاستعداد ، أو في الثقافة والتفكير ، ومن أجل أن يُحقّقَ مقاصدَه المتنوعة ، وأهمهــا ، وعلى قِمّتِها توحيد الله ﷻ والإخلاص في عبادته ﷻ وحده من غير شرك ولا نفاق.

وقد أشار الطاهر بن عاشور[٢] إلى هذا المعنى بقوله: " جاء القرآن الكــريم بأســلوب مــن الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حَائل ، ولا يغادر مــسلكاً إلــى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكهُ إليها تحريضاً أو تحذيراً ، بحيث لا يعدم المتــدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه"[٣].

وقد نبّه ﷻ إلى هذا التنوّع في كتابه الكريم في غير ما آية فيه ، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء: ٤١]

(١) ذكر الراغب الأصفهاني أن سبب تفاوت الناس يرجع إلى أشياء، منها: ١- اختلاف الأمزجة وتفاوت الطينة واختلاف الخلقة. ٢- اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد.٣- اختلاف ما يتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي يتربى به.٤- اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة.٥- اختلاف من يتخصص به ويخالطه .٦- اختلاف جتهاده في تزكية نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه.[**تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** ، دار الغــرب العربــي ـ بيــروت، ط١٩٨٨،١م ، ١١٥-١٢٠].

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور، أحد كبار علماء تونس، مفسر لغوي، نحوي، من دعاة الإصلاح الاجتماعي والديني، ،ولد وتعلم بتونس ، له أبحاث ودراسات ومقالات كثيرة، توفي عام١٣٩٣هـ. [عادل نويهض ، معجم المفسرين،٢/٥٤١ـ٥٤٢].

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر (١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ١٩٨٤م ، ١٥/٤٠.

والصرف: رد الشيء من حالةٍ إلى حالة، أو إبداله بغيره ، والتصريف كالصرف إلا في التكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر، وتصريف الرياح : صَرْفُها من حال إلى حال ، ومنه : تصريف الكلام ، وتصريف الدراهم[1].

ويخرج لفظ التصريف إلى معانٍ عدة، منها: التزيين والزيادة ، والترديد والتكرير، والتبيين، والتنويع.

جاء في معجم مقاييسُ اللّغة: " صَرْفُ الكلام: تزيينهُ والزّيادةُ فيه، سُمّيَ بذلك لأنّه إذا زيّن صرف الأسماعَ إلى استماعه"[2].

وقال الزمخشري[3] عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف/٥٨] : "نردّدها ونكرّرها"[4].

وقال الفخر الرازي[5]: "التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة ، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين ؛ لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر، ليكمل الإيضاح ويقوي البيان"[6].

---

(١) الراغب الأصفهاني ، **المفردات** ، ٢٨٣.

(٢)ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، ٣/٣٤٣.

(٣) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المتكلم المعتزلي المفسر ،يلقب جار الله؛ لأنه جاور بمكة زمانا، من تصانيفه: الكشاف، وأساس البلاغة ،توفي (٥٣٨هـ).[السيوطي، طبقات المفسرين ،١٠٤].

(٤)الزمخشري ، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، **الكشاف** ، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢/ ١٠٧، وانظر: ٢/٦٢٥.

(٥) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القرشي ، الشافعي ، المفسر ، المتكلم وكان من تلامذة الإمام البغوي ، من تصانيفه :التفسير الكبير ، و شرح الأسماء الحسنى ، إعجاز القرآن، توفي عام(٦٠٦هـ).[السيوطي، طبقات المفسرين ،١٠٠].

(٦) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر القرشي، (ت ٦٠٦هـ)، **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٠/ ١٧٣

وقال أبو حيّان[١] عند تفسيره لقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء/٤١]: "نوّعنا من جهة إلى جهة ، ومن مثال إلى مثال"[٢].

وعلى هذا فالتصريف في القرآن يعني التنويع ، والانتقال من حال إلى حال بأساليب متعددة ، وطرق مختلفة ، بمعنى أنّه يتضمن الأحكام التشريعية، والعقائد ، والأخلاق، وغيرها، ويأتي بها بأساليب متنوّعة، من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، ونحوها، ويعرض هذه الأساليب بطرق مختلفة، غاية في الوضوح والبيان ، والروعة والإعجاز، الأمر الذي جعله يشدّ الأسماع إلى السماع ، ويستميل النفوس ويؤثر فيها.

قال الثعلبي[٣] في معنى تصريف القرآن الكريم : لم يجعله نوعًا واحدًا، بل وعدًا، ووعيدًا، ومحكمًا، ومتشابهًا، ونهيًا، وأمرًا ، وأخبارًا ، وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صبا ودَبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي، والمستقبل، والأمر ، والنهي، ونحوها[٤].

وأورد أبو حيان ما قاله الثعلبي، وعقّب قائلاً:" ومفعول ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ على هذا المعنى محذوف، وهي هذه الأشياء ،أي : صرّفنا الأمثال والعبر والحكم والأحكام والأعلام"[٥].

وحذف مفعول ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ ، يعمّ ما ذُكِر ، ويشمل أنواعًا أخرى ، كالمواعظ ، والأحكام ، والحجج والبراهين ، والتي عُرِضَت بأساليب متنوّعة ، وطرق مختلفة.

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي أبو حيان الأندلسي الغرناطي، ولد بغرناطة سنة (٦٥٤هـ)، إمام العربية في عصره، مفسر، محدث، أخذ عنه أكابر عصره ، توفي بالقاهرة عام (٧٤٥هـ) . [الداوودي ، طبقات المفسرين ، ٢/٢٨٧].

(٢)أبو حيان (٧٤٥هـ) **البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد المجود وآخرون ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٦/٣٦.

(٣)هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي ، كان أوحد زمانه في علم القرآن ،عالمًا بارعًا في العربية حافظا ، أخذ عنه الواحدي، من تصانيفه : العرائس في قصص الأنبياء ، توفي (٤٢٧هـ). [السيوطي، طبقات المفسرين ١٧،].

(٤) الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (٤٢٧هـ) **الكشف والبيان**، دار إحياء التراث العربي — بيروت ، ط١،٢٠٠٢م، ٦/١٠١، وانظر :القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٠/١٧٢.

(٥)أبو حيان، **البحر المحيط**،٦/٣٦-٣٧.

ويوضّح الشيخ عبد الرحمن حبنكة معنى التصريف في القرآن فيقول: "هو تنويع أساليب الحجج والبراهين والاقتناعات ، وتنويع أساليب الترغيب والترهيب والتربية، بحسب اختلاف طبائع الناس ، ومستويات قُدُراتِ الفهم لديهم ، وبحسب ما لدى أصنافهم من استعدادات للاستجابة ، وقدرةٍ على مخالفة أهوائهم وشهواتهم، ومخالفة المعتاد المألوف من الباطل أو الشر، أو ما فيه ضَرّ أو أذى.

ويستوفي هذا التصريف كل الاحتمالات التي يُرجى نفعها ولو لبعض الأفراد أو الجماعات، لقطع أعذار المكلفين؛ حتى لا تكون لهم حُجّة عند ربّهم"[1].

قَالَ تَعَالَى:﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام:٤٦] ، وقال ﷻ:﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥] ، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف:٢٧]

وتصريف الآيات: تنويعها، ونقلها من أسلوب إلى أسلوب ، تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، وتارة بالوعد ، وتارة بالوعيد، وأخرى بالتذكير بالنِّعم ، ومرة بالدعوة إلى التفكّر، والاعتبار بما حلّ ببعض الأمم[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه:١١٣]؛ أي: ومثل ما أنزلنا تلك الآيات المشتملة على الوعيد أنزلنا القرآن كلَّه بلغة العرب؛ ليفهموه ويهتدوا به، ونوّعنا فيه الوعيد أنواعًا كثيرة[3] ، تارة بذكر آثار الذنوب ، وتارة بذكر

---

(١)الميداني ،عبد الرحمن حسن حبنكة ، معراج التفكر ودقائق التدبر ، دار القلم ـ بيروت، ط١ ، ٢٠٠٢ م ، ٦٣١/٩ .

(٢) انظر : البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد (٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٦م،٢/ ٤٠٩، أبو السعود، محمد بن العمادي (٩٥١هـ)، إرشاد العقل السليم ،دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٣٤/٣، ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ٧/ ٢٣٥، ٥٤/٢٦- ٥٥.

(٣)انظر : الزمخشري ،محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، الكشاف ، ٩٠/٣ ، أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ٤٤/٦ ، الألوسي، أبو الفضل محمود البغدادي (١٢٧٠هـ)، روح المعاني ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٢م ، ٢٦٦/١٦.

أحوال القيامة وأهوالها، وأخرى بذكر النَّار وما أُعدَّ لأهلها من أنواع العقاب وأصناف العذاب ، إلى غير ذلك من أنواع الوعيد.

وقد بيَّنت الآية الكريمة أنَّ من حِكَم إنزال القرآن الكريم بلسان عربي ، وتصريف الله ﷻ فيه من أنواع الوعيد أن يتَّقيَ النَّاسُ ربَّهم ﷻ فيتركوا الكفر والفسق والمعاصي ، أو يُحدِثَ لهم هذا الكتاب العزيز موعظة وتذكرًا ، يهديهم إلى الحق ، فيعملون من صالح الأعمال ما ينفعهم في العاجل والآجل.

وفي ضوء ما تقدم فقد بان أنَّ أساليب القرآن العظيم متنوّعة، وطرائقه مختلفة، وأنَّها تستوعب جميع النَّاس على اختلاف قيمهم وعاداتهم ، وتباين طبائعهم ، وأفهامهم ، وثقافاتهم ... وتراعي طبيعة النفس البشرية المجبولةَ على محبَة ما فيه نفعها ومصلحتها، وكُره ما يضرها ويؤذيها ، بحيث تقطع الأعذار، ولا يبقى معها لأحد عصى الله ﷻ وخالف أمره حُجَّةٌ عند ربه ﷻ ، وتكون لله ﷻ الحُجَّةُ البَالِغَةُ.

وهذا التنويع والتغاير في الأساليب منهج مقصود ، له حِكَمٌ وأسرارٌ ، وله أهداف يرمي إليها، منها:

- تحقيق الغاية التي خلق الله ﷻ الخلق لها، وهي عبادته ﷻ وحده لا شريك له ، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات/٥٦]

وهذه العبادة ليست محصورة في أركان الإسلام كالصلاة والصوم مثلاً، وإنَّما "تشمل كل ما يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة (١)"، كما قال ﷻ على لسان رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

---

(١)ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ)، رسالة في العبودية، دار البشير، عمَّان، ١٩٩٢، ص٣١.

- التنبيه على دليل من دلائل إعجاز القرآن الكريم ، وأنّه منزّل من عند الله ﷻ، إذ إنّ تنويع الآيات ، وعرضها بأساليب متعددة ، وطرق مختلفة ــ كلّها في البلاغة سواء ــ أشدّ تعجيزًا لمن يحاول معارضته عن أن يأتي بمثله ، ولا ريب أنّ ذلك التنويعَ لا يَرِدُ بتلك الصورة في كلام البشر.

ولعلّ مما تحسن الإشارة إليه هنا أنّ الرماني[١] عدّ التصريف بابًا من أبواب بلاغة القرآن الكريم ، وقسمه إلى قسمين: تصريف اللفظ ، وتصريف المعنى ، ومثّل لهذا بالقصص القرآني التي ذُكرت في أكثر من سورة ، لِحكَم متعددة ، منها: التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، وتمكين العبرة والموعظة[٢].

- ومنها على سبيل الإجمال : تقرير الحجج والدلائل ، والمبالغة في ترسيخ الأحكام والتكاليف، وشرح الصدور ، وتثبيت النفوس وتسليتها ، وتجديد نشاطها ، ودفع السآمة والمَلَل عنها ، وتقريب المعنى إلى الأفهام بما يُعينُ على قبوله والعمل بمضمونه.

قال النيسابوري القمي[٣]: " في هذا الكتاب الكريم يُخلط علم التوحيد وعلم الأحكام ، وعلم القصص بعضها ببعض ، والغرض من ذكر القصص إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف ، وفي هذا النسق أيضاً رحمةٌ شاملة ولطف كامل؛ فإن طبع الإنسان

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، نشأ فقيراً ، واستعان على كسب قوته بالوراقة ، وأخذ اللغة والنحو عن جماعة من شيوخ العلم مثل الزجاج ، وكان متفننا في علوم كثيرة من القرآن ، والفقه، والنحو ، والكلام على مذهب المعتزلة ، من مؤلفاته : النكت في إعجاز القرآن ، وألفات القران .[السيوطي، طبقات المفسرين ،٦٨].

(٢)انظر : الرماني ،أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ))، (النكت في إعجاز القرآن) ضمن "ثلاث رسائل في الإعجاز"، تحقيق : محمد خلف الله محمد زغلول سلام ، ط٢، ١٩٦٨م ، دار المعارف – مصر، ١٠١– ١٠٢.

(٣)هو: الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، نظام الدين، ويقال له الأعرج: مفسر ،أصله من مدينة (قم)، نشأ وسكن في نيسابور، من مصنفاته:أوقاف القرآن ،ولب التأويل.[الزركلي ،الأعلام ،٢١٦/٢،عادل نويهض ، معجم المفسرين، ١٤٥/١].

جُبِلَ على الملال ، فكلما انتقل من أسلوب إلى أسلوب انشرح صدره ، وتجدد نشاطه وتكامل ذوقه ولذته ، ويصير أقرب إلى فهم معناه والعمل بمقتضاه"[1] .

وقال الشوكاني[2] في تفسيره مبيناً سر ذكر قصة نبي الله نوح ﷺ في سورة هود : "لمّا أورد الله ﷻ على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنّن في الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجّة أبين ، والقبول أتمّ ، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود/٢٥]" [3].

وهكذا تتنوّع الآيات وتُعرَض بأساليب متعددة، وطرق مختلفة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق:٣٧] .وقد كان التنويع في الأساليب رحمة من الله ﷻ ، ومنّة يمنّها على النّاس ، وكان في الوقت نفسه دليلاً من دلائل إعجاز القرآن الكريم ، وسرّاً من أسراره ، وخاصية من خصائصه التي تميّز بها عن الكتب السّماوية السّابقة .

---

(١) النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي (٧٨٢هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب علمية ــ بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ١٢/٢.

(٢) هو محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني ، مفسر، فقيه ، محدث، من كبار علماء اليمن ، نشأ وتعلم بصنعاء، من مصنفاته : نيل الأوطار، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، وفتح القدير، توفي عام(١٢٥٠هـ).(عادل نويهض، معجم المفسرين، ٥٩٣/٢).

(٣) الشوكاني، محمد بن علي (١٢٥٠هـ)، فتح القدير ، دار الفكر، بيروت، ٢ /٤٩٣.

الفصل الأول:

معنى الرّدع والألفاظ ذات الصلة

المبحث الأول:

معنى أسلوب الرَّدع لغة واصطلاحًا

المطلب الأول: معنى الأسلوب لغة واصطلاحًا

المطلب الثاني: معنى الرّدع لغة واصطلاحًا

المبحث الثاني:

الألفاظ ذات الصلة

المطلب الأول: الزَّجر.

المطلب الثاني: النّهي.

المطلب الثالث: النكال.

المبحث الأول:

معنى أسلوب الرَّدع لغة واصطلاحًا

المطلب الأول:

معنى الأسلوب لغة واصطلاحًا

المطلب الثاني:

معنى الرّدع لغة واصطلاحًا

المطلب الأول:

معنى الأسلوب لغة واصطلاحاً

أولاً :معنى الأسـلوب في اللغة :

يأتي الأسلوب في اللغة لعدة معانٍ ، فيقال للسَّطْر من النخيل أُسلوبٌ ، وكلُّ طريقٍ ممتدٌّ فهـو أسلوبٌ ، والأسلوبُ الطريق ، والوجه ، والمذهب ؛ يُقال : هم في أسـلوب سـوء ، ويجمـع أساليب ، والأسلوب: الطريقُ تأخذ فيه[١].

وقد سلكت أسلوب فلان في كذا ؛ أي: طريقته، [٢]وَهُوَ عَلَى أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَـالِيبِ الْقَـوْمِ؛ أيْ: عَلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِهِم[٣].

والأسلوب الفَنُّ ؛ يُقال : أخذ فلان في أساليب من القول ؛ أي : أفانين منه[٤].

الأسلوب في الاصطلاح:

عُرِّفَ الأسلوب بتعريفات متعددة ، منها:

" الأسلوب: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيـار ألفاظـه. أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه"[٥].

---

(١) ابن منظور ،محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت،١ / ٤٧١.

(٢) الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد (٥٣٨هـ)، أساس البلاغة ، مكتبة لبنان ناشرون ــ بيروت،ط١،١٩٩٦م،١/١٥٦.

(٣) الفيومي ، أحمد بن علي المقري ،(٧٧٠هـ)، المصباح المنير ، المكتبة العلمية ــ بيروت ،١/٢٨٤.

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (سلب) ، ١ / ٤٧١،الزَّبيدي ،محمد مرتضى ،(١٢٠٥هـ) تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ــ بنغازي، مادة (سلب) ،٣/٧١.

(٥)الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٩٦م ،٢/٣٢٥.

والأسلوب يطلق على كيفية تعبير المرء عن أفكاره ، وعلى نوع الحركة التي يجعلهـا فـي هذه الأفكار .

ويأتي الأسلوب بمعنى : الترتيب والانسجام إذ يُطلق علـى طريقـة المؤلـف فـي تنـسيق أفكاره[1].

وهذه التعريفات وإن اختلفت ألفاظها إلا أنها تدور حول معنى واحد ، وهو: الطريقـة التـي يختارها المتكلم ليعبر بها عن أفكاره أو معتقده.

(١) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني – بيروت،١٩٨٢م،٨٠-٨١.

المطلب الثاني:

معنى الرّدع لغة واصطلاحاً

أولاً: معنى الرّدْع في اللغة:

الرَّدْعُ : ــ بفتح الراء وسكون الدال ــ مصدر ، وفعله الثلاثي (رَدَعَ)، وهو يطلق في اللغة على عدة معانٍ[1]، منها: الكفّ والمنع ؛ يُقال : رَدَعت فلاناً عن كذا ، أرْدَعه رَدْعاً؛ أي: كففتُه ومنعتُه، فأنا له رادع ، وهو مردوع.

وترادع القومُ: رَدَع بعضُهم بعضاً[2].

وارْتَدَع: مطاوع (رَدَعَ) ؛ يقال : رَدعتُ فلاناً فارتدع ؛ أي: كفّ وامتنع ، والمصدر منه: ارتداع.

قال الخليل بن أحمد: " رَدَعتُهُ رَدْعاً فارْتَدَعَ؛ أي : كففتُه فكَفّ.

وارتدع الرّجلُ إذا رآك وأراد أن يعمل عَمَلاً فكفّ، أو سمع كلامَكَ.

وأنا ردعته عن ذلك ، كأنّه شبه الدفع وهو مستقبلك فَرَدَعتُه رَدْعاً لا باليد بل بنظرة"[3].

والرَّادع : اسم فاعل من (رَدَعَ) ، وهو ما يَردعُ عن الشيء ؛ أي : ما يَكفّ عن الشيء، ويَمنع من ارتكابه ، مؤنثه : (رادعة) ، وجمعه : (روادع) ؛ يقال :" رَدَعته روادع الشيب ؛

---

(١) عدّ بعض العلماء لفظ (ردع) من المشترك.[انظر : أبو الحسن علي بن الحسن المشهور بكُراع (٣١٠هـ)، المنجد في اللغة، تحقيق: أحمد مختار، وضاحي عبد الباقي،١٩٧٦م،٢١٣ــ ٢١٤ ، والمنجد ، عبد الحليم محمد ،معجم الألفاظ المشتركة في اللغة، مكتبة لبنان ــ بيروت ، ١٩٨٧م، ٥٥.]

(٢)ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ردع) ، ٨ / ١٢١، الفيومي ، المصباح المنير ،١/ ٢٢٤

(٣) الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ) كتاب العين ، تحقيق: مهدي المخزومي ،وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال، ٢/ ٣٦ .

أي: مَنَعَته عن الجهل"[١]، ويقال: الحدود رادعة ؛ أي: تكف الفاعل عن العودة إلى فعله، وتمنع غيره من الوقوع فيها.

ويطلق الرَّدع على اللطخ ، والدقّ ؛ فيُقال: رَدَعَه بالشيء : لَطَخَه به ، فارتَدَعَ ؛ أي: تلَطَّخ، وبه رَدْعٌ من زَعْفَرانٍ ؛ أي: لَطْخٌ منه وأثر ، ويُقال : رَدَعَ الشيءَ ؛ أي: دقَّه بالحجر.

و(رَدَعَ) السهمَ رَدْعًا : ضَرَبَ بنَصلِه الأرضَ ليَثبُتَ في الرُّعظ [٢].

و(رُدِعَ) ـ مبنياً للمجهول ـ فلانٌ : تغَيَّرَ لَونُه إلى صفرة ، وأصابه وجع في جسده كلِّه، فهو مردوع ، والمردوع : المنكوس ؛ يقال : رُدِعَ الرجل إذا نُكِسَ في مرضه، وجمعه : (رُدُوع) ، والمصدر : (رُداع) ـ بضم أوله ـ، وهو النُّكْس، أو وجع الجسد أجمع[٣].

وفذلكة القول في معاني الرّدع لغة:

- أنَّ (الرَّدْعُ) مأخوذ من الفعل (رَدَعَ)، وهو يفيد أكثر من معنى، منها: الكفُّ والمنع، واللطخ ، والدقّ. والذي يتصل بموضوع هذه الدراسة من هذه المعاني اللغوية هو الكفُّ والمنع.
- أنَّ الفعل (رَدَعَ) يتعدى بنفسه وبحرفين ـ (عن) أو(الباء) ـ ؛أمّا المتعدي بـ(عن) فيدل على ما يُجاوَزُ ويُمنَعُ عنه ،أو على المردوع عنه ؛ ويكون شَرّاً ، وقد يكون خيراً ،وقد يكون حركةً ، وأمّا المتعدي بـ (الباء) فيدل على ما يُستعان به للرَّدع ، أو على المردوع فيه .

(١) ابن دريد الأزدي،أبو بكر محمد بن الحسن ،(٣٢١هـ) جمهرة اللغة ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١، ٢٠٠٥م، ٧٤٦/١.

(٢) الزَّبيدي ، تاج العروس ، ٣٥٢/٥. والرُّعْظُ : مَدْخَلُ النَّصلِ في السهم .[ابن منظور، لسان العرب، مادة(رعظ)٤٤٤/٧].

(٣) الأزهري، محمد بن أحمد، (٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة ،تحقيق :محمد النجار، الدار المصرية للتأليف،٢٠٤/٢، الجوهري ، إسماعيل بن حمّاد، (٣٩٣هـ) ، الصحاح ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٩٩م،٤٨٥/٣ـ٤٨٦ ، الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب، (٨١٧هـ) ، القاموس المحيط، د.ط، د.ت، ٩٣١.

- أنَّ الرَّدع يكون بالقوّة ، وبالكلام ، وقد يكون بنظرة ، فهو يتنوع بتنوع أحوال المخاطبين، ويُناسب ما طُبعت عليه نفوسُهم من تباينٍ في التكوين والاستعداد.
- أنَّ الرَّدع يكون من فردٍ ، ويكون من جماعة.

ثانياً: معنى الرّدع في الاصطلاح:

للرَّدع في الاصطلاح عدَّة تعاريف ، أذكر منها الآتي:

أولاً: الرَّدع : هو الكفُّ والمنع عن فعل أمر ما[١].

وهذا التعريف المختصر يرجع إلى معنى الرَّدع في اللغة ، وهو تعريف عام ؛ فهو يشمل الرَّدع عن كلِّ فعل مرتعه وخيم ونهايته أليمة ؛ كالإشراك بالله ﷻ ، وجحود وحدانيته ، وارتكاب المحرمات ، وسائر الفواحش والمنكرات التي تمنع عن الفوز بالخيرات ....، وهذا هو الرَّدع المحمود ، ويشمل الرّدع عن فعل الخيرات والطاعات التي تُرفع بها الدرجات ، في جنة عرضها الأرض والسماوات ؛ كما فعل صناديد قريش الذين حاولوا ردْع المسلمين عن كلِّ خير ، وهذا هو الرَّدع المذموم ، والمُعبّر عنه في القرآن الكريم بـ(الصدّ) ؛ والصدُّ في اللغة : صرف الغير عن الشيء ومنعه عنه، يُقال : صدّه عن الأمر يَصُدُّه صَدّاً : منعه وصرفه[٢].

قال الإمام الطبري[٣]عند تفسيره لقوله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة: ٢١٧] : "ومعنى (الصد) عن الشيء : المنع منه ، والدفع عنه ، ومنه قيل: صدّ فلان بوجهه عن فلان ، إذا أعرض عنه فمنعه من النظر إليه"[١].

---

(١) جليدي ، محمد سعيد اسبر بلال ، الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، ط١، دار العودة – بيروت ، ٥٠٥.

(٢) انظر: الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٢٧٩ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة(صرف)،٢٤٥/٢.

(٣)هو: الإمام أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، رأس المفسرين ، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب الله ، بصيرا بالمعاني ، فقيهًا في أحكام القرآن ، عالمًا بالسنن وطرقها ، عالمًا بأحوال

وقد جاء لفظ الصدّ بهذا المعنى في غير ما آية من آيات الذكر الحكيم ، منها قوله ﷻ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۝٣﴾ [إبراهيم:٢ – ٣].

وقوله ﷻ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾[هود: ١٨-١٩] ، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۝٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦].

وعلى هذا فالرّدع بهذا المعنى أعم وأشمل من الرّدع قيد الدراسة ؛ لأنه يَنقسم إلى قسمين: أحدهما : محمود ، والآخر: مذموم ، ومما لا شك فيه أنّ الرّدع القرآني كُلّه محمود ؛ لأنه لا يكفُّ ولا يمنع إلا عن شرٍّ.

ثانياً: الرّدع : هو"توقيع عقابٍ على مرتكب الجريمة لمنع الآخرين من ارتكابها"[٢].

وتعريف الرّدع على هذا النحو ليس على ما ينبغي ؛ لأن الرّدع أوسع دائرةً مما جاء في هذا التعريف ، إلا أن يكون المقصود منه تعريف الرّدع المقيّد بالعقوبة ــ أعني بيان معنى الرّدع بالعقوبة ــ ، أو أن يكون المراد منه بيان معنى الرّدع في اصطلاح الفقهاء أو رجال القانون أو غيرهم ، ومع هذا فإنّ الرّدع بهذا المعنى أخص من المراد منه في هذه الدراسة .

ثالثاً: الرّدع : هو"توفر القدرة التي تُتيح إرغام الخصم على التراجع عن تصرفٍ مُعين، أو إحباط الأهداف التي يتوخاها من ورائه"[٣].

-الصحابة والتابعين ، بصيرًا بأيام الناس وأخبارهم ، من تصانيفه: تفسير القرآن ، وهو أجل التفاسير، و تهذيب الآثار ، توفي عام(٣١٠هـ). [السيوطي، طبقات المفسرين، ٨٢].

(١) الإمام الطبري ،جامع البيان ، ٤/٣٠٠.

(٢) داوود ، محمد محمد ،معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المُعاصرة ،دار غريب للطباعة والنشر ــ القاهرة،٢٠٠٣م، ٩٩.

(٣) مقلد ، إسماعيل صبري ، الاستراتيجية والسياسة الدولية (المفاهيم والحقائق الأساسية)، مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ، ط١، ١٩٧٩م، ١٥٦.

رابعاً:الرّدع : "هو منع دولة معادية من استخدام أسلحتها، أو منعها من العمل أو الرّد إزاء موقف مُعين، وذلك باتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات التي تُشكل تهديداً كافياً يُحقق الرّدع" (١).

وهذا التعريف والذي قبله وإن اختلفت ألفاظهما إلا أنهما يلتقيان على معنى واحد ، وهو: توفر القوّة التي تكفّ العدو وتمنعه من تحقيق أهدافه وأطماعه.

وهذا هو المعنى المتبادر إلى الذهن عند إطلاقه في هذا العصر، بل هو المراد من الرّدع في الاصطلاح المعاصر .

وصيغ هذه التعريفات لا تتناسب والمراد بالرّدع في هذه الدراسة ؛ ذلكم لأنّ القرآن الكريم كان دستور حياة الأمة في كلّ شأن من شؤونها سواءً في السلم أم في الحرب ، ولم يكن هناك حاجة لإفراد هذا الأسلوب ضمن مفاهيم ومصطلحات العلوم الإسلامية ؛ لأنّه جزءٌ لا يتجزأ من هداية القرآن الكريم الذي جعل المسلمين يتخلقون بأخلاق القرآن الكريم اقتداءً بالرسول ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

معنى أسلوب الرّدع في القرآن الكريم

وبعد عرض معاني الرّدع في اللغة والاصطلاح ارتأيت الاجتهاد بتعريف (**أسلوب الرّدع في القرآن الكريم**) ، فقلت هو : الطريقة الخاصة التي سلكها القرآن الكريم لكفّ المخالفين عن مخالفة أوامر الله ﷻ ومنعهم من ارتكابها ؛ لتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.

---

(١) محفوظ ،محمد جمال الدين ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،٨٣.

المبحث الثاني:
الألفاظ ذات الصلة بمعنى الرَّدع

المطلب الأول:
الزَّجر
المطلب الثاني:
النّهي
المطلب الثالث:
النكال

المطلب الأول:

الزَّجر

لم ترد كلمة (ردع) في القرآن الكريم ، وإنما وردت ألفاظ قريبة في معناها من معنى الرّدع، ومن ذلك لفظ (الزَّجْر) [١].

و(الزَّجْر) مصدر (زَجَرَ) ، وهو يدل في الأصل على الانتهار[٢]، ويكون لحثّ أو منع ونهي ، يقال : زَجَرَه يَزْجُره زَجرًا : مَنَعَه ونَهاهُ وانتَهَره . ويقال : زَجَرَه عن السُّوء فانزَجَر.

وزَجَرَ البَعيرَ حتَّى مَضَى : ساقَه وحثَّه على السُّرْعَة بلفْظ يَكُون زَجْراً له.

وزَجَرَ الراعي الغَنَمَ أو الإبل : صاح عليها ، ومنعها من شيءٍ مُعيّن .

وزَجَرَ السَّبُعَ وزَجَرَ بِهِ : نَهْنَهَهُ ــ أي: منعه وكفَّه ــ ، وزَجَرَ الطَّيْرَ: تَفاءَلَ به فتَطَيَّرَ فنَهَرَه ونَهَاه . ويقال: زَجَرَهُ ، وازْدَجَرَه فانزَجَرَ وازْدَجَرَ .

وأصل (ازْدَجَرَ)(ازتَجَر) قلبت التاءُ دَالاً لقُرْب مخرَجَيْهِما، واختيرت الدّال لأنها ألْيَقُ بالزّاي من التاء ، والمصدر منه : ازدجار.

ويُستعمل (ازْدَجَرَ) لازمًا ومتعديًا ؛ لازمًا إذا كان للمطاوعة ، ومتعديًا إذا كان غير ذلك ، ومنه ما جاء في قوله ﷻ عن قوم نوح ــ عليه السلام ــ :﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ [القمر/٩] حيث جاء (ازْدجر) فعلاً متعديًا ، وبُني للمجهول لتطهير الألسنة عن ذكر الفاعل ، والدلالة على حقارته ؛ لأنّه بالغ في زجر نبي الله نوح ــ عليه السلام ــ وإيذائه.

---

(١) ذُكرت مادة (زَجَرَ) في القرآن الكريم ست مرات.

(٢) انظر :ابن دريد الأزدي ،أبو بكر محمد بن الحسن،(٣٢١هــ) ، جمهرة اللغة، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١، ٢٠٠٥م، ٣١٥/١،ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هــ)، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، ٣/ ٥٠٢ .

وتزاجرَ القومُ عَنْ الْمُنْكَرِ ونحوه تزاجُرًا : زَجَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والمَزَاجِرُ : الأسبابُ التي من شأنِها أن تَزْجُرَ كقَوْلك : نَهَتْه النَّواهِي . وكَفَى بالقُرْآنِ زَاجِراً [١].

و(الزَّجْر) عند الراغب الأصفهاني[٢]: طرد بصوت ، وقد يستعمل في الطرد تارة ، وفي الصوت أخرى[٣].

و (الزَّجرة): اسم مرة من (زجَر) ،قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الصافات/١٩، النازعات/١٤] ؛ أي : صيحة واحدة ، وهي نفخة البعث ، وسُمِّيتْ زَجْرَة ؛ "لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ، وتحثّهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة"[٤].

و(الزّاجرات) : جمع زاجرة ، ومنه قوله: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الصافات/٢] ؛ أي: الملائكة التي تزجر السحاب وتسوقه.

مما سبق يتبيّن أن الزّجر يدل في الأصل على الانتهار،[٥]ويكون بقصد المنع والنَّهي، وبقصد الحثّ.

فالزّجر بقصد المنع والنّهي يكون غالبًا بصوت مصحوب بحدة وغضب ، وقد يؤدي إلى طرد المزجور وإبعاده عن مكانه ؛ عقوبة له ، أو استخفافًا به ، أو لأي أمر آخر، ولا يخلو ــ في الأعم الأغلب ــ من صياح بالمزجور مصحوب بالغضب.

وأمّا الزّجر بقصد الحثّ فلا يخلو أيضًا من كلام أو صوت من الزّاجر ، ومنه قولهم: زجَرَ البعير أو الغنم : حثّها على السرعة .

---

(١)انظر في معنى (الزجر): الأزهري، **تهذيب اللغة** ،١٠/٦٠٢، ابن منظور ، **لسان العرب** ،(مادة زجر)، ٤٠/٣١٨، الزَّبيدي ، **تاج العروس** ،(مادة زجر)، ٣/٢٣٤ .

(٢) هو: الإمام الحسين محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى عام (٥٠٢هـ)، من تصانيفه: تحقيق البيان في تأويل القرآن ،الذريعة في أحكام الشريعة ،[الزركلي ،الأعلام ،٢/٢٥٥].

(٣)الراغب الأصفهاني ،الحسين بن محمد ، **المفردات في غريب القرآن** ، دار المعرفة ــ بيروت ، ط٢، د.ت، ٢١٧ .

(٤)الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦هـ) **مفاتيح الغيب** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٦ /١١٣.

(٥)الانتهار من النَّهْر،يقال: نَهَرْتهُ وانتَهَرْتهُ: إذا استقبلتَه بكلام تزجُرُه عن خَبَر. [ابن منظور ،لسان العرب، ٥/٢٣٦.]

ويتبيَّن أيضاً أنّ الزَّجر لا يقتصر على الإنسان ، بل يشمل الطير والإبل والسباع وغيرها .

وقد وجدت من خلال البحث أنّ لفظ (الزَّجْر) يأتي — في استعمال العلماء — مقترناً في كثيرٍ من المواضع بلفظ (الرَّدْع)، وقد يُوضَع أحدُهُما مكان الآخر.

ولفظ (الزَّجْر) وإن جاء مقترناً بلفظ (الرَّدْع) ، أو وُضِعَ أحدُهُما مكان الآخر، فإن لكل منهما معنى خاصّاً يميزه عن الآخر، فالرَّدع وإن كان يُفيد معنى الكفّ والمنع إلا إنّه مقتصر على الإنسان ، ولا يُستَعمل بقصد الحثّ ، والزَّجر ليس كذلك.

المطلب الثاني:

النَهي.

النَهْيُ لغة : مصدر (نهى) ؛ يقال: نَهَاهُ عن كذا يَنْهاه نَهْيًا ، وضدهٌ :أَمَرَه به.

و(تَناهَى): تفاعل من النهي ؛ يُقال: تَناهَوْا عن المنكر إذا نهى بعضهم بعضاً[1]، وقد ذمَّ اللّه ﷻ الفِئة الملْعُونَةَ من بني إسرائيل على تركهم التناهي عن منكرٍ فعلوه ، فقال ﷻ:﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة/٧٩].

والنهي : "الزجر عن الشيء، وقيل : هو طلب ترك المنهي عنه ، وقيل: طلب كفّ ، وهي متقاربة"[2].

والنَّهْيُ عن الشيء ــ كما يقول الراغب الأصفهاني ــ "من حيثُ المَعْنَى لا فرق بين أن يكون بالقول أو بغيره ، وما كان بالقول لا فَرْق بين أن يكون بلَفْظة افْعَلْ نحو (اجْتَنِبْ كذا) ، أو بلفظة لا تَفْعَلْ . ومن حيث اللفظُ هو قولهم : لا تَفْعَلْ كذا ، فإذا قيل: لا تَفْعَلْ كذا فَنَهْيٌ من حيثُ اللفظُ والمعنى جميعًا، نحو قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة/٣٥] . ..وقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل/٩٠] ؛ أي: يحثُ على فعل الخير ويَزْجُر عن فعل الشرّ"[3].

والمقصود بقوله: (بلَفْظة افْعَلْ) : صيغة افعل ، ولفظة(لا تَفْعَلْ) صيغة لا تفعل.

---

(١)الجوهري ، الصحاح ، ٥٤٥/٦ ،ابن منظور ، لسان العرب، مادة (نهى) ، ١٥ /٣٤٣.

(٢)السمين الحلبي ،أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (٧٥٦هــ) ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ٢٢٦/٤.

(٣)الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ،٥٠٩.

و(انتهى) : مطاوع (نهى) ، ومصدره: (انتِهاء) ، وَهو الكفّ عمَّا نُهِي عنه ؛ يقـال: نَهـاه عـن الشيء نَهْيًا فانتَهى وتناهى إذا كفّ عنه ، ومنه قوله تعـالى :﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [البقرة/١٩٢] ، وقوله ﷻ:﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة/٢٧٥] ، وقوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال/٣٨] ، وقوله ﷻ :﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة/٩١].

و(النُهْيَةُ) : ــ بالضم ــ واحدة النُهَى ، وهي العُقول ، سميت بذلك لأنها تَنْهى عن القبـائح ، قـال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه/٥٤] .

والنِّهاية والنُهيَةُ ــ بالضم ــ : غاية كل شيء وآخره، وذلك لأن آخره يَنْهاه عن التمادي فيرتدع .

وانتَهَى الشيءُ وتَناهَى : بلغ نِهايَتَه. (١)

والإِنْهاءُ في الأصل: "إِبلاغُ النَّهى، ثم صار مُتعارفاً في كلّ إِبْلاغ. قالوا: أَنْهَيْتُ إِلى فلان خَبَر كـذا، أي : بَلَّغت إليه النهاية".(٢)

وأمّا في الاصطلاح : فهو" القول الإنشائي الدال على طلب كفّ عن فِعْلٍ على جِهَةِ الاستعلاء "(٣).

وهذا يعني أنّ الذي يطلب الكفّ عن فِعْلٍ يكون أعلى من الموجه إليه النّهي ، ومن عـرّف النّهـي بهذا اعتبر أنَّ الالتماس والدعاءُ ليس من جنس النّهي ؛ لأنّه لا استعلاء فيهما ؛ إذ الالتماس يكون بين الأقران ، والدعاء يكون من الأدنى إلى الأعلى.

وفي (التعريفات) : هو "قول القائل لمن دونه: لا تفعل ".(١)

---

(١)ابن منظور ، لسان العرب ،مادة (نهى) ،١٥/٣٤٣، الزَبيدي ، تاج العروس، مادة (نهى)،١٠/٨١.

(٢)الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ،٥٠٥ ، السمين الحلبي ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ٤/٢٢٦.

(٣)الشوكاني ، محمد بن علي ،(١٢٥٠هـ) إرشاد الفحول إلى علم الأصول ، دار الفكر ــ بيروت، ط١،١٩٩٢م، ١٩٢ ، عبد القادر بن بدران الدمشقي(١٣٤٦هـ)،المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركـي ، مؤسسة الرسـالة ــ بيروت ، ط٢،١٩٨١م، ٢٣٢.

والفرق بين التعريفين :

أنّ الأول لا يحصر النّهي بصيغة محددة ، وأما الثاني فيحصر النّهي بصيغة واحدة ، وهي صيغة (لا تفعل) ـ المضارع المجزوم بـ (لا) الناهية ـ .

والنّهي لا ينحصر بصيغة واحدة ، بل يكون بصيغ متعددة ، فكما يكون النهي بـ (لا تَفْعَل)[٢]، كقوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء/٣٢] ، يكون بصيغ أخرى ، منها :

الإخبار بلفظ التحريم ، أو نفي الحِل ، وبلفظ النّهي ، والوعيد على الفعل ، ولعن فاعله، ووصف الفعل بأنّه رجس ، أو أنّه من تزيين الشيطان وعمله ، وأنّه تعالى نفى محبته إيّاه أو محبة فاعله ، وأنّه تعالى لا يَرْضَاهُ ولا يرضى عن فاعله ، ولا يُكلّمه ، ولا يُصلِح عمله ، ولا ينظر إليه يوم القيامة، ونحو ذلك [٣].

يتضح مما تقدم أنّ النّهي في الاصطلاح يرجع إلى الأصل اللغوي للكلمة ، وهو طلب ترك المنهيّ عنه ، وأنّ النّهي وإنْ تعددت صيَغهُ إلا أنهُ يدور حول طلب ترك الشيء والكفّ عنه، وأنّك إذا نهيتَ فُلانًا عن فعلٍ ما فانتهى فتلك غاية ما طلبتَ وآخرُه .

---

(١)الجرجاني، علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ) **التعريفات** ، تحقيق:إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ٣١٦.

(٢)ذكر بعض الأجلة العلماء أنّ صيغة النهي (لا تَفْعَلْ) تَرِدُ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، منها: التَّحْرِيم ، والْكَرَاهَةُ، والأدَبُ ،والتَّحْقِيرُ لِشَأْنِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ، والتَّحْذِيرُ ، و بَيَانُ الْعَاقِبَةِ ، و الْيَأْسُ ، والإِرْشَادُ إِلَى الأَحْوَطِ بِالتَّرْكِ ، والدُّعَاءُ ، والالْتِمَاسُ ، وهي حقيقة في طلب الترك ، وفي المعاني الباقية مجاز .[انظر: أبو حامد الغزالي ، محمد بن محمد (٥٠٥هـ) **المستصفى في علم الأصول** ، ٢٠٤، الآمدي، علي بن محمد (ت ٦٣١هـ)، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ٢/٢٠٨ ، الزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، ٢/ ١٥٣].

(٣)انظر:المصري، جمال الدين عبد الناصر ، **النهيُ في القرآن الكريم** ، دار القلم العربي ، سوريا، ط١، ٢٠٠٠م، ١٧ـ٢٠.

المطلب الثالث:

النكال

النَّكال ـ بفتح النون ـ: من الفعل الثلاثي (نَكَلَ) ، وهو في أصل الوضع يُفيد معنى المَنع والامتناع [١] ؛ يُقال : نَكَلَ عن الأمْر يَنْكُل نُكولاً إذا امتَنع ، ومنه: النُّكول في اليمين ؛ وهو الامتناع منها ، وترْك الإقْدام عليها [٢].

و(النِّكْل) ـ بالكسر ـ : القَيْد الشديد، من أي شيء كان ، سُمِّي بذلك لأنَّه يجعل صاحبَه ممْنوعاً من الحركة ، ويُقال للجام نِكْل ؛ لأنَّ الدابة تُمنَعُ به [٣].

و(الأنْكال) : جمع (نِكْل)، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [المزمل/١٢] ؛ أي: قيوداً، وقيل : أنواع العذاب الشديد ، واختار الأول غير واحد من المفسرين[٤].

و(نَكَّل) به: فعل به ما يعتبر به غيره ، فيمتنع عن ارتكاب مثل فعله ؛ يقال : نكَّلَ بفلان إذا عاقبه في جُرْم أجرمه عُقوبة تمنعُ مَنْ رآه أو بلَغَه ما عوقِبَ به من إتيان مثل فعله[٥]، والمصدر: (تَنْكيل) ، ومنه قوله ﷺ :﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾[النساء/٨٤].

و(النَّكالُ) :المنع ؛ وهو ـ كما يقول الخليل[١]ـ "اسم لما جعلته نَكالاً لغيره، إذا بلغه أو رآه خاف أن يعمل عمله"[٢]، ويفهم من هذا أنَّ النَّكال اسم للفعل أو العقاب الذي يجعل المُنَكَّل به

---

(١) انظر : ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، ٥/ ٤٧٣ .

(٢)ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ،(٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، المكتبة العلمية – بيروت ، ١٩٧٩م ، ٥ / ٢٤٥

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب ، مادة (نكل)، ١١ / ٦٧٧ .

(٤) انظر مثلاً: الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢٣ / ٦٩٠، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م ٨/ ٣٩٣، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٨٣/٤، الألوسي، أبو الفضل محمود البغدادي (١٢٧٠هـ)، روح المعاني دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٢، ١٠٧/٢٩.

(٥) انظر: ابن منظور، لسان العرب ، مادة (نكل)، ١١ / ٦٧٧، الزَّبيدي ، تاج العروس ، مادة (نكل)، ٣/ ١٤٥.

عِبرَةً لغيره ، وسُمّي نكالاً ؛ لأنه يَمنَعُ المُعَاقَبَ أن يعودَ إلى فِعْلِه مرة أخرى، ويمنَعُ غيرَه عن ارتكاب مثل فعله الّذي عوقب عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة/٦٥- ٦٦] ؛ أي: فجعلنا العقوبة ـ وهي المسخة ـ عبرة لمن في زمانهم ومن يأتي بعدهم ، ومنعاً لهم أن يرتكبوا من معاصيه مثل الذي ارتكبوا[٣]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة/٣٨] .

فإقامة حدّ السَّرقة يَمنَعُ السَّارق من أن يعودَ إلى السَّرقة مرة أخرى ، وفيه من العبرة ما يردع مَن تُسوّل له نفسه بجريمة السرقة عن ارتكابها.

فالنَّكال سواء أكان على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة ـ إن لم يكن فيه هلاك المُنكَّل به ـ يردع المُنكَّل به عن العودة إلى ارتكاب الجريمة مرة أخرى ، وفيه من العبرة ما يردع النَّاس عن اقتراف مثل فعله ، ومن هنا تظهر العلاقة بين النّكال والرّدع.

ففي النَّكال تنبيه للنَّاس على أنهم إن ارتكبوا مثل تلك المعصية فقد يلحقهم من العقاب المؤلم مثلما أصاب المنكَّل به.

ومما سبق يتضح أن النّكال مأخوذ من (نَكَلَ) ، وهذه المادة ومشتقاتها تدور حول المنع والامتناع ، ولا يتحقق إلا بإيقاع العقوبة .

---

(١) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه ، ولد ومات في البصرة ، من تصانيفه:معاني الحروف ، وكتاب العروض، و النقط والشكل ، توفي عام(١٧٠هـ) [الزركلي، الأعلام ،٢/٣٠٤].

(٢) الفراهيدي، كتاب العين ، ١ / ٤٤٣.

(٣)انظر: الطبري، جامع البيان ، ٢/١٧٧ ـ١٨٠، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،١/١٠٢ ـ١٠٣.

الفصل الثاني:
طرق الرّدع في القرآن الكريم وخصائصه

المبحث الأول:
الرّدع بـ(كلا) و(ما كان)
المطلب الأول : الرّدع بـ(كلا)
المطلب الثاني: الرّدع بـ (ما كان)

المبحث الثاني:
الرّدع بضرب الأمثال
المطلب الأول: معنى المثل وضربه وتصريفه.
المطلب الثاني: استعمال الأمثال في الرّدع

المبحث الثالث:
الرّدع ببيان ما حلَّ بالأمم السابقة
المطلب الأول : تنوع ما حلَّ بالأمم السابقة بتنوع أسبابه
المطلب الثاني: بيان ما حلّ بالأمم السابقة للرّدع عن أسبابه.

المبحث الرابع:
خصائص أسلوب الرّدع في القرآن ومزاياه

المبحث الأول:
الرّدع بــ(كلا) و(ما كان)

المطلب الأول :
الرّدع بــ(كلا)

المطلب الثاني:
الرّدع بــ (ما كان)

المطلب الأول:

الردع بـ (كلا)

الردع بـ (كلاَّ) طريق من الطرق التي سلكها القرآن الكريم في ردع الإنسان عن مخالفة أمر الله ﷻ:

وقد وردت لفظة (كلاَّ) في ثلاثة وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم، تضمها خمس عشرة سورة مكية تقع جميعها في النصف الثاني من القرآن الكريم[١].

وقد حظي حرف (كلاَّ) بنصيب من الاهتمام، وكان موضع عناية كثير من العلماء ـ كأصحاب مؤلفات الوقف والابتداء، وأصحاب كتب التفسير وعلوم القرآن، واللغوين، والنحاة ـ فتناولوه بالبحث والدراسة ، واختلفوا في معانيه، وفيما يأتي أشهر ما وصلنا من أقوالهم في معاني (كلاَّ) :

ذكر ابن منظور[٢] أنَّ الخليل قال: قال مقاتل بن سليمان[٣]: "ما كان في القرآن (كلاَّ) فهو ردّ إلا موضعين".

ولم يذكر ابن منظور الموضعين اللذين استثناهما مقاتل، ولكنّه ذكر أنَّ الخليل اعترض على هذا الاستثناء، بقوله: "أنا أقول: كله ردّ"، وأكد ذلك بقوله: "كلُّ شيء في القرآن (كلاَّ) ردّ؛ يرد شيئاً ويثبت آخر"[٤].

---

(١) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٩٨٧م، ٦١٩ـ٦٢٠.

(٢)هو: أبو الفضل، محمد بن مكرّم بن علي الأنصاري الإفريقي، كان صدرًا رئيسا في الأدب ، وعارفًا بالنحو ، واللغة ، والتاريخ ، واختصر كثيرًا من الكتب المطولة كالأغاني ، والعقد والذخيرة ، توفي عام (٧١١هـ).[الزركلي، الأعلام، ٧ /١٠٨].

(٣)هو: أبو الحسن، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني ، البلخي، من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها، توفي عام (١٥٠ هـ) [النويهض، معجم المفسرين،٢/٦٨٢-٦٨٣].

(٤) ابن منظور ، لسان العرب، ١٥/٢٢٧.

والمراد بالّرد النفي والإثبات ، وهذا ما وضّحه الكسائي[١] وزاده بياناً ؛ إذ نُقل عنه أنّه فسّر (كلاًّ) بقوله : "(لاَ) تنفي حَسْبُ ، و(كلاًّ) تنفي شيئاً وتوجب غيره، من ذلك قولك لرجل قال لك: أكلت شيئاً؟ فقلت أنت: لاَ، ويقول الآخر: أكلت تمراً؟ فتقول أنت: كلاًّ، أردت أنك أكلت عسلاً لا تمراً"[٢].

ونسب أبو جعفر النحاس[٣] إلى أهل العربية تقسيمهم لـ(كلاًّ) إلى "قسمين:

أحدهما: أن تكون ردعًا وتنبيهاً ورداً لكلام ...

والثاني: أن تكون ردعًا وتنبيهاً ولا تكون ردًا لكلام ، نحو قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ [العلق/٦] "[٤].

وذكر مكي بن أبي طالب[٥] في رسالة أفردها لشرح (كلاًّ وبلى ونعم) أنّ (كلاًّ) عند أحمد بن يحيى[٦] ـ ثعلب ـ ردّ وردع لِمَا قبلها في كلّ موضع ، بينما اختار هو لـ(كلاًّ) ثلاثة معانٍ ، أولها : معنى (لا) ، ثم شرح هذا المعنى فقال : ومعناها : "الردّ والإنكار لما تقدم من الكلام.

---

(١) هو: علي بن حمزة أبو الحسن الأسدي المعروف بالكسائي النحوي ، كان إمام الكوفيين في اللغة والنحو، وسابع القراء السبعة، توطن في بغداد ، من مصنفاته :معاني القرآن العظيم ، القراآت ، توفي عام(١٨٩هـ).[الزركلي، الأعلام ،٢٨٣/٤، الأدرنـوي ، طبقات المفسرين،٢١].

(٢) الأزهري ، تهذيب اللغة، ١٠ / ٣٦٣.

(٣)هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب، مولده ووفاته بمصر، كان من نظـراء نفطويه وابن الانباري، زار العراق واجتمع بعلمائه، من مصنفاته:إعراب القرآن ، ناسخ القرآن ومنسوخه ، توفي عام(٣٣٨ هـ) . [الزركلي، الأعلام، ١ / ٢٠٨].

(٤)أبو جعفر النّحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل (٣٣٨هـ)، معاني القران، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القـرى ـ مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ٣٥٩/٤.

(٥)هو: أبو محمد ، مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، مقرئ، عالم بالتفسير والعربية ،مـن أهـل القيروان، ولد فيها، ثم سكن قرطبة وخطب وأقرأ بجامعها وتوفي فيها عام(٤٣٧هـ)، من تصانيفه:مشكل إعراب القرآن ،الكـشف عن وجوه القراءات وعللها. الزركلي، لأعلام ،٧ / ٢٨٦].

(٦)هو : أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني المعروف بـ(ثعلب) ، إمام الكوفيين واللغة والنحو والحديث ، ولـد سـنة مـائتين ، وتوفي عام(٢٩١هـ)[الزركلي، الأعلام،٩٩/٢]

وقيل: إنّها إذا كانت بمعنى (لا) فإنما تدخل على جملة محذوفة فيها نفي لما قبلها، والتقدير: ليس الأمر كذلك .... ولا تستعمل عند حُذّاق النحويين بهذا المعنى إلا في الوقف عليها فتكون زجراً ورداً وإنكاراً لما قبلها هذا مذهب الخليل وسيبويه[1]والمبرّد[2]والزجّاج[3] وغيرهم ؛ لأنّ فيها معنى التهدد والوعيد ، ولذلك لم تقع في القرآن إلا في سورة مكية ،لأنّ التهدد والوعيد أكثر ما نزل بمكة ، لأنّ أكثر عتُوّ المشركين وتجبرهم كان بها "[4].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ ابن الأثير[5] فرّق بين (كلاّ) و(لا) في المعنى فقال : "إنها آكَدُ في النَّفْي والرَّدْع من (لا) لزيادة الكاف" [6]؛ لأن من القواعد العربية أن الزيادة في المبنى تدلُّ على الزيادةِ في المعنى[7]، وبناء (كلاّ) أكثر من بناء (لا) فبالإضافة إلى زيادة الكاف هناك زيادة أخرى وهي تشديد اللام ، فالنفي بـ(كلاّ) متأكد بخلاف النفي بـ(لا) فقط ، فإنّ النفي فيها ليس في قوّة النفي بـ(كلاّ) التي زيد في بنائها الكاف وتشديد اللام ، ولعلّ هذا يفسر سِر اختيارها للرّدع والرّد دون غيرها في السور المكية، ولذلك جاءت للرَّدع عن أشياء باطلة متغلغلة في النفوس فاختيرت دون غيرها لما فيها من قوة لنزع تلك الأشياء نزعاً كاملاً من النفوس ، وليس لمجرد نزول أكثر التهديد والوعيد في ذلك العهد.

---

(١)هو: أبو بشر ،عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو،ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه،وصنف كتابه المسمى(كتاب سيبويه) لم يصنع قبله ولا بعده مثله، قبل توفي عام(١٨٠هـ)[الزركلي، الأعلام،٥/٨١].

(٢)هو: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الازدي، المعروف بالمبرد ،إمام العربية ببغداد في زمنه، واحد ائمة الأدب الأخبار، ولد بالبصرة وتوفي في بغداد عام(٢٨٦ هـ). الزركلي، الأعلام،٧/ ١٤٤].

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي ، أخذ الأدب عن المبرد وثعلب، وكان يخرط الزجاج فلقب بصنعته، من مصنفاته: كتاب معاني القرآن، والاشتقاق والعروض، توفي عام(٣١١هـ).[ابن خلكان، وفيات الأعيان،١/٤٩٠].

(٤) مكي بن أبي طالب القيسي(٤٣٧هـ) ،شرح كلا وبلى ونعم ، تحقيق :أحمد حسن فرحات، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٧٨م، ٢٣.

(٥) هو: المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، توفي في إحدى قرى الموصل عام(٦٠٦هـ)، من مؤلفاته: النهاية في غريب الحديث والأثر، وجامع الأصول في أحاديث الرسولﷺ (الزركلي، الأعلام، ٥/٢٧٢).

(٦) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/٣٥٥.

(٧) انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ١/٥٠.

ونقل الزركشي[1] عن الصفّار[2] قوله : إنّ (كلاّ) تكون للرّد ، ولكنه لم يرض أن تكون ردّاً لما قبلها فحسب ، بل قال: "إنّها تكون إمّا لردّ ما قبلها وإمّا لردّ ما بعدها" ، ومثّل للأول بقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر/٣-٤] ، قال: هي رد لما قبلها ؛ لأنّه لما قال تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ ﴾ [التكاثر/١-٢] كان إخبارًا بأنّهم لا يعلمون الآخرة ولا يصدقون بها فقال ﷻ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾.

وقوله ﷻ : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ ﴾ [الهمزة/٣] ، قال: هي رد لما قبلها،[3] ولم يمثّل للثاني .

وذهب الطاهر بن عاشور إلى ما ذهب إليه الصفّار ، ووجدت في كلامه مثالاً للثاني ، وإشارة إلى سرّ تقدم (كلاّ) على الكلام المبطَل ، فذكر أنّ (كلاّ) حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق، ثُمّ قال: "والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطَل بها ، وقد تُقدّمُ على الكلام المبطَل للاهتمام بالإبطال وتعجيله، والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها كما في قوله ﷻ :﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ ﴾ [المدثر:٣٢-٣٥] على أحد تأويلين"[4].

---

(١)هو:محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي،أبو عبد الله، بدر الدين،عالم بفقه الشافعية والأصول، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة ، من مؤلفاته: البحر المحيط في الأصول، والبرهان في علوم القرآن، توفي عام(٧٩٤هـ). [الزركلي، الأعلام،٦/ ٦٠-٦١]

(٢)هو: قاسم بن علي بن محمد بن سليمان الأنصاري البطليوسي، الشهير بالصفار: عالم بالنحو ،له شرح كتاب سيبويه ، توفي عام(٦٣٠هـ)[الزركلي ،الأعلام ،٥/١٧٨].

(٣) الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ ، ٤/٣١٢.

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،١٦/١٦١ ، والتأويل الثاني أنها ردع لما قبلها.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأنّ (كلاًّ) تُفيد معَ الأصل الذي وضُعت له ــ وهو الـردّع ــ النفي والإبطال والتنبيه.

وليس لــ (كلاّ) عند الذين ذكرهم مكي ــ الخليل وسـيبويه والأخفش والمبرّد والزجّاج ــ وعند أكثر البصريين معنى إلا الرّدع والزجر[١].

وزاد آخرون على معنى الرّدع والزجر معنى آخر ، ثم وقع الاختلاف بينهم في تعيين هذا ، على أقوال مختلفة :

أحدها: قال الكسائي ومن وافقه : تكون بمعنى حقّاً[٢]، ونسب ابن الأنباري[٣] هذا المعنى إلـى المفسرين ، ونص عبارته :" قال المفسرون : معناها حقّاً"[٤].

والثاني: قال أبو حاتم السّجستاني[٥] ومن وافقه : تكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية ، ولم يسبقه إلى هذا المعنى أحد ، قاله السيوطي[٦]نقلاً عن أبي حيان[٧].

وذكر ابن الأنباري أنّ أبا حاتم احـتجّ لرأيـه بقولـه تعـالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [العلق/٦] ، قال : فَمعْناه ألا إنّ الإنسانَ ، وذلك أنّ جبريل عليه السلام أول شيء نزل به من القرآن

---

(١)انظر : ابن هشام الأنصاري، جمال الدين (٧٦١هـ) ، **مغني اللبيب** ،دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ١/١٨٨، الفيروزابـادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ) **بصائر ذوي التمييز**، تحقيـق: محمـد النجـار ، دار الكتـب العلميـة ـبيروت، ٤/٣٨١، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٩١١هـ)، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبـد العـال مكّـرم ،دار البحوث العلمية ـالكويت،١٩٧٩م، ٤/ ٣٨٤.

(٢) انظر: مكي بن أبي طالب ،**شرح كلّا وبلى ونعم** ،٢٤، ابن هشام ، **مغني اللبيب** ،١/١٨٩.

(٣)هو:محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للـشعر والأخبار، من كتبه: عجائب علوم القرآن ، وشرح الألفات ، ولد في الأنبار، وتوفي عام(٣٢٨هـ). [الزركلي ، **الأعلام** ، ٦/٣٣٤]

(٤)ابن الأنباري ،أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار(٣٢٨هـ) **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله** ، دمشق ، ١٩٧١م ، ١/٤٢٢.

(٥) هو: سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم السجستاني إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض ، وكان إمـام جامع البصرة ، توفي (٢٥٥هـ). [ابن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**،١/٣٢٠، الزركلي، **الأعلام**،٧ / ٢٨١].

(٦) هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، نشأ فـي القاهرة يتيماً، برع في فنون كثيرة ، وألف فيها ، وله نحو ستمائة مصنف ، منها:الأشباه والنظائر ،الإكليل في استنباط التنزيل ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، توفي عام(٩١١ هـ).[ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**،٨/٥١وما بعدها، الزركلي، **الأعـلام** ، ٣ / ٣٠١].

(٧) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، **الإتقان في علوم القرآن** ، مؤسسة النـداء ــ أبـو ظبـي ، ط١، ٢٠٠٣م، ٢/٣٢٨.

الكريم خمس آيات من سورة العلق مكتوبة في نَمَط فلقّنها النّبي ﷺ آية آية، والنّبي ﷺ يتكلم بها كما يُلَقنه ، فلما قال ﷺ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق/٥] طوى النّمط .

وعقب ابن الأنباري قائلاً: فهذا يصحح مذهبيين :

مذهب من قال : معنى (كلاًّ) حقًا ، كأنّه قال : حقًا إنّ الإنسان ليطغى.

ومذهب من قال : معنى (كلاًّ) : (لا) ، كأنّه قال: لا ليس الأمر على ما تظنون يا معشر الكفرة [١].

لكن ابن هشام[٢] رجّح قول أبي حاتم معللاً لذلك بأنّ (إنّ) تُكسر بعد (ألا) الاستفتاحية ولا تكسر بعد حقاً، وأن تفسير حرف بحرف أولى من تفسير حرف باسم [٣].

والثالث: قال النضر بن شميل[٤] ومن وافقه : تكون حرف جواب بمنزلة (إيْ) ، وحملوا عليه قوله تعالى :﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٢﴾ [المدثر:٣٢] ، فمعناها عندهم : إيْ والقمر[٥].

و(إيْ) حرفُ جواب ولكنّه لا يقع إلا قبل القسم ، فهو مختص به [٦].

وجمع ابن مالك بين ثلاثة من المعاني السابقة ، واستبعد أحَدَهَا ، فقال: (كلاً) حرف ردع وزجر، وقد تؤول بـ (حقاً)، وتساوي(إيْ) معنى واستعمالاً [٧].

---

(١)ابن الأنباري ، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ﷻ ،١/ ٤٢٥ -٤٦٢.

(٢)هو: أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف، شهاب الدين الانصاري، المعروف بابن هشام: نحوي، من أهل القاهرة، سكن دمشق وتوفي بها عام(٧٦١هـ).[الزركلي، الأعلام ،١ / ١٤٧].

(٣) ابن هشام ، مغني اللبيب ،١/١٨٩.

(٤)النضر بن شميل أبو الحسن المازني البصري، النحوي اللغوي، سكن مرو مات عام(٢٠٣هـ) أو نحوها [البخاري، التاريخ الكبير،٨/٩٠].

(٥) ابن هشام ، مغني اللبيب ،١/١٨٩، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٢/٣٢٨.

(٦) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (٧٥٦هـ) الدر المصون، تحقيق:أحمد الخراط، دار القلم ـ دمشق، ط٢،١٩٩١م، ٧/٦٣٧.

(٧) ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله (٦٧٢هـ) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، تحقيق: محمد بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م، ٢٤٥.

وذكر المرادي[١] أنّ ابن مالك قد ركّب هذه الأقوال الثلاثة فجعلها قولاً واحداً[٢].

واستبعد ابن مالك[٣] أن تكون (كلاً) لمجرّد الاستفتاح ، قال: "ولا تكون لمُجرّد الاستفتاح خلافاً لبعضهم" [٤].

وكان ابن فارس[٥] قد ذكر ــ في مقالة له خصصها لــ(كلا) ــ أنّ أهل العلم مختلفون في بيان معنى هذا الحرف، على أقوالٍ مختلفة: أولها: أنها تجيء لمعنيين: الرد، والاستئناف. والثاني: بمعنى التكذيب. والثالث: ردع وزجر. والرابع: بمعنى حقاً ، والخامس: الرد والإبطال لما قبله من الخبر. والسادس: نفي شيء وإيجاب غيره.

وبعد أن ذكر أقوالهم المتباينة بيّن أن القول المختار هو أنّ (كلا) تأتي على أربعة أوجه، الأول: الرد. والثاني: الردّع. والثالث: صلة اليمين وافتتاح الكلام بها كـ(ألا). والرابع: تحقيق ما بعده من الأخبار، ولمّا فرغ من بيان المعاني الأربعة التي اختارها ذكر في نهاية مقالته أن هذه الوجوه الأربعة يجمعها وجهان، هما: الردع والرد، وهما متقاربان. وتحقيق وصلة يمين ــ زائدة ــ وهما متقاربان[٦].

---

(١)هو: الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي المصري، أبو محمد، بدر الدين، المعروف بابن أم قاسم: مفسر أديب، مولده بمصر وشهرته وإقامته بالمغرب.من كتبه:إعراب القرآن، مات عام(٧٤٩ هـ) [الزركلي ، **الأعلام** ، ٢ / ٢١١].

(٢) ابن أم قاسم المرادي ، الحسن بن قاسم بن عبد الله (٧٤٩ هـ) ، **الجنى الداني في حروف المعاني** ، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ، ١٩٨٣ ط٢،م، ٥٧٧.

(٣)ابن مالك هو: محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، أحد الائمة في علوم العربية.ولد في جيان (بالاندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها عام(٦٧٢هـ) ،أشهر كتبه الألفية في النحو، وله تسهيل الفوائد ، الكافية الشافية.[الزركلي ، الأعلام،٢٣٣].

(٤) ابن مالك، **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، ٢٤٥.

(٥)ابن فارس: هو: أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، من أئمة اللغة والادب ،قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان في زمانه،من تصانيفه : معجم مقاييس اللغة ، المجمل ، توفي عام(٣٩٥هـ).[الزركلي ،الأعلام ،١/١٩٣].

(٦) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ **مقالة كلا** ، تحقيق: أحمد فرحات، دار عمّار ــ عمّان، ط١،٢٠٠٢م.

وقال السمين الحلبي[١] بعد أن أورد عدة معانٍ لها: "والتحقيق أنّها ردع وزجر ... ولذلك قال الراغب: (كلاّ) ردع وزجر وإبطال لقول القائل، وذلك نقيض (إيْ) في الإثبات" [٢].

وقال: "وهذا معنىً لائقٌ بها حيث وقَعَتْ في القرآن الكريم"[٣].

وقد وجدت بالاستقراء أنّ شيخ المفسرين ــ الإمام الطبري ــ يُفسّر (كلاّ) في القرآن الكــريم بعبارات تدل على النفي؛ كقوله: ليس الأمر... [٤]، ما هكذا... [٥]، ما الأمر... [٦]

وذكر الزمخشري في المفصّل أنّ من أصناف الحروف حرف الرّدع وهو (كلاّ) ، ولم يــذكر له غير قول سيبويه والزجاج بأنّه ردع وزجر [٧]، وباستقراء تفسيره الموسوم بـــــ (الكــشاف) وجدته يُفسّرها حيث وردت في القرآن الكريم بالرّدع والزجر.

وهي عند ابن عطية الغرناطي[٨]ــ عصري الزمخشري ــبالمعنى الــسابق ، قــال: وهــذا المعنى لازم لــ(كلاّ) " [٩]، وبعد البحث في تفسيره وجدت أنّه فسّرها بهذا المعنـــى ــ الــرّدع

---

(١)هو:أحمد بن يوسف بن عبد الدايم ، صاحب الإعراب المشهور، شهاب الدين ،نزيل القاهرة، كان ماهرًا في النحــو، لازم أبــا حيان إلى أن فاق أقرانه ، من كتبه: تفسير القرآن الكريم وإعرابه، وشرح التسهيل ، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تــوفي عام(٧٥٦هــ) [الأدنروي، طبقات المفسرين،٢٨٧].

(٢) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، وانظر :الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ٤٤٠.

(٣) السمين الحلبي، الدر المصون، ٧/٦٣٧.

(٤)انظر مثلاً: الإمام الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ، ٢٠٠٠ م ،١٨/٢٤٨، ٢٤٩، ١٩/٣٥٦،٧٠.

(٥)انظر مثلاً: الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢٤/ ٤٣، ٢٨٩،٢٢٠،١٥٠.

(٦) انظر مثلاً: الإمام الطبري، جامع البيان، ٢٤/ ٥٨١،٥٨٠،٥٢٢،٢١٦.

(٧) الزمخشري ،محمود بن عمر (ت ٥٣٨هــ) ، المُفصّل في صنعة الإعراب، تحقيق :علي أبو ملحم ، دار ومكتبــة الهــلال – بيروت ، ط١، ١٩٩٣، ٤٤٧.

(٨) هو: أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، مفسر، فقيه، لغــوي، من أهل غرناطة ،عارف بالاحكام والحديث ، له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي عام(٥٤٢ هــ) [الزركلي، الأعلام، ٣ /٢٨٢ ، السيوطي ،طبقات المفسرين،٥٠]

(٩) ابن عطية، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (٥٤٢هــ)، المحرر الوجيز ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م ، ٤/٣١.

والرّد ــ في مواضع، وقدّمه في مواضع ثلاثة ذاكراً احتمال أن يكون لها معنى آخر [١]، وتابعه الثعالبي[٢]في ذلك [٣].

وليس السبب في اتفاق الزمخشري مع معاصره ابن عطية في تفسيرهما لــ(كــلاً) بــالمعنى الذي وضِعَت له في الأصل أنّ أحدهما اعتمد على تفسير الآخر ، بل لأنهما اعتمدا في تأسـيس ثقافتهما على اللغة والأدب ، وتمكنا من علمي المعاني والإعراب، وجمَعَا بين اللغة والتفـسير ، فكانا بحقّ ــ كما وصفهما أبو حيّان ــ إمامين من أئمة اللغة والتفسير ، وفارسين من فرســان الفصاحة والبيان [٤].

وأظهر الاستقراء أيضًا أنّ النسفي[٥] في تفسيره ، والبيضاوي في تفسيره[٦]، وابن جزي في تفسيره [٧] ، وأبا حيّان ، والبقاعي[٨] ــ الذي أطلق عليها أم الرّوادع والزواجر ، وجامعتها[٩] ــ

---

(١) انظر هذه المواضع: ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤٥١/٤، ٤٥٢ ، ٥٠٢/٥.

(٢) هو:عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري ، المقري المالكي ، كان إماما علامة ، مصنفا اختصر تفسير ابــن عطية ، من كتبه:الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، توفي عام(٨٧٦هــ).[الأدنروي، طبقات المفسرين،٣٤٢].

(٣)انظر: الثعالبي، (٨٧٦هــ)، **الجواهر الحِسان في تفسير القرآن**، موسسة الأعلمي ــ بيروت ، ١٩/٣، ٤٢٨/٤.

(٤) انظر : أبو حيان، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي الغرناطي (٧٤٥هــ) **البحر المحيط**، تحقيق : عــادل أحمد عبد المجود وآخرون ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م ، ١١٢/١.

(٥)أبو البركات ،عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي حافظ الدين ، مفسر، متكلم، أصولي، من فقهاء الحنفية،كان إماما في جميــع العلوم ، رأسًا في الفقه والأصول ،من كتبه: مدارك التنزيل وحقائق التأويل،توفي عام(٧١٠هــ).[الأدنروي، طبقات المفسرين، ٢٦٣، النويهض، معجم المفسرين،٣٠٤/١-٣٠٥].

(٦) هو:عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو الخير ،القاضي ناصر الدين البيضاوي الشافعي، كان إمامًا ،مبــرزًا ، نظارًا ،صالحا ،متعبدًا ، زاهدًا،ولي قضاء القضاة بشيراز،ودخل تبريز وناظر بها ، من تصانيفه: المصباح في أصول الــدين،انوار التنزيل وأسرار التأويل، شرح المصابيح في الحديث، توفي عام(٦٨٥هــ). [الأدنروي، **طبقات المفسرين**،٢٤٣]

(٧) هو: أبو القاسم ،محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، فقيه ، من العلماء بالتفسير، والأصول ، واللغة ، من أهل غرناطة،من كتبه :" تقريب الوصول إلى علم الأصول ، والتــسهيل لعلــوم التنزيــل، تــوفي عــام(٧٤١هـــ).[الزركلــي ، الأعلام،٣٢٥/٥، النويهض ، معجم المفسرين،٤٨١/٢].

(٨) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط بن علي بن أبي بكر، برهان الدين البقاعي ، مؤرخ ، مفسّر ، محدّث ، أديب ،ولد بقرية خربة روحا من عمل البقاع بلبنان ، سكن دمشق ، ثم رحل إلى بيت المقدس ثم القاهرة، من كتبه: نظم الــدرر فــي تناســب الآي والسور، توفي عام (٨٨٥هــ).[الأدنروي، طبقات المفسرين،٣٤٧-٣٧٥، النويهض، معجم المفسرين،١٧/١].

(٩)انظر:البقاعي، (٨٨٥هــ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ١٥٧/٨، ٥١٨، ١٤٩ ، ٢٢٥ ، ٤٢٠، ٥١٨.

وأبا السعود[١] ، وحقي البروسوي[٢]، والآلوسي[٣]، وابن عاشور في تفسيره ، وحبنكة الميداني في تفسيره ـ معارج التفكر ـ ، فسروا (كلاً) في القرآن الكريم بالرّدع والزجر.

وعلى الرغم من اختلاف العلماء في معاني (كلاً) إلا أن القول بإفادتها الرّدع والزجر هو الراجح ، إذ هو ما يقتضيه الأصل ، وهو المعنى اللائق بها حيث وَقَعَتْ في القرآن الكريم ، وبهذا فسرها غير واحد من المفسرين ، وعلى رأسهم الزمخشري وابن عطية وأبو حيان ، الذين تمكنوا من علمي التفسر واللغة وجمعوا بينهما.

---

(١)محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بقرب القسطنطينية، ودرس في بلاد متعددة،وكان حاضر الذهن سريع البديهة، من كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ،تحفة الطلاب في المناظرة، توفي عام(٩٨٢ هـ)[الزركلي ،الأعلام، ٧/٥٩].

(٢)هو: إسماعيل حقي بن مصطفى الاسلامبولي الحنفي ، المولى أبو الفداء، متصوف، مفسر، تركي مستعرب ،ولد في أيدوس، وسكن القسطنطينية، ثم انتقل إلى بروسة، ومات فيها عام(١١٢٧ هـ) ،له كتب عربية وتركية ، فمن العربية (روح البيان في تفسير القرآن .[الزركلي ،الأعلام ،١/٣١٣].

(٣)هو: شهاب الدين أبو الثناء محمود أبو الفضل الآلوسي، ولد سن ١٢١٧هـ ببغداد، كان مفسراً محدثاً، أديباً، سلفي الاعتقاد، مجتهداً، من مصنفاته: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، غرائب الاغتراب ، توفي عام(١٢٧٠هـ). [الزركلي، الأعلام، ٧/١٧٦] .

المطلب الثاني:

الردع بـ (ما كان)

(ما كان) مركب من (ما) و(كان)، ولكلٍ من جزأي هذا المركب معانٍ ودلالاتٌ تخصه، وقبل الحديث عن الرّدع بهذا المركب يحسن أن أذكر أولاً بعض معاني ودلالات كلً جزء من جزأيه بشيء من الإيجاز:

معاني (ما) ودلالاتها

تأتي (ما) ــ وهي أول جزأي هذا المركب ــ على وجهين:أحدهما: حرفية ، والآخر: اسمية، ولكل منهما أقسام ومعانٍ ودلالات ؛ **فمن أقسام (ما) الحرفية ومعانيها ما يأتي:**

أولاً: النافية، وتنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: (ما) النافية الداخلة على المبتدأ والخبر، وفيها مذهبان:

أحدهما : مذهب أهل الحجاز؛ وهو أن تعمل عمل ليس بشروط [1]ــ فتبقي المبتدأ على حاله، ويكون اسماً لها، وتنصب الخبر، ويكون خبراً لها ــ ؛ لأنها تشبهها في النفي ، وفي كونها لنفي الحال ، وفي دخولها على المبتدأ والخبر، وفي دخول الباء في الخبر[2]، وتعرف بـ (ما الحجازية) ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾

---

(١)من هذه الشروط: (١): ألا يتقدم خبرها على اسمها.(٢): ألا ينتقض خبرها بـ (إلا)؛ لأن الاستثناء من النفي إيجاب.(٣): ألا تدخل عليها (إن) لشبهها بالنافية فكأنه دخل نفي على نفي فصار إيجاباً.(٤): ألا يتقدم غير ظرف، أو جار ومجرور، من معمول خبرها، فإن تقدم غيرهما بطل العمل، نحو ما طعامك زيد آكل.[انظر: المالقي ، رصف المباني ،٣٧٨، المرادي، معاني الحروف،٣٢٣ــ ٣٢٤.]

(٢)أبو البقاء العكبري، محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله ،(٦١٦هـ) اللباب في علل البناء والإعراب ، تحقيق : غازي طليمات، دار الفكر ــ دمشق ، ط١، ١٩٩٥،١/١٧٥، المالقي، أحمد بن عبد النور(٧٠٢هـ) رصف المباني في حروف المعاني، دار القلم ــ دمشق، ط١٩٨٥،٢م، ٣٧٧، المرادي، معاني الحروف ،٣٢٢.

[يوسف/٣١] ، وقوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ ۝٢ ﴾ [المجادلة/٢] .

والآخر : مذهب بني تميم ؛ وهو أن (ما) تعمل شيئًا ؛ فيبقى المبتدأ والخبر بعدها على حاله في الرفع ، وتعرف بـ(ما التميمية) [١] ، ومن ذلك : ما زيدٌ مسافرٌ ، وعندئذ تكون مهملة غير عاملة في الإعراب.

القسم الثاني: (ما) النافية الداخلة على الفعل الماضي والمضارع، فهذه لا خلاف في أنها حرف غير عامل إعرابياً ؛ لعدم اختصاصها بالفعل[٢].

و(ما) بهذا المعنى هي التي تتصل بالموضوع قيد البحث، وهي تدخل على الاسم والفعل، غير أنّ طلبها للاسم أكثر من طلبها للفعل[٣][٤].

---

(١) انظر: الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى(٣٨٤هـ)معاني الحروف، ط٣، دار الشروق ـ جدة، ١٩٩٤م، ٨٨.

(٢) المالقي، رصف المباني ، ٣٨٠، المرادي، معاني الحروف ،٣٢٩.

(٣) انظر :الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢/٣٧٤.

(٤) إذا دخلت على الماضي نفت وقوع الحدث القريب من الحال ، وإذا دخلت على الجملة الاسمية ـ على اللغتين الحجازية والتميمية ـ أو على الفعل المضارع نفت ما يكون في الحال، وقد تدخل عليه لنفي ما يكون في الاستقبال ، قال الزمخشري عند تفسيره لقوله ﷻ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الحجر/١١] : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ "حكاية حال ماضية ؛ لأنّ (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال".[الزمخشري ، الكشاف ٢/٥٣٦.]

وتعقبه أبو حيان في تفسيره فقال: "وهذا الذي ذكره هو قول الأكثر من أنّ (ما) تخلص المضارع للحال وتعينه له، وذهب غيره إلى أنّ (ما) يكثر دخولها على المضارع مراداً به الحال، وتدخل عليه مراداً به الاستقبال".[ابو حيان ، البحرالمحيط ،٢/٥٣٦.]

ويقول الزمخشري مقرراً لمعنى الحال: " (ما) لنفي الحال في قولك:ما يفعل، وما زيد منطلق،أو منطلقاً ـ على اللغتين ـ ولنفي الماضي المقرب من الحال في قولك:ما فعل ، قال سيبويه:أمّا (ما) فهي نفي لقول القائل :هو يفعل، إذا كان في فعل الحال،وإذا قال : لقد فعل، فإن نفيه: ما فعل، فكأنه قيل : والله ما فعل".[الزمخشري، المُفصل في صنعة العربية ، ٣٠٦.]

وتابع ابن الحاجب الزمخشري فيما ذهب إليه ، ولكنّه لم يستبعد أن تُستعمل للمستقبل عند وجود القرائن ، فيقول ما نصه :" ولا بُعدَ في استعمالها للماضي والمستقبل عند قيام القرائن، قال ﷻ حكاية عن الكفار:﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ [الدخان/٣٥]،﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام/٢٩]، وفي الماضي حكاية قولهم: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة/١٩] ، فإنّه ورد التعليل على معنى كراهة أن يقولوا عند إقامة الحجة عليهم :ما جاءنا في الدنيا من بشير ولا نذير، وهذا للماضي المحقق".[ابن الحاجب ،أبو عمرو عثمان بن عمر (٦٤٦هـ) الإيضاح في شرح المفصل،تحقيق:موسى العليلي، مطبعة العاني ـ بغداد ، ٢/١١٤]

وقال موضحاً لكلام سيبويه ـ الذي نقله الزمخشري ـ ومبيناً له : جعلها سيبويه في النفي جواباً لـ(قد) في الإثبات ،ولا ريب أن (قد) للتقريب من الحال فلذلك جُعل جواباً لها في النفي ثم إنّه جعل فيها معنى التأكيد؛ لأنّها جرَتْ موضع(قد) في النفي، فكما أن(قد) فيها معنى التوكيد فكذلك ما جُعل جواباً لها.[ابن الحاجب،الإيضاح في شرح المفصل ، ٢/١١٥.] ويفهم من هذا أنّ (قد) يُؤتى بها

ثانياً: (ما) المصدرية، وهي التي تكون مع الفعل الذي بعدها في تأويل المصدر[١]، نحو: يسرني ما فعلت ؛ أي: فعلك.

ثالثاً: المسلِّطة، وذلك كقوله ﷻ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر/٢] ، فـ(رُبَّ) تدخل على الأسماء، ولكن لمّا دخلت عليها (ما) سلطتها على الفعل[٢].

وهي عند الرّاغب الأصفهاني التي تجعل اللفظ متسلطاً بالعمل ، بعد أن لم يكن عاملاً، ومثّل لذلك بـ (ما) في (إذْ ما)، و(حيثما)، قال : لأنهما لا يعملان بمجردهما في الشرط، ويعملان عند دخول (ما) عليهما، تقول: إذْما تفعلْ أفعلْ ، وحيثُما تقعدْ أقعد[٣]. وتسمى أيضا: الموطئة ، والمهيئة[٤].

رابعاً: الكافة، نحو: إنّما، وكأنّما، ولعلّما، "فكفت (ما) هذه الحروف عن العمل، وصرفت معناها إلى الابتداء"[٥]، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء/١٧١] ، وقال ﷻ: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال/٦].

خامساً: المُغيِّرة ، وذلك كقوله ﷻ: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الحجر/٧] ، حيث كانت (لو) تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره ، فلما دخلت عليها (ما) غيّرت معناها إلى التحضيض[٦].

بعد القَسَم في الإثبات ، و(ما) يُؤتى بها بعد القَسَم في النفي ؛ فإذا قيل في الإثبات: لقد فعل ، كان جواب قسم ، تقديره: والله لقد فعل ، وإذا قيل في النفي: ما فعل ، كان جواب قسم، وتقديره : والله ما فعل.

(١) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ٣٠١ ــ ٣٠٤.

(٢) الرماني، معاني الحروف، ٩١.

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ،٤٦٣.

(٤) انظر: المالقي ،رصف المباني ،٣٨٤ ، ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن علي(٦٤٣) شرح المفصل، عالم الكتب ــ بيروت، ١٠٨/٨.

(٥) ابن يعيش، شرح المفصل، ١٠٨/٨، وللمزيد انظر : ابن هشام، مغني اللبيب، ٣٠٦/١ ــ ٣١١.

(٦) الرماني ، معاني الحروف، ٩١.

سادساً: المؤكِّدة، "وتفيد تمكين المعنى ، وتوفيره بتكثير اللفظ "[١]، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران/١٥٩].

وقد أحسن الزركشي إذ قال:"ويسميها بعضهم صلة ،وبعضهم زائدة ، والأول أولى؛ لأنه ليس في القرآن حرف إلا وله معنى"[٢].

أمّا (ما) الاسمية فمن أقسامها ومعانيها الآتي:

أولاً: الموصولة، وتكون بمعنى (الذي)، ولا بدّ لها حينئذ من صلة[٣]، كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل/٤٩] ، لكنها تكون موغلة في الإبهام ، مما لا يعرفه المخاطب بخلاف اسم الموصول (الذي) حيث ترد في سياق ما يعرفه المخاطب ويعلمه.

ثانياً: النكرة غير الموصوفة ، وتُقدَّرُ بـ (شيء)، كقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة/٢٧١] ، قال الزجاج: (ما) في تأويل الشيء ، كأنه قال: فنِعْمَ شيئاً هي[٤].

ثالثاً: النكرة الموصوفة، وتُقدَّرُ بـ (شيء)[١]، كقوله تعالى ــ في أحد الوجهين ــ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء/٥٨]؛ أي: نِعْمَ شيئاً يعظكم به[٢]، وقولك: رأيت ما محبوباً إليك، أي: شيئاً محبوباً إليك.

---

(١)ابن يعيش، شرح المفصل ،٨/١٠٨.

(٢) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٤/١٠٤.

(٣)الرماني، معاني الحروف، ٨٧.

(٤)الزجاج،أبو اسحق ابراهيم بن السري (٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق:عبد الجليل شلبي، عالم الكتب ــ بيروت، ط١، د.ت، ١/ ١٧٢، ٣٥٤.

رابعاً: الشرطية ، وتكون بمعنى (الجزاء)[٣]، كقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۝٧ ﴾ [التوبة /٧] ، وقوله ﷻ :﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۝٢ ﴾ [فاطر/٢].

خامساً: التعجبية، وتكون بمعنى(شيء عظيم)، كقوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ﴾ [البقرة/١٧٥] ؛أي : "شيء ما عظيم جعلهم صابرين على النار"[٤]، وقوله ﷻ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ ﴾ [عبس/١٧] [٥].

سادساً: الاستفهامية، ومعناها (أي شيء ؟)[٦]، كقوله تعالى :﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۝٦٨ ﴾ [البقرة/٦٨] .

ويستفهم بـ(ما) عما لا يعقل وعن صفات من يعقل ، ومن ذلك قول السائل: ما عندك؟ فيقول المجيب: عندي فرس ، وقوله: ما زيدٌ ؟ فيقول المجيب: عاقل أو أحمق[٧].

معاني (كان) ودلالاتها:

وأمّا (كان) وهي ثاني جزأي هذا المركب فهي على قسمين:

---

(١) ابن هشام، مغني اللبيب، ٢٩٦/١.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٥٥٦/١،والوجه الثاني: أن تكون مرفوعة موصولة بـ(يعظكم به)، والتقدير:نعم الشيء الذي يعظكم به.

(٣)انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)، الجمل في النحو، تحقيق:فخر الدين قباوة، ط٥، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٩٥، ٣٢٦.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١ / ١٩٢.

(٥) قال الزركشي - وتابعه السيوطي - : ولا ثالث لهما - الآيتن[البقرة/١٧٥]،[عبس/١٧] - في القرآن ، البرهان ،٤٠٤/٤، الإتقان في علوم القرآن، ٣٦٠/٢.

(٦)ابن هشام ،مغني اللبيب ،٢٩٨/١ ، الزركشي ،البرهان في علوم القرآن،٤٠٢/٤.

(٧)الرماني ، معاني الحروف، ٨٧.

أولهما: أن تكون تامة، وهي التي تكتفي بمرفوع هو فاعلها ، فتدل على حدثٍ وزمان كغيرها من الأفعال، وتكون بمعنى حَدَثَ، أو وُجِد ، أو وقع[١]، قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۝٢٨٠ ﴾ [البقرة/٢٨٠] ، فإنّ (كان) في الآية الكريمة فعلٌ تامّ ، فاعله ﴿ذُو﴾ ؛ لأن معناها: إنْ وجد وحدث،أو وقع[٢].

وثانيها: أن تكون ناقصة، فتُبقي المبتدأ مرفوعاً، ويكون اسمها، وتَنْصِبُ الخَبَرَ، ويكون خبرها، فهي لا تكتفي بالمرفوع بل تحتاج إلى الخبر، وتدل على زمانٍ فقط[٣]، وتأتي لعدة معانٍ، منها:

أولاً: الماضي المنقطع[٤]، وهو الأصل الذي وُضِعت له، قال السمين الحلبي :" (كان) أصلها للدلالة على اقتران مضمون الجملة بالزمن الماضي"[٥] ، ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ ﴾[النمل/٤٨] ، فقد جاءت (كان) للدلالة على انقطاع الزمان الماضي ؛ لأنّ الذين ذكرتهم الآية الكريمة كانوا فيما مضى من الزمان في مدينة صالح ، وهي حِجر ثمود ، رؤساء قومهم ودعاتهم إلى الكفر والضلال ، وتكذيب نبي الله صالح عليه السلام[٦]، ولكن زمانهم انقضى ، وانتهوا ولم يعودوا.

---

(١) الجوهري، الصحاح، ٦٧/٦، أبو البركات الأنباري ، عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد،(٥٧٧هـ) أسرار العربية ، تحقيق : د.فخر صالح ، ط١، دار الجيل – بيروت ، ١٩٩٥م ، ١٣١.

(٢) انظر:الزجاج ، معاني القرآن ،٣/ ٣٥٩ ، ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣٧٦/١، أبو حيّان ،البحر المحيط ، ٣٥٤/٢.

(٣) انظر: الجوهري، الصحاح، ٦٧/٦، أبو البركات الأنباري ، أسرار العربية ، ١٣١.

(٤) الزركشي ،البرهان في علوم القرآن، ١٢٧/٤، السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن، ٣٢٢/٢.

(٥) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ ، ٤٣٧/٣.

(٦) انظر في تفسير الآية الكريمة: الإمام الطبري، جامع البيان ، ٤٧٧/١٩.

ثانياً: " اتصال الزمان من غير انقطاع"[1]، فتدل على الثبوت والاستمرار، ويكون زمانها متصلاً من غير انقطاع، وقد جاءت بهذا المعنى في كثير من آيات الذكر الحكيم.

قال الراغب الأصفهاني: (كان) في كثير من وصف الله ﷻ تنبئ عن معنى الأزلية، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقا بوصف له هو موجود فيه فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه، كقوله ﷻ في الإنسان: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء/٦٧]، وقوله ﷻ في وصف الشيطان: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء/٢٧][2].

وقال أبو حيان عند تفسيره لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء/١]: " لا يراد بـ(كان) تقييد الخبر بالمخبر عنه في الزمان الماضي المنقطع في حق الله ﷻ، وإن كان موضوع (كان) ذلك، بل المعنى على الديمومة فهو ﷻ رقيب في الماضي وغيره علينا" [3].

وعلى هذا فإنّ (كان) في الآية الكريمة – وفي مثلها مما ورد في القرآن الكريم – وإن كان يُعبّر بها عن الماضي إلا أنّها تفيد الدوام والاستمرار، وترتبط بالماضي والحال والاستقبال.

ثالثا: الاستقبال، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان/٧]، فقد جاءت (كان) بلفظ الماضي ومعناها المستقبل، وللطاهر ابن عاشور في بيان سر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي كلام جزلٌ، فيقول: " وذكر فعل (كان) للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه، وإلاّ فإنّ شرّ ذلك اليوم ليس واقعاً في الماضي، وإنّما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (كون)، ١٣/ ٣٦٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٤٢١.

(٣) أبو حيّان، البحر المحيط، دار الفكر – بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ٣/١٥٩.

وقوعه"[١]، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ۝١﴾ [النحل: ١] ، حيث عبّر عن المستقبل بصيغة الماضي دلالة على تحقق وقوعه.

رابعاً: بمعنى(صار) ، ومن استعمالها بهذا المعنى ما جاء في قولــه ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة/٣٤] ، ولــها في مثل هذا الاستعمال دلالة على رسوخ معنى الخبر في اسمها ، والمعنى: أبى واستكبر وكفر كفرًا عميقاً في نفسه [٢].

خامساً: بمعنى ينبغي أو صَحَّ ، ومنه ما جــاء فــي قولــه ﷻ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ ۝٦٠﴾ [النمل/٦٠] ؛ أي: "ما صحّ وما ينبغي للإنسان أن يتأتى منه الإنبات"[٣].

ونقل الإمام الطبري عن بعض نحويي الكوفة قولهم: "إذا جــاءت (أن) مــع (كــان)، فكلهــا بتأويل: ينبغي ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ ۝١٦١﴾ [آل عمران/١٦١] ما كان ينبغي له ، ليس هذا من أخلاقه. قال: فلذلك دخلت (أن) لتدل على الاستقبال ؛ لأن (ينبغي) تطلب الاستقبال "[٤] .

وعلى هذا تكون (كان) بمعنى ينبغي أو صَحَّ إذا جاءت مع (أنْ) ، وتدل على الاستقبال.

الردّع بــ(ما كان)

يأتي تركيب (ما كان) للدلالة على النفي ؛ وذلك لأن (ما) للنفي، و(كان) للإثبات، ونفــي الإثبات نفي، فإذا دخلت (ما) النافية على (كان) الناقصة نقلت الخبر من الإثبــات إلــى النفــي وسلبت نسبته الراجعة إلى الاسم ، فإذا قيل :ما كان زيد كسولاً ، وقع النفــي علــى الكــسل ،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ط١، مؤسسة التاريخ ــ بيروت، ٢٠٠٠م، ٤١٢/١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤١٢/١.

(٣)النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٣١٤/٥.

(٤) الإمام الطبري، جامع البيان ، ٥١٤/١٤. وانظر في معاني(كان) : ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فــارس (ت ٣٩٥هـــ) الصاحبي في فقه اللغة، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ١١٦، الثعالبي، عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ)، الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية، عالم الكتب ــ بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ٢٣٦ ــ٢٣٧، أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني (١٠٩٤هـ) ، الكليات ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ٧٤٧ ــ٧٤٨ .

وزالت نسبته الراجعة إلى زيد ، ولعلّ هذا ما عناه السمين الحلبي بقوله: "ومعنى مجيء هذا النفيَ في كلام العرب نحو: ما كان لزيد أن يفعل ، نفيُ الكونِ والمرادُ نفيُ خبرِه"[١].

وهذا التركيب وإن كان يدل على النفي إلا أنّه يخرج عن ذلك ويأتي للدلالة على معانٍ أخرى، منها: الرَّدع والزّجر ، قال صاحب أضواء البيان عند تفسيره لقوله ﷺ : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۝٣٥ ﴾ [مريم/٣٥]: "لفظ (ما كان) يدل على النفي ، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزّجر والرَّدع[٢]، كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ۝١٢٠ ﴾ [التوبة/١٢٠] الآية .

وتارة يدل على التعجيز، كقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۝٦٠ ﴾ [النمل/٦٠] الآية.

وتارة يدل على التنزيه ، كقوله هنا: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۝٣٥ ﴾ [مريم/٣٥] "[٣].

وهذا الذي ذكره الشيخ الشنقيطي سبقه إليه ابن عطية الغرناطي [٤]، وأورده أبو حيّان في تفسيره [٥]، والزركشي في البحر المحيط في أصول الفقه [٦].

---

(١) السمين الحلبي، الدر المصون ،٣/٢٧٢، وانظر :ابن عادل ، اللباب في علوم الكتاب ،٥/٣٤٥.

(٢) تبين لي من خلال البحث أن لفظ(النهي) يُستعمل بدلا من الردع والزجر عند كثير من المفسرين، قال القرطبي: قال أهل المعاني: (ما كان) في القرآن يأتي على وجهين: أحدهما : النفي ،والآخر النهي [القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،٨/١٧٥]، وقال غيره: وردت هذه الصيغة نهياً في مواضع من التنزيل.[انظر مثلاً: ابن المنير، الانتصاف -في هامش الكشاف -١/٤٦١، حاشية الشهاب على البيضاوي، ٣/١٥٢، الآلوسي ، روح المعاني،٤/١٠٩]

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ،٣/٤١٩.

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤/١٦.

(٥) أبو حيان ، البحر المحيط ، ٦/١٨٩.

(٦) الزركشي ،البحر المحيط في أصول الفقه، ٢/١٥٧.

وقد ذكر ابن عطية ما يمكن عدّه ضابطًا للتفريق بين دلالة تركيب (ما كان) على الردّع والزّجر وبين دلالته على النفي ، فقال : هذه العبارة ـ(ما كان) ـ إذا قالها الإنسان عن نفسه، أو قيلت له عن أمر واقع تحت مقدوره فهي ردع وزجر ، وإن كان ذلك فيما لا قُدرَةَ له عليه فهو نفي محض مُؤكَّد لذلك الأمر[1].

فهذا التركيب لا يُراد منه الردع إلا في الأمر الذي يكون بمقدور الإنسان ـ المكلف ـ أن يمتنع عنه، أمّا ما خرج عن ذلك ، وكان مما لا قُدرَةَ له عليه ، ولا طاقة له به ، فهو نفي بليغ، وليس ردعًا ؛ لأنّ الله ﷻ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/٢٨٦].

وتركيب (ما كان) سواء أكان بمعنى النفي أم خرج إلى الرّدع فهو يدل على المبالغة ، وحول هذا المعنى يقول المطرزي[2]: " لمّا أرادوا نفي الأمر بأبلغ الوجوه قالوا: ما كان لك أن تفعل كذا، حتّى استُعمِلَ فيما هو مُحالٌ أو قريبٌ منه"[3].

وقد ذكر البيضاوي أن التعبير بصيغة (ما كان) في قوله ﷻ :﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة/١٢٠] يفيد المبالغة[4].

ولعلَّ وجه دلالته على المبالغة أن فيه نفي الشأن والعادة، فقولك لزيد مثلاً: ما كان لك أن تكذب، أبلغ من قولك: لا تكذب؛ لأنّ الأول فيه دلالة على أن الكذب لم يكن من شأن زيد ولا من عادته، ولا يليق به ذلك؛ لأن فيه من الخصال الحميدة التي تردعه عن الكذب، وتجعله بعيداً

---

(١)ابن عطية، المحرر الوجيز،٣١٦/٣، ٣٢٩.

(٢) هو:ناصر الدين أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي الخوارزمي الأديب الحنفي الشهير بالمطرزي ، أديب، عالم باللغة، من فقهاء الحنفية،ولد في جرجانية خوارزم ، من تصانيفه: المصباح في النحو. المغرب في ترتيب المعرب ، وتوفي عام(٦١٠هـ)، الزركلي ،الأعلام ٣٨٤/٧].

(٣) المطرزي، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي (٦١٠ هـ)المغرب في ترتيب المعرب ، تحقيق : محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، مكتبة أسامة بن زيد – حلب، ط١، ١٩٧٩م، ٤٣٢/٢، وانظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات، ٧٤٨.

(٤)البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد (ت٧١٩هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ١٧٨/١.

عنه، والثاني ليس فيه إلا مجرد طلب ترك الكذب، قال صاحب أيسر التفاسير: صيغة ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ "أبلغ من النهي بأداته (لا) لأنه نفي للشأن ؛ أي: هذا مما لا ينبغي أن يكون أبداً"[١].

وقال أبو حيّان عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ [النساء/٩٢]: "والمعنى : أنّ من شأن المؤمن أن تنتفي عنه وجوه قتل المؤمن ابتداء ألبتة ، إلا إذا وجد منه خطأ" [٢]، فليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا في حال الخطأ ؛ لأن صفة الإيمان رادعة عن ذلك.

ومما يدل على أنّ هذا التركيب يفيد المبالغة وقوع لام الجحود بعد (كان) المنفية ، قال ابن عاشور: "إذا نفت (ما) فعل (كان) أفادت قوّة النفي ومباعدة المنفي، وحسبك أنّها يبنى عليها الجحود في نحو: ما كان ليفعل كذا"[٣].

ووجه الدلالة على المبالغة في النفي أنّ نفي الكون يفيد نفي قصد الفعل والاستعداد له، وهو أبلغ من نفي الفعل نفسه ، ففرق بين قولهم : ما كان ليفعل كذا ، وبين قولهم: ما كان يفعل كذا، إذ الأول يدل على انتفاء القصد والاستعداد للفعل، ويلزم من انتفاء قصد الفعل نفي الفعل، والثاني ليس فيه إلا نفي القيام به فحسب[٤].

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أضواء المنار ــ المدينة المنورة ، ط٢، ١٤١٩هـ ، ٤٣٧/٢.
(٢) أبو حيّان ، البحر المحيط ، ٣٢٠/٣.
(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٢٥٦/١٣ـ٢٥٧.
(٤)انظر: ابن هشام ، مغني اللبيب، ٢٧٩/١ ، أبو حيان ،البحر المحيط، ٣٧٣/٣، وهذا الوجه على مذهب البصريين، فهم يرون أن لام الجحود تتعلق بمحذوف خبر كان قبلها، بينما يرى الكوفيون أن الفعل الذي دخلت عليه هو خبر كان وليس محذوفاً، والوجه عندهم أنّ اللامَ للتوكيد والكلامُ مع التوكيد أبلغُ منه بلا توكيد.(انظر: أبو البركات الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، ٥٩٣/٢ـ ٥٩٥، ابن هشام ، مغني اللبيب، ٢٧٨/١ـ٢٧٩، السمين الحلبي ، الدر المصون، ١٥٨/٢.)

المبحث الثاني:
الرّدع بضرب الأمثال

المطلب الأول:
معنى المثل وضربه وتصريفه

المطلب الثاني:
استعمال الأمثال في الرّدع

المطلب الأول:
معنى المَثَل وضربه وتصريفه

أولاً: معنى المَثَل لغة واصطلاحاً:

الأصل في معنى المثل الشّبه والنظير، يقول صاحب جمهرة اللغة: "المِثْـل: النظيـر. وجمع مَثَل أمثال وكذلك مِثْل ، وجمع مِثال أمثلة. ويقال: مثّلتُ كذا وكذا ؛أي: شبّهته"(١). وقال الجوهري(٢): "مِثْلَ: كلمة تسوية. يقال: هذا مِثْلُهُ ومَثَلَهُ كما يقـال شِـبْهُهُ وشَـبَهُهُ بمعنًى"(٣).

وصرّح ابن فارس برجوع مصطلح المثل إلى الشبه والنظير فقـال: "(المـيم والثـاء واللام) أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرَة الشّيء للشيء. وهذا مِثْـل هـذا، أي: نَظِيـرُه ، والمِثْل والمِثال في معنىً واحد... والمَثَل: المِثْل أيضاً، كشَبَه وشِبْه. والمَثَلُ المـضروبُ مأخوذٌ من هذا ، لأنّه يُذكَر مورّىً به عن مِثْلِه في المعنى"(٤).

وقد أورد هذا المعنى أبو هلال العسكري(٥) في جمهـرة الأمثـال(٦)، وابـن رشـيق القيرواني(٧) في العمدة(١) ، وأكده غير واحد من المفسرين ، كالزمخـشري والـرازي

---

(١) ابن دريد ، جمهرة اللغة ،٤٧٩/١.

(٢)هو:إسماعيل بن حماد الجوهري ، لغوي، من الأئمة، أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجـاز فطـاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نوسابور، من كتبه: الصحاح، العروض، توفي عام(٣٩٣ هـ).[الزركلي ، الأعلام،٣١٣/١].

(٣)الجوهري ، الصحاح ، ١٠١/٥، وهذا ما ذكره ابن منظور في لسان العرب ، مادة (مثل)،٦١٠/١١.

(٤) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، ٢٩٦/٥.

(٥)هو: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري، عالم بالأدب ، لـه شـعر، مـن كتبـه: التلخيص في اللغة ، وجمهرة الأمثال ، وديوان شعره، والفروق في اللغة، توفي بعد (٣٩٥هـ). [الزركلي ،الأعلام،١٩٦/٢].

(٦) أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) جمهرة الأمثال ، دار الفكر –بيروت ، ط٢، ١٩٨٨م، ٧/١.

(٧)هو: أبو علي ،الحسن بن رشيق القيرواني، أديب ناقد، قال الشعر، من كتبه: العمدة في صناعة الشعر،شرح موطأ مالك، ديوان شعره ، توفي بجزيرة صقلية عام(٤٦٣ هـ) .[الزركلي ، الأعلام،١٩٢/٢].

والبيضاوي وأبي حيّان وأبي السعود وابن عاشور، ونص عبارة الزمخشري: "والمثل في أصل كلامهم : معنى المثل ، وهو النظير. يقال: مَثَل ومِثْل ومثيل ، كشَبَه وشِبْه وشبيه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده : مثل ، ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلا للتسيير ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه ومن ثَمَّ حوفظ عليه وحمي من التغيير "[٢].

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني عِلّة تسمية المثل بهذا الاسم ، فقال: "إنما سمي مثلاً لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدًا ، يتأسى به ، ويعظ ،ويأمر ويزجر، والماثل: الشاخص المنتصب ، من قولهم : (طلل ماثل) ؛ أي: شاخص ، فإذا قيل: (رسم ماثل) فهو الدارس ، والماثل من الأضداد"[٣]، وبهذا يكون ابن رشيق قد أبرز الجانب الوعظي التربوي في وظيفة المثل.

يتضح مما سبق أنّ (المَثَل) و(المِثْل) يدلاّن على معنى واحد وهو كون شيء نظيراً للشيء.

ولكن مما تحسن الإشارة إليه هنا أنّ بعض الأئمة الأعلام لم يرض هذه المساواة، بل نبّه على الفرق بينهما، فقد نُقِل عن الخليل أن المَثَل لا يوضع موضع المِثْل في عقد المماثلة بين الأشياء المتشابهة ، يقال: هذا عبد الله مِثْلك ، وهذا رجلٌ مِثْلك ؛ لأنك تقول: أخوك الذي رأيته بالأمس، ولا يكون ذلك في (مَثَل) [٤].

---

(١) ابن رشيق القيرواني،(٤٦٣هـ) العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٧٢م، ١/٢٨٠.

(٢) الزمخشري ، الكشاف ،١/١٠٩، وانظر :الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢/٦٦ ، البيضاوي، أنوار التنزيل، ١/١٨٦،أبو حيان، البحر المحيط،١/٢٠٧، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١/٥٠، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١/٢٩٨.

(٣) ابن رشيق القيرواني ،العمدة في صناعة الشعر ونقده، ١/٢٨٠.

(٤) الأزهري ، تهذيب اللغة ،٥/٩٦، ابن منظور ، لسان العرب ،مادة (مثل)،١١/٦١٠.

وأوضح الفخر الرازي الفرق بين (المَثَل) و(المِثْل) ، فذكر أنّ المِثْل ـ بكسر الميم ـ يكون مساويا للشيء في تمام الماهية، وبفتحها يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية[١].

وقال الزركشي : المحققون على أن المِثْل ـ بكسر الميم ـ عبارة عن شبه المحسوس، وبفتحها عبارة عن شبه المعاني المعقولة ، فالإنسان يخالف الأسد في صورته ، وكذلك الغيث ، ولكن يُشبَّه بالأسد في جرأته وحدته ، وبالغيث في كرمه ؛ لمشابهته في عموم منفعته [٢].

ثم أضاف قائلاً :" لو كان (المَثَل) و(المِثْل) سيان للزم التنافى بين قولـه ﷻ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] وبين قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠] ، فإن الأولى نافية له ، والثانية مثبتة له"[٣].

وعلى ضوء ما تقدم يظهر أنّ (المَثَل) غير(المِثْل) ، فلكلٍ منهما معنىً يخصه ، ولا يوضع أحدهما موضع الآخر؛ فالمِثْل يقتضي المساواة في جميع الجوانب ، والمَثَلَ ليس كذلك ، بل يقتصر على المشابهة في بعض الجوانب ، وهذا ما يناسب دقة اللغة العربية[٤].

هذا وقد ذُكِرَ أن لفظ المثل في القرآن الكريم يأتي لعدة معانٍ ، منها:

١. العِبْرة والموعظة: ومنه قولـهﷻ : ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف/٥٦] ؛ أي: عِبرة وعظة لمَنْ جاء بعدهم من الأمم[١]،ليرتدعوا عن مثل أعمالهم.

---

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،١٣٢/٢٧ ، وماهية الشيء كنهه وحقيقته.[المعجم الوسيط ٩٢٨/٢]

(٢) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٤٩٠/١ ، والمحسوس: ما يُدرك بإحدى الحواس ، وعكسه المعنوي. [المعجم الوسيط١٧٩/١].

(٣) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٤٩٠/١ .

(٤) للمزيد حول الفرق بين (المِثْل) و(المَثَل) انظر: فياض، محمد جابر ، الأمثال في القرآن الكريم ، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ، ط١، ١٩٨٨م ، ١٥٣-١٦٢.

٢. الآية والحُجَّة: ومنه قوله ﷻ في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف/٥٩] ؛ أي :آية لهم ــ ليرتدعوا عما هم عليه من الكفر والضلال ــ وحُجَّة عليهم[٢].

٣. الشَّبه ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣] ؛ أي: الأشباه نبيّنها للناس[٣] ، وذلك بتشبيه حال شيءٍ بشيءٍ آخر ؛ ليكون أقرب إلى الفهم ، وأوقع في النفس.

٤. الصفة: ومنه قوله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد/١٥، الرعد/٣٥] ؛ أي: صفة الجنة[٤].

٥. العقوبة المُنَكِّلة (المَثُلة): قال ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴿٦﴾﴾ [الرعد/٦] ؛ أي: العقوبات المُنكِّلات التي تردع المُعاقب عن مِثْل ما عوقب به ، وتجعله مثلاً يَرتدِع به غيره عن إتيان مِثْل فعله [٥].

٦. الانتصاب والقيام والتصوير: ومنه قوله ﷻ : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم/١٧][٦].

---

(١) البلخي ، مقاتل بن سليمان ،(١٥٠هـ)الأشباه والنظائر ،تحقيق: عبد الله شحاته ، المكتبة العربية ــ القاهرة ، ١٩٧٥م، ٢٠٧، الطبري، **جامع البيان**،٢١/ ٩٢٤، ابن منظور : **لسان العرب**،مادة(مثل)، ١١/ ٦١٠.

(٢)الطبري، **جامع البيان** ، ٦٢٩/٢١، الدامغاني ، أبو عبد الله الحسين بن محمد ،(٤٧٨هـ) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، تحقيق: عربي عبد الحميد ، دار الكتب العلمية، ٤١٨، ابن كثير ،**تفسير القرآن العظيم**،١٣٤/٤، ابن منظور ،**لسان العرب**، ٦١٠/١١ ، عبد اللطيف ، محمد عبد الوهاب ، **موسوعة الأمثال القرآنية** ، ط١، مكتبة الآداب ــ القاهرة ، ١٩٩٤م،١/١٩٩-٢١٦.

(٣)مقاتل بن سليمان،الأشباه والنظائر، ٢٠٧ ، ابن أبي زمنين ، **تفسير القرآن العزيز**،٣٧٢/٣، الزمخشري، **الكشاف** ،٤٥٩/٣.

(٤)انظر:الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧هـ) **معاني القرآن**، ط٣، عالم الكتب ــ بيروت، ١٩٨٣م، ٦٥/٢، ٦٠/٣، الطبري ، **جامع البيان**،٤٧٢/١٦، ١٦٦/٢٢، النحاس ، **معاني القرآن**،٦/٣،٤٧٢/٥٠١، الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ٤٦٤.

(٥)انظر: الفراء، **معاني القرآن**، ٥٩/٢، الطبري، **جامع البيان** ،٣٥٠/١٦، ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ٢٩٦/٥، الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ٤٦٦.

(٦)انظر: الفراهيدي ، **العين**، ٢٢٨/٨، الراغب الأصفهاني ، **المفردات** ، ٤٦٤، الفيروز آبادي ،**بصائر ذوي التمييز**،٤٨٢/٤

مما تقدم يتضح أن (المَثَل) يأتي في اللغة بمعنى الشبه والنظير ، وبمعنى القول السائر الممثل مضربه بمورده ، وأن لفظ المثل جاء في القرآن الكريم لعدة معانٍ .

المَثَل في الاصطلاح :

عُرِّف المثل بتعريفات متعددة ، أذكر تاليًا بعضًا منها:

- المثَل : هو "عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشْبِه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مُشَابَهةٌ ؛ ليُبيِّنَ أحدُهُما الآخر، ويصوِّره"[١]. ذكره الراغب الأصفهاني ، وقال: وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في كتابه العزيز [٢].

- وعرّف ابن القيم المثل بأنّه: "تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الأخر واعتبار أحدهما بالآخر"[٣].

- وعرّفه آخرون بأنه: "إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً"[٤].

وهذه التعريفات تدور حول معنى واحدٍ ، هو **إظهار المعني في صورة حسيّة قريبة الفهم؛ ليكون وقعه أمكنَ في النفس ، وأرسخَ في الذِّهن .**

ثانياً: معنى ضرب المَثَل :

الضرب في اللغة: "إيقاع شيء على شيء"[١]، وقيّده أبو حيّان بالعنف، فقال: " إمساس جسم بجسم بعنف"[٢].

---

(١)الراغب الأصفهاني، المفردات ،٤٦٤.

(٢)الراغب الأصفهاني، المفردات ،٤٦٤.

(٣)ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي(٧٥١هـ) **الأمثال في القرآن الكريم**، تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة ــ طنطا ، ط١،١٩٨٦م، ٩، **إعلام الموقعين** ، تحقيق: طه عبد الرءوف، دار الجيل ــ بيروت،١٩٧٣م، ١/١٥٠.

(٤) القطان، مناع ، **مباحث في علوم القرآن** ، مكتبة المعارف ــ الرياض، ط٣ ، ٢٠٠٠م، ٢٩٢، عبد اللطيف ، **موسوعة الأمثال القرآنية** ،١/١٧٨ ، نقلاً عن عبد الله شحاته، **علوم القرآن والتفسير** ،٢١٢.

وجاء المثل مُصدَراً بلفظ (الضرب) في غير ما آية من آيات الذكر الحكيم بصيغ متعددة ، قال ﷻ: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم/٢٥] ، وقال ﷻ: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف/٣٢] ، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الروم/٥٨] .

وقد ذُكر في المراد من ضَرْب المثَل في القرآن الكريم عدة أقوال ، منها الآتي:

أولاً : تسييره في البلاد ، وإدارته على ألسنة النّاس ، من قولهم: ضَرب فلان في الأرض ؛ إذا سار فيها ، ومنه سمي المضارب مضاربًا، ويقوم قوله ﷺ :﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم/٢٥] مقام قوله: ضرب في البلاد[٣] ، وعلى هذا فضرب المثل مأخوذ من ضرب في الأرض ، بمعنى : سار ، كما قال ﷻ:﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء:١٠١] ، فالضرب في الأرض هو السير فيها ، وبهذا يكون ضرب المثل إذاعته وشهرته.

ثانياً: نصبه للنّاس بالشُهرة لتستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء نواظرهم، ويكون قوله ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد/١٧] على هذا الوجه؛ أي: ينصب منارهما ويوضح أعلامهما ؛ ليعرف المكلّفون الحقّ بعلاماته فيقصدوه، ويعرفون الباطل بسماته

---

(١)الراغب الأصفهاني، المفردات ، ٢٩٨

(٢)أبو حيّان ، البحر المحيط، ٢٦٢/١.

(٣) أبو هلال العسكري ، **جمهرة الأمثال** ،١ /٢، الشريف الرضي، محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى الكاظم الموسوي ،(٤٠٦هـ) **تلخيص البيان في مجاز القرآن** ، ط١، عالم الكتب – بيروت ، ١٩٨٦م،١٠٥.

فيجتنبوه[١]، وبهذا يكون ضرب المثل نصبه للناس وإيضاحه لهم؛ ليتأثروا به، وينتفعوا بمضمونه.

ثالثاً: من ضَرْب الدّراهم ــ وقيل له الطبع اعتباراً بتأثير السّكّة فيه[٢] ــ وهو ذكر شيءٍ أثَرُهُ يَظْهَر في غيره[٣]، وذلك لأنّه يذكر لكل "حالٍ ما يُناسبها ويُشابهها فيُظهر من حسنها أو قُبحها ما كان خفياً"[٤]، فهو لمطابقته للحال يحدث في النفس أثرًا قويًا ، كأثر السّكة في الدرهم.

والتعبير بلفظ (الضرب) مع المثل له سِر أفصح عنه صاحب تفسير المنار بقوله:" ولما كان المراد بالمثل بيان الأحوال كان قصةً وحكايةً ، واختير له لفظ الضرب ؛ لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه"[٥].

وعلى هذا يمكن القول إن الأمثال المضروبة في القرآن الكريم منبهات سيّارة في الأرض بين العباد ، ومنارات هداية شاخصة منتصبة، تؤثر في النفوس كما تؤثر السّكّة في الدرهم ، ولا ريب أنّ لها أثرًا في الرّدع ؛ لأنّها تبرز المردوع عنه وتظهره في صورة تستقبحها النفس ، وتنفر من سوء عاقبتها.

ثالثاً: معنى تصريف المَثَل :

لقد أخبر الله ﷻ أنّه صرّف للناس الأمثال في كتابه العزيز، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء/٨٩] .

---

(١) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجاز القرآن ،١٠٥ .

(٢) السّكّةُ: هي حَدِيدَةٌ مَنْقُوشَةٌ كُتِبَ عليها يُضْرَبُ عليها الدَّراهِمُ .[لسان العرب ، مادة(سكك)، ١٠/٤٣٩].

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات ، ٢٩٨.

(٤)المراغي، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابلي بمصر ، ط١، ١٩٤٦م،١/٦٨.

(٥)محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ)، تفسير المنار، دار المنار ــ القاهرة، ط٢،١٩٤٩، ١/٢٣٦ ، وانظر : عبد اللطيف ، موسوعة الأمثال في القرآن ،١/٨٧.

وذكرت فيما تقدم أنّ معنى التصريف في اللغة هو الرّد والتحويل ، ومنه تصريف الريــاح ، وصرف الدراهم ، ثم يخرج هذا اللفظ إلى عدة معانٍ ، كالتزيين والزيادة ، والترديد والتكريــر، والتبيين، والتنويع ، وأنّ التصريف في القرآن الكريم يعني التنويع والتغاير ، والانتقال من حــال إلى حال بأساليب متعددة ، وهو يستوفي كل الاحتمالات التي يُرجى نفعها ولو لبعض الأفراد أو الجماعات ، لقطع أعذار المكلفين ، حتى لا تكون لهم حُجّة عند الله ﷻ.

وإذا كان التصريف في القرآن الكريم يعني التنويع والتغاير، كتنويع الرياح وتغايرهــا ؛ فــإن تصريف الأمثال يعني ردها وتنويعها ، وتحويلها من أسلوب إلــى آخــر، وعرضــها بــصور مختلفة.

يقول صاحب موسوعة الأمثال في القرآن ــ فيما نقله عــن الـشيخ محمــد الغزالــي ــ : "وتصريف الأمثال للناس ترديدهم بين صنوف المعاني الرائعة... وأسلوب القرآن الكــريم فــي استلال جفوة من النفس ، وإلقاء الصواب في الفكر، أوفى على الغاية في هذا المضمار ، ذلــك أنه لوّن حديثه للسامعين تلوينًا يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معًا ، ثم يُتابع سوقه متابعــة إن أفلت المرء منها أولاً لم يفلت منها آخرًا ... وذلك هو تصريف الأمثال للناس"[١].

ويقول الشيخ أبو زهرة مبينًا معنى تصريف الأمثال للناس : الصرف الرّد من حال إلى حال، والتصريف هو التحويل من حال إلى حال من أحوال الهداية والرحمة وشفاء الــصدور ، ممــا يجعل الحقّ واضحًا بين أيديهم فأتى ﷻ في كتابه الكريم بضروب من البيان والهدايــة ، ولــم يجعل موضعًا لريب مرتاب أو مراء من العقول[٢].

---

(١)عبد اللطيف ، موسوعة الأمثال في القرآن ١٠/١٩٤.

(٢)أبو زهرة، محمد، (١٩٧٤م) زهرة التفاسير، دار الفكر العربي ،٩/٤٥٤٦-٤٥٤٧.

فتصريف الأمثال وتنويعها ليس مجرد أسلوب ، بل هو منهج مقصود له أهداف نبيلة وغايات سامية يرمي إليها، أجلها وأعلاها تعبيد الناس لله ﷻ وحده، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف/٥٤] .

فقد أخبر الله ﷻ أنه نوّع في هذا القرآن للنّاس أنواعًا كثيرة من الأمثال ، وعرضها بطرق شتى، وصور متباينة ــ "تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار"[1]ــ ليتعظوا بها فيؤمنوا به ﷻ احتجاجا بذلك عليهم ، وتنبيها لهم على الحقّ ليهتدوا إليه ويعملوا به، ويرتدعوا عن الكفر والمعاصي متى أعملوا عقولهم لتدبرها وفهما، فأبى أكثرهم إلا جحودا للحقّ، وإنكارًا لحجج الله ﷻ وأدلته، فلم ينفع فيهم تنويع الأمثال وتغايرها، بل كانوا أكثر المخلوقات خصومة وجَدَلاً[2].

ولكنّ أكثر الناس عطلوا عقولهم ــ التي ميّزهم الله ﷻ بها ــ عن فهم أمثال القرآن الكريم وتدبرها ، ورفضوا الإذعان لأمر الله ﷻ ، وازدادوا نفورًا عن الحقّ الواضح لهم وضوح الشمس في رابعة النهار...!

(١)سيد قطب، في ظلال القرآن،٤/٢٢٥٠.

(٢)انظر: الإمام الطبري، جامع البيان، ١٧ / ٥٤٨، ١٨ / ٤٨.

المطلب الثاني:
استعمال الأمثال في الردّع

كثُرت الأمثال في القرآن الكريم وتنوعت ، وعُرِضت بصور مختلفة ، وأساليب متعددة، وهي تحقق أغراضاً سامية ، وفيها فوائد جمّة ؛ ولذلك امتنَّ الله ﷻ على النّاس بها، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر/٢٧] ، وقال ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت/٤٣] ، "فمن تدبير الله ﷻ لعباده أن ضرب لهم الأمثالَ من أنفسهم ؛ لحاجتهم إليها ؛ ليعقلوا بها ، فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، بما عاينوا "[١]، ومن عقل هذه الأمثال كان من العالمين.

وقد تحدث العلماء عن فوائد ضرب المثل في القرآن الكريم ، وأشار بعضهم إلى دور المثل وأثره في الردّع ؛ فقد ذكر الإمام الشافعي[٢] ﷺ أنّ الأمثال المضروبة في القرآن الكريم دوالّ على طاعة الله ﷻ ، مُبيِّنة لاجتناب معصيته ، وتَركُ الغَفلَة عن الحَظّ والازديَاد من نوافل الفضل ؛ ولذلك عدَّ الأمثال مما يجب معرفته من علوم القرآن[٣].

---

(١)الحكيم الترمذي ، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن ،(٣٢٠هـ) الأمثال في الكتاب والسنة ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١،٢٠٠٣م،٦-٧.

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب، الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة،وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة (بفلسطين) ،أفتى وهو ابن عشرين سنة، من كتبه: الأم، المسند في الحديث ، أحكام القرآن، توفي عام(٢٠٤هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء ،١٠/٥ وما بعدها،الزركلي ،الأعلام،٦/٢٦-٢٧].

(٣)الشافعي، محمد بن إدريس(٢٠٤هـ) أحكام القرآن، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٠٠هـ،١/٢٢.

وأشار عبد القاهر الجرجاني[١] ــ في حديثه عن تأثير المثل، وتفضيل العقلاء له على غيره من الأساليب ــ إلى دور ضرب المثل في الرّدع ، فقال: "وإن كان وعظاً، كان أشفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزّجر، وأجدر بأن يُجلّيَ الغَيَاية ، ويُبصّر الغاية ، ويُبرئ العليل، ويَشفِي الغليل"[٢].

وممن أشار إلى أثر ضرب المثل ودوره في الرّدع ابن القيم والزركشي ، وذلك حينما أوردا عدداً من الأغراض التي لأجلها تُضرَب الأمثال في كتاب الله ﷻ ، فذكرا: التذكير، والوعظ، والحثّ، والزّجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحسّ، وبيان تفاوت الأجر ، وتفخيم الأمر أو تحقيره ، وتحقيق أمر وإبطال أمر ، وتشتمل على المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب[٣].

يتضح مما سبق أن لضرب المثل أثرًا واضحًا ، ودورًا بارزًا في الرّدع ، وذلك بإظهار الذم للأمر وتحقيره ، أو إبطاله ، أو بيان سوء عاقبته وشدة عذابه ، ولما كان تفصيل ذلك يطول فإنني أكتفي بإيضاح ذلك من خلال الأمثال القرآنية الآتية :

المثل الأول:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة/١٧١].

---

(١)الجرجاني:هو: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، النحوي، الشافعي، الأشعري، وكنيته أبو بكر، إمام مشهور وفضائله مذكورة في ألسنة الأعيان من العلماء ،من مصنفاته: إعجاز القرآن،دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة في علم المعاني ،توفي عام(٤٧١هـ). [الأدنروي، طبقات المفسرين،١٣٣].

(٢)عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ، أسرار البلاغة ، دار الكتاب العربي ــ بيروت، ط١،١٩٩٦م،٩٥. والغَيَايَة: كل ما أظَلَّ الإنسانَ فوق رأسه.[ابن منظور، لسان العرب، ١٥/ ١٤٣].

(٣)ابن القيم ،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (٧٥١هـ) **بدائع الفوائد** ، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز ــ مكة المكرمة ،١٩٩٦م ،٤/٨١٥ ،الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ١/٤٨٦.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الكفر في إعراضهم عن سماع الحق ، وتقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام ، إنّهم مثل الحيوانات التي لا تفقه ما يقال لها ، وإنّما تسمع الصوت فقط .

يقول الفخر الرازي : لما حكى ﷻ عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى إتباع ما أنزل الله ﷻ تركوا النّظر والتدبر، وأخلدوا إلى التقليد ، ضرب لهم هذا المثل تنبيهاً للسامعين لهم إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء ، وقلة الاهتمام بالدِّين، فصيّرهم من هذا الوجه بمنزل الأنعام ، وضرب هذا المثل يزيد السّامع معرفة بأحوال الكفار ، ويُحقِّر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسراً لقلبه ، وتضييقاً لصدره ، حيث صيّره كالبهيمة ، فيكون في ذلك نهاية الرَّدع والزّجر لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد(١).

وفي هذا المثل ذم للمُعْرض عن الحقّ وتحقير له ، وكفٌّ لغيره عن أن يسلك مثل مسلكه ، وردع لكلّ عاقل عن تعطيل أدوات الهداية التي وهبه الله ﷻ إياها ، وميّزه بها، وزجر له عن النزول إلى درجة ما لا يعقل ولا يفقه شيئًا مما يسمع.

المثل الثاني:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف/١٧٥، ١٧٦].

وهذا مثل ضربه الله ﷻ لكل مَن انحرف عن هدايته ﷻ وانسلخ عن دينه واتبع هواه بأخسّ الحيوانات وأسفلها وهو الكلب ، وبمجرد أن يمثّل هذا الإنسان المنسلخ بالكلب، فهذا ذم وتحقير

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٨/٥.

له ، وردع لغيره ؛ لأنّ الطباع السليمة لا تألف الكلب، فهو ملازم للحقارة والدناءة" يأكل العذرة، ويرجع في قيئه، والجيفة أحبّ إليه من اللحم الغريض"[١]، فكيف به وقد مُثّل حالُه بالكلب موصوفًا وصفًا قبيحًا ظاهرًا للعيان﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ وهذه "أخسّ أحواله وأقبحها"[٢]؟!

لقد صوّر المثل عالم السوء المنسلخ عن آيات الله ﷻ بعد أن عرفها تصويرًا قرّب المعنى إلى الذهن، وجعل المعقول في صورة المحسوس ، ووضّح الخفي حتى أصبح جليًّا ... فكم شقي أناسٌ بهذا العلم الذي لم ينتفعوا به ، وما قيمة هذا العالِم الذي أصبح مثله كمثل الكلب ؟! تصوير في غاية البشاعة والشناعة ، فمن يرضى لنفسه أن يكون في هذه المرتبة الخسيسة، والمكانة الدنيئة والمرتبة المتدنية المتدلية ؟![٣]

حقًا إنّه تمثيل فيه من الذم والتحقير، وإثارة النفور والاشمئزاز ما يردع الإنسان العاقل عن الرّدة والانسلاخ من آيات الله ﷻ ، والتخلي عن إتباعها والعمل بها ، وإتباع أهوائه وشهواته وتقديمها على أوامر الخالق ﷻ ، فحري بكل عاقل فضلاً عن عالم أن يتبيَّن للأمر فإنّه جِدٌّ خطير.

المثل الثالث:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

[إبراهيم/٢٦].

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني ، ٩/١١٥، والغريض: الطّريُّ [ابن منظور، لسان العرب،٧ / ١٩٣].

(٢) رشيد رضا، محمد ،تفسير المنار، ٩/٤٠٨، المراغي ،تفسير المراغي، ٩/١٠٩.

(٣) انظر: عبد اللطيف ، موسوعة الأمثال القرآنية ،١/٤٩٤-٤٩٥.

في الآية الشريفة ذم للكلمة الخبيثة ــ وهي كلّ كلمةٍ لا يرضاها الله ﷻ من كفر ودعوة إلـى الكفر والكذب ، وغير ذلك من كلام السوء[١]ــ وتنفير منها، وردع عنها ، فقـد ضـرب الله ﷻ لها مثلاً بالشجرة الخبيثة الضارة المؤذية الخالية عن كل المنافع ، فهي مكروهة المنظر والطعم والرائحة[٢]، وليس لها جذور متمكنة من الأرض ، ولا فرع صاعد إلى السماء ، فلا ثبات لها ، ولا نفع فيها ، ولا خير يرجى منها ، كذلك الكلمة الخبيثة لا تنفع صاحبها، ولا ينتفع بها غيـره، بل إنّها تلحق الضرر به، وقد تلحقه بغيره.

وهذا المثل يُنفِّر من الكلمة الخبيثة ، ويُحرّك قلب المتدبر له ليرتدع عن النطق بتلـك الكلمـة التي لا تُقبل عند الله ﷻ ، ولا يصعد إليه ﷻ منها عمل صالح مهما وجُدت دواعي النطق بها.

المثل الرابع:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ [البقرة/٢٦٤].

ضرب الله ﷻ هذا المثل للرّدع عن المنّ والأذى بالصدقات ، وذلك بإثارة الخوف والحذر في الإنسان المتصدق من خسارة صدقته وإبطال ما فيها من أجرٍ وثوابٍ ، فقد مثّـل الله ﷻ الـذي يُتبع الصدقة منّاً وأذى بالذي ينفق ماله رياءً وسمعة ولا يبتغي رضـاه ﷻ ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

---

(١) انظر : الألوسي ، روح المعاني ، ٢١٤/١٣.

(٢) انظر :الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،٢٩/١٩.

﴿ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ وللمبالغة في الرّدع عن ذلك[١]ضرب لهذا المنفق رياء مثلاً آخر يسري – كما يقول ابن عاشور – إلى الذين يُتبعون صدقاتهم بالمنّ والأذى، مثّل حاله بحال صفاة ملساء عليها تراب يوهم الزارع أنّه صالحٌ للزرع ، فإذا زرعه وطمع في نماءِ زرعه ، أصابه غيث غزير فذهب بالتراب وما زُرع فيه ، وبقيت الصفاة مكانها ملساء ، فخاب أمل ذلك الزارع [٢].

قال ابن القيم[٣]:"وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله ﷻ واليوم الآخر بالحجر لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به ، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر ، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها، كما يُذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا ، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله"[٤].

هذه هي العاقبة والنتيجة ؛ خيبة أمل ، وحسرة وألم على فوات الثمر ، وندم على عدم الانتفاع بما بُذِر، وكذلك المرائي في إنفاقه، فلا المال أبقاه فاستفاد منه وانتفع به في الدنيا، ولا ابتغى في إنفاقه وجه الله ﷻ ليحصل على الأجر والثواب في الآخرة ، بل أنفقه ليظهر أمام النّاس بمظهر الكرم والسخاء ، وفي الآخرة لا يجد له شيئًا من الثواب عليه ، وهذا المثل يُثير الخوف في المؤمن ليرتدع عما يبطل صدقاته ، ويحول بينه وبين ثوابها في الدار الآخرة.

---

(١) أشار لها البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٥١٧/١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ٥٢٠/١.

(٣) هو:أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية ،وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، من تصانيفه: التبيان في أقسام القرآن ، توفي عام(٧٥١ هـ). الزركلي ،الأعلام، ٥٦/٦].

(٤)ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب، (٧٥١هـ) **طريق الهجرتين** ، ط٢، دار ابن القيم – الدمام، ١٩٩٤ م ، ٥٤٥.

المثل الخامس:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل/١١٢].

هذه الآية الكريمة فيها مثل ضربه الله ﷻ عن قرية[1]كان أهلها يعيشون في أمان واطمئنان، وتتدفق عليهم الأرزاق والخيرات من كل مكان ، ولكنّهم بدل أن يُقابلوا تلك الـنِّعم بالإيمــان ، وشكر الله الكريم المنّان ، تحولوا عن ذلك فكفروا بالله ﷻ ، وجحدوا نِعَمه عليهم ، فماذا كانــتْ النتيجة ، وما هي النهايةُ والعاقبة ؟! إنّها نهاية مؤلمة وعاقبة وخيمة ، فقد أبدلهم الله ﷻ بــأمنهم خوفا شاملاً ، ورزقهم الرغيد جوعاً عاماً ؛ عقوبة لهم على ما كانوا يصنعون ، وردعاً لغيرهم عن الكفر بالله ﷻ وعن جحود نِعَمه وكفرانها.

والتعبير في الآية الكريمة ــ كما يقول صاحب الظلال ــ "يجسم الجــوع والخــوف فيجعلــه لباسًا ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقًا ؛ لأنّ الذوق أعمق أثرًا في الحسّ من مساس اللبــاس للجلد . وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مسّ الجوع والخــوف لهــم ولذعــه وتأثيره وتغلغله في النفوس. لعلّهم يشفقون من تلك العاقبــة التــي تنتظــرهم لتأخــذهم وهــم ظالمون"[2].

فقد جعل الله ﷻ حال قرية مثلاً مصورًا لمن يكون فى رغد العيش والامن والاستقرار ، ثــم يكفر بنعمة الله ﷻ لينزل عليه البلاء ؛ فهذا المثل بما فيه من تصوير لحال الذين جحدوا نِعَمَ الله

---

(١) من المفسرين كالإمام الطبري من يرى أن المراد بهذه القرية مكة المكرمة، فيما ذهب آخرون كالزمخشري إلى انها قريــة غير معينة كانت على هذه الصفة.[انظر: الطبري، جامع البيان،١٧/ ٣١٠ــ٣١١، الزمخشري، ٢/ ٥٩٦].

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٤/ ٢١٩٩.

ﷻ عليهم وبيان لسوء عاقبتهم وشدّة العذاب الذي حلّ بهم، وبما يُثيره في الإنسان المتدبر من خوف من عقاب الله ﷻ وشدّة عذابه يردع عن الأسباب التي تزيل النِّعم ، وتوجب النِّقم ، وتُعرِّض النفس للهلاك ، ويبرز مَنْ يَنْهَضُ للرّدع عن كل ما يُبدّل سعة الرزق ورغد العيش بالجوع، والأمن بالخوف ، والطمأنينة بالشقاء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [إبراهيم/٧] .

وهكذا تعمل الأمثال القرآنية على إظهار الذم للأمر وتحقيره ، أو إبطاله ، أو بيان سوء عاقبته وشدة عذابه ؛ لإثارة النفور والاشمئزاز منه ، والخوف والحذر من عقابه ، وصولاً إلى الرّدع ، مما جعلها ضمن طرق الرّدع في القرآن الكريم .

المبحث الثالث:
الرّدع ببيان ما حلَّ بالأمم السابقة

المطلب الأول :
تنوع ما حلَّ بالأمم السابقة بتنوع أسبابه

المطلب الثاني:
بيان ما حلّ بالأمم السابقة للرّدع عن أسبابه

المطلب الأول:

تنوّع ما حلّ بالأمم السابقة بتنوّع أسبابه

الأمم جمع أمّة، وهي: "كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إمَّا دينٌ واحدٌ أو زمـــانٌ واحـــدٌ أو مكان واحدٌ ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيراً أم اختياراً"[١].

وقد تحدث القرآن الكريم في كثير من الآيات عن عذاب الله ﷻ وعقابه الذي أنزله في الأمم الماضية، وبيّن ما أصابها، وما حلّ بها في ديارها.

وقد تبيّن من مجموع تلك الآيات أنّ عذاب الله ﷻ وعقابه لتلك الأمم لم يكـــن مقتـــصرًا على نوع واحد ولا على لون معين ، بل كان على صور متنوعة وألوان مختلفة ، وذلك بحسب تنوّع جرائمهم، وتفاوت عصيانهم لخالقهم ورازقهم ﷻ ، قال شيخ الإسلام ابـــن تيمية[٢]: "وكان عذاب كلّ أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم ، فعُذِّب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية ، وعذّب قوم لوط ﵇ بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم ، فجمع لهـــم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم بأن جعـــل عاليها سافلها ، والخسف بهم إلى أسفل سافلين ، وعذّب قوم شـــعيب ﵇ بالنـــار التـــي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعـــدوان، وأمـــا ثمـــود فـــأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال"[٣].

---

(١) الراغب الأصفهاني ، **المفردات**، ٣٣.

(٢)هو: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني إمام، مجتهد، حافظ تفوق في شتى العلوم، امتحن وأوذي في الله ، مات معتقلاً في دمشق عام(٧٢٨هــ)، من مصنفاته: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الفتاوى وغيرهما.[ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** ، ٨٠/٦].

(٣) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (٧٢٨هــ)، **مجموع الفتاوى**، دار الكتب العلميـــة ــ بيـــروت، ط١، ٢٠٠٠م ، ١١٤/١٦ ، وانظر: ابن قيم الجوزية(٧٥١هــ)، **التبيان في أقسام القرآن**، دار الفكر، بيروت، ١٩.

فما من أمة من الأمم السابقة المعرضة عن أمره ﷻ إلا وقد أُخِذت على قدر ذنبها وعوقبت بعقوبة ملائمة له ،قال تعالى:﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت/٣٨ــ٤٠].

فهذه الآيات تُبيِّن أنّ الله ﷻ أهلك هؤلاء المذكورين المكذبين لرسله ، ونوّع في عذابهم، فكانت عقوبة كلٍّ منهم مناسبة للذنوب التي اجترحها[1] ؛ فمِنْهُمْ مَنْ أمطر الله ﷻ عليهم حجارة من سجّيلٍ مَنضُود ، كقوم لوط ﵇ ، ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب عليهما السلام، ومنهم من خسف الله ﷻ به الأرض وهو قارون ، ومنهم من أغرقه ﷻ كما فعل مع قوم نوح ﵇ ومع فرعون وقومه ، وما كان الله ﷻ ليُهلك هؤلاء بذنوب غيرهم ، فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق ، وإنَّما أهلكهم بسبب تنعمهم في نِعَمه ﷻ ، وعبادتهم غيره ، فهم بذلك قد ظلموا أنفسهم[2]، وأوردوها موارد التهلكة ، بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي.

وهذا هو مصير أعداء الله ﷻ في كلِّ حين ، وتلك هي عاقبة العُصاة المكذبين الضالين ؛ ذلكم لأنَّ الإصرار على الذنوب والمعاصي يُردي الإنسان ، ويجلب عليه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٨/٣ ــ ٣٩٩.

(٢) الطبري، جامع البيان، ٣٥/٢٠ ــ ٣٨ ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٨/٣ ــ ٣٩٩.

المصاعب والمتاعب، وقد يكون سببًا في تعجيل سخط الله عليه ﷻ وعقوبته له في الدنيا، ولا سبيل إلى السلامة من ذلك إلا بطاعة الله ﷻ، وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه.

اقتران ذكر العذاب بذكر سببه

والمتأمل في كتاب الله العزيز يجد أنّه حينما يذكر نوع العـذاب الـذي أنزلـه الله ﷻ بالسابقين يذكر معه ـ في الأعم الأغلب ـ السبب الذي أدى إليه ، ومن ذلك قولـه ﷻ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال/٥٢] ، وقولـه ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل/١١٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف/٥٩] ، وقوله ﷻ:﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات/٤٣، ٤٤] .

فهذه الآيات الكريمات ذكرت أسباب هلاك أمم سابقة وعذابها ، وهي: الكفر ، والظلم، وكفران النِّعم وجحودها ، والعتو والتمرد عن أمر الله ﷻ ، وقد جـاء ذكرهـا مقرونـاً بالعقاب ، ولعلّ في هذا الربط رادعًا قويًّا عن الوقوع في مثل ما وقع فيـه الـسابقون، وأُهلِكوا بسببه ؛ لأنّ العاقل حينما يعلم أنّ ما حلّ بالسابقين كان نتيجة لما ارتكبـوا مـن الذنوب والمعاصي لا شك أنّه يرتدع عن مثل أعمالهم ، لئلا ينزل به مثل ما نزل بهم من العقاب .

وعقوبة الهلاك التي أوعد الله ﷻ بها الأمم التي تُخالف أمره ، وتُكذّب رسله لها موعد صدق يأتيها وإن طال على سبيل الاستدراج أو الإمهال، إذ هو سنة كونية يعـذب الله ﷻ بهـا الأمـم المخالفة أمة تلو أمة ، قَالَ تَعَالَى:﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر/٤٣] ، أي:" أجرى الله ﷻ العذاب على الكفار، ويجعل ذلك سـنّة فيهم، فهو يعذّب بمثله من استحقه، لا يقدر أحد أن يُبدّل ذلك، ولا أن يُحوّل العذاب عـن نفـسه إلى غيره"[1] ؛ فالله ﷻ يحذّر كل أمة مما حلّ بالأمة أو الأمم التي قبلهـا ، قـال ﷻ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم: ٤٢].

الأمم التي جرت عليها سنة الله ﷻ في الإهلاك

وقد جرت هذه السنّة الإلهية على أمـم كثيـرة ؛﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم/٩] ، وهي سُنّة لا تحـابي أمّـة ، ولا تتجـاوز مستحقاً للعقاب، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء/١٧] ، قال الإمام الطبري في تفسير الآية الكريمة ما ملخصه: إنّ الله ﷻ قد أهلك من بعد زمان نوح قروناً كثيرة كفروا بالله ﷻ وكذبوا رسله ، وما نزل بهم مـن عقـاب ينزل بمن سلك طريقهم في الكفر بالله ﷻ، وتكذيب رسله ؛ لأنّه لا مناسبة بين أحـد وبـين الله ﷻ، فيعذّب قوماً بما لا يعذّب به آخرين أو يعفو عن ذنوب ناس فيعاقب عليها آخرين [2].

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ١٤/٢٣٠.

(٢)الإمام الطبري، جامع البيان ،١٧/٤٠٧.

وقد ذُيلت الآية الكريمة بما يردع عن أسباب استحقاق تلك الأمم لعذاب الله ﷻ ونزول عقابه بها ، فقال ﷻ: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ، فهذا خطاب للرسول ﷺ بما هو ردع للنّاس كافة عن أسباب استحقاقهم للعذاب والهلاك؛ لأن الله ﷻ عالم بذنوبهم، محيط بحقائق الأشياء ظاهرًا وباطنًا لا تخفى عليه منها خافية ، قادر على أخذهم ومجـازاتهم على أعمالهم(١).

وقد أمر الله ﷻ بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي جرت عليها سـنته ؛ للاعتبار والاتعاظ الذي يؤدي إلى الرّدع عن أسباب الهلاك والعقوبة في الدنيا والآخرة، فقال ﷻ :﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران/١٣٧] ، وأكثر المفسرين ــ كما يقول الرازي ــ على أن المراد بالسنن في الآية الكريمة سنن الهلاك، بدليل قوله ﷻ: ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾"(٢)، وفي هذه الآيات البيّنات بيّنات واضحات لكلّ ذي عقل وفهم في عصرنا أن يتنبه لما يجـري في هذا الزمان من معاصٍ ومخالفات ــ نسأل الله ﷻ العفو والسلامة منها ومن تبعاتها.

---

(١) انظر : النيسابوري القمي، غرائب القرآن ،/ ٣٢٤، ابن عادل ، اللباب ،١٢/٢٤٠، الشوكاني، محمد بن علي (١٢٥٠هـ) فتح القدير ، دار الفكر ــ بيروت ، ٣ / ٢١٤.

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٩/١١.

المطلب الثاني:
بيان ما حل بالأمم السابقة للردّع عن أسبابه

لقد قصّ القرآن الكريم أخبار أمم سابقة ، وذكر بعض أنواع العقوبات التي أُنزِلت بالعاصين والمنحرفين منهم ، ليثير في الإنسان الخوف والحذر من سوء العاقبة ، وليكون لديه محرض ذاتي يردعه عن مثل أقوالهم وأعمالهم ، وهذا ما أشارت إليه آيات كريمة، منها:

أولا: قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة/٦٥ـ ٦٦].

فقد أوصى الله ﷻ بني إسرائيل بحفظ السبت وأمرهم بالتزام ما حرّم عليهم ، فقال ﷻ: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ [النساء:١٥٤] ، ولكنهم لم يمتثلوا أمر الله ﷻ وخالفوا عهده وميثاقه ، فاعتدوا في السبت وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب ما نهاهم الله ﷻ عنه، وذلك بقطع الحيتان ـ التي تظهر يوم السبت وتختفي في غيره ـ عن البحر يوم السبت وحبسها في حفائر وأخذها في يوم بعده ، كما قال ﷻ: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

أي : "واسأل يا محمد ﷺ هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ﷻ ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم"(١).

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٤٦.

قال القرطبي : وهذا سؤال توبيخ و تقرير ، وكان ذلك علامةً لصدق النبي ﷺ، إذ أطلعه اللّـــه ﷻ على تلك الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بغير الوحي، وكانوا يقولون: نحن أبنـــاء اللّـــه وأحباؤه؛ لأنا من سبط خليله إبراهيم ، ومن سبط موسى كليم اللّه ﷻ، ومن سبط ولده عزير ، فنحن من أولادهم، فقال اللّه لنبيه ﷺ سلهم يا محمد عن القرية، أمَا عذبتُهم بذنوبهم [(١)]؟!

فالسؤال في الآية سؤال توبيخ وتقريع لليهود على عصيانهم لعلّهم يتوبون أو يرجعـــون إلـــى الحقّ، فلا يُعرّضون أنفسهم لعقوبات اللّه ﷻ التي نزلت بأسلافهم السابقين، الذين كانوا يعتـــدون في السبت بالصيد ، وقد حرّم الله ﷻ عليهم ذلك ، ولم تردعهم المواعظ ولا النصائح، فعاقبهم الله ﷻ بالمسخ، كما قال ﷻ:﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾، وقال ﷻ:﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٦][(٢)].

وجعل الله ﷻ هذه المَسخةَ والعقوبة﴿ نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ ؛ أي: عبرةً لمن فـــي زمانهم ومَنْ بعدهم تمنع المعتبِرَ بها وتردعُه عن ارتكاب مثل ما عملوا[(٣)]، والنكال ــ كما تقدم ذكره ــ العقوبة التي تردع عن مثل ما عمل المعاقب ، ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ،"الـــوعظ: زجـــر مقترن بتخويف ، والاسم :عظة وموعظة" [(٤)].

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ٧/١٩٤.

(٢) للمفسرين في المسخ إلى قردة قولان : أحدهما :أنهم مسخوا قردة على الحقيقة ، فصارت لهم أجسام قردة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، واختاره الطبري ، وثانيهما: أن المسخ لقلوبهم وليس لصورهم ، قاله مجاهد.[انظر: جامع البيان، ٢/١٦٨-١٣،١٧٣/٢٠٣].

(٣) النيسابوري القمي، غرائب القرآن، ١/٣٠٦ ، الخطيب الشربيني ،محمد بن أحمد(٩٧٧هـ)السراج المنير، دار إحياء التـــراث العربي ــ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ١/١٠٨ــ ١٠٩، أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ١/١١٠.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٥٤٢.

قال الفخر الرازي : من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، وإن لم ينزل عاجلاً فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم ، وخصّ المتّقين بالذّكر لأنهم أهل الارتداع والانتفاع بذلك[١].

وليس المقصود من قول الفخر الرازي (مثل فعلهم ..) الاعتداء في السبت بالصيد فقط، وإنما المقصود مخالفة أمر الله ﷻ ، وارتكاب ما حرمه ونهى عنه ، سواء أكان بحيلة أم بغير حيلة .

ولابن القيم تعليق قيّم على قصة أصحاب السبت ، فيقول: "ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ؛ إذا الفقيه هو من يخشى الله ﷻ بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، ليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبًا لموسى عليه السلام، وكفرًا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء"[٢]. فاستحلال ما حرّم الله ﷻ بتغيير الاسم أو بتأويل فاسد لا يخرج عن الحيل الموجبة للعقوبة .

وقد أخبر النبي ﷺ أن عقوبة المسخ تكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله ﷻ ، فعن عمران بن حُصَيْنٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : "فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَتَى ذَاكَ ؟ قَالَ :" إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الخُمُورُ"[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما مفاده: إنما يكون الخسف والمسخ إذا استحلوا هذه المحرمات بتأويل فاسد ، فإنهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الشارع حرمها كفروا ، ولم يكونوا من أمته ﷺ ،

---

(١)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب،٣/١٠٥.

(٢)ابن القيم ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ،تحقيق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـــ بيروت، ط٢،١٩٧٥م، ١/ ٣٤٣.

(٣) سنن الإمام الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في علامة حلول المسخ ، رقم: (٢٢١٢) ،٤/٤٩٥، وقال : وهذا حديث غريب ، وقال الألباني : صحيح.

ولو كانوا معترفين بأنها حرام لأوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ كسائر من يفعل هذه المعاصي، ولكنهم يستحلونها بتسميتها بغير اسمها[١].

والحقُّ أنّ تغيير أسماء المحرمات لا يغيّر أحكامها ، ولا يلغي شيئًا من آثارها السيئة على الفرد والمجتمع ؛ فما أحله الله ﷻ فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّمه ﷻ فهو حرام إلى يوم القيامة مهما تبدلت الأسماء والألقاب ، وعلى الأمة في هذا العصر أن تتنبه لخطر هذه المعاصي، وأن تسلك سبل النجاة من تبعاتها.

ثانيًا: قال ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد/٦] ، فقد كان النبيُّ ﷺ يدعو المشركين إلى عبادة الله ﷻ وتوحيده، ويخوفهم بعذاب الله ﷻ وعقابه إن أصروا على ما هم عليه من الكفر، وكانوا يطلبون منه أن يُعَجّل لهم ما يخوفهم به استهزاءً منهم بتخويفه وإنذاره لهم[٢]، فبيّن لهم الحقّ ﷻ أن ﴿الْمَثُلَاتُ﴾ ــ وهي كما ذكرت فيما سبق العقوبات المُنكِّلات التي تجعل المعاقَبَ بها مثلاً يرتدع به غيره ــ قد نزلت بالمكذبين من الأمم السابقة ، فلم يتعظوا بها، ولم تردعْهم عمّا هم عليه من الكفر، مع أن في العقوبة الواحدة من تلك العقوبات ردع كافٍ ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق/٣٧].

وأخبر ﷻ أن تأجيل العقاب هو حكمة منه ﷻ ورحمة ؛ لأنّه لو استجاب لهم ما طلبوه من تعجيل العقاب لأهلكهم وقضى عليهم[٣]، فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم

---

(١)ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ) الفتاوى الكبرى ،تحقيق: محمد عبد القادر ، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٩٨٧م،٦/٢٩.

(٢)انظر مثلاً: الإمام الطبري، جامع البيان ،١٦/٣٥٠، ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي(٧٤١هـ) التسهيل لعلوم التنزيل ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط٤، ١٩٨٣م ،٢/١٣١، الشوكاني، فتح القدير ،٣/٦٧.

(٣)انظر: الإمام الطبري، جامع البيان ،١٥ / ٣٥.

بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يونس/١١] ، ثمّ ذكر ﷻ ما يجري مجرى الرّدع عن الكفر، والتكذيب، وطلب استعجال العذاب [١]، فقال ﷻ :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس/١٣] ، فالتذكير في الآية الكريمة بحال من سبقهم من الأمم ، والإخبار عما حلّ بهم بسبب تكذيبهم لرسلهم وتماديهم في الكفر والضلالِ ،"على سبيل الرّدع لهم ، والوعيد لهم ، فكما فعل بهؤلاء ، يفعل بكم" [٢].

والالتفات في قوله ﷻ: ﴿مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الغيبة إلى الخطاب ، لتشديد التهديد بعد تأكيده بالقَسَم ، والمبالغة في الرّدع عن أسباب الإهلاك [٣].

ثالثًا: قال ﷻ :﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [القمر/٣، ٤] ،أي: كذّبوا بآيات الله ﷻ ، بعد ما أتتهم حقيقتها، وعاينوا الدلالة على صحتها برؤيتهم القمر منفلقًا فلقتين ، فعَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ ، قَالَ انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ ، فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ ، وَفِرْقَةً دُونَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" اشْهَدُوا"[٤].

وعلى الرغم من معاينتهم لتلك الآيات إلا أنهم آثروا أهواء أنفسهم ، وتمسكوا بما هم عليه من الكفر والضلال.

وكلّ أمر من خير أو شرّ منته إلى نهاية يستقر عليها﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ؛ فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشرّ مستقرّ بأهله في النار ، ولقد جاء هؤلاء المكذبين المتبعين

---

(١)النيسابوري القمي ،غرائب القرآن ، ٥٦٧/٣ ،الشوكاني ، فتح القدير ، ٤٣٩/٢.
(٢)أبو حيّان، البحر المحيط ، ٥ / ١٣٤.
(٣) انظر: أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٢٧/٤، الشوكاني ،فتح القدير ، ٤٢٩/٢ ، الآلوسي، روح المعاني، ٨١/١١.
(٤) صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب وانشق القمر، برقم : (٤٥٨٣) ، ١٨٤٣/٤.

لأهوائهم من الأخبار عن السابقين الذين كذّبوا الرسلَ، وأحلّ الله ﷻ بهم من عقوباته ما قصّ في كتابه الكريم ما يردعهم، ويزجرهم عما هم مقيمون عليه من الكفر والتكذيب [١].

ثمّ أُردِفت الآيتان الكريمتان بخمس قصص من قصص الأمم السابقة التي كذبت رسلها؛ وهي: قوم نوح عليه السلام، وعاد قوم هود عليه السلام ، وثمود قوم صالح عليه السلام، وقوم لوط عليه السلام، وقوم فرعون ، وذكر نوع العذاب الذي أنزله الله ﷻ بكل قوم منهم ، وذكرت معه أسبابُ نزوله ، وورد في أواخر أربع قصص منها قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر/١٧،٢٢،٣٢،٤٠] ؛ للتنبيه على أنّ كل واحدة من هذه القصص منفردة كافية في ردع من يتدبر ويعتبر ، وهذا ما نص عليه أبو السعود ، بقوله : هذه "جملةٌ قسميةٌ وردت في أواخرِ القصصِ الأربعِ تقريراً لمضمونِ ما سبقَ من قوله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر/٣- ٤] ، وتنبيهًا على أنّ كلّ قصةٍ منها مستقلةٌ بإيجابِ الإدكارِ كافيةٌ في الازدجارِ ومع ذلكَ لم تقعْ واحدةٌ في حيزِ الاعتبارِ؛ أي: وباللهِ لقد سهّلْنا القرآنَ لقومِكَ بأنْ أنزلناهُ على لغتِهم وشحنّاهُ بأنواعِ المواعظِ والعبرِ وصرّفْنا فيهِ من الوعيدِ والوعدِ للتذكرِ والاتعاظِ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكارٌ ونفيٌ للمتعظِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه حيثُ يدلُّ على أنّه لا يقدرُ أحدٌ أنْ يجيبَ المستفهَم بـنعَمْ " [٢]. وهذا النص أورده الآلوسي في تفسيره [٣].

ثمّ جاء التأكيد في نهاية السورة الكريمة على سنّة الله ﷻ في إهلاك الكفرة المكذبين لأنبيائهم،عسى أن يكون ذلك رادعاً عن إتيان ما كان سبباً لهلاكهم ، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

---

(١)الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢٢ / ٥٧١ ــ ٥٧٢، وانظر:أبو الليث السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد(٣٧٥هـ)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر ــ بيروت ، ٣/٣٥٠.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،١٧٠/٨.

(٣) الآلوسي ، روح المعاني، ٨٤/٢٧.

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [القمر/٥١] ، فهذه الآية الكريمة تبيّن إهلاك الله ﷻ ــ بما له من عظمة ــ أشباه كفار قريش وأمثالهم من الأمم السابقة بكفرهم وتكذيبهم . وقدرته ﷻ على اللاحقين كقدرته على السابقين ، فهل من معتبر يعتبر بما وقع للسابقين فيرتدع عن مثل ما كانوا عليه[١]، ويؤمن بالله ﷻ ؛ ليسلم من العذاب وينجو من الهلاك ؟

فالإيمان بالله ﷻ وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو العلاج الناجع في كشف العذاب والهلاك ، وهو طريق السلامة من الذلة والمهانة في الدنيا والآخرة ، فقد أخبر الله ﷻ أنّه بيّن لثمود سبيل الحقّ وأوضح لهم طريق الهدى ، فاختاروا الضلال وآثروا الكفر على الإيمان بالله ﷻ ، فاستحقوا بذلك الهلاك والدمار ، فقال ﷻ:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت/١٧].

وأخبر ﷻ أنّه نجّى نبيّه صالحًا ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك المبتعدين عن المعاصي ، وميزهم عن الكفار ، فلم يُحلّ بهم ما حلّ بأولئك الكفار من العذاب والدمار ، فقال ﷻ:﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت/١٨].

وهذه سنة من سنن الله ﷻ التي لا تتبدل ولا تتغير ؛ فالأمة التي تلتزم بمنهج الله ﷻ أمة عزيزة قوية سالمة من الهلاك ، وكلُّ أمة تنحرف عن ذلك المنهج تُصاب بالذل ، وتنزل بها العقوبات.

توبيخ مَن لم يردعه ما حلّ بالسابقين عن إتيان أسبابه

ولأنّ ما أنزل بالعاصين المكذبين من الأمم السابقة فيه أعظم رادع عن مخالفة أوامر الله ﷻ وبّخ الله ﷻ مَن مرّ بديار قومٍ أهلكهم الله ﷻ بمخالفتهم أوامره ، ورأى آثار ما حلّ بها وبأهلها

---

(١)انظر: الإمام الطبري، جامع البيان ٦٠٧/٢٢، الخطيب الشربيني ،السراج المنير،٢٣٦/٧.

من الدمار والخراب ، ولم يردعه ذلك عن مخالفة أوامره ﷻ ، وتكذيب رسوله ﷺ ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان/٤٠].

هذه الآية الكريمة تخبر عن كفار قريش أنهم كانوا يمرون في تجارتهم إلى الشام على قرية قوم لوط عليه السلام التي أمطرت بالحجارة ، فدمرت وأهلك مَن فيها، وتؤكد ـ بما استهلت به من لام القسم وقد التي للتحقيق ـ أنهم كانوا يرون آثار ما حل بتلك القرية وبأهلها ، ولكن لم يردعهم ذلك عن الكفر بالله ﷻ ، وما يأتون من معاصيه ؛ لأنهم لا يوقنون بالعقاب، ولا يؤمنون بيوم الحساب [١].

وعدي الفعل ﴿أَتَوْا﴾ بحرف الجر(على) لتضمنه معنى المرور ، وأوثر ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ دون ولقد يأتون أو لقد كانوا يأتون للإشارة إلى أن المرور الواحد عليها كافٍ في الردع [٢]، ولكنّ كفار قريش مرّوا بتلك القرية مراراً كثيرة ولم يردعهم ذلك عما كانوا مقيمين عليه من الشرك بالله ﷻ والتكذيب للنبي ﷺ ، وبذلك استحقوا التوبيخ الذي تضمنه قوله ﷻ :﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فالاستفهام هنا يفيد التقرير والتوبيخ ؛ تقرير رؤيتهم لآثار تلك القرية المُدَمرة ، والتوبيخ: وبّخهم ﷻ لأنهم لم يعتبروا بما حلّ بأهلها ، ولم يرتدعوا عن أسبابه [٣]. ومجيء كان مع المضارع يدل على تكرر مرورهم وتجدده [٤].

---

(١) انظر: الإمام الطبري : جامع البيان ،١٩ /٢٧٢ـ٢٧٣.

(٢) الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي،١٣٥/٧، القونوي، عصام الدين إسماعيل بن محمد(١١٩٥هـ) حاشية القونوي على البيضاوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١، ٢٠٠١م، ١٠٠/١٤.

(٣) انظر: أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ٢١٩/٦ ، الألوسي ، روح المعاني، ٢١/١٩.

(٤) انظر:الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي،١٣٥/٧، القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي ،١٠٠/١٤.

ومثل هذه الآية الكريمة قولـــه ﷻ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات/١٣٧،١٣٨]، فقد كان كفار قريش يمرّون على ديـــار قـــوم لـــوط ﷺ فـــي الصباح وفي الليل ، فالأصل أن يعتبروا بما رأوه من آثار ما حلّ بأولئك القوم من ســـخط الله ﷻ بسبب كفرهم وتكذيبهم رسول الله لوط ﷺ اعتبارًا يردعهم عما يوجب سخط الله ﷻ وألـــيم عقابه ، ولكنّ ذلك لم يحصل منهم ، بل عطلوا عقـــولهم التـــي مـــنحهم الله ﷻ إيّاهـــا للتفكـــر والإدراك ، لذلك "وبّخهم الله ﷻ بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾"[1].

ولا يعني هذا أن التوبيخ مقتصر على كفار قريش فحسب ، بل هو عام وشـــامل لكـــل مَـــن وصله الخبر اليقين عن المُهلَكين ، أو وقف على آثارهم ، وعطّل عقله عن التفكر والتدبر فلـــم يرتدع عن مخالفة أوامر الله ﷻ ، ومعصية الرسول ﷺ.

يتضح من كل ما سبق أنّ من أهداف ما قصّه الله ﷻ في كتابه العزيز مـــن أخبـــارِ الأمـــم السابقة ، وذَكَرَهُ ﷻ مما حل بالمكذبين منها من الإهلاك والعذاب ـــ الرّدع عن الاقتداء بهم في معصيته ﷻ ومعصية رسوله ﷺ ، وذلك بإثارة الخوف في المقتدين من أن يحلَّ بهم مثلُ ما حل بأولئك ، وبذلك تكون تلك الأخبار طريقاً من الطرق التي سلكها القرآن الكريم في الرّدع .

---

(١) ابن عطية ،المحرر الوجيز ،٤٨٥/٤ ، وانظر: الشنقيطي ،أضواء البيان ، ٣٧٥/١.

المبحث الرابع:
خصائص أسلوب الرّدع في القرآن ومزاياه

المبحث الرابع:
خصائص أسلوب الردع في القرآن ومزاياه

يستمد أسلوب الرّدع في القرآن الكريم خصائصه ومزاياه من خاصيّة الربانية في المصدر؛ فالقرآن الكريم من عند الله ﷻ ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] ، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس/٣٧].

وهو محفوظ بحفظ مَنْ نزّله بِعظمَتهِ ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر/٩]، وما كان من عند الله ﷻ ، ومحفوظ بحفظه فلابد أن يتصف بكل صفات الكمال ، ولابد أن يبرأ من الزيادة ،أو النقص ، أو التحريف ، أو التبديل ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس/١٥].

والحقُّ أن أسلوب الرّدع في القرآن الكريم يمتاز بعدة مزايا أذكر تاليًا بعضًا منها:

أولاً: الشمولية:

الشمول خاصية فريدة من خصائص أسلوب الرّدع في القرآن ، يستوعب النّاس جميعهم أفراداً وجماعات على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وألوانهم وأديانهم ، فلا يختص بأحد دون أحد ، ولا بأمة من الأمم ، ولا بقبيلة من القبائل ، ولا بطائفة دون أخرى.

وهو شمول يستوعب المكان والزمان ، فهو يعمّ أرجاء الأرض كلّها ، في سائر أزمنة هذا العالم حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها ، فلا ينحصر في بقعة معينة من الأرض، ولا في فترة معينة من الزمن ، إنّه خطاب يخاطب الإنسانية جمعاء .

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام/١٩] .

قال قَتَادَةُ ، فِي قَوْلِهِ ﷻ :﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ قال النَّبِيُّ ﷺ :" بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُهُ"[١] ﷻ.

ونقل الثعالبي عن الجمهور قولهم : ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ معناه : بلاغ القرآن الكريم[٢]؛ أي : لأنذركم بهذا القرآن يا أهل مكة، وأُنْذِرَ به كلّ مَنْ بلَغَ إليه مِنَ النّاس جميعهم أسودهم وأبيضهم ، وعربهم وعجمهم ، إلى قيام الساعة[٣].

وبهذا يكون أسلوب الرّدع في القرآن عاماً وشاملاً لكل مَن وصله بلاغ القرآن الكريم في جميع أرجاء المعمورة إلى أن يرثها الله ﷻ.

وهو شمول يحيط بكل ما يجلب سخط الله ﷻ وأليم عقابه، ويحول دون عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له ، أو إصلاح الإنسان وتهذيب سلوكه وإعلاء منزلته في الدنيا والآخرة.

وبهذا الشمول والاستيعاب يتميّز أسلوب الرّدع في القرآن، فهو يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويتجرد من النزعات القومية، والطائفية، واللونية، ويستوعب كل ما يحفظ على النّاس

---

(١) رواه عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (٢١١هـ) ،في تفسيره ، مكتبة الرشد ـ الرياض ، ط١، ١٤١٠هـ، ٢٠٦/٢ ، والإمام الطبري ،في جامع البيان ، ٢٩٠/١١ ،وابن أبي حاتم،عبد الرحمن بن محمد إدريس الرازي، (٣٢٧هـ) في تفسيره ،تحقيق:أسعد الطيب ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، ١٢٧٢/٤.

(٢)الثعالبي ،عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ٨٧٦هـ) الجواهر الحسان ،مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ، ٥١٠/١.

(٣) انظر : البيضاوي ، ٣٩٨/٢ ،ابن جزي ، التسهيل في علوم التنزيل، ٥/٢ ، أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ١١٨/٣، الشوكاني، فتح القدير، ١٠٥/٢،الآلوسي ،روح المعاني ، ١١٩/٧.

دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم، وشتان بين هذا الرّدع وبين ردع ينحصر في حدود الزمان والمكان ، ويتعصب لقوم ، أو طائفة ، أو عرق ، أو لون، أو غيرها من النزعات البغيضة ، ويُلحق الأذى ... والضرر ... بالآخرين ...!

ثانياً: المساواة:

ومما يقتضيه شمول أسلوب الرّدع في القرآن واستيعابه المساواة بين النّاس جميعاً مع اختلاف ألوانهم وأوطانهم وأجناسهم ؛ فهو لا يقتصر على الأنثى دون الذكر ، ولا على المرؤوس دون الرئيس ، ولا على الفقير دون الغني ، ولا على الضعيف دون القوي ، ولا على مجتمع دون آخر ، فما اختلاف أشكال النّاس ، وأجناسهم ، وألوانهم وألسنتهم ، إلا آية من الآيات الدالة على وجود الله ﷻ وعظيم قدرته ، وليس محلاً للتمييز أو الاستثناء من الرّدع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم/٢٢] .

فالقرآن الكريم لا يرْدَعُ قوماً عن ذنب أو معصية ويترك غيرهم ، ولا يعفو عن ذنب فردٍ أو قومٍ يستحق عقوبة رادعة ويعاقب عليه آخرين ، بل النّاس كلهم أمامه سواء لا محاباة لفردٍ ولا مُدارة لأمّة ، ولذلك لمّا قالت اليهود والنصارى حين حذّرهم الرسول ﷺ عقوبة الله ﷻ: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة/١٨] ، ردّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة/١٨] ؛ أي: إن كان الأمر كما زعمتم فلأيّ شيء عذّب مَن قبلكم

بذنوبهم ، كأصحاب السَّبت وغيرهم [١]؟ ثمّ أبطل زعمهم وردّه عليهم بقوله ﷻ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة/١٨] ، فأنتم بشر من خلق الله ﷻ ، يُجازيكم بأعمالكم مثل سائر البشر؛ المُحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وليس لكم عند الله ﷻ مزية على غيركم من خلقه [٢].

فليس بين الله ﷻ وبين أحد من خلقه رابطة نسب ، ولا قرابة ، وأكرم الخلق عند الله ﷻ أتقاهم له ﷻ وأكثرهم التزامًا بطاعته.

ثالثاً: التنوّع:

يتميّز أسلوب الردع في القرآن بتنوع طرقه ، وعرضها بصور مختلفة ، وبتحرره وتجرده من قيود الزمان والمكان.

فقد نوّع القرآن الكريم طرق الرّدع ، وعرض الطريق الواحد منها بأساليب متنوعة، وصور مختلفة ، فالأمثال القرآنية مثلاً تنوّعت تنويعاً بديعاً ، وعرضت بصور متباينة ، وعقوبات الأمم السابقة تنوعت بتنوع أسبابها، وعرضت بأساليب متعددة ، وليس هذا فحسب ، بل شرع ــ لمن لم تردعه الأقوال والمواعظ والعبر ــ أنواعاً من العقوبات والحدود الرّادعة له ولغيره عن مثل عمله ، كما أمر القرآن الكريم بإعداد القوّة لردع أعداء الله ﷻ عن استخدام قوتهم للصدّ عن الإسلام والنيل من أهله ، وعرض ذلك بأساليب مختلفة ، وصور متعددة .

---

(١) الواحدي، علي بن أحمد (٤٦٨هـ) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم ــ دمشق ، بيروت ، ط١، ١٩٨٥م، ١/ ٢١٤.
(٢) انظر: الإمام الطبري، جامع البيان ١٠/ ١٥٢.

وهو ـ أي: أسلوب الرّدع ـ بهذا التنوع متلائم مع واقع البشر ومتوافق مع فطرتهم، ومناسب لما طُبعت عليه نفوسهم من اختلاف في التكوين، وتفاوت في القابلية والاستعداد، فكل نوعية من البشر لها ردع مناسب لحالها ... وهو بتجرده من قيود الزمان والمكان صالح لكل جنس من البشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وعاداتهم وتقاليدهم ـ منذ نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ حتى قيام الساعة ـ ولا غَرْوَ في ذلك ، فهو جزء من الكتاب العزيز الذي نزّله اللطيف الخبير ﷻ ، خالق البشر، العالم بما يصلحهم ويصلح لهم ، وما يناسب بشريتهم ،﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك/١٤].

رابعاً: سمو الغاية .

ومما يتميّز به أسلوب الرّدع في القرآن سمو الغاية ونبل الهدف، فهو يهدف إلى الإصلاح؛ إصلاح الفرد، ورفع مكانته في الدنيا وإعلاء منزلته في الآخرة، وإصلاح المجتمع، وتحقيق أمنه واستقراره ،

أما رفع مكانة الإنسان في دار الدنيا فبعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له ، والتمسك بالأخلاق الحسنة ؛ لأنّ الذي يعبد غير الله ﷻ يفقد إنسانيته ، وينزل إلى درجة أدنى من ذلك ، قال تعالى في وصف الذين يعبدون غيره ﷻ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان/٤٤].

قال ابن الجوزي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "وفي وجه تشبيههم بالأنعام قولان:

أحدهما: أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول.

والثاني: أنه ليس لها هم إلا المأكل والمشرب.

ثم قال : وقوله ﷻ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ؛ لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابهـا ، وتُقبِلُ على المحسن إليها، وهم على خلاف ذلك"(١).

فعقوبة الزنا مثلاً تهدف إلى رفع مكانة الفرد ....، وحمايته من الأمراض التي تنتج عن هـذه الجريمة ، وتهدف أيضًا إلى رفع مكانة الأسرة ، وصيانة المجتمع من اللقطاء ...

وبتحقّق هذه الهدف ــ وهو عبادة الله ﷻ والتمسك بمحاسن الأخلاق ــ يـصلح المجتمـع ، وينعم النَّاسُ بالأمن والاستقرار.

وأمّا إعلاء منزلة الإنسان في الدار الآخرة فبالمقام الأمين في جنّات النّعيم، كما وعـد الله ﷻ بذلك في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة/٧٢].

وبهذه الخاصية يتميّز أسلوب الرّدع في القرآن عن غيره ، فهو لا يهـدف إلـى القهـر، أو الإذلال ، أو الانتقام ، أو إنزال الخصم إلى منزلة أدنى من منزلته، أو العبث في أمن المجتمـع واستقراره ، وفرقٍ بين هذا الرّدع الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ومعـالي الأمور ، وبين ردع يدعو إلى رذائل الأخلاق ، ودنايا الأمور وسفاسفها.

خامساً: التدرج المرحلي

إنّ عدد السور المكية أكثرُ من عدد السور المدنية، ويلاحظ أن استعمال أسلوب الـرّدع فـي السور المكية أكثر من السور المدنية، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

---

(١)ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد(٥٩٧هـ) زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسـلامي – بيـروت ، ط٣، ١٤٠٤هـ ، ٩٢/٦.

• استعمل القرآن الكريم لفظ (كلاَّ) ، وهو ــ كما ذكرت سابقًا ــ يفيد في أصل الوضع معنى الرّدع ، ولم يُذكر في السور المدنية، وإنّما ذُكر ثلاثاً وثلاثين مرة ، في خمسَ عشرةَ سورةً مكية ، وأول نجم نزل من السماء أول آيات سورة العلق وجاء فيها الرّدع عن الطغيان وتجاوز الحدّ ؛ صيانة للإنسان وحماية لضرورات حياته ، أما الرّدع بلفظ(ما كان) فقد اختصت به السور المدنية.

• الرّدع بذكر ما حلَّ بالأمم السابقة وما أصابها من عذاب الله ﷻ وشديد عقابه بسبب عصيانها أوامرَه، وعدم استجابتها لدعوة رسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ جاء في السور المكية ، على خلاف السور المدنية .

وقد عُدّ لفظ (كلاَّ) ، ومثله أخبار الأمم السابقة من ضوابط السور المكية[1].

• كثر في السور المكية استعمال ضرب الأمثال في الرّدع عن العقائد الباطلة، والأخلاق السيئة ، وفيها جاء ذكر مِنّة الله ﷻ على النّاس بتصريف الأمثال لهم ، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء/٨٩] ، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف/٥٤] ، على خلاف السور المدنية.

• أما العقوبات والحدود التي شرعت لمن لم يرتدع ، والأمر بإعداد القوة بحسب الطاقة والاستطاعة لردع عدو الله ﷻ عن عدوانه ، فقد تضمنتها السور المدنية ، ولذلك تُعد الحدود، وأحكام الجهاد من ضوابط تلك السور وخصائصها [1] .

---

(١) انظر: الزركشي ،البرهان في علوم القرآن ،١/١٨٩، السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن،١/٧٣، الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ،١٩٩٦م ،١/٢٠٠، صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين ــ بيروت، ط١١،١٩٨٧٩م، ١٨٢، عبد الرزاق حسين أحمد ، المكي والمدني في القرآن الكريم، دار ابن عفان ــ القاهرة ، ط١، ١٩٩٩م /١٦٥،١٦١.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول أنّ الرّدع في العهد المكي كان مقتصرًا على جانب الرّدع القولي ، وأما في العهد المدني فلم يعد مقتصرًا على القول ، وإنما انتقل إلى جانب الرّدع العملي ، ولعلّ هذا يتفق مع سنة التدرج التي سلكها القرآن الكريم في دعوة النّاس إلى الحقّ وترويضهم على قبوله واتّباعه ، وهو ما أشارت إليها السيدة عائشة أم المؤمنين ﵂ بقولها : " إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا لَقَالُوا لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا"(٢).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه يناسب الفترتين المكية والمدنية ، ويتفق مع حال المسلمين في كل منهما ؛ أما الفترة المكية فكان التركيز فيها على غرس العقيدة وتعميق جذورها في النفوس، وقلع العقائد الباطلة والأخلاق والعادات الفاسدة ، وكان المسلمون في ضعف وقلّة عدد ، فكان الردع بالقول مناسبًا لتلك الفترة الزمنية من عمر الدعوة الإسلامية ، ولذلك اختير لفظ (كلا) لما فيه من قوة ؛ لتنزع تلك الأشياء المتغلغلة في النفوس نزعًا كاملاً.

وأمّا في الفترة المدنية فقد بُنيت الدولة الإسلامية ، وشُرعت الأحكام التي تنظم شؤون الحياة المختلفة ، وتحفظ أمن الفرد والمجتمع ، وزاد عدد المسلمين وأصبحت لهم قوةٌ ومنعةٌ ، ولم يتوقفْ أعداء الله ﷻ عن محاولاتهم في زعزعة أمن المسلمين واستقرار دولتهم، فكان الرّدع بالعمل مناسباً لذلك ، وهو ما يجب أن يفهمه المسلمون في كلّ عصرٍ ومصر للحفاظ على كيانهم وكينونتهم.

وهذا لا يعني أن الرّدع بالقول قد انتهى بانتهاء الفترة المكية ، بل بقي وأضيف إليه الرّدع العملي في العهد المدني.

---

(١) انظر: الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ،١/٢٠٠،فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان ـ عمّان ، ط١،١٩٩٧م ،١/٣٧٤ ، عبد الرزاق حسين أحمد ، المكي والمدني في القرآن الكريم ،١/١٦٥ـ ١٦٦.

(٢) صحيح الإمام البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ، رقم (٤٧٠٧) ، ٤/١٩١٠ .

الفصل الثالث:
مجالات الرّدع في القرآن الكريم

المبحث الأول:
الرّدع عن جحود وحدانية الخالق وعصيانه

المطلب الأول: الرَّدع عن الإشراك بالله ﷻ وعن التعزز بالآلهة
المطلب الثاني: الرَّدع عن التقصير في حقِّ الله ﷻ والاغترار بكرمه
المطلب الثالث: الرّدع عن جحود النِّعم بالطغيان
المطلب الرابع: الرَّدع عن النهي عن طاعة الله ﷻ

المبحث الثاني:
الرَّدع عن إيذاء الرسول ﷺ وإيذاء المؤمنين

تمهيد
المطلب الأول: الرَّدع عن إيذاء الرسول ﷺ
المطلب الثاني: الرَّدع عن إيذاء المؤمنين

المبحث الثالث:
الرّدع عن الانشغال بالدنيا عن الاشتغال للآخرة

المطلب الأول: الرّدع عن الإفراط في حبّ الدنيا
المطلب الثاني: الرّدع عن الانشغال بالتكاثر عن العمل للآخرة.
المطلب الثالث: الرّدع عن اعتقاد أن الإنعام علامة إكرام وأن المنع علامة إهانة
المطلب الرابع: الرّدع عن الحرص على المال وحسبان خلود صاحبه

المبحث الأول:
الرّدع عن جحود وحدانية الخالق وعصيانه

المطلب الأول:
الرَّدع عن الإشراك بالله ﷻ وعن التعزز بالآلهة

المطلب الثاني:
الرَّدع عن التقصير في حقِّ الله ﷻ والاغترار بكرمه

المطلب الثالث:
الرّدع عن جحود النِّعم بالطغيان

المطلب الرابع:
الرَّدع عن النهي عن طاعة الله ﷻ

المطلب الأول :

الردع عن الإشراك بالله ﷻ وعن التعزز بالآلهة

أولاً : الردع عن الإشراك بالله ﷻ

إنّ أكبر الكبائر وأعظم الذنوب على الإطلاق هو الإشراك بالله ﷻ ، فقد سُئل الرسول ﷺ أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ ﷺ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"[1]، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:" أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاثًا الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ"[2].

وقد أخبر ﷻ أنه لا يغفر الشرك ، وأن المشرك قد افترى إثمًا عظيمًا، وضل عن الحق ضلالاً بعيداً، فقال ﷻ :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء/٤٨] وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦] .

ووصف ﷻ الشرك بأنه ظلم عظيم ، فقال ﷻ على لسان لقمان: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان/١٣] .

وبيّن ﷻ أنّ الشرك محبط للأعمال ، وأن صاحبه من الهالكين الخاسرين ، فقال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

---

(١)صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة ، رقم :(٤٢٠٧) ،٤ / ١٦٢٦، صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإيمان ،باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم :(٨٦)،٩٠/١.

(٢)صحيح الإمام البخاري ، كتاب الشهادات، باب باب ما قيل في شهادة الزور، رقم: (٢٥١١)،٩٣٩/٢، صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، رقم: (٨٧) ،٩٠/١.

[الزمر/٦٥] فقد علم الله ﷻ أن النبي ﷺ لا يشرك بالله ﷻ ، ولكنه أراد تنبيهًا لأمته أن من أشرك بالله ﷻ حبط عمله ، وإن كان كريمًا على الله ﷻ[١]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨٨].

وما ذُكِرَ الشِّرك ـ في الكتاب أو السنَّة ـ مع شيء من النواهي إلا جُعِل أولها[٢]، ومن ذلك مثلا الوصايا العشر التي جاءت في سورة الأنعام بدأت بتحريم الشِّرك والتحذير منه، قال ﷻ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام/١٥١] .

فالإشراك بالله ﷻ ـ كما يقول سيد قطب[٣] ـ "هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم ، وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كلّه له؛ حتى يعترف النّاس أن لا إله لهم إلا الله ، ولا ربَّ لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مُشرِّع لهم إلا الله . كما أنَّهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله ﷻ .. "[٤].

ولأنّ الشِّرك أكبر الكبائر ، وأخطر الذنوب وأعظمها ، ويحبط العمل ، ويخلد صاحبه في نار جهنم ، حرّمه الله ﷻ ونهى عنه ، وذكر في كتابه العزيز ما يردع عنه ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سبأ/٢٧].

---

(١) السمرقندي، بحر العلوم ، ١٨٤/٣، الشوكاني ، فتح القدير، ٤٧٤/٤.

(٢) انظر: حافظ أحمد حكمي (١٣٧٧هـ)، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: عمر محمود، دار ابن القيم ـ الدمام، ط١، ١٩٩٠م ،٤٨١/٢ ـ ٤٨٢.

(٣) هو: الشهيد سيد إبراهيم قطب حسين الشاذلي ، كاتب و مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط، تخرج بكلية دار العلوم ، ثم عمل في جريدة الأهرام،و كتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) ، عكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في السجن ، ثم صدر الأمر بإعدامه، فأعدم عام(١٣٨٧هـ)، من كتبه: التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن. [الزركلي، الأعلام ،١٤٧/٣].

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١٢٢٩/٣.

مناسبة الآية لما قبلها

حين إنعام النظر في هذه الآية الكريمة وما قبلها يظهر أنّها مرتبطة بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فالآيات التي قبلها ــ وهي قوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤ – ٢٥] ــ بيّنت عجز الآلهة المزعومة ، ونفت عنها جميع أنواع الملك والتصرف ؛ فهي لا تخلق شيئاً، ولا تملك أحقر الأشياء ، وليس لها في السماوات ولا في الأرض شركة مع الله ﷻ، ولا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا ، فجاءت هذه الآية تأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين أروني الذين ألحقتموهم بالله ﷻ شركاء له في عبادته ، إن كانوا يملكون نفعًا أو ضرًّا ، وتردع عن الإشراك بالله ﷻ ، وتثبت أنّه ﷻ هو خالق كلّ شيء ومليكه والمتصرف فيه كيف يشاء.

قال الفخر الرازي : "المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر، وجمع لتوقع المنفعة ، وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته ، فلما بيّن أنّه لا يعبد غير الله ﷻ لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ/٢٢]، وبيّن أنّه لا يعبد غير الله ﷻ لتوقع المنفعة بقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ/٢٤] بيّن هاهنا أنّه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله ﷻ فقال : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ

﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي:هو المعبود لذاته"[1]؛ لأنه ﷻ يستحق العبادة ، فحري بالعبد أن يُحقق العبودية لله ﷻ.

ولهذا ارتبطت هذه الآية بما قبلها ارتباطًا وثيقًا ، ولعلّ عدم مجيء الواو الدالة على التغاير بين هذه الآية وما قبلها يؤكد كمال اتصالها بما قبلها .

وهذه الآية الكريمة بدئت بفعل الأمر (قُلْ) للدلالة على زيادة الاهتمام بالمقول، قال ابن عاشور: إن أصل الأمر بالقول في مقام التصدّي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام ، وفي هذه الآية أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على بطلان الشرك فهو كالنتيجة لجملة ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ/٢٤] [2]. ولا ريب أنّ هذا لون رفيع من بلاغة القرآن الكريم ، ومسلك من مسالكه في إقامة الحجة لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

معنى الإراءة وعلة الأمر بها

والإراءة في قوله ﷻ: ﴿أَرُونِىَ﴾ فيها قولان للمفسرين:

أحدهما: أنها بصرية، وعليه يكون الفعل متعديًا قبل همزة التعدية إلى مفعول واحدٍ وبعدها لاثنين، هما: ضمير المتكلم (الياء)، والاسم الموصول (الذين)، ويكون لفظ﴿شُرَكَآءَ﴾ منتصبًا على الحال من الضمير المحذوف في ﴿أَلْحَقْتُم﴾ ، وتقديره: ألحقتموهم به حالَ كونهم شركاء له.

---

(١)الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب** ،٢٥/٢٢٣.

(٢)ابن عاشور، **التحرير والتنوير**،٢٢/٦٠،٥٧. والمهيع : من هاع الشيءُ يَهِيع هياعاً اتَّسَعَ وانْتَشَر، وطريق مَهْيَعٌ واضِحٌ واسِعٌ ، وجَمْعُه مَهايِعُ . [ابن منظور: لسان العرب، ٨ / ٣٧٨].

والمقصود من أمرهم بإراءته المُلْحقين بالله ﷻ من الشركاء مع أنهم كانوا بمرأى منه ﷺ إظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم ؛ أي: أرُونيهم لأنظرَ بأيِّ صفةٍ استحقوا العبادة مع الله الذي ليسَ كمثلِه شيءٌ ؟! وفيه مزيدُ تبكيتٍ للمشركين بعد إلزامِهم الحجَّة[١].

وعلّل الشيخ الشنقيطي الأمر بالإراءة البصرية بقوله:" لأنهم إن أروه إياها تبيّن برؤيتها أنها جماد لا ينفع ولا يضر ، واتّضح بُعدها عن صفات الألوهية. فظهر لكل عاقل برؤيتها بطلان عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ، فإحضارها والكلام فيها، وهي مشاهدة أبلغ من الكلام فيها غائبة"[٢].

وقريباً من هذا ذكر ابن عاشور، وزاد: "لأن انتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها"[٣].

فبمجرد رؤية تلك الأصنام يتيقن العاقل أنها عاجزة عن جلب نفعٍ أو دفع ضُرٍّ ، ولا تستحق أن تُتخذ آلهة من دون الله ﷻ .

والثاني: أنها علمية (قلبية)، وعليه يكون الفعل متعديًا قبل النقل إلى مفعولين فلما جيء بهمزة التعدية تعدى لثلاثةٍ، هي: ضمير المتكلم (الياء)، والاسم الموصول (الذين)، و﴿شُرَكَآءَ﴾ ، والمعنى: أعلموني بالدليل والحجة من هم الذين عبدتموهم مع الله ﷻ وجعلتموهم شركاء له

---

(١) النسفي ، ،أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ط١، دار ابن كثير ـ دمشق، ١٩٩٨م، ٦٣/٣،أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،١٢٣/٧، البورسوي ، إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي(١١٢٧هـ) روح البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية ـ بيروت،ط٣،٢٠٠٣م، ٢٩٢/٢.

(٢) الشنقيطي ،أضواء البيان ، ٢٦٩/٦.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٦١/٢٢.

وكيف وجه الشركة. وممن اختار هذا ابن عطية، وأبو حيّان ، وقدمه القرطبي[١]، والشوكاني ، والآلوسي[٢].

وقد عُدَّ قصر لفظ ﴿أَرُونِيَ﴾ على أحد المعنيين تقصيراً[٣]، وهذا هو الصحيح فيما أرى، وعلى هذا يمكن القول أنه لفظ جامع للمعنيين ، فهو يصدق على الرؤيا العلمية كما يصدق على الرؤيا البصرية ، ولذلك لا يمكن أن يحل لفظ محله في هذا المقام بُغية تحقير الآلهة المزعومة وازدرائها، وتوبيخ المشركين على إلحاقهم شركاء بالله ﷻ ، وتعجيزهم عن إبداء أي حجة للإشراك به ﷻ أو إيجاد أي ذريعة مقنعة لذلك ، قال ابن جزي :"وفي قوله :﴿أَرُونِيَ﴾ تحقير للشركاء وازدراء بهم وتعجيز للمشركين" [٤].

التعبير عن المرئي بالاسم الموصول

والسؤال هنا ما سرُّ التعبير عن المرئي بالاسم الموصول، ولماذا جعل﴿أَلْحَقْتُم﴾ صلة له ؟

والجواب :إن "التعبير عن المرئي بطريق الموصولية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله ﷻ في الربوبية ، وفي جعل الصلة ﴿أَلْحَقْتُم﴾ إيماء إلى أن تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفًا ذاتيًا حقًا ولكنّ المشركين ألحقوها باللهﷻ ، فتلك خِلْعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء. وتلك حالة تخالف صفة الإلهية ؛ لأنّ الإلهية صفة ذاتية قديمة ، وهذا الإلحاق اخترعه لهم عَمرو بن لُحَيّ ولم يكن عند العرب من قبل"[٥].

---

(١)هو:أبو عبد الله ،محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي ، إمام متقن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة إطلاعه ووفور فضله، منها:الجامع لأحكام القرآن، و التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، توفي عام(٦٧١هـ).[السيوطي ،طبقات المفسرين، ٧٩].

(٢) انظر:ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤/ ٤٢٠ ،أبو حيّان ، البحر المحيط ،٧/ ٢٨٠، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ،١٤ /١٩٢، الشوكاني، فتح القدير،٤/٤٦٤،الآلوسي، روح المعاني ، ٢٢/ ١٤١.

(٣) انظر : الشهاب الخفاجي ، حاشية الشهاب على البيضاوي ،٧/ ٥٤٦.

(٤)ابن جزى ، التسهيل لعلوم التنزيل، ٣/ ١٥٠.

(٥)ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٢٢/ ٦١.

وفي التعبير بالموصول أيضًا تحقير لتلك الآلهة المزعومة.

الجمع بين حرفي ﴿كَلَّا﴾ و﴿بَلْ﴾

ولمّا أقام الحجة عليهم ، فكشف غلطهم ، وبيّن باطلهم ، ردعهم عن الإشراك بالله ﷻ وأبطل عبادة غيره ﷻ ، وذلك بالجمع بين حرفي ﴿كَلَّا﴾ و﴿بَلْ﴾ اللذين جاءا ليؤدي كلّ منهما رسالة لا يؤديها غيره ؛ أمّا حرف﴿كَلَّا﴾ فقد جاء ليحمل رسالة الرّدع للإنسان عن الإشراك بخالقه ورازقه ﷻ ؛ ليحقق هذا الإنسان الغاية التي خُلِقَ لأجلها، وبناءً عليه يكون آمنًا مطمئنًا سعيدًا في الدنيا والآخرة ، وإفادة ﴿كَلَّا﴾ معنى الرّدع في سياق هذه الآية هو قول غير واحد من المفسرين ، وعلى رأسهم الزمخشري، وأبو السعود ، والآلوسي[1].

وأمّا﴿بَلْ﴾ فهو حرف إضْرابٍ إمّا يفيد الإبطال ، وإمّا الانتقال من غرض إلى آخر[2]، جاء في سياق هذه الآية ليحمل رسالة إبطال الألوهية ونفيها عن المخلوقات الحادثة العاجزة التي لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فضلاً عن غيرها، وإثباتها لله ﷻ وحده ؛ فهو ﷻ الإله الحقّ الذي يستحق العبادة وحده ولا يستحقها أحدٌ سواه .

فاصلة الآية الكريمة

وجاءت فاصلة الآية الكريمة تؤكد تفرد الله ﷻ بالألوهية واستحقاقه وحده للعبادة ، وتزيد في الرّدع عن الإشراك به ﷻ ، فقد أخبر سبحانه عن نفسه بأنه :﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، وهما اسمان من أسمائه الحسنى، وجاءا معرفين بالألف واللام ؛ ليكون كلّ منهما دالاً على الكمال الخاص به

---

(١) انظر:الزمخشري ، الكشاف،٥٩٢/٣،أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،١٣٣/٧، الآلوسي، روح المعاني ، ١٤١/٢٢ ، وانظر مثلاً: الخازن ،علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم(٧٢٥هـ) لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م ،٤٤٨/٣، ابن جزي الكلبي، التسهيل ، ١٥٠/٣، الشوكاني، فتح القدير،٤٦٤/٤، الشنقيطي ، أضواء البيان ، ٢٦٩/٦.

(٢) هذا إن تلاه جملة، ويفيد العطف إن تلاه مفرد.[مغني اللبيب، ١٥١/١ـ١٥٢، الفيومي، المصباح المنير، ١٦١/١].

ﷻ ؛ أمّا ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ فمعناه : القوي الغالب على كل شيء، والذي ذلّ لعزته كلّ عزيز[١]، والذي لا يُعادله شيء ولا مثيل له ولا نظير[٢]، والحقُّ أن العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب.

وأمّا ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فمعناه: ذو الحكمة، والله ﷻ الحكيم الحق ؛ لأنّه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم ، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها (حكيم) ، وكمال ذلك ليس إلا لله ﷻ[٣]، ومعنى إحكامه ﷻ: إتقان التدبير في مخلوقاته وحُسن التقدير لها في إنشاء كلِّ شيء من خلقه على ما أحبّ أن يُنشئه عليه، وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يُهيئه عليها[٤].

ولا يخفى ما يتضمنه الاسمان من دلالة على تفرد الله ﷻ بالألوهية واستحقاقه للعبودية، وما فيهما من ردع للإنسان العاقل المتدبر لمعانيهما وكفٌ له عن الشرك بالله ﷻ ، واتخاذ غيره معه.

تنوع طرق الردّع عن الشرك بالله ﷻ

ولم يكن الكفّ والمنع عن الشرك في أسلوب القرآن الكريم مقتصرًا على استعمال حرف الرّدع (كلا)، بل استعمل ضرب الأمثال التي تدل على بطلان الشرك وتردع عنه، واستعمل قصص الأمم السابقة، فبيّن أن الشرك كان سببًا في هلاك كثير من السابقين ، فمن الأمثال قوله

---

(١) الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم السري(٣١١هـ) تفسير أسماء الله الحسنى ،تحقيق: أحمد الدقاق ، دار الثقافة العربية ــ دمشق ١٩٧٤م ، ٣٤.

(٢) الخطابي، أبو سليمان ، حمد بن محمد(٣٨٨هـ) شأن الدعاء ، دار المأمون للتراث ــ دمشق ، ط١، ١٩٨٤م، ٤٨.

(٣)الغزالي ، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ،١٢٠.

(٤)الخطابي، شأن الدعاء،٧٣.

تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت/٤١].

فهذا مثل ضربه الله ﷻ للمشركين في اتخاذهم آلهة من دونه أولياء يرجون نصرها، ونفعها عند حاجتهم إليها، فهم في ذلك كالْعَنْكَبُوتِ التي تبني بيتًا لنفسها ليحفظها من المخاطر، فلا يُغْني عنها شيئا عند حاجتها إليه ؛ لأنّه في غاية الضعف ، لا يدفع عنها بردًا ولا حرّا، ولا يحميها من أدنى خطر ، وكذلك المشركون لا تُغْني عنهم آلهتهم التي اتخذوها من دون الله شيئًا ، فهي لضعفها لا تملك نفعًا ولا ضرّا [١].

وهذا المثل البليغ فيه من قوة الدلالة على ضعف ما اتُّخِذَ وليًّا من دون الله ﷻ ما يكفّ العاقل عن الركون إلى غير الله ﷻ ، ويردعه عن الإشراك به.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج/٣١] .

وهذا مثل آخر ضُرِبَ للمشرك في ضلاله وهلاكه وبُعْده عن الحقّ ، قال الزجاج : "الخطف هو الأخذ بسرعة ، وهذا المثل ضربه الله ﷻ للكافر في بُعْده من الحقّ ، فأعلم أن بُعْدَ مَنْ أشرك به من الحقّ ، كبُعْد مَنْ خرَّ من السماء ، فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد" [٢]، وهو معنى لغوي يتفق وسياق الآية الكريمة.

فالآية الكريمة ترسم مشهدًا مُخيفًا مرعبًا لمن يشرك بالله ﷻ ، إنّه مشهد الهويّ من شاهق ، وفي مثل لمح البصر يتمزق فتتلقفه الطير ، أو تقذف به الريح بعيداً بعيداً عن الأنظار في هوة ليس لها قرار! وتبرز في هذا المشهد سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ

---

(١) الطبري، جامع البيان ، ٢٠/٣٨، الحكيم الترمذي ، الأمثال في الكتاب والسنة، ١٩، السمرقندي ، بحر العلوم ، ٢/٦٢٩.
(٢) الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ،٣/٤٢٥.

(بالفاء) وفي المنظر بسرعة الاختفاء ، وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ﷻ ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء ، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا كأن لم يكن من قبل أبدًا [١].

هذا عن استعمال الأمثال في الرّدع عن الشرك ، أما عن استعمال قصص الأمم السابقة، فقد أشرت فيما سبق إلى أنّ الله ﷻ جعل الهلاك والعقوبة لمن يستحقها سنّة من سُننه التي لا تتغير ولا تتبدل ، وأنّ من أهداف التذكير بما حلّ بالأمم السابقة الاعتبار والاتعاظ الذي يؤدي إلى الرّدع عن الأسباب التي تجلب غضب الله ﷻ واستحقاق عقوبته. وقد أشار القرآن الكريم إلى أن هلاك كثير من الأمم كان بسبب الشرك، فقال تعالى:﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم/٤٢].

فالله ﷻ يأمر بالسير في الأرض للنظر ؛ والنظر على وجهين: يقال: نظر إليه إذا نظر بعينه، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه ، وهو في الآية الكريمة على الوجهين ؛ لأنه لم يقل فيه، ولا إليه ، وإنما قال: ﴿فَانظُرُوا﴾ [٢]؛ ليجمع بين مشاهدة آثار الأمم التي أشركت ، وبين التفكر في مصيرها.

وقوله : ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ جملة استئنافية جاءت لإيضاح سبب تلك العاقبة ، قال البيضاوي : "استئناف للدلالة على أنّ سوء عاقبتهم كان لفشوّ الشركِ وغلبته فيهم" [٣]، وزاد الآلوسي: "وفيه تهويل لأمر الشرك بأنّه فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة" [٤].

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٤/٢٤٢١.

(٢)السمرقندي ، بحر العلوم ،٣/١٥.

(٣) البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،١/٣٣٨.

(٤) الآلوسي ، روح المعاني ،٢١/٤٩.

وليس المراد من الأمر بالمسير في الأرض مجرد النظر، بل المراد الاعتبار بما أصاب السابقين، والكفّ والامتناع عمّا كان سببًا لسوء عاقبتهم ، لئلا يُصيب اللاحقين ما أصاب السابقين، قال ابن تيمية :" إنّما قصّ الله ﷻ علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها" (١).

ومما يردع العاقل عن الإشراك بالله ﷻ أن الله ﷻ حرّم الجنّة على من مات وهو يشرك به سواه ، وجعل مرجع المشرك بالله ﷻ ومكانه الذي يأوي إليه يوم القيامة نارُ جهنم ، وليس له ناصرٌ ولا منقذ يُنقذُه منها (٢)، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة/٧٢] ، وفي هذا رادع قوي لأولي النهى المتطلعين إلى الفوز بالجنة والنجاة من نار جهنم.

ثانياً: الردّع عن التعزز بالآلهة.

العِزُّ في الأصل يدلُّ على شدّةٍ وقوّةٍ وما ضاهاهما، من غلبةٍ وقهر ، يقال عَزّه على أمرٍ يَعُزُّه، إذا غلبَه على أمره. واعتَزّ بفلانٍ : عَدَّ نفسَه عزيزاً به ، واعتزَّ به وتَعَزَّزَ ، إذا تشرَّفَ(٣).

والعِزّة : صفة مانعةٌ للإنسان من أن يغلبَه غيره(١)، وهي لا تُطلَب إلا من الله ﷻ وحده، ولا تُستمد إلا منه ﷻ ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر/١٠] أي : "له

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٢٨ /٤٢٥.
(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ١٠/٤٨١.
(٣)ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ٤/٣١، ابن منظور، لسان العرب، مادة(عزز)، ٥/٣٧٤.

ﷻ وحدَهُ لا لغيرِه عزَّةُ الدُّنيا وعزَّةُ الآخرةِ ، والمعنى: فليطلبها منه لا من غيرِه فاستُغني عن ذكرِه بذكرِ دليلِه إيذانًا بأنَّ اختصاصَ العزَّةِ بالله ﷻ موجبٌ لتخصيصِ طلبها به ﷻ ، والجمع بين ﴿كَانَ﴾ و﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها"[٢].

ولا تكون العزّة حقيقية، ووصفًا حميدًا إلا إذا استمدها صاحبُها من الله ﷻ ، أمّا إذا استمدها من غير الله ﷻ فهي عِزَّة كاذبة ووصفٌ ذميمٌ ؛ لأنّها تعَزز، وهو في الحقيقة ذُلٌّ وهوان[٣].

وقد جاء الرّدع عن التعزز بغير الله ﷻ في قوله عزّ من قائل:﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم/٨١– ٨٢]، وهذا هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه الرّدع عن التعزز بغير الله ﷻ.

مناسبة الآتين لما قبلهما

قال البقاعي مبينًا مناسبة الآيتين لما قبلهما: "لما أخبر اللهﷻ بالبعث ، وذكر أنَّ هذا الكافر يأتيه على صفة الذل ، أتبعه ذكر حال المشركين مع معبوداتهم ، فقال متعجبًا منهم عاطفًا على قوله ﷻ:﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾[مريم:٦٦] : ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾"[٤]، وقد أكد ابن عاشور العطف الذي ذكره البقاعي[٥]، وأيده ؛ لأنه يتناسب والنظم القرآني.

فلما أظهرت الآيات السابقة أثرًا من آثار الشرك ، وهو استبعاد المشركين البعث بعد الموت ، وأبطلت تلك الدعوى وبيّنت زيفها، وخُتِمت بعرض نموذجٍ من نماذج الكفر والإشراك ، يُحشر صاحبه يوم القيامة وقد صار في حالة من الذل والصغار، بعد أن استخف في حياته الدنيا

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات ، ٣٣٥، المناوي، محمد عبد الرؤوف (١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٩٨٩م ،٥١٢.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ١٤٥/٧.

(٣) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن،٣٣٦ ، المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ٥١٢.

(٤) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ٥٥٦/٤.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٧٩/١٦.

بالبعث ، فاستبعده ، وظنّ استحالته ، ناسب أن يأتي في هاتين الآيتين إظهار غاية من غايات الشرك بالله ﷻ ، وإبراز غرض من أغراض المشركين في عبادتهم لمعبوداتهم – وهو التعزز بها – وإرداف هذا الغرض بالردع عنه ؛ لأنّه في الحقيقة ذُلٌّ وصغار في الدنيا والآخرة.

معنى الاتخاذ

الاتخاذ: افْتِعَال من أَخَذَ ، ويجري مجرى الجَعْل ويُعَدَّى إلى مفعولين[١]، أولهما محذوف لدلالة السياق عليه ، وهو كُلُّ ما عُبِدَ من دون الله ﷻ من أصنام وغيرها [٢]، والثاني: ﴿ءَالِهَةً﴾ ، والتقدير: اتّخذوا الأصنام وغيرها آلهة يعبدونها.

وأوضح ابن عطية سر التعبير بالفعل اتّخذ دون أخذ، فقال : "اتّخذ يتضمن إعدادًا من المُتَّخِذ، وليس ذلك في أَخَذَ"[٣]، وزاد ابن عاشور: وفيه" إيماء إلى أنّ عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله ﷻ به"[٤]، بل يأمر ﷻ بالاعتقاد الحق ، وهو الإقرار بأنّه ﷻ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لا إِلَه سواه ، ولا معبود إلا إياه ، ولعلّ مجيء لفظ ﴿ءَالِهَةً﴾ بصيغة الجمع يدل على فساد اعتقاد المشركين وبطلانه ، قال الراغب الأصفهاني: "وإِلَـهٌ حقّه ألا يجمع ، إذ لا معبود – بحقٍّ – سواه ﷻ ، لكن العرب لاعتقادهم أنّ هاهنا معبودات جمعوه ، فقالوا: الآلهة"[٥].

---

(١) الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٢٢ ، الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز ،٤/٦١.

(٢) انظر:ابن عطية، المحرر الوجيز،٤/٣١.

(٣)ابن عطية، المحرر الوجيز،٤/٣١.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ١٦/٨٠.

(٥) الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٣١.

وقال ابن منظور: الآلِهَةُ الأصنام ، سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تَحُقُّ لها ، وأسماؤهم تَتْبَعُ اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه"[١].

فتسمية المعبودات من دون الله ﷻ آلهة تابعة لاعتقاداتهم الباطلة ، ولعلّ سرّ عدم تعبيرهم عنها باسم (الله) ﷻ إقرارهم أن الله ﷻ هو الخالق والمالك والمدبر والرازق والمحيي والمميت، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١] ، وقال ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر:٣٨] ، ولذلك عميت أبصارهم وخرست ألسنتهم عن التعبير عن تلك المعبودات الباطلة باسم(الله) ﷻ الذي لم يأت إلا بما دلّ على الله ﷻ ؛ ولذلك عُدَّ الاسم الأعظم عند الأكثرين.

علّة اتّخاذ الآلهة

وقد جاء حرف اللام في﴿ لِّيَكُونُوا ﴾ ليكشف علّة من علل اتّخاذ آلهة من دون الله ﷻ ، وهي أن يكونوا لهم ﴿ عِزًّا ﴾ ؛ أي: سبب قوّة وانتصار في الدنيا ، وشفعاء ينقذونهم من العذاب في الآخرة[٢]، كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس/١٨] ، وقوله ﷻ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ، مادة (أله) ١٣، / ٤٦٧.

(٢) انظر:الماتريدي،أبو منصور محمد بن محمد (٣٣٣هـ) تأويلات أهل السنّة، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ٢٧٨/٣.

﴿ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤﴾ [يس/٧٤] ، وقوله ﷻ:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ۝٣﴾ [الزمر/٣].

وقد أحسن ابن عطية إذ حمل لفظ ﴿عِزًّا﴾ على "العموم في النصرة ، والمنفعة ، وغير ذلك من وجوه الخير"[١]، وبهذا يظهر أنّ لفظ العزّ لفظ جامع لمعاني القوّة ، والنصرة ، والشفاعة ، والتقريب إلى الله ﷻ زلفى، وغير ذلك من وجوه الخير التي يظن المشركون أنّهم سيحصلون عليها من خلال اتّخاذهم آلهة من دون الله ﷻ ، ولذا فقد جاء هذا اللفظ في مكانه الأخص الأشكل به ، ولا يمكن للفظ آخر أن يحلّ محله في هذا المقام.

وإنّما جاء لفظ﴿عِزًّا﴾ مفردًا مع أن المراد به جميع الآلهة ؛ لأنّه مصدر، والمصدر لا يُثنّى ولا يُجمع[٢]، ومن الفوائد البيانية للتعبير به "تصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنّهم نفس العزّ؛ أي : إن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزًّا "[٣].

مجيء ﴿كَلَّآ﴾ وإفادتها الرّدع

ولما بيّن ﷻ غرض اتخاذ الآلهة من دونه ، وهو طلب العزّ أردفه بالرّدع عنه بأم الرّوادع ، ﴿كَلَّآ﴾ ؛ لأنّ طلب العزّ من معدن الذل من العبيد المحتاجين، ومن طلب العزّ من ذلك المعدن، اضطر إلى ترك الحقّ واتباع الباطل ، فكانت عاقبة أمره الذل وإن طال المدى[٤]، وهذه العاقبة بيّنها قوله عزّ من قائل :﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ، فمن اتخذ مع

---

(١)ابن عطية، المحرر الوجيز،٣١/٤.

(٢)انظر: القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،٩٩/١١، أبو البقاء العكبري، محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله (٦١٦هـ) اللباب في علل البناء والإعراب ، دار الفكر- دمشق، ط١،١٩٩٥م،٢٦٤/١ ، ابن هشام ،أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله (٧٦٣ هـ) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، دار الجيل – بيروت ، ط٥، ١٩٧٩ م ، ٢١٥/٢.

(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ٨٠/١٦.

(٤) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،٥٥٦/٤.

الله ﷻ آلهة أخرى ، يتعزّز بها عاقبه الله ﷻ بأن يتبرؤوا منه ، وينكروا عبادته ، وينقلبوا عليه ذُلاً يذل بسببه مقابل العزّ الذي أمّله فيهم ورجاه منهم [١]، وهذا المعنى بيّنه ﷻ في آيات كثيرة، كقوله تعالى مخبرًا عن الآلهة المعبودة من دون الله ﷻ أنها تقول يوم القيامة:﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص/٦٣] ، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف/٦] [٢].

وبهذا المعنى يكون ﴿ضِدًّا﴾ مقابلا لـ ﴿عِزًّا﴾ ، قال الزمخشري: ذكر"﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ في مقابلة﴿لَهُمْ عِزًّا﴾والمراد ضدّ العزّ، وهو الذُّلُّ والهوان، أي : يكونون عليهم ضِدًّا لما قصدوا وأرادوا ، كأنّه قيل : ويكونون عليهم ذلاً، لا لهم عِزًّا " [٣].

وقال ابن عطية في معنى الضدّ: "يجيئهم منهم خلاف ما كانوا أمّلوه ، فيؤول ذلك بهم إلى ذلة ضدّ ما أمّلوه من العزّ وهذه الصفة عامة" ، وأورد في معناه أقوالاً، هي: قرناء، أعوانًا عليهم ، أعداءً ، بلاءً ، ثُمّ عقب قائلا: "وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعمّ منه وأجمع للمعنى المقصود ، والضدّ هنا مصدر وصف به الجمع كما يوصف به الواحد "[٤].

وعلى هذا يكون لفظ ﴿ضِدًّا﴾ لفظ جامع لكل المعاني التي قيلت فيه، وعليه فلا يمكن للفظ أن يقوم مقامه في هذا السياق بغية بيان ذلّ المُتَعزّز بغير الله ﷻ وهوانه على مَن تعزّز به ، وأذل نفسه له.

---

(١) هذا المعنى على اعتبار أن الضمير في (سيكفرون) يعود على الآلهة، وهذا ما قدّمه الزمخشري، ورجحه أبو حيّان ، والشنقيطي ؛ لأنه أقربُ مذكورٍ، ولأنّ الضميرَ في (يكونون) أيضاً عائدٌ عليهم، وفيه انسجام الضمائر بعضها مع بعض، وجُوّز أن يعود الضمير على المشركين، إلا أنّ فيه عدم توافق الضمائر.[انظر :الكشاف، ٤٣/٣، البحر المحيط ،٤٩/٨،أضواء البيان،٥١٠/٣].

(٢) وانظر مثلا: [البقرة / ١٦٦ ، ١٦٧]، [يونس /٢٨]، [النحل/٨٦]، [الأحزاب/٦٧، ٦٨].

(٣) الزمخشري، الكشاف، ٤٣/٣، ونظر :الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢١٤/١٢.

(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز، ٣١/٤ ـ ٣٢.

ولا بُدّ من الإشارة هنا إلى أن لفظ الضِدّ لفظ فريد وحيد ؛ إذ لم يرد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع ؛ ليبيّن أن تلك الآلهة المزعومة التي اتخذوها لتكون مصدر العزّ لهم ستكون لهم مصدر الذل والهوان .

ولا يعني ما سبق أن الّردع عن التعزّز بالآلهة مقتصر على الكفرة المشركين فحسب ، بل يشمل كلّ من يركن إلى أشخاص أو مخلوقات طلبًا للعِزّة حتى قيام الساعة ، ولذلك ذمَّ الله ﷻ المنافقين الذين والوا الكفرة وتراموا في أحضانهم طلبًا للعِزّة والمنعة ، وبيّن أن لا عِزّةَ إلا به ﷻ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء/١٣٩] .

لقد سلك القرآن الكريم في رّدع الإنسان عن التعزز بغير الله ﷻ مسلكًا فريدًا، إذ استعمل في ذلك حرف الرّدع (كلا) ، وبيّن نتيجة ذلك التعزز ؛ فما طلب إنسان العِزّة من غير الله ﷻ وعلّق رجاءه على سواه إلا حصل له عكس ما طلب ، فذل وخاب في الأولى والآخرة ، ثُمّ أوضح طريق العزّة وهدى الناس إليها ، فمن أراد العِزة الحقيقية فليلزم طاعة الله ﷻ .

المطلب الثاني:

الرّدع عن التقصير في حق الله ﷻ ،والاغترار بكرمه.

أولاً : الرّدع عن التقصير في حق الله ﷻ:

أمر الله ﷻ الإنسان بعبادته وطاعته ، ولكنّ كثيرًا من الناس لم يؤدّوا ما أمرهم الله ﷻ به من الإيمان والطاعة ولم يعملوا به ، بل أخلواْ بذلك ؛ بعضهم بالكفر ، وبعضهم بارتكاب الذنوب والمعاصي، ولا يزال كثير منهم مقصرين في تنفيذ أمر خالقهم ﷻ وأداء حقّه على أتمّ أداء وأكمله ؛ ولذلك جاء الرّدع عن هذا التقصير بقوله تبارك وتعالى:﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [عبس/٢٣].

مناسبة الآية لما قبلها

هذه الآية الكريمة جاءت في ختام المقطع الثاني من سورة عبس ــ ويبدأ بقوله ﷻ:﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [عبس/١٧-١٨] - الذي تحدث عن "جحود الإنسان وكفره، وهو يُذَكِّره بمصدر وجوده، وأصل نشأته، وتيسير حياته، وتولي ربّه له في موته ونشره"[١]، فحريّ بمَن عرف مراحل خلقه ... ونهاية حياته بالموت ... وعلم أنّه يُبعث من قبره ليُحاسَب على أعماله التي عملها في الدنيا ــ ألا يُقصّر في أداء حقّ مولاه ﷻ ؛ لذلك ناسب مجيء الرّدع لهذا الإنسان المقصّر؛ إذ لا يليق به أن يبقى في غفلته ، وأن يبقى مقصّرًا فيما أمره الله ﷻ به وأوجبه عليه.

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٦/٣٨٢٢.

افتتاح الآية بـ﴿ كَلَّا ﴾

و﴿ كَلَّا ﴾ التي بُدئت بها هذه الآية تُفيد ـ كما سبق ذكره ـ الرّدع عن مضمون كلام سابق أو لاحق ؛ أمّا إفادتها لهذا المعنى في سياق هذه الآية فهو قول كثير من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي والرازي وغيرهم[١]، وقيل : أنها بمعنى حقًّا[٢]، وربما يكون من الممكن الجمع بين المعنيين ؛ فالرّدع هو المعنى الذي تفيده في أصل وضعها ، وأما (حقًّا) فهو مصدر، وكأنّه يقرر ثبوت تقصير الإنسان في أداء حقّ الله ﷻ ما دام معرضًا عن النظر في دلائل قُدرة الله ﷻ الأنفسية والآفاقية.

وأمّا ما يتوجه إليه الرّدع في هذا السياق فهو مضمون الكلام اللاحق ، قال ابن عاشور: "وهو أقرب لأنّ ما بعد ﴿ كَلَّا ﴾ لما كان نفيًا ناسب أن يُجعل ﴿ كَلَّا ﴾ تمهيدًا للنفي"[٣]، واستأنس لذلك بقول مجاهد[٤] في تفسيره للآية الكريمة :" لا يَقْضِي أَحَدٌ أبدًا كل مَا فُرِضَ عليه"[٥]، ثُمّ ذكر أنّ سِرّ تقديمها هنا هو الاهتمام بمبادرة الرّدع[٦].

---

(١)الزمخشري، **الكشاف** ،٧٠٣/٤، البيضاوي، **أنوار التنزيل**، ٤٥٣/٥ ،الرازي ،**مفاتيح الغيب** ،٥٦/٣١، وانظر:ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل،١٧٩/٤،البقاعي، **نظم الدرر**،٣٢٩/٨ الإيجي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد (٩٠٥هـ) **جامع البيان في تفسير القرآن** ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ٤٤٧/٤.

(٢)انظر:ابن الجوزي، **زاد المسير**،٣٢/٩ ، البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود (٥١٦ هـ) **معالم التنزيل** ، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٧م، ٣٨٨/٨.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ١١٢/٣٠ ،وذكر وجهًا آخر، وهو أن يكون الرّدع عمّا قبلها مما يفهم من قوله ﷻ :﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ ، أو مما يُشير إليه قوله ﷻ:﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ .

(٤) هو: مجاهد بن جبر المكي المغربي ،المفسر أبو الحجاج المخزومي، كان أحد الأعلام الأثبات، وكان أقل أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، وكانت وفاته بمكة وهو ساجد عام(١٠٤هـ) على الأشهر،[ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٤٢/١٠].

(٥) مجاهد بن جبر المخزومي (١٠٤هـ) **تفسير مجاهد** ، تحقيق:عبد الرحمن السورتي ، المنشورات العلمية ـ بيروت ، ٧٣١/٢، **صحيح الإمام البخاري**، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة عبس، ١٨٨١/٤، الإمام الطبري، **جامع البيان** ،٢٢٥/٢٤.

(٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ١١٣/٣٠.

وعلى هذا تكون جملة ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا نشأ عن سؤال تقديره: ماذا فعل الإنسان والحال أنّ الله ﷻ مُنعم عليه بِنَعَم الخلق والإيجاد وتيسير السبيل والإماتة والإقبار والإنشار؟ فأجيب : لمّا يقض ما أمره الله ﷻ به[1].

و﴿لَمَّا﴾ حرف نفي وجزم وقلب ، وهي بمعنى (لم) إلا أنها تختلف عنها في أنّ المنفي بها مستمر النفي إلى زمن الحال[2]؛ أي : حتى وقت النطق بها ، فالنفي الذي أفادته ﴿لَمَّا﴾ غير منقطع ، بل متوقع الحصول ، ولعلّ مجيئها هنا يدل على أنّ التقصير ما زال مستمرًا ، وأنّ زمن تداركه ما زال مستمرًا أيضًا ولمّا ينقطعْ بعد ، وأنّه ما زال بإمكان الإنسان أن يرتدع عن التقصير والتفريط في أداء حقّ الله ﷻ ، وأن يكفّ ويمتنع عن مخالفة أمر خالقه ﷻ المُنعم عليه بجلائل النِّعم ولو قبل الموت بلحظات، وهذا متوقّع الحصول ولو من بعض أفراد النوع الإنساني.

لفظ (قضى) وصيغته

والفعل﴿يَقْضِ﴾[3]مأخوذ من(قضى) "والقاف والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانهِ وإنفاذه لجهته"[4]، فليس المطلوب من الإنسان مجرد تنفيذ أوامر الله ﷻ فحسب، بل لا بُدَّ له من إحكام أدائها وإتقانه ، وبهذا يتحقق تنفيذ ما أمر الله ﷻ به .

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ٨/٣٣٠.

(٢) انظر:ابن هشام ،أبو محمد عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ) شرح قطر الندى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١٩٦٣، ١١م،٨٣ ، مصطفى الغلاييني ، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية – بيروت، ط١٩٩٩، ٣٦م،٢/١٨٤.

(٣) ذُكر في معنى عدم القضاء قولان: أولهما :العموم ، فلا يخلو فرد من أفراد النوع الإنساني من تقصير ما.[انظر:البيضاوي،١/٣٥٣، حاشية القونوي على البيضاوي،٢٠/٩٩] ، وثانيهما : أنه خاص بالكفار ، وهذا ما رجحه الماتريدي. [تأويلات أهل السنة،٥/٣٨٥]، واختار أبو السعود رأيًا وسطًا، فحمل الحكم بعدمِ القضاءِ على بعضِ أفرادِه ، أو على الكلّ ولكن بمعنى:" لمّا يقضِ جميعُ أفرادِه ما أمرَهُ بل أخلَّ به بعضُها بالكفرِ والعصيانِ مع أنْ مقتضَى ما فُصّل من فنونِ النعماءِ الشاملةِ للكلّ أنْ لا يتخلفَ عنه أحدٌ أصلاً" .[إرشاد العقل السليم ، ٩/١١١] ،والنفس إلى حمله على بعض أفراده أميل ، لأنّ التقصير بحق الله لا يقتصر على الكفار ، بل يشمل أصحاب المعاصي والذنوب من المسلمين.

(٤) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٥/٩٩.

هذا مما يُفيده إيثار لفظ ﴿يَقْضِ﴾ أما صيغته ـــ وهي المضارع ـــ فإنّها تدل على أنّ التقصير في أداء حقّ الله ﷻ مستمرٌ في النوع الإنساني ومتجدد فيه.

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى ما يُحقِّقُ أداء حقّ الله ﷻ ، ويمنع من التقصير به، فـذكر أن للإنسان مثبطاتٍ عمّا أُمِر به وتقصيرًا عمّا كُلِّف به ، وعقب قائلا :

"ولهذا قال الله تعالى:﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾. فنبه على أن الإنسان لا يكاد يخرج من دنياه وقد قضى وطره، ولذلك يجب على الإنسان أن يجتهد في أداء ما أمكنه، ويطهر نفسه بقدر مـا يتيسر له ، والرغبة إلى الله ﷻ في تكفير ما قصر فيه ، ويتحقق أنّه إذا فعل ما أمكنه فقد أعذر لقوله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة/٢٨٦] .

فإذا فعل ما أمكنه يكون قد ترشح أن يُزيل الله ﷻ عنه باقي السيئات كما قـال الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم/٨]. وقال تعـالى:﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء/٣١]. ولهذا أمرنا تعالى أن نقّر بتقصيرنا في الدعاء بقوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة/٢٨٦]... فأمرنا أن نرغب إليه فـي إتمـام مـا قصرنا عن اكتسابه"(١).

هكذا يتحقّق قضاء ما أمر الله ﷻ به ؛ بالإيمان ، والاجتهاد فـي أداء مـا أوجـب ﷻ مـن الطاعات على وجه الإحكام والإتقان، والتوبة مما يقع من الزلاّت ، والدعاء بقبول الـصالحات والعفو عن إثم ما يقع على وجه الخطأ أو النسيان.

---

(١) الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، دار الغرب العربي ـــ بيروت،ط١، ١٩٨٨م ،١٠٨.

ثانياً: الردّع عن الاغترار بكرم الله ﷻ:

لقد أهمل كثيرٌ من النّاس الغاية التي خُلِقوا لأجلها، فعاشوا حياتهم مقصرين في أداء ما أمرهم الله ﷻ به، وربّما نتج ذلك عن اغترار بعضهم "بفهم فاسد فهمه من آيــات القــرآن الكــريم .. كاغترار بعض الجهّال بقوله تعــالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الإنفطــار/٦] فيقول: كرمه ، وقد يقول بعضهم: إنّه لقّن المُغترّ حُجّته ، وهذا جهلٌ قبيح ، وإنّما غرّه بربّه ﷻ الغَرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه[١]، وأتي سبحانه بلفــظ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ، ولا إهمال حقّه، فوضـــع هـــذا المغتـــرّ الغرور في غير موضعه، واغترّ بمن لا ينبغي الاغترار به"[٢].

إنّ الآية الكريمة لا تهدف إلى تلقين الحُجّة أو الإرشاد إلى الجواب وإبداء العُذْر ، بل تهــدف إلى إيقاظ الإنسان من غفلته ، وتنبيهه على خطئه ومنعه عنه ، إذ اغترّ بكــرم الله ﷻ فتجــرأ على معصيته ومخالفة أمره ، ولذلك جاء الاستفهام في قوله ﷻ : ﴿مَا غَرَّكَ﴾ يحمل في طياتـــه عتابًا للإنسان ـــ الكافر والعاصي ـــ وتوبيخًا له على ذلك الاغترار [٣]، والمعنـــى : أي شـــيء "خَدَعَكَ وسَوّل لكَ حتى أضعت ما أوجب عليك"[٤] ؟.

إيثار اسم ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ على غيره

وآثر ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ على غيره من أسمائه الحسنى وصفاته العُلى لأمور غاية في الأهمية؛

---

(١)قال الراغب : الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان.[المفردات، ٣٦١].

(٢)ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي** ، ٣٦ . وذكر نحوه ابن كثير في تفسيره ، ٤٨٢/٤.

(٣) انظر: ابن جزى الكلبي ، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ١٨٢/٤.

(٤) الزجاج ،**معاني القرآن** ،٢٩٥/٥، البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود (٥١٦ هـ) **معالم التنزيل** ، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٧ م، ٣٥٦/٨.

أولها: "المبالغة في المنع عن الاغترار، فإنَّ محض الكرم لا يقتضي إهمال الظـالم وتـسوية المُوَالي والمُعَادي والمُطيع والعاصي ، فكيف إذا انضمَّ إليه صفة القهر، والانتقام.

والثاني: الإشعار بما به يَغُرّه الشيطانُ ، ويقولُ له : افعلْ ما شئتْ ، فإنَّ ربَّكَ كريم لا يُعذِّب أحدًا ولا يُعَاجل بالعقوبة؟!

والثالث : الدلالة على أنَّ كثرةَ كرمه تستدعي الجِدَّ في طاعتـه لا الانهمـاك فـي عـصيانه اغترارًا بكرمه"(١).

حق التكريم أن يقابل بالشكر والطاعة

وهذا الكرم الإلهي الذي يستدعي الجِدّ في الطاعة جاء ذكر شيء منه عقب الآية الكريمة التي خاطبت الإنسان بإنسانيته ؛ فهـو ﷻ الأكـرم﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الإنفطار/٧-٨].

فخلق الإنسان وإيجاده من العدم ، وتسويته وتعديله ، واختيار هذه الـصورة الجميلـة لـه؛ متناسبة الأعضاء كاملة الشكل والوظيفة، كلُّ ذلك منبثق من كرم الله ﷻ ومن فـضله وحـده ، ومن فيض نِعَمه المغدق على هذا الإنسان(٢).

وقد أقسم ﷻ على أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، فقال ﷻ:﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [التين:١ – ٤] ، وذكر ﷻ أنـه صور الإنسان في أحسن صورة ، فقال ﷻ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾ [التغابن:٣]

---

(١) البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٥/٤٦٠.

(٢) انظر: سيد قطب ، في ظلال القرآن،٦/٣٨٤٧.

وكان الواجب على الإنسان أن يُقابل كَرَمَ ربّه الأكرم بأداء ما فرَضَه عليه من غير إهمال ولا تفريط ، ويا ليته فَعَلَ ذلك ، بل كفر بالله ﷻ ، وارتكب الذنوب وجاهر بالمعاصي اغترارًا منه بكرم الله ﷻ ومغفرته.

إنّ هذا الاغترار يزيد من جُرأة الإنسان في أي زمان ومكان على مخالفة أوامر الله ﷻ ، ومن ثَمَّ يؤدي بصاحبه إلى الهلاك والسقوط في أسفل الدّركات ،ولهذا ناسب مجيء الرّدع عن هذا الاغترار في قوله ﷻ :﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾ [الإنفطار/٩].

قال أبو السعود وغيره: ﴿كَلَّا﴾ردعٌ عن الاغترارِ بكرمِ الله ﷻ وجعلِه ذريعةً إلى الكفرِ والمعاصي مع كونِه موجِباً للشكرِ والطاعةِ ، و﴿بَلْ﴾إضرابٌ عن جملةٍ مقدرةٍ ينساقُ إليها الكلامُ، كأنَّه قيلَ بعد الرَّدعِ بطريقِ الاعتراضِ : وأنتم لا ترتدعونَ عن ذلكَ، بل تجترئونَ على أعظمِ من ذلكَ حيثُ ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ ؛أي : بالجزاءِ والبعثِ رأسًا ، أو بدينِ الإسلامِ اللذين هُما من جملةِ أحكامِه ، فلا تصدقونَ سؤالاً ولا جوابًا، ولا ثوابًا ولا عقابًا"[١].وأضاف الآلوسي: "وفيه ترقٍ من الأهون إلى الأغلظ "[٢].

يتضح مما سبق أنّ ﴿كَلَّا﴾أفادت الرَّدع عن مضمون الكلام الذي سبقها ، وأمّا ﴿بَلْ﴾فهو ــ كما ذكرت سابقًا ــ حرف إضراب يُفيد الإبطال أو الانتقال من غرض إلى آخر، والنص السابق يُشير إلى أن الإضراب هنا يُفيد الانتقال من غرض الرّدع عن الاغترار بكرم الله ﷻ إلى بيان جرم أعظم يرتكبه بعض أفراد النوع الإنساني ، وهو التكذيب بالدّين وإنكاره ، وبهذا

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ٩/١٢١، وانظر: الخطيب للشربيني ،السراج المنير ،٤/ ٥٦٥ حقي البورسوي،روح البيان، ١٠/٣٦٥ ، ابن عجيبة،أحمد بن محمد بن المهدي(١٢٢٤هـ) ، البحر المديد، دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط١، ٢٠٠٢م،٨/٢٥٥، القنوجي، صديق بن حسن(١٣٠٧هـ) فتح البيان في مقاصد القرآن ،إحياء التراث الإسلامي ــ قطر،١٩٨٩م، ١٥/١١٧.

(٢) الآلوسي ،روح المعاني ،٣٠/٦٥.

يكون "الإضراب من باب الترقي لا الإضراب الإبطالي"[١]،والمراد ﴿بالدِّين﴾ الجزاء، أو دين الإسلام ، إذ يصدق لفظ الدِّين على كلٍّ منهما [٢]، والأول هو قول مجاهد وقتادة[٣]، وهو الأنسب بالمقام .

الخطاب في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وصيغته

والخطاب في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ للكفار[٤]، ومجيئه بصيغة المضارع يُحقِّق غرضين بيانيين هما: التجدد ، واستحضار الصورة ، وهذا ما أوضحه ابن عاشور بقوله :"وفي صيغة المضارع من قوله ﷻ :﴿تُكَذِّبُونَ﴾ إفادة أن تكذيبهم بالجزاء متجدد لا يقلعون عنه ، وهو سبب استمرار كفرهم ، وفيه أيضاً استحضار حالة هذا التكذيب استحضارًا يقتضي التعجيب من تكذيبهم ؛ لأنّ معهم من الدلائل ما لحقّه أن يقلع تكذيبهم بالجزاء"[٥].

إخبار الإنسان بحفظ الملائكة لأعماله

ومما يزيد في ردع الإنسان عن الاغترار وكفّه عن الغفلة الإخبار أنّ عليه رقباء من الملائكة يحفظون جميع أعماله خيرها وشرّها ، ويُحْصونها عليه ، لا يخفى عليهم شيء من ذلك ، قال تعالى :﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الإنفطار/١٠-١٢] .

---

(١) القونوي ،حاشية القونوي على البيضاوي ، ١٣٤/٢٠.

(٢) انظر : الراغب الأصفهاني ،المفردات ،١٨١، ابن منظور، لسان العرب ،١٦٤/١٣.

(٣) انظر: الأمام الطبري ،جامع البيان ،٢٧١/٢٤ .

(٤)ابن جزى الكلبي ، التسهيل لعلوم التنزيل، ١٨٢/٤.

(٥)ابن عاشور ،التحرير والتنوير ، ١٥٨/٣٠ـ١٥٩.

فقد ذكر الله ﷻ أن الملائكة يعلمون ما يفعله العبد من غير رويّة منه أو تكرار ؛ فهم يكتبون هذا كلّه ، فكيف إذا فعله عن رويّة وتدبر ، وتفكر ، وإحضار نيّة[١]، ولذا جاء التعبير بـ ﴿مَا﴾ الموغلة بالإبهام لتشمل كل ما يصدر عن الإنسان.

قال النيسابوري القمي ما نصّه: "قال بعضهم : من لم يزجره عن المعاصي مراقبة الله ﷻ إياه كيف يردّه عنها الكرام الكاتبون؟ قلت : لا ريب أن الأول أصل والثاني فرع ، إلا أن المكلّف لإلفه بالمحسوسات يزجره ما هو أقرب إلى عالم الحس أكثر ما يزجره ما هو أقرب إلى عالم الأرواح"[٢].

فإن الله ﷻ قد أكدّ للإنسان أنه قد حفظه بملائكته الموصوفين بالكرم ، ووصفهم به يجعلهم موضع التوقير والاحترام ، فكيف إذا وكّلهم الله ﷻ بكتابة أعمال الإنسان ـ صغيرها وكبيرها، سرها وجهرها ـ وحفظها عليه ؛ ليوفّاها يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشرّ.

---

(١) وهذا للفرق بين (فعل)و(عمل)؛ فالفعل ما يصدر دفعة واحدة ، ولا يحتاج إلى زمن، والعمل يستعمل لما يمتد من الزمان.[انظر:[عبد الفتاح لاشين ،صفاء الكلمة،٦٩، فضل عباس،إعجاز القرآن ، دار الفرقان ـ عمّان ط١، ١٩٨٩م ،١٧٨-١٨٠].

(٢)النيسابوري القمي ،غرائب القرآن ورغائب الفرقان،٦/٤٦٠.

المطلب الثالث:

الردّع عن جحود النِّعم بالطغيان

خلق الله ﷻ الإنسان من العدم ، وميّزه بالعقل ، وعلّمه ما لم يكن يعلـم ، وأمـدّه ﷻ مـن فضله بالمال والولد ، وما لا يُعَدُّ ولا يُحصى من النِّعم ، ومع ذلك جحد معظم أفراد الإنسان تلك النِّعم ، واستكبروا عن طاعة خالقهم ورازقهم الأكرم ، بل إنّ بعضهم اتّخذ من تلك النّعم وسيلة للطغيان وتجاوز الحدّ في العصيان.

ولهذا ردع القرآن الكريم الإنسان عن جحود نِعَمة الله ﷻ بسبب طغيانـه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾ [العلق: ٦ – ٨]

سبب نزول الآيات

ورد في سبب نزول هذه الآيات إلى نهاية السورة روايتان :

الأولى: رواها الإمام مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّـرُ مُحَمَّـدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ قَالَ : فَقِيلَ: نَعَمْ ، فَقَالَ : وَاللاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ، قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَـى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَـكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا"، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ – لا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَـهُ – ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى نهاية السورة[1].

---

(١) صحيح الإمام مسلم ،كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله ﷻ: ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ ،رقم (٢٧٩٧)،٤/٢١٥٤.

فهذه الرواية تدل على أن الآيات من قوله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة قد نزلت في الطاغية أبي جهل.

وأمّا الثانية: فقد رواها الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ أَبُو جَهْلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَنَهَاهُ، فَتَهَدَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ ؛ فَقَالَ: أَتُهَدِّدُنِي أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْثَرُ أَهْلِ الْوَادِي نَادِيًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ ﴾ [العلق: ٩][١].

وهذه الرواية تدل على أن النازل في أبي جهل هو قوله ﷻ: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ إلى آخر السورة.

وعليه فإن قوله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ إما أن تكون في سبب النزول أو عامة في كل إنسان ، ولما لم تكن الرواية التي في الصحيح نصًا في أن النازل عقيب هذه الحادثة من قوله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى آخر السورة ، فإنّ الرواية التي نصّت على أن النازل في هذه الحادثة هو قوله ﷻ: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ إلى آخر السورة هو المقدم هنا.

وقد وفق ابن عاشور بين الروايتين ، فقال : "ووجه الجمع بين الروايتين: أنّ النّازل في أبي جهل بعضه مقصود وهو ما أوّله ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ الخ، وبعضه تمهيد وتوطئة وهو: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ إلى ﴿ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾[٢].

---

(١)الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط٢، ١٩٩٩م،٥/١٦٧، وذيله شعيب الأرناؤوط بقوله: إسناده صحيح، وانظر: الإمام الطبري، جامع البيان ،٢٤/٥٢٦،٥٢٣، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٩١١هـ)لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم ــ بيروت، ٢٣٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٣٠/٤٤٣، وانظر: العمري، شحاده حميدي، ردع الإنسان عن الطغيان في ضوء قوله ﷻ:﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ ،مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ،المجلد ٢٢ــ العدد الأول ــ٢٠٠٦، ٤٧٥.

هكذا يمكن الجمع بين الروايتين في نزول هذه الآيات، ولا شك أنّ الجمع بينهما خير من الأخذ بواحدة منهما وترك الأخرى.

ولا يعني هذا أنّ سبب النزول يُخرِج الآيات عن دلالتها العامة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١]، وأبو جهل واحد من كثيرين يتجاوزون حدود الله ﷻ ويُقابلون نِعَمه بالطغيان، وهم موجودون في كلّ عصر ومِصر.

مناسبة الآيات لما قبلها

وقد اتصلت هذه الآيات بما قبلها اتصالاً وثيقًا ، فلمّا خصّت الآيات السابقة الإنسان بالذكر وأظهرت من جلائل نِعَم الله ﷻ عليه ما يوجب مُقابلتها بالشكر والطاعة، لا بالجحود والطغيان كما يفعل أكثر أفراد الجنس الإنساني ، ناسب أن يأتي الرّدع " لمن كفر بنعمة الله ﷻ بطغيانه ، وإن لم يذكره لدلالة الكلام عليه ، فإنّه ﷻ قد عدّ مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهارًا لما أنعم عليه من أن نقله من أحسن المراتب إلى أعلاها تقريرًا لربوبيته وتحقيقًا لأكرميّته"[٢].

ويظهر أن صلة الآيات بما قبلها هو الظاهر كونها تتحدث عن الإنسان الذي يطغى، هذا الإنسان إنّما هو من جنس الإنسان الذي تحدثت عنه الآيات السابقة ؛ إذ الإنسان الطاغي هو نفسه المخلوق من علق ، وهو الإنسان الذي علّمه الله ﷻ ، وميزه على بقية الخلق بنعمة العقل والعلم [٣].

---

(١) وهذا ما قرره علماء أصول الفقه .انظر: الغزالي ،أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ) **المستصفى في علم الأصول**، تحقيق :محمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ٢٣٦، فضل عباس، **إتقان البرهان** ،٢/٣٤٤ وما بعدها.

(٢) الخطيب الشربيني، **السراج المنير**،٤/٦٥٠.

(٣) انظر:شحاده العمري، ردع الإنسان عن الطغيان في ضوء قوله ﷻ:﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ ،مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية،٤٧٦.

افتتاح الآيات بحرف ﴿ كَلَّا ﴾

وافتتحت الآيات بحرف ﴿ كَلَّا ﴾وهو يفيد في أصل الوضع معنى الرّدع والزجر ، وإفادتها لهذا المعنى في هذا السياق هو قول غير واحدٍ من أعلام المفسرين كالزمخشري، والنسفي ، والبيضاوي ، وأبي حيّان وغيرهم[١].

والرّدع عند هؤلاء يكون عن شيء مذكور، أو غير مذكور، فإن كان مذكورًا ظهر المعنى، وإن لم يكن مذكورًا فلا بدّ أن يكون سياق الكلام دالاً عليه[٢]، قال الزمخشري: "﴿ كَلَّا ﴾ردعٌ لمن كفرَ بنعمةِ الله تعالى بطغيانِه، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه"[٣]. وقال أبو السعود:"ردعٌ لمن كفرَ بنعمةِ الله تعالى بطغيانِه وإن لم يسبِقْ ذكرُهُ للمبالغةِ في الزجرِ. وقولُـهﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦﴾ ،أي: ليجاوزُ الحدَّ ويستكبرُ على ربِّه، بيانٌ للمردوعِ والمردوعِ عنْهُ"[٤].

لكن ذُكِر في المعنى الذي أفادته ﴿ كَلَّا ﴾في هذا السياق وجهان آخران:

أولهما : بمعنى (حقًّا) ؛ لأنه ليس قبلها ولا بعدها شيء يتوجّه إليه الـرّدع ،[٥]واستُبعِدَ هذا المعنى بحجة عدم صحة كسر الهمزة بعد حقًّا لأنه مصدر ، قال الصاوي[٦]: "لو كانت بمعنى حقا لما كُسِرت إنّ بعدها ؛ لكونها واقعة موقع مفرد، فتحصل أنّ كونها بمعنى حقًّا صحيح من جهة المعنى إلا أنه يُبعِده كَسر إنّ "[٧].

---

(١) الزمخشري الكشاف ،٧٨٣/٤ ،النسفي، مدارك التنزيل،٦٦٣/٣،البيضاوي ،أنوار التنزيل،٥ /٥١٥ ،أبو حيّان، البحر المحيط، ٤٨٩/٨ ، وانظر مثلاً: الإيجي، جامع البيان،٥١١/٤، ابن عجيبة، البحر المديد ،٣٢٨/٨.

(٢) انظر: ابن عطية ،المحرر الوجيز، ٣١/٤.

(٣) الزمخشري الكشاف ،٧٨٣/٤.

(٤) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٧٨/٩، وانظر: حقي البروسوي، روح البيان ،٤٨٤/١٠

(٥) انظر :السمرقندي،بحر العلوم ،٥٧٤/٣ ، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨٣/٢٠، ابن عادل، اللباب ،٤١٧/٢٠.

(٦) هو: أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي ، فقيه مالكي ، مفسر ، بياني، من كتبه حاشية الصاوي على الجلالين ، مات بالمدينة المنورة عام(١٢٤١هـ). [النويهض، معجم المفسرين، ٧٧/١].

(٧) الصاوي، أحمد بن محمد (١٢٤١هـ) حاشية الصاوي على الجلالين، دار الفكر – بيروت ،١٩٧٧م ،٢٣٤/٤.

والثاني: بمعنى(ألا) الاستفتاحية[١]، وقد استبعد ابن مالك أن تكون (كلاً) لمجرّد الاستفتاح[٢].

ويمكن الجمع بين هذه المعاني الثلاثة لتدل على توكيد طغيان الإنسان إذا استغنى ؛ فالمصدر(حقًّا) يدل على ثبوت الطغيان لدى الإنسان ، و(ألا)الاستفتاحية تفيد التوكيد ، إذ هي من أدواته بيانيًا ، وأمّا إفادة (كلا) لمعنى الرّدع فهو الأصل الذي وُضِعت له[٣].

وهذا ما يظهر؛ لانّ الجمع بين هذه المعاني ممكنٌ، ولا يخلو من فائدة، ولأنّ الجمع بينها أولى من ترجيح واحدٍ منها واستبعاد غيره، فلو لم يكن طغيان الإنسان ثابتًا ومؤكدًا لما رُدع عنه.

تأكيد إسناد الطغيان للإنسان

ونظم جملة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ على هذا النحو يُفيد تأكيد إسناد الطغيان للإنسان، وتقوية الحكم؛ أمّا الإسناد فقد جاء مؤكّدًا بـ(إنّ)، ولام الابتداء ـ التي زُحلِقت عن صدر الجملة إلى الخبر (يطغى) ـ، فضلاً عن كون الجملة اسمية تفيد الثبوت.

وأمّا تقوية الحكم فقد جاء من الإسناد إلى المسند إليه ـ الإنسان ـ مرتين: مرّة ظاهرًا؛ وهو اسم (إنّ)، ومرّة مستترًا؛ وهو ضمير الفاعل في (يطغى) العائد على الاسم الظاهر نفسه.

وقد جاء هذا الحشد من المؤكدات ليكون الخطاب شاملاً للمُنْكِر ولِمَنْ ينزل منزلته[٤].

وليس المراد بـ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ فردًا بعينه ، وإنّما المراد أكثرُ أفراد النوع الإنساني ، وهذا ما أشار إليه الخطيب الشربيني[٥] بقوله: "هذا النوع الذي من شأنه الأنس بنفسه من شأنه ـ إلا من

---

(١)الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(٤٥٠هـ)**النكت والعيون** ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٩٢م ،٦/٣٠٦.

(٢) ابن مالك، **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، ٢٤٥.وهذا مما تقدم ذكره عند الحديث عن الردع بـ(كلا).

(٣) انظر: شحاده العمري، **ردع الإنسان عن الطغيان** ، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ،٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٤) انظر:شحاده العمري، **ردع الإنسان عن الطغيان** ، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ، ٤٧٩.

(٥) هو: محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين: فقيه شافعي، مفسر من أهل القاهرة ،له تصانيف، منها :السراج المنير ،والإقناع في حل ألفاظ **أبي شجاع** ، توفي عام(٩٧٧ هـ). [الزركلي ،الأعلام،٦/٦].

عصمه الله ﷻ – أن يزيد على الحدّ الذي لا ينبغي له مجاوزته"[١]، حيث استثنى من عموم النوع الإنساني مَنْ عصمه الله ﷻ ؛ أي : مَنْ شكر الله ﷻ وحمده على نِعَمه، ولم تُشْغِله النِّعم عن طاعة المُنْعم ﷻ ، ولا عن إعطاء عباد الله ﷻ حقوقهم منها ، وهذا هو سلوك المؤمنين المراقبين لربهم ﷻ الشاكرين لنعمه.

معنى الطغيان وفائدة التعبير عنه بالمضارع

وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ، "فالطاء والغين والحرف المعتل – طغى – أصلٌ صحيح ، وهو مجاوَزَة الحدّ في العِصيان"[٢]، يقال : طَغَى يَطْغَى طُغْيانًا جاوَزَ القَدْرَ وارتفع وغَلا في الكُفْرِ ، وكلُّ مجاوز حدَّه في العِصْيانِ طَاغٍ ، وأَطْغاهُ المالُ ، أي : جَعَلَه طاغيًا ... وكلُّ شيءٍ جاوز القَدْرَ فقد طَغَى كما طَغَى الماءُ على قومِ نوحٍ وكما طَغَتِ الصيحةُ على ثمودَ[٣].

وعلى هذا يمكن القول بأن طغيان الإنسان يكون بخروجه عن الحدّ المشروع له ومجاوزته إيّاه ، وذلك مما يردع عنه القرآن ، ويجب أن يكفّ ويمتنع عنه الإنسان.

والتعبير بصيغة المضارع (يطغى) في هذه الآية الكريمة يُحقّق غرضين بيانيّين:

أحدهما: تجدد الطغيان في كلّ عصر ومصر، بأنواع متعدّدة ، وبألوان مختلفة ، وبأسماء متنوعة.

وثانيهما: استحضار صورة الطغيان القبيحة ، وجعلها ماثلة للعيان ، ليكون لها أثرًا عظيمًا في النفور من تلك الخصلة الذميمة التي يُمارسها الطاغي محبة منه في الظهور على غيره من أفراد جنسه[٤].

---

(١) الخطيب الشربيني، السراج المنير، ٤/ ٦٥٠.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، ٣/ ٤١٢.

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٥/ ٧.

(٤) شحاده العمري، ردع الإنسان عن الطغيان في ضوء قوله ﷻ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ ، ٨٤٢.

علّة الطُغيان وفائدة بيانها

وبعد تأكيد طغيان الإنسان بالجملة الاسمية المفتتحة بـ(إنّ) التوكيدية ، واللام الواقعة في جوابها﴿ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ ، جاء تعليل طغيان الإنسان بمجرد رؤيته مقدمات الاستغناء ، لا الاستغناء نفسه ، فقال ﷻ: ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ ، و(رأى) هنا من أفعال القلوب ، وتأخذ مفعولين ؛ المفعول الأول في هذه الآية الكريمة هو الضمير المتصل (الهاء) ، والمفعول الثاني جملة ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ،" كأنّه قال: أن رأى نفسَه غَنِيًّا"[١].

فيكون الفاعل والمفعول واحدًا ؛ وهو الإنسان الطاغي ، وفائدة تعليل طُغيان الإنسان برؤيته نفسه مستغنيًا لا بنفس الاستغناء هي الإيذانِ بأنّ مَدَارَ طُغيانـهِ زعمُـهُ الفاسـدُ[٢] ؛ فطُغيان الإنسان لا ينشأ عن الاستغناء نفسهِ ، وإنما ينشأ عن رؤيته غنى نفسه، فإذا شعر أنّه غير محتاج إلى غيره، وخُيِّل إليه أنّه استغنى عن غيره بالمال ، أو الجاه، أو العلم .. يستكبر ويتجاوز حدّه حتى مع الله خالقه ورازقه ﷻ ... يجحد النِعْمة ويجعلها سببًا لطغيانه ، فتجده يُعرض عن طاعة الخالق ﷻ ويتكبّر على المخلوق ، متناسيًا أنّه مخلوق ضعيف، وعبد فقير محتاج في كل حاجة من حوائجه إلى الله ﷻ .

قال ابن عاشور: "وعلة هذا الخُلق أن الاستغناء تحدث صاحبَه نفسُه بأنّه غير محتاج إلى غيره ، وأنّ غيره محتاج إليه ، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خُلقًا حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح فيطغى على الناس

---

(١) ابن عطية ،المحرر الوجيز، ٥٠٢/٥.

(٢) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم، ١٧٨/٩ ،حقي البروسوي ،روح البيان، ٤٨٥/١٠.

لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم ... فقد بينت هذه الآية حقيقةً نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبهت على الحذر من تخلغلها في النفس"[١].

ولعلّ أبرز الأمثلة على ذلك فرعون الذي رأى أنّه استغنى بنفسه ... حتى عن خالقه ومالك أمره ﷻ ، فوصل بهذا الشعور الزائف، والزعم الفاسد إلى المرحلة العليا في الطغيان ومجاوزة الحدّ ، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص: ٣٨].

وأكد ﷻ طُغيان فرعون، فقال مناديًا نبيه موسى عليه السلام ومخاطبًا له: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النازعات: ١٧].

وهكذا نجد أنّ السبب الرئيس في قضية الطغيان هو رؤية الإنسان نفسه مستغنيًا... ولهذا تجاوز فرعون حدّه ، وتعدّى قَدْره ، وتمرّد على ربّه ﷻ ، فهو قدوة الطغاة والمستكبرين في كلّ زمان ومكان.

تهديد الطاغي وتحذيره من عاقبة طغيانه

ولمّا بيّن ﷻ علّة طغيان الإنسان وأظهر سببه أكّد الرّدع والزجر عنه[٢] بأن توعّد هذا الإنسان الطاغي المستبد وحذّره من عاقبة طغيانه[٣] بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ [العلق/٨] بهذه الصيغَةُ المؤكدة تخاطب الآية الكريمة الإنسان وتحذّره من الطغيان، وتنذره بأنّ مصيره المحتوم الرُّجُوعُ إلى ربّه ﷻ وحده، فيجازيه بعمله، ويحاسبه على ما كان منه في حياته الدنيا.

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٣٠/٣٩٢.

(٢) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٢/١٩.

(٣) انظر :ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/٥٣٠، الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي ،٩/٥٢٩.

وفيها من المحاسن البيانية ذَاتِ اللَّطَائف النفيسة : الالتفات[١] من الغَيبَة إلى الخطــاب لإفــادة التشديدِ في التهديدِ[٢]، إضافة إلى تحريك ذهن السامع ، وإثارة انتباهه.

وتقديم الجار والمجــرور﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ علــى اســم (إنّ) ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ للدلالــة علــى القــصر والاختصاص ؛ أي: إلى الله ﷻ وحدَه ، لا إلى غيره رجوع الكلّ بــالموت والبعــث، فيــرى الطاغي حينئذ عاقبة جحود النِّعم بطغيانه[٣].

ولعلّ التعريف بالله ﷻ بصفة الربوبية ﴿رَبِّكَ﴾ فيه تذكير للإنسان بعظمة خالقــه ﷻ ، وبمــا يدعوه إلى طاعته وشُكره ، فهو ﷻ رَبُّ الأربَابِ ومَالِك المُلوكِ والأمْلاَكِ ، وهو الــذي أنــشأ الإنسان من العدم ، وتولى مصالحه، وتعهده بالرعاية والتربية ...[٤]، فمقابلة الإنسان كلّ هــذا الإحسان بالجحود والكفران، هو غاية الضلال والطغيان، الموجب لعقوبة الواحد القهّار ﷻ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه/٨١].

وقد يَحِلُّ غضب الله ﷻ على الطغاة ، وتنزل عقوبَتُهم في الدنيا قبل الآخرة ــ كمــا حــصل للطاغية فرعون ــ مع ما ينتظرهم في الآخرة من عقوبة موافقةٍ لطغيانهم ، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ/٢١-٢٦].

---

(١) الالتفات: هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره مــن المــلال والضجر ".[الزركشي ،البرهان في علوم القرآن ،٣/٣١٤].

(٢) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم، ٩/ ١٧٩، الآلوسي ، روح المعاني، ٣٠/١٨٢.

(٣)أبو السعود ،إرشاد العقل السليم، ٩/ ١٧٩، الآلوسي ، روح المعاني، ٣٠/١٨٢.

(٤) وهذا مما يندرج تحت المعنى اللغوي لكلمة (رب).[انظر: الراغب الأصفهاني ، المفردات، ١٩٠، السمين الحلبــي، عمــدة الحفاظ ،٢/٥٩ــ٦٠، الزبيدي ، تاج العروس، ٢/٤٥٩].

المطلب الرابع

الرّدع عن النّهي عن طاعة الله ﷻ

يُعرض كثيرٌ من النّاس عن هدى الله ﷻ ، ويتركون طاعته ، مخـالفين بـذلك أوامـره ﷻ ومتجاوزين حدوده، كمـا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦ ﴾ [يوسف:١٠٣-١٠٦] .

فمع وضوح الأدلة على وحدانية الله ﷻ وجلائها ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم مـن التكبـر، والشقاق ، والعناد ، ولم يقف بعضهم عند هذا ، بل تعدّوا ذلك حتى وصل بهم الأمر إلى التجرؤ على نهي عباد الله ﷻ عن الطاعة ، ودعوتهم إلى خلافها، وهذه إحدى صور الطغيان القبيحـة التي يمارسها أولئك الطغاة ضدّ المؤمنين بالله ﷻ في شتى الأزمنة، والأمكنة ، بأساليب متعددة، ووسائل مُختلفة.

وقد عرض القرآن الكريم هذه الصورة المستنكَرة وعجَّب منهـا، ثُـمَّ ردع عنهـا، وتوعّـد صاحبها وهدّده إن لم يرتدع عن ذلك بسفعه بناصيته ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۝١٩ ﴾ . [العلق: ١٣ – ١٩].

ذكرت من قبل أن هذه الآيات نزلت في أبي جهل ، وأنّه هو الناهي، وأنّ العبد المصلي هـو النبيّ محمد ﷺ ، باتفاق المفسرين كما قال ابن عطية ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ففعل أبي جهل وإنْ كان قديمًا في واقعه إلا أنّه متجدد في تعدد أشكاله وأساليبه ، ومتكرر في كلّ زمان ومكان ، وحكم الآيات عام ، فهو يشمل كلَّ مَنْ فعل مثل فعل أبي جهل في نهيه عنْ طاعة الله ﷻ بطريقٍ أو بآخر .

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات مرتبطة بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فلمّا أكدت الآيات السابقة أنّ الإنسان يطغى إذا رأى نفسه قد استغنى، وذكّرت بالرجوع إلى الله ﷻ وحده، ليكون جزاء الإنسان من جنس عمله، جاءت هذه الآيات تَعْرِض صورةً من صور طغيان هذا الإنسان؛ لتردع وتكفّ عنها .

فقد جاء موقع الآيات السابقة – وهي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٦ – ٨] – موقع المقدمة لهذه الآيات ؛ لأنّ مضمون تلك الآيات كلمة شاملة لمضمون هذه الآيات[١].

معنى ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ودلالته

وهذه الآيات بُدئت بجملة﴿أَرَءَيْتَ﴾ المركبة من همزة الاستفهام ، والفعل (رأى) المتصل بتاء الخطاب ، لتُثير الاستغراب من النهي عن طاعة الله ﷻ ، والتعجُّب من حال مرتكبه ، إذ أن

---

(١) ابن عاشور ،التحرير والتنوير ،٣٠/٣٩٢.

هذا المركب "لا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء"[١]؛ "لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يُستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لِتَنبُهِا إذ لا يكاد يصدّق به"[٢].

والدّال على التعجب فيه هو همزة الاستفهام ؛ لأنّها تخرج عن معناها الأصلي وهو طلب الفهم إلى معانٍ وأغراض بيانية أخرى من بينها: التعجب، والإنكار[٣].

وقد ضُمّن (أرأيت) معنى(أخبرني)، قال الفراء[٤]: "تقول: أرأيتَك، وتريد: أخبِرني"[٥]، وقال الراغب: ويجري (أرأيت) مجرى أخبرني، ثم ذكر عددًا من الآيات منها قوله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ [العلق/٩]، ثمّ قال: كلُّ ذلك فيه معنى التنبيه[٦].

وبهذا يكون الراغب قد أكد معنى (أخبرني) في (أرأيت)[٧]، وأضاف أنّ فيه معنى التنبيه، فهذا المركب جاء في الآيات الثلاث ليفيد التعجب ، والتنبيه ، وليس المقصود منه الحصول على جوابٍ ، قال الشيخ محمد عبده[٨]: (أرأيت)صارت تستعمل في معنى (أخبرني) على أنها لا

---

(١) النيسابوري القمي، غرائب القرآن ،٧٨/٣٠، الرضي الاستراباذي ، رضي الدين محمد بن الحسن ، شرح الرضي على الكافية ، جامعة قاريونس ، ١٩٧٨م، ١٦٢/٤، الألوسي ،روح المعاني ،١٤٨/٧.

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،٣٩٤/٣٠.

(٣)انظر:السيوطي ،الإتقان، ٢٣٤/٢١٥،٣٠٣/٢ ـــ ٣٤٦ ، فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها(علم المعاني)، ١٢٧ـــ٢٠٩.

(٤): أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي ، ويعرف بالفراء ،كان مقيما في بغداد في أكثر الأوقات، ورحل إلى الكوفة، ومن مصنفاته: معاني القرآن، واللغات والمصادر في القرآن،وكانت وفاته في طريق مكة عام(٢٠٧هـ) [الأدنروي، طبقات المفسرين،٢٨-٢٩].

(٥) الفراء ، معاني القرآن ،٣٣٣/١..

(٦) الراغب الأصفهاني، المفردات ،١٩١ ـــ١٩٢، وانظر: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ ،٥٦/٢، الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، ١١٧/٣.

(٧)استُعمل (أرأيت) في معنى أخبرني؛ لان الرؤية سبب الإخبار بالشيء ، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر؛ لأن الجامع بينهما الطلب، وكون الاستفهام للتعجّب لا ينافي كون ذلك بمعنى أخبرني ، إذ أصل لفظ أرأيت الاستفهام.[انظر:الألوسي، روح المعاني، ١٤٨/٧].

(٨) هو: محمد عبده بن حسن خير الله ، من آل التركماني، ومن كبار الدعاة إلى التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي، ومفتي الديار المصرية، لازم جمال الدين الأفغاني فأخذ عنه الفلسفة والمنطق، توفي بالإسكندرية عام(١٣٢٣هـ). [النويهض، معجم المفسرين، ٥٦٦/٢-٥٦٧].

يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقي، ولكن يقصد بها إنكار الحالة المُستخبَر عنها وتقبيحها"[١] ، وهذا ما ذكره القاسمي في تفسيره[٢].

وهذا حقٌّ وصدقٌ ؛ لأن الله ﷻ منزه عن أن يستفهم استفهامًا حقيقيًا، أو أن يَستَخبر عن شيءٍ ما، والله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا ، ولا تخفي عليه خافية في السموات ، ولا في الأرض .

ولذلك كان الخطاب في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ عامًا، قال الآلوسي: "الخطاب في الكل على ما اختاره جَمْعٌ لكلِّ مَن يصلحُ أن يكون مخاطَبًا ممن له مسكة[٣]"[٤].

التعجّب من النهي عن الطاعة وتقبيح فاعله

فقد جاء هذا المركب في قوله تعالى:﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ مفيدًا التنبيه لحالٍ تبعث على التعجب، وتُثير الاستغراب وتدعو إلى الإنكار، حال النهي عن طاعة المُنعِم بجلائل النِّعم ، فمن المعقول أن يتوجه النّهي إلى المنكر والقبيح، أمّا أن يكون النهي عن أداء طاعة لله ﷻ فهذا شيء يدعو إلى التعجب والاستنكار.

ولما كان النهي عن طاعة الله ﷻ غاية في القبح والشناعة، وكان الناهي قد بلغ غاية القبح ونهايته تحاشى التّصريح باسمه، واستهجن ذِكْرَه ، فعبّر عنه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾تقبيحًا لحاله وتشنيعًا به، وليشمل كلّ ناه عن طاعة لله ﷻ، وداعٍ إلى معصيةٍ ، قال القونوي:"والتعبير بالموصول لكمال التقبيح لحاله بمضمون صلة لا قُبحَ فوقها"[٥].

---

(١) محمد عبده، تفسير جزء عمَّ ، ١٢٧.

(٢) انظر : القاسمي،(١٣٢٢هـ) محاسن التأويل ،٣٥٩/٧.

(٣)يقال :رجل ذو مُسكةٍ ومُسكٍ؛ أي:رأي وعقل يرجع إليه.[ابن منظور، لسان العرب ،٤٨٦/١٠].

(٤)الآلوسي، روح المعاني،١٨٤/٣٠. وانظر مثلاً :أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٧٩/٩، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٥٢٩/٩، ابن عجيبة، البحر المديد، ٣٢٨/٨، الشوكاني ، فتح القدير ،٤٦٩/٥،القنوجي، فتح البيان ،٣١٤/١٥ .

(٥) القونوي ، حاشية القونوي على البيضاوي، ٣٥٤/٢٠.

ولعلّ التعبير بلفظ النهي ﴿يَنْهَىٰ﴾ يُشير إلى أنّ الناهي لا يقدر على غير ذلك[١]، ولا يملك أن يمنع مَنْ كان قلبه مطمئنًا بالإيمان عن طاعة الله ﷻ ، وإذا كان القرآن الكريم يُشنّع هذه الحالة ويعَجّب منها ؛ ليردع عنها ، فإن تشنيع ما هو أعظم منها ـ كالضرب .. ـ أشدّ ، والرّدع عنه آكد.

هذا عن اللفظ ، أما عن صيغته فقد ذُكِر في فائدة مجيئه بالمضارع قولان: أحدهما: التجدد والاستمرار[٢]. والثاني: استحضار الصورة العجيبة[٣].

ويمكن الجمع بينهما، ذلك أنّ النهي عن طاعة الله ﷻ، يتجدد في كلّ عصر ومصر، بألوان مختلفة وأساليب متعددة ، وهو لغرابته جديرٌ بأن تُستحضر صورته القبيحة ، وتظلّ ماثلة للعيان، وعالقة بالأذهان .

ومجيء المنهي مُعبرًا عنه بلفظ العبد وتنكيره ﴿عَبْدًا﴾ فيه فوائد بيانية غاية في الروعة؛ فلفظ العبد للدلالة على المبالغة في تقبيح النهي ، وذم النّاهي ؛ إذ بلغ به الطغيان والكبر إلى أن ينهى عبدًا من عباد الله ﷻ عن عبادة مولاه ﷻ وطاعته ، والتقرب إليه بما افْتَرَضَه عليه من القربات ، وأفضلها الصلاة ؛ فهي أم الطاعات ، وجامع العبادات. وأمّا التنكير فمن فوائده الدلالة على كَمال عبودية المنهي، وتفخيم شأنه[٤]، والعموم والشمول لكلّ منهيّ عن طاعة لمولاه ﷻ، بغض النظر عن لونه،أو عرقه، أو جِنسه.

---

(١)القونوي،حاشية القونوي على البيضاوي،٣٥٧/٢٠، الآلوسي، روح المعاني،١٨٣/٣٠، القاسمي ،محاسن التأويل ،٣٥٩/٧.

(٢) البقاعي ، نظم الدرر،٤٨٤/١٠، الخطيب الشربيني، السراج المنير، ٦٥٠/٤.

(٣) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي،٣٥٤/٢٠، الآلوسي ، روح المعاني ،١٨٣/٣٠، ابن عاشور، التحرير والتنوير،٣٩٥/٣٠.

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١/٣٢، البيضاوي، أنوار التنزيل ،٥١١/٥ ، ابن التمجيد ، مصلح الدين مصطفى ابراهيم الرومي(٨٨٠هـ) حاشية ابن التمجيد على البيضاوي مع حاشية القونوي ٢٠/ ٣٥٥،الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي، ٥٢٩/٩، القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي،٢٠/ ٣٥٥.

التنبيه لحال المنهي

وبعد التشنيع على النهي عن الصلاة التي هي أعظم أنواع العبادة يجيء قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ ، وللمفسرين في عود الضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾ و﴿أَمَرَ﴾ قولان:

أولهما: أن الضمير المستتر في كلٍّ منها يعود على ﴿عَبْدًا﴾، قال قتادة : "محمد ﷺ كان على الهدى، وأمر بالتقوى"[1]. وهذا قول الفراء، والواحدي[2]، والبغوي[3]، وابن عطية، وابن عاشور[4].

وقال الفخر الرازي معللاً لذلك ما ملخصه: وضُمَّ إلى فعل الصلاة الأمرُ بالتقوى ؛ لأن الذي شقَّ على أبي جهل من أفعال الرسول ﷺ الأمران : الصلاة والدعاء إلى الله ﷻ ، ولأن النبي ﷺ كان لا يوجد إلا في أمرين: إصلاح نفسه ؛ وذلك بفعل الصلاة ، أو إصلاح غيره بالأمر بالتقوى[5].

ثانيهما: أن الضمير المستتر في كلٍّ منها يعود على﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؛ لأنّ فيه انسجام الضمائر بعضها مع بعض[6]، والمعنى كما قاله الزمخشري:"أخبرني إن كان ذلك النّاهي على طريقة

---

(١) الإمام الطبري ، جامع البيان ، ٢٤ / ٥٢٤، وهو على هذا الرأي

(٢)هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، كان أستاذ عصره في النحو والتفسير ، من مصنفاته: البسيط والوسيط والوجيز في التفسير، وأسباب النزول. (ابن خلكان ،وفيات الأعيان، ٣/٣٠٣-٣٠٤).

(٣)هو: الحسين بن مسعود بن محمد العلامة، أبو محمد البغوي،الفقيه الشافعي، يعرف بابن الفراء ،ويلقب محيي السنة ،وركن الدين أيضا ، كان إماما في التفسير ،إماما في الحديث، إماما في الفقه ،من تصانيفه:معالم التنزيل ، وشرح السنة، والمصابيح ، وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته ، توفي عام(٥١٦هـ).[السيوطي ،طبقات المفسرين،٣٨]

(٤) انظر: الفراء، معاني القرآن، ٣/٢٧٨، الواحدي ،أبو الحسن علي بن أحمد (٤٦٨هـ)الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم ـ دمشق، ط١،١٩٩٤م،٢/١٢١٧، البغوي ، معالم التنزيل،٨/٤٨٠، ابن عطية، المحرر الوجيز،٥/٥٠٢ ،ابن عاشور ، التحرير والتنوير،٣٠/٣٩٥، وانظر مثلاً : ، السمرقندي، بحر العلوم،٣/٥٧٥، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،٤/٥٣١ .

(٥)الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،٣٢/٢٢. وانظر :أبو حيّان، البحر المحيط، ٨/٤٩٠.

(٦) انظر:القونوي ، حاشية القونوي على البيضاوي،٢٠/٣٥٩.

سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﷻ ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يـأمر بـه مـن عبادة الأوثان كما يعتقد"[١].وبنحو هذا قال النسفي ، والبقاعي ، وأبو السعود[٢].

وهذا القول وإن تضمن التقبيح للفاعل والتعجيب من فعله إلا أنّ القـول الأول أرجـح ؛ لأنّ المعنى فيه أوضح ، وفيه زيادة بيان لحال المنهي عن صلاته ، إنّه على الهدى في نفسه بمـا يفعل من إقام الصلاة ، ويأمر غيره بتقوى الله ﷻ، ويدعوهم إلى طاعته ﷻ، فهو صالح بنفـسه مصلح لغيره ، وفيه أيضًا إبراز خُبث النّاهي ومكره ، فلم يكن نهيه مُقتصرًا على الصلاة ، بـل شَمل معها الدعوة إلى طاعة الله ﷻ ، فقد كانت دعوة النبي ﷺ إلى عبادة الله ﷻ هي التي تَغيظُ أبا جهل حقيقة وإن كانت الصلاة تغيضه ظاهرًا ، وهذا حال آباء الجهل فـي كـلّ زمـان ؛ لا يَغيضُهم أداء الشعائر بقدر ما تَغيضُهم الدعوة إلى عبادة الله ﷻ وطاعته، وهذا مما أشار إليـه قول لقمان وهو يعظ ابنه حين قال له :﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧] ، فلم يُشْعِر ابنه بما يلحقه من الأذى إذا هو أقام الصلاة ، وإنّما أشعره بما يلحقه من الأذى إذا هو قام بواجب الدعوة إلى طاعة الله ﷻ، والنهي عن معصيته ؛ لأنّ القيام بهذا الواجب يغيظ أعداء الله ﷻ ... ولذلك أوصـاه بـالتخلُّق بالصبر على ما يلقى من أذى ...!

التنبيه لحال النّاهي

وبعد بيان حال المنهي يأتي قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) الزمخشري، الكشاف،٧٨٣/٤.

(٢) انظر: النسفي،مدارك التنزيل،٦٦٣/٣، البقاعي، نظم الدرر،٤٨٤/٨ ، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم،١٧٩/٩، وانظر مثلا: حقي البروسوي، روح البيان، ٤٨٥/١٠، الألوسي ،روح المعاني،١٨٣/٣٠.

لينبّه لحالٍ يتعجّب منها أولو النُّهى ؛ حال النّاهي الذي ينهى عن طاعة الله ﷻ ويصدّ عن الحقّ بعدما أعرض وتولى عن الإيمان ، وترك طاعة الرحمن ﷻ ، متبعًا في ذلك خطوات الشيطان وسالكًا طُرُقَه، وقد نهى الحقُّ ﷻ عن اتباعه فقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾[البقرة:١٦٨] ، وبيّن ﷻ علّة النهي وحكمته فقال: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [النور:٢١].

فعدو الإنسانية الشيطان ضالٌ مُضِلٌ لغيره ، والنّاهي كذلك ضال في نفسه مضل لغيره ، إذ يترك الخير بنفسه ويدعو غيره إلى تركه ، فكان ينبغي له أن يستجيب لله ﷻ ولرسوله ﷺ ، وأن يدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف، أمّا أن يحصل عكس ذلك تمامًا فهذا شيء يُثير الدهشة ، ويبعث على التعجب.

توبيخ النّاهي والتلويح بعقابه

ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ متضمنًا الإنكار والتوبيخ[(١)] لذلك النّاهي المكذّب المتولي، والتلويح بعقاب الله ﷻ له على ذلك ببيان أنّ الله ﷻ ليس بغافل عما يعمل ؛ فهو ﷻ يراه ويعلمه ، وهو مُحيط بأعماله التي منها تكذيبه وتوليه ، ونهيه للعبد المؤمن عن الصلاة، وهو على الهدى ، آمر بالتقوى ، وسيجازيه ﷻ عليها.

قال ابن عطية : "قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاث يصلح مع كل واحدٍ منهما فجاء بها في نسق، ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصارًا

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير ، ٤٩٦/٥، القنوجي، فتح البيان،٧١٥/١٥، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٩٦/٣٠.

واقتضابًا، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها، وقوله: (أَرَيْتَمْ) دال عليها مغن"[١].

وإذا كان الإعراض عن طاعة الله ﷻ والدعوة إلى معصيته مظهرًا من مظاهر الطغيان، والغفلةُ عن مراقبة الله ﷻ من أعظم أسبابه، فإنّ استحضار مراقبةِ اللهِ ﷻ أعظم رادع لأولي الألبابِ عن الطغيان بكلّ صوره وأشكاله.

مجيء الرّدع بعد إظهار بشاعة الفعل وقُبح الفاعل

وبعد إظهار بشاعة النّهي عن طاعة الله ﷻ ، وإبراز قُبحِ فاعله الذي أنكر أو تجاهل عِلْمَ الله ﷻ به، وإحاطتّه بأعماله يأتي حرف ﴿كَلَّا﴾ حاملاً رسالة ردع للنّاهي[٢]؛ يردعه فيها عن نهي عباد الله ﷻ عن عبادة الله ﷻ والدعوة إلى طاعته ؛ ليكفّ هذا النّاهي عن فعله القبيح ، ويستقيم على أمر الله ﷻ ، ويتبع سبيل المؤمنين بدل اتباع خطوات الشيطان وأعوانه من الكفرة والمنافقين.

تأكيد الرّدع بالتهديد والوعيد

ومع رسالة الرّدع التي حملها حرف ﴿كَلَّا﴾ يجيء تأكيد الرّدع بالتهديد والوعيد المباشر للنّاهي: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ ، فاللام في ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، واللام

---

(١) ابن عطية ،المحرر الوجيز،٥/٥٠٢.

(٢) انظر: الواحدي، الوجيز ،١٢١٧/٢ ،الزمخشري، الكشاف، ٧٨٤/٤، البيضاوي،أنوار التنزيل ،٥١١/٥ ، البقاعي ، نظم الدرر،٤٨٦/٨، الخطيب الشربيني، السراج المنير، ٦٥١/٤، الجمل، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي (١٢٠٤هـ) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٦م،٣٦٤/٨، الآلوسي ، روح المعاني ،١٨٦/٣٠، القاسمي، محاسن التأويل،٣٦٠/٧،حبنكة الميداني ،معارج التفكر،٦٧/١.

في ﴿لَنَسْفَعًا﴾ واقعة في جواب قسم محذوف تقديره: والله لئِن لَمْ ينتِه عَمَّا هُو عليهِ ولَمْ يرتدعْ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[1].

هكذا جاء التهديد والوعيد مؤكدًا بالقسم ؛ لئلا يبقى أدنى شكٍّ في وقوعه ، فهو متحقق لا محالة ، ولا عُذر للنّاهي الذي صدَّ نفسه وغيره عن طاعة الله ﷻ إذا أدركه الموت وهو على ذلك ، ولن يغفر الله ﷻ له إذا مات على تلك الحال، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ [محمد: ٣٤].

وبهذا اللفظ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ، وقد ذُكِرَ للسفع عدة معانٍ ، منها: أولاً: الأخذ بناصيته وسحبه بها إلى النّار بشدة ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١] . ثانيًا: تسويد وجهه ، وهو مأخوذ من سفع النّار إذا لفحته لفحًا يسيرًا يُغير لون الوجه إلى السواد ، واكْتُفِيَ بالناصيةِ من الوجه لأنّها في مُقَدَّمه. ثالثًا: الإذلال[2].

وعلى هذا يمكن القول أن هذا اللفظ جامع لهذه المعاني، فهو يصدق على الأخذ إلى النّار، وعلى تسويد الوجه بلفح النّار، ولا ريب أن في كلٍّ منهما نهاية الإذلال، وغاية الإهانة ؛ لأنّ النّاهي طغى، وتكبّر ، فناسب أنْ يُصغَّر، ويُذلَّ ، ويُحتقر، جزاء وفاقًا.

وأما النّاصية فهي شَعْرُ مُقدَّم الرأس [3]، سمِّيت بذلك لارتفاع مَنْبتها وعلوه [4]، وخُصِّت بالذكر؛ لأنّ السفع بها غاية الإذلال عند العرب ، إذ لا يكون إلا مع مزيد التمكن والاستيلاء [5].

---

(١) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٨٠/٩، البروسوي، روح البيان ،٤٨٥/١٠، الشوكاني، فتح القدير، ٤٦٩/٥ .

(٢) الفراء، معاني القرآن، ٣٢٧٨، الإمام الطبري ،جامع البيان، ٥٢٥/٢٤، الرازي، مفاتيح الغيب،٢٦/٣٢، ابن منظور، لسان العرب ،١٥٦/٨.

(٣)ابن منظور، لسان العرب،مادة،(نصا) ٣٢٧/١٥.

(٤) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة،٤٣٣/٥ .

(٥)الآلوسي ، روح المعاني ،١٨٦/٣٠،

وبهذا يكون في قوله ﷻ: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ دلالتان: دلالة على منتهى الإذلال والهوان للنّاهي ، ودلالة على التمكن منه والاقتدار عليه ، وفي كلّ منهما ردع كافٍ عن النّهي عن أداء حقّ الله ﷻ ، والمنع من الأمر بتقواه ، فكيف بهما معًا؟!

وجاء وصف الناصية باسم الفاعل: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ مع أنّ الكاذب والخاطئ هو صاحبها، فأسند الوصفان إلى الناصية وهما لصاحبها حقيقة ؛ للمبالغة في الوصف ، فكأنّ كلّ جزء من أجزائه يكذب في مقاله ، ويتعمد المعصية في أفعاله[1].

زيادة تأكيد الرّدع

ويزداد الرّدع توكيدًا فيؤمَر النّاهي عن الحقّ، الداعي إلى الباطل على سبيل الاستهزاء به، والتوبيخ له — بدعوة أمثاله من المتكبرين .. ؛ لمساندته في منع عباد الله ﷻ من العبادة، والوقوف معه في وجه الدعوة إلى الله ﷻ لمنع انتشارها: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ [العلق:١٨،١٧] .

وهاتان الآيتان من جملة الآيات التي نزلت بسبب أبي جهل حين قال للرسول ﷺ: أتُهَدّدُنِي وأنا أكْثَرُ أهْلِ الْوَادِي نَادِيًا؟ فقد اعتزّ ذلك الطاغي النّاهي بأهل ناديه، وتكثّر بهم على الرسول ﷺ ، ظنًّا منه أنّه قادر وأهل ناديه على منع النبي ﷺ من المضي قُدُمًا في الدعوة إلى الله ﷻ ، ولكن أنّى لهم ذلك وهم جند الشيطان ، ودعاة إلى معصية الله ﷻ ؟! ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

---

(١)انظر:الشهاب، حاشية الشهاب على البيضاوي، ٥٣٢/٩، الآلوسي، روح المعاني،١٨٧/٣٠، القاسمي، محاسن التأويل ٣٦٠/٧. والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدا، يقال: خَطِئَ يخطأ خِطأً وخِطْأَةً، فهو خاطئٌ.[انظر:الراغب،المفردات،١٥٦ ــ١٥٧]

فقد أُمِرَ هذا الطاغي وهُدّد ؛ أمر بأن يدعو ناديه: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ ، وهذا تحدٍّ وتعجيزٌ له، وفيه تحريض له على دعوة أنصاره ومؤيديه، وإشارة إلى أنه لا يقدر على شيء حتى لو دعاهم(١).

والنَّادي: يطلق على المكان المُهيأ لجلوس القوم فيه، ويطلق على أهلُ المجلس، فيقع على المجلس وأهلِه، ويطلق على أهل الرجل وعشيرته . وتنادى القوم ؛ جمع بعضهم بعضًا (٢).

ولم يقل فليدع قومه أو عشيرته ، أو أنصاره ، وإنما قال ناديه ليتناسب مع الدعاء الذي في معنى النداء ، وغالب أمر النداء أن المُنادى يُجيب مَنْ دعاه ، والمعنى: ليدع أبو جهل أهل مجلسه وأنصاره ، من عشيرته وقومه، ليعينوه وينصروه، ليكونوا أعوانًا له في النَّهي عن طاعة الله ﷻ ، ودعاة معه إلى معصية الله ﷻ ، وأنصارًا لباطله، وهو ما يؤمله هذا الداعي .

ودعاءُ ناديه لا يفيده في شيء، بل يُعَرِضه لسخط الله ﷻ ، وأليم عقابه، فهو مُهدَّد إن دعا أعوانه في ناديه بالزبانية يدعوها العظيم القهّار ﷻ: ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ ، زبانية لا طاقة له ولا لأهل ناديه بهم ، قال ابن عباس ﷺ: "لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته"(٣).

فالزَّبانية جند من جنود الله ﷻ ، وهم ملائكة غلاظ شِداد، يوكلهم الله ﷻ بدفع الطغاة قادة الباطل ودعاته عما يطمعون فيه من إطفاء نور الله ﷻ ، وإعلاء الكفر على دين الحقّ الذي بعث الله ﷻ به نبيه محمدًا ﷺ .

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٥/٣٢، أبو حيان ، البحر المحيط ٤٩١/٨ ، الألوسي، روح المعاني، ١٨٧/٣٠.

(٢)ابن منظور: لسان العرب ،مادة(ندى)، ١٥ / ٣١٣ ، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ٩٤٨/٢.

(٣)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،٥٣١/٤، وخرجه الترمذي بمعناه ،وقال:هذا حديث حسن غريب صحيح .[الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى(٢٧٩هـ) سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، كتاب التفسير، باب :ومن سورة اقرأ ، برقم (٣٣٤٩) ،٤٤٤/٥].

والرجوع إلى معجمات اللغة يُظهر أنّ لفظ الزّبانية مأخوذ من (الزّبْن) ، وهو يدل في الأصل على الدفع[1]، ويطلق في كلام العرب على الشُرَطُ ، وهم الذين يَزْبِنون الناسَ؛ أي: يدفعونهم[2].

وسمّي ملائكة العذاب زبانية لدفعهم أهل النّار إليها ، كما قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الطور: ١٣ – ١٤]

ولم يأت لفظ الزّبانية في القرآن الكريم إلا في هذه الآية، ردعًا للمُغتّر بجاهه وقوته عن النّهي عن أداء الطاعة لله ﷻ ، ودفعًا له عن دعوة أعوانه وأنصاره لمساندته في تحقيق ما يصبو إليه ، فإذا كان النهي عن الصلاة يستدعي أن تأخذ هذا الناهي ملائكة العذاب ولا يُغني عنه جمعُه – من عشيرة أو أقارب ... – شيئًا فكيف بمن يؤذي المصلين ، ويقف حجر عثرة أما الدعوة إلى الله ﷻ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى المصلي ألا يسمع لنهي هذا الطاغية وتهديده .

ولا بدّ من التأكيد على أن هذه الآيات وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل فإنها تعمّ كل ناهٍ عن القيام بما أمر الله ﷻ ، ومنهي عنه إلى قيام الساعة ، قال الآلوسي: "ويقاس على النّهي عن الصلاة النّهيُ عن غيرها من أنواع العبادة ، ولا فرق بين النّهي القالي والنّهي الحالي ، ومنه أن يُشغل المرءُ المرءَ عن ذلك ، وقد ابتلي به كثير من الناس" [3].

و قال صاحب الظلال: " دلالة السورة عامة في كل مؤمن طائعٍ عابدٍ داعٍ إلى الله ﷻ. وكل طاغٍ باغٍ ينهى عن الصلاة ، ويتوعد على الطاعة ، ويختال بالقوة"[4].

---

(١)انظر: ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة،٣/٤٦ .

(٢)انظر :ابن منظور ، لسان العرب ، مادة(زبن)،١٣/ ١٩٤.

(٣)الآلوسي، روح المعاني،٣٠/١٨٦.

(٤) سيد قطب ،في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٤٣، وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب،٣٢/٢٦.

فكلُّ مَن وقف لعباد الله ﷻ ينهاهم عن طاعة الله ﷻ، ويأمرهم بمعصية له فهو متعدٍ لحدّه ، محادٌ لله ﷻ ورسوله ﷺ ، وهو مخاطب بالرّدع ، ومطالب بالكفّ عن ذلك الفعل بكل طرقه ووسائله ؛ قولاً أو فعلاً ، ترغيبًا كان ذلك أو ترهيبًا.

وعقب تهديد أهل الكفر والباطل وقادته ، وإثبات عجزهم عن مقاومة جند الله ﷻ ، وعن تحقيق مرادهم من منع عبادة الله ﷻ ، والدعوة إلى دينه ، وصولاً إلى إطفاء نور الله ﷻ يعود حرف الرّدع ﴿ كَلَّا ﴾ ليؤكد ردع النّاهي الضّال المُضلّ عن قبائح أفعاله وأقواله ، ويزيد في زجره عن طغيانه وكبريائه ، فهو ردعٌ بعدَ ردعٍ وزجرٌ إثرَ زجرٍ[١].

وقد أخبر الحقُّ ﷻ أنّه زاد العذاب يوم القيامة للذين صدّوا أنفسهم وغيرهم عن طاعة الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨] ، قال ابن كثير[٢]:" أي:عذابًا على كفرهم ، وعذابًا على صدّهم النّاس عن اتباع الحقّ"[٣]، فهذه الزيادة من العذاب لأجل إضلالهم غيرهم ، ومنعهم إيّاهم من اتباع الحقّ ، بطريقة ،أو بأخرى.

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ١٨١/٩، البروسوي، روح البيان، ٤٨٨/١٠، الآلوسي ، روح المعاني ، ١٨٦/٣٠، القاسمي، محاسن التأويل، ٣٦١/٧، وانظر: الزمخشري، الكشاف، ٧٨٥/٤، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٦/٣٢، البيضاوي، أنوار التنزيل، ٥١٢/٥ ، البقاعي ، نظم الدرر، ٤٨٨/٨ ، ٦٥١، الشوكاني،فتح القدير، ٤٧٠/٥، المراغي، تفسير المراغي، ٢٠٥/٣٠، حبنكة الميداني ،معارج التفكر، ٦٩/١.

(٢)هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثمّ الدمشقي الحافظ عماد الدين أبو الفداء، كان مؤرخاً وحفظاً وفقيهاً، من مصنفاته: البداية والنهاية في التاريخ ،تفسير القرآن العظيم ، توفي في دمشق عام (٧٧٤هـ).[الداوودي ، طبقات المفسرين ، ١١١/١ ،الزركلي، الأعلام، ٣٢٠/١].

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٥٦٢/٢.

المبحث الثاني:

الرَّدع عن إيذاء الرسول ﷺ وإيذاء المؤمنين

تمهيد:

المطلب الأول:

الرَّدع عن إيذاء الرسول ﷺ

المطلب الثاني:

الرَّدع عن إيذاء المؤمنين

تمهيد :

لقد ختم الله ﷻ رسله وأنبياءه بنبيّنا محمد ﷺ ، وأخذ الله ﷻ علـى جميـع الأنبيـاء والمرسلين ، وعلى أممهم العهد والميثاق لئن جاءهم الرسول ﷺ مصدقًا لمـا معهـم أن يؤمنوا به وينصروه.

وقد أكرم الله ﷻ نبيَّه محمدًا فشرح صَدرَه ، ووضع عنه وزرَه ، ورفع لـه ذِكْـره ، وأعلى ﷻ شأنه ، ورفع مكانته ، وآتاه الكتاب والحكمة ، وخصّه بالشفاعة العظمى يـوم القيامة ، وافترض علينا محبته ﷺ، وقرنها بمحبته هو ﷻ، وجمع ﷻ بين طاعتـه هـو وطاعته ﷺ ، وجعل طاعته ﷺ طاعة له ، ورتّب الفوز العظيم على طاعته ﷻ وطاعـة رسوله ﷺ .

وهو ﷺ القدوة الحسنة في كلّ شيء ، قـال ﷻ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وجملة القول أنّ الرسول ﷺ قد خُصّ بخصائص لم يشاركه فيها أحد ، وفُـضّل علـى جميع المخلوقين من الملائكة والرسل والآدميين ، وقد أوجب الله ﷻ إلى جانب الإيمـان بنبوته محبته ، وتعظيمه ، وتوقيره ، ونُصرته ، واتباع سنته وامتثال أمره ونهيه في كلّ ما جاء به ، وجعل الله ﷻ اتباع نبيه ﷺ طاعته هو ﷻ وعلامة محبته ﷻ، وفي البعـد والانحراف عن ذلك معصيته التي لا يُعذر بها أحد من خلقه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[النساء:١٣].

وقال ﷻ: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، ولا ريب أنّ توقير النبي ﷺ بعد موته وتعظيمه ونُصرته لازم كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته [1].

---

(١) انظر فيما يجب للنبي ﷺ من حقوق وما له من أوصاف ، وحكم سبّه: القاضي عياض، أبو الفضل اليحصبي (٥٤٤ هـ) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، دار الفكر – بيروت ،١٩٨٨م، ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم(٧٢٨هـ) الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق : محمد الحلواني ، محمد شودري، دار ابن حزم – بيروت، ط١،١٩٨٧م ، تقي الدين السبكي، علي بن عبد الكافي (٧٥٦هـ) السيف المسلول على من سبّ الرسول ﷺ، دار ابن حزم – بيروت ط١، ٢٠٠٥م

المطلب الأول:

الرّدع عن إيذاء الرسول ﷺ

يُكرم المرءُ إما لدينه، أو خُلقه ، أو قَدْره، أو إحسانه إلى النَّاس، والعاقل لا يؤذي مَنْ اتصف بواحدة منها أو اثنتين ، فكيف بمن جمعها على أتم وجه وأكمله ، وهو سيد الخلـق محمـد ﷺ الذي جمع الخصال الحِسَان ، واتصف بأقصى درجات الكمال ؛ فهو ﷺ وإن كان بشرًا إلا أنـه في أكمل درجات البشرية وأحسن حالاتها.

وهذا الكمال البشري الذي اتصف به النبي ﷺ موجب لاحترامه وتعظيمه وتقـديره ، ورادعٌ للعقلاء أولي النُّهى عن إيذائه بقولٍ أو فعلٍ .

ولكنَّ سنَّةَ الله ﷻ قضت أن يكون لكل نبي عدوٌّ من المجرمين ، يؤذيه ، ويحاول أن يشوّه سمعته ، لسبب أو لآخر، قال ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان: ٣١] ، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤]

ولما كان إيذاء الرسول ﷺ من أقبح الأفعال ، وكان فيه انتهاك لحرمته، وسوء أدب بحقه ﷺ جاء الأمر بالتأدب معه ﷺ والرّدع عن إيذائـه ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا

رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

سبب نزول الآية الكريمة:

وَرَدَ في الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أنّه قَالَ: "لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا النَّاسَ ، طَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، قَالَ : فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ مَعَهُ مِنْ النَّاسِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا ، قَالَ : فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا ، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَرْخَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ :﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾"[1].

وورد في الصحيح عَنْ أَنَسٍ ﷺ أنه قَالَ: "قَالَ عُمَرُ ﷺ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ" [2].

وليس بين الروايتين تعارض لجواز الجمع بينهما، قال الحافظ ابن حجر:" وَيُمْكِن الْجَمْع بِأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ قَبْلَ قِصَّة زَيْنَب، فَلِقُرْبِهِ مِنهَا أُطْلِقَتْ نُزُول الحِجَاب بِهَذَا السَّبَب، وَلَا مَانِع مِنْ تَعَدُّد الأَسْبَاب" [3].

(١) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير ،باب قوله :﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم..﴾ رقم (٤٥١٣)، ١٧٩٩/٤، كتاب الاستئذان، باب من قام من مجلسه أو بيته..(٥٩١٦)،٢٣١٣/٥، **صحيح مسلم**، كتاب النكاح ،باب زواج زينب بنت جحش ... رقم (١٤٢٨) ،١٠٤٦/٢، وانظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد (٤٦٨هـ) أسباب النزول ، مؤسسة الحلبي وشركاه ــ القاهرة، ١٩٦٨م ،٢٤١ -٢٤٣.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير ،باب قوله :﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم..﴾ رقم (٤٥١٢)، ١٧٩٩/٤.

(٣)ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٩م،٥٣١/٨.

وذُكِرَ أن قوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ نزل بسبب رجل قَالَ : لَوْ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ لَتَزَوَّجْت بعض نسائه ، وقيل: القائل هو طلحة بن عبيد الله ﵁[1]، "لكنَّ هذا قبيح ، ولا يُحتمل أنْ يكون أحدٌ مِنَ الصحابة يقول ذلك ، أو واحد ممن صفا إيمانه، وحَسُنَ إسلامُه ، يَخطرُ بباله ذلك ، إلا أن يكون منافقًا"[2]، فهو يتعارض مع جلال وقَدْر هذا الصحابي ﵁ ، وفيه اتهام وإساءة له ، والواجب أن يُحسَن الظنُّ به وبغيره من الصحابة ﵃ ، ويُجلّوا عن مثله.

وقد أحسن ابن عاشور إذ قال : "لا شك أنه من موضوعات الذين يطعنون في طلحة بن عبيد الله ﵁، وهذه الأخبار واهية الأسانيد ودلائل الوضع واضحة فإنَّ طلحة إنْ كان قال ذلك بلسانه لم يكن ليخفى على الناس فكيف يتفرد بروايته من انفرد ؟ وإنْ كان خطر ذلك في نفسه ولم يتكلم به فمن ذا الذي اطّلع على ما في قلبه ؟ وليس بمتعين أن يكون لنزول هذه الآية سبب ، فإنْ كان لها سبب فلا شك أنّه قول بعض المنافقين لما يؤذن به قوله تعالى عقب هذه الآيات: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠] الآيةَ"[3].

العمل بما يُرضي الرسول ﷺ ولا يؤذيه

افتتحت الآية الكريمة الخطاب بنداء المؤمنين بوصف الإيمان ، وهو الرابط بينهم وبين الرسول ﷺ ، وفيه حثٌ على امتثال الأمر ، واجتناب النّهي، ولهذا كان عبد الله بن مسعود ﵁

---

(١)السمرقندي ، بحر العلوم،٣/٦٦، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر(٩١١ هـ) لباب النقول في أسباب النزول ، ضبط وتصحيح احمد عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١٦٣.

(٢) الماتريدي ، تأويلات أهل السنة، ٤/١٣١.وانظر نحوه : ابن عطية ،المحرر الوجيز ،٤/٣٩٦ ، القرطبي،الجامع لأحكام القرآن، ١٤/١٤٧،البروسوي ، روح البيان،٧/٢١٧ ، الألوسي، روح المعاني ،٢٢/٧٤.

(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٢/٩٣

يقول: "إذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُهُ ، أَوْ شَرٌ يَنْهَى عَنْهُ"(١).

وقبل مجيء الرّدع يأمر الله ﷻ بالتأدب مع الرسول ﷺ في دخول بيوته وفي خطاب أمهات المؤمنين ــ رضي الله عنهنّ ــ ؛ أما بيوته ﷺ فقد نهى ﷻ عن دخولها في حال من الأحوال إلاّ في حال الدعوة(٢) إلى طعام والإذن في الدُّخولِ من غير انتظار﴿إِنَىٰهُ﴾؛ أي: "تضجه وبلوغه، يقال : أَنَى يَأْنِي إناءً إذا بلغ ونضج" (٣)، ثم إذا دعيتم إلى طعام فادخلوا، فإذا أكلتم الطعام فتفرقوا واخرجوا ، ولا تتأخّروا بعد ذلك مُستَأْنِسِينَ لحديث بعضكم بعضًا، قال ابن عطية:"وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى دار الدعوة ينتظر طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله ﷻ المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبيﷺ ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله ﷻ لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نضج الطعام"(٤).

وللحثّ على النّهي عن دخول بيوت النبي ﷻ بغير إذن بيّن ﷻ عِلّته ، فقال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ ، فاسم الإشارة يعود إلى الدخول بغير إذن، والانتظار، والاستئناس للحديث ، وكلُّ ذلك معلّل بإذاية الرسول ﷺ ، والمعنى:" مَنَعْنَاكُم مِنه لإِذَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فجعل المنع من الدخول بغير إِذْنٍ وَالْمُقَامَ بعد كمال المقصود

---

(١) ابن أبي حاتم ،١٦٦٩/٥، ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم،١٤٢،٢/١/٤.

(٢) انظر الشوكاني ،فتح القدير ،٢٩٧/٤ وقد ذكر أن (يؤذن) متضمن معنى الدعاء ،أي: إلاّ أن يؤذن لكم مدعوّين إلى طعام .

(٣) الزجاج، معاني القرآن، ٢٣٥/٤.

(٤)ابن عطية ،المحرر الوجيز،٣٩٥/٤،ونقله بنصه :القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن، ١٤٤/١٤،الشوكاني، فتح القدير،٢٩٨/٤.

مُحَرَّمًا فِعْلُهُ ، لإِذَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ"[١]، ولكن لشدّة حيائه ﷺ كان يكره أن ينهاهم أو يخرجهم من بيته، ولهذا نهى الله ﷻ عن ذلك ، وعلّمهم الأدب في دخول بيوته ﷺ.

فلم يكن المقصود من الدخول بغير إذن والاستئناس للحديث إيذاء الرسول ﷺ ، أو مضايقته، وإنّما هو جارٍ على ما كانوا يصنعون في ابتداء الإسلام ، ولذلك امتثلوا الأمر، والتزموا الأدب في اللحظة الأولى التي استشعروا فيها أنهم أثقلوا على الرسول ﷺ ، بدليل ما رواه أنس بن مالك ﵁ أن النفر "لَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَجَعَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ثَقُلُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَابْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا كُلُّهُمْ"[٢].

وقال ابن كثير: "ولو أُعلِموا كان ذلك عليهم عزيزًا"[٣].

وأما عن التأدب معه ﷺ في خطاب زوجاته فقال ﷻ : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ، فأمرهم إذا أرادوا سؤالَهُنَّ متاعًا ــ وهو يعمّ جميع ما يمكن أن يُطلَب من المَواعينِ وَسائر المرَافق للدين والدنيا[٤]ــ أنْ يسألُوهُنَّ من وراء حجاب ساتر بينهم وبينهنَّ ، ثم يذكر ﷻ علّة ذلك وحكمته فيقول : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ؛ أي : أكثرُ تطهيرًا لها من الخواطرِ الشّيطانيَّةِ، وأبعد عن الريبة وسوء الظنّ[٥].

فالحجاب معلّل بطهارة القلوب من خواطر السوء حين لا يكون هناك حجاب ساتر بين الرجال والنساء.

---

(١) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد (٥٤٣هـ)أحكام القرآن ، تحقيق:محمد عبد القادر عطا، دار الفكر ــ بيروت،٥٤٩/٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب النكاح ،باب زواج زينب بنت جحش ... رقم (١٤٢٨) ،١٠٤٦/٢، سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب، برقم(٣٢١٨) ،٣٥٧/٥.

(٣)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ٤٨٤/٣ .

(٤)ابن عطية ،المحرر الوجيز،٣٩٦/٤ ، القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن، ١٤٦/١٤،الثعالبي ، الجواهر الحسان ،٢٣٥/٣.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١١٣/٧، الشوكاني، فتح القدير،٢٩٨/٤، الآلوسي، روح المعاني ،٧٢/٢٢.

ومجيء هذا الأمر مع أمهات المؤمنين ومع صحابة الرسول ﷺ يُلجِمُ أولئك الذين تهاونوا في أمر الله ﷻ فرفعوا الحجاب في بيوتهم ... وليست نساؤهم أطهرُ قلبًا من أمهات المؤمنين ، كما أنَّ أصحابهم ليسوا أنبلَ نفسًا من صحابة الرسول ﷺ(١).

والحقُّ أن الحجاب طهارة لقلوب الرجال وقلوب النساء ؛ لأن النظرة سهم من سهام إبليس ، والعين إذا لم تر لم يشته القلب ، وإذا رأت قد يشتهي وقد لا يشتهي ، ولذلك كان القلب عند عدم الرؤية أطهر ، والأمن من الفتنة حينئذ أظهر ، أما رفع الحجاب والاعتماد على الثقة بالنفس فهو طريق لفساد قلوب الرجال والنساء ، وفتح لباب الفتنة والشّر على مصراعيه.

الرّدع عن إيذاء الرّسول ﷺ بأبلغ الوجوه

وبعد ذكر بعض الآداب التي يجب مُراعاتها في بيوت الرسول ﷺ ، ومع أزواجه ، وبيان ما خفي على بعضهم مما كان يؤذيه ﷺ ويثقُل عليه يأتي الرّدع عن إيذائه ﷺ في شيء من الأشياء ولو بأقل القليل :﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وقد ذكرت من قبل أن (ما كان) يُؤتى به للرّدع عن الأمر بأبلغ الوجوه (٢)، ولعلّ وجه دلالته على المبالغة هنا أن إيذاء الرسول ﷺ ليس من شأن المؤمن المتصف بصفة الإيمان بمعناه الصحيح ولا من عادته ، بل ولا يكون منه ذلك أبدًا ؛ لأنه يعمل بما يُرضيه ﷺ ولا يؤذيه ، وإنما هو من أفعال أعدائه المجرمين القبيحة ، وصفاتهم الذميمة، وليسوا من الإيمان في شيء.

---

(١)أبو موسى، محمد محمد :من أسرار التعبير القرآني ، مكتبة وهبه – القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م، ٣٨٥.

(٢) انظر: الفصل الثاني، الرّدع بـ(ما كان).

قال ابن عاشور: "دلت جملة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ على الحظر المؤكد ؛ لأن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ نفيٌ للاستحقاق الذي دلت عليه(اللام) ، وإقحام فعل (كان) لتأكيد انتفاء الإذن ، وهذه الصيغة من صيغ شدة التحريم" [١].

معنى الأذى:

والأذى في اللّغة يطلق في الأصل على الشّيء تتكرّهُه ولا تقرّه[٢].

وعلى هذا فالأذى في الأصل مقتصر على ما يحصل في النفس من إنكار للشيء مع كراهته، لا غير .

ولكن الراغب الأصفهاني توسع في بيان معنى الأذى ، فقال : " الأذى : ما يصل إلى الحيوان من الضرر ، إما في نفسه ، أو جسمه ، أو تبعاته ، دنيويا كان أو أخرويا"[٣].

وأورد صاحب تاج العروس ما يُبيِّن مقدار الأذى وما يصلح أن يطلق عليه أذى ، فقال : الأذى: المكروه اليسير ، ونقل عن الخطابي[٤]قوله: الأذى: الشر الخفيف ، فإن زاد كان ضررًا[٥].

وعلى هذا فالأذى هو كل ما يصل إلى الإنسان من غيره من قليل الشر ويسير المكروه، سواء أكان في نفسه أم جسمه أم أهله.

والقرآن الكريم يردع عن كلّ ما يتأذى به الرسُولُ ﷺ سواء أكان قولاً أم عملاً ، وسواء أكان ذلك بشيء قليل من الشّر أم ترك أثرًا يسيرًا من المكروه ، قال أبو حيّان: قوله :"﴿وَمَا

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير،٢٢/٩٢.

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة،١/٧٨.

(٣)الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٢٤.

(٤) هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطابي الإمام العلامة ، الحافظ اللغوي، رحل في الحديث وقراءة العلم وطوف ثم ألف في فنون العلم وصنف، من مصنفاته: غريب الحديث،شرح الأسماء الحسنى، توفي عام(٣٨٨هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧/٢٣-٢٧].

(٥)الزَّبيدي ، تاج العروس ،١٠٠/١٣.

﴿كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾: عام في كل ما يتأذى به ، ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا﴾: خاص بعد عام؛ لأن ذلك يكون أعظم الأذى ، فحرم الله ﷻ نكاح أزواجه بعد وفاته" (١).

وتحريم أزواجه ﷺ على أحدٍ بعده مما اختصَّ به ﷺ ، وفي هذا تكريم من الله ﷻ لرسوله ﷺ وتمييز له عن سائر أمته.

والتعبير عن الرسول ﷺ بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل ، والإشارة إلى أنّه بمراحل عما يقتضيه شأنه ﷺ، إذ في الرسالة من النّفع ، وما هو سبب للسعادة ما يستوجب به ﷺ غاية الإكرام والإجلال ، فضلاً عن الكفّ والامتناع عن كلّ ما يتأذى به ﷺ(٢).

ولزيادة الرّدع عظّم الله ﷻ أذى رسوله ﷺ ، وشدّد فيه وتوعد عليه، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، فالإشارة ـ بعد التوكيد ـ إلى ما ذكر مِنْ إيذائه ﷺ ، وما فيه من معنى البُعدِ للدلالة على بُعدِ منزلتِه في الشرّ والفسادِ، فهو عند الله ﷻ ذنبٌ عظيمٌ، وأمر هائلٌ شديدٌ، وفي هذا من تعظيمِ الله ﷻ لشأنِ رسولِه ﷺ ، وإيجابِ حُرمتِه حيًا وميتًا ما لا يخفى(٣).

وللمبالغة في الوعيد يُخبر ﷻ أنه عالم بما يُظهَر وما يُخفَى من أذى الرسول ﷺ، ومحيط بكلّ شيء علمًا، فيقول: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: ٥٤]، وسيجازي كلّ إنسان بما يناسب أعماله الظاهرة والخافية ، قال الآلوسي: "وفي تعميمِ (شيء) في الموضعين مع البُرهانِ على المقصودِ من ثبوت علمه ﷻ مزيدُ تهويلٍ وتشديدٍ ومبالغةٍ في

---

(١) أبو حيان ، البحر المحيط،٧/٢٤٧، وانظر :ابن عجيبة ، البحر المديد ،٦/٤٧.

(٢) البقاعي، نظم الدرر،٦/١٢٧، ابن عجيبة ، البحر المديد ،٦/٤٧، الآلوسي، روح المعاني ،٢٢/٧٢.

(٣)أبو حيان ، البحر المحيط ،٧/٢٤٩،أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٧/١١٣، الآلوسي، روح المعاني ،٢٢/٧٣.

الوعيدِ"[١]، وفي هذا رادع قويّ لأولي النُّهى عن إذاية الرسول ﷺ بقولٍ أو فعلٍ ، سرًّا كان ذلك أو جهرًا.

إذاية الرسول ﷺ توجب اللعنة والعذاب الأليم

ولعظيم قدر الرسول ﷺ ، وللرّدع عن التعرض له بأي نوع من الأذى فقد أوجب الله ﷻ للذين يتعمدون إيذاء رسوله ﷺ العذاب الأليم ، واللعن في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١] ، وهذا عام يندرج فيه الذين آذوه ﷺ في حياته، وبعد وفاته[٢]؛ فالعذاب الأليم الموجع نازل لا محالة بكلّ من يتجرأ على إيذاء الرسول ﷺ بأي نوع من أنواع الأذى قلّ أو كثُر.

وإبراز اسم الرسول ﷺ مع إضافته إلى الاسم الجليل فيه عدة فوائد ، منها: التعظيم لشأن الرسول ﷺ والزيادة في تشريفه ﷺ ، والتنبيه على أن أذية الرسول ﷺ راجعة إلى جناب الله ﷻ، موجبة لكمال السخط والغضب منه ﷻ [٣].

وقد قرن الله ﷻ أذاه بأذى رسوله ﷺ ، وذكر أنّ المؤذي ملعون في الدنيا والآخرة ، وأنّ له العذاب المهين ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقد أورد ابن عطية، والقرطبي عن الجمهور قولهم في معنى إذاية الله ﷻ: "بالكفر، ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به"[٤] ، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ

---

(١)الألوسي، روح المعاني ،٧٤/٢٢، وانظر : البيضاوي ،أنوار التنزيل،٣٨٤/٤، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١١٣/٧.

(٢)أبو حيان ، البحر المحيط ،٦٣/٥.

(٣)أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٧٧/٤، الألوسي، روح المعاني ،١٢٧/١٠.

(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز،٣٩٨/٤، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥٢/١٤.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ "[١].

وأما عن إذاية الرسول ﷺ فيقول ابن كثير: "والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيءٍ ، ومَنْ آذاهُ فقد آذى اللهَ ﷻ ، كما أنَّ مَنْ أطاعَهُ فقد أطاعَ اللهَ ﷻ"[٢].

واللعن: "الطَّرْدُ والإبْعَادُ على سبيلِ السَّخَطِ ، وذلك مِنَ اللهِ ﷻ في الآخرةِ عُقُوبَةٌ، وفي الدُّنيا انقِطَاعٌ من قَبُولِ رحْمَتِهِ وتوفيقه"[٣] ؛ فمطرود من رحمة الله ﷻ ، ومُبعدٌ من رضاه في العاجل والآجل كلّ مَنْ آذى رسوله ﷺ ، وأعدّ له ﷻ مع ذلك عذابًا يصيبه في الآخرة فيُذلُّ فيه ويُهان.

وهذه الآية والتي قبلها ذُكِرتا ضمن الآيات التي يُستدل بها على أن الأذى في حقّ الرسول ﷺ كُفرٌ؛ لأنّ اللعن يقع من الله ﷻ على الذين كفروا ، وكذلك العذاب الأليم ، والعذاب المُهين إنما يكون للكفّار ، وحكم الكافر القتل ، وكذلك حكم مؤذى النبي ﷺ هو القتل[٤].

قال ثناء الله الهندي[٥] في تفسيره: "من آذى رسول الله ﷺ بطعن في شخصه أو دينه ، أو نَسَبِه ، أو صفاته بوجه من وجوه الشين فيه صراحةً ،أو كناية، أو تعريضًا ، أو إشارة كفر، ولعنه الله ﷻ في الدنيا والآخرة ، وأعدّ له عذاب جهنّم"[٦].

---

(١)صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَاب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ﴾،(٤٥٤٩)،٤/، ١٨٢٥، صحيح مسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر(٢٢٤٦)،٤/١٧٦٢، واللفظ له.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٦٩/٣.

(٣) الراغب الأصفهانب، المفردات، ٤٥٤.

(٤) انظر:القاضي عياض، الشفا ، ٢١١/٢، ٢١٩-٢١٠، ابن تيمية،الصارم المسلول على شاتم الرسولﷺ ،٣٢، تقي الدين السبكي، السيف المسلول على من سبّ الرسول ﷺ،١٠٥.

(٥) هو: محمد ثناء الله البالي بتي الهندي النقشبندي ،فقيه حنفي ، مفسر ، من أهل الهند ، من آثاره : التفسير المظهري.توفي عام(١٢١٦هـ) [النويهض، معجم المفسرين،٥٠٧/٢].

(٦) ثناء الله الهندي، محمد ثناء الله العثماني الحنفي(١١٢٥هـ) تفسير المظهري، تحقيق: أحمد عنايه، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١ ، ٢٠٠٤م، ٣٨٢/٧.

كفاية الله ﷻ رسوله المؤذين

وقد وعد الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ بكفايته مَنْ آذاه ، فقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٥] ، ومن كفاية الله ﷻ لرسوله ﷺ تولي الرّد عنه لمن ادعى أن النبي ﷺ أبتر، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر:٣] ، هكذا بصيغة التوكيد ، والحصر؛ "أي:عدوك ومبغضك ، والأبتر: الحقير الذليل ، أو المفرد الوحيد ، أو الذي لا خير فيه"[١].

فإذا كان الله ﷻ قد تولى الرّد عن نبيه ﷺ على الطعن بشخصه ﷺ فكيف بمن يسبُه، ويتعمد إيذاءه بطريقة أو بأخرى ؟!

فالآية الأولى ــ كما نسب النسفي إلى الجمهور قولهم ــ :" نزلت في خَمسةِ نفرٍ كانوا يُبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به فأهلكهم الله ﷻ "[٢].

وهؤلاء الخمسة ــ على ما ذكر ابن هشام ــ هم : الأسْوَدُ بن المُطّلِبِ ، والأسْوَدُ بن عَبدِ يَغُوث ، والْوَلِيدُ بن المُغيرَةِ ، والعَاصُ بن وَائِلِ ، والْحَارِثُ بن الطُّلاطِلَةِ[٣].

أما الآية الثانية فنزلت في العاص بن وَائِل ، كان إذا ذُكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنّما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه[٤].

---

(١)القاضي عياض، الشفا ، ٥٢/١.

(٢) النسفي ، مدارك التنزيل ،٢٠٠/٢.

(٣)ابن هشام، أبو محمد بن هشام بن أيوب(٢١٨هـ)، السيرة النبوية،تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار الفكر ــ بيروت ، ط٢، د. ت، ٤٠٨/١ــ٤١٠.

(٤) الواحدي، أسباب النزول، ٣٠٧، السيوطي، لباب النقول، ٢١٧.

ولا يعني هذا أن الهلاك مُقتصرٌ على هؤلاء الخمسة ، بل إنّ أحداث التاريخ تـشهد علـى هلاك كثيرين ممن آذوا الرسول ﷺ [1]، قال ابن تيمية: "ولعلك لا تجدُ أحدًا آذى نبيًا من الأنبياء ثُمَّ لم يتب إلا ولا بُدَّ أن تُصيبَه قارعةٌ"[2].

وهكذا تحقّق وعد الله ﷻ لرسوله ﷺ فأخذ المؤذين له أخذ عزيز مقتدر، ونالهم من العذاب المُهين في الدنيا قبل الآخرة ، ولعذاب الآخرة أشقُّ لو كانوا يعلمون ، وإنّ الله ﷻ الذي كفـاه المؤذين له وهو حيّ ، لقادر على أن يكفيه المؤذين له بعد وفاته ﷺ ، وكفى بذلك رادعًا عـن إذايته ﷺ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١)أورد القاضي عياض في كتاب الشفا بعضًا من هذه الشواهد .[انظر: الشفاء ١/٣٤٦ـ٣٤٥].

(٢)ابن تيمية،الصارم المسلول،١٧٢.

المطلب الثاني:

الردع عن إيذاء المؤمنين

للمؤمنين منزلة خاصة عند الله ﷻ ، ولهم مكانة عظيمة ، وشأن كبير في الدنيا والآخرة ، ويدل على فضلهم وعلو منزلتهم أن الملائكة يتوجهون إلى الله ﷻ يستغفرون للمؤمنين ، ويدعون لهم بالمغفرة ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

ولا يوصف بالإيمان إلا مَنْ صدّق الرسول ﷺ وأذعن للحقّ الذي جاء به من عند الله ﷻ ، وذلك باجتماع ثلاثة أمور: تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، والعمل بحسب ذلك بالجوارح(١).

فكل مَنْ اجتمعت فيه هذه الأمور الثلاثة غير مُرتاب ولا شاكٌ فهو مؤمن ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥] .

وثمار هذا الإيمان وفوائده كثيرة، أعظمها الاغتباط بولاية الله ﷻ الخاصة، قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[

---

(١) انظر: الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٣٦، ابن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية، ٣٧٣.

يونس:٦٢- ٦٣] ، وروى أبو هريرة ﷺ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال:" إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"(١).

إيذاء المؤمنين إيذاء للرسول ﷺ

ولعلوّ مرتبة المؤمنين الراسخين في صفة الإيمان فإن إذايتهم إذاية للرسول ﷺ، ولذلك جاء عقب قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الذي تضمن الوعيد الشديد لمن آذى الله ﷻ ورسوله ﷺ، وعيد آخر ليردع عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حقٍّ، وبغير أنْ يَصدر منهم ما يُسَوّغ إذايتهم ، فقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقد ذُكِرَ أنّ من أعظم إيذاء الرسول ﷺ إيذاء من تابعه بغير حقٍّ (٢)، ويُستأنس له بما روي عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال:"... مَنْ آذى مسلمًا فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذى الله ﷻ"(٣).

وقال قتادة في هذه الآية:"إيَّاكُم وأذَى المُؤمنَ ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَحوطُهُ، ويغْضَبُ لَهُ"(٤).

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الرَّدع عن أذاه ﷺ يشمل الرَّدع عن أذى أتباعه بغير حقٍّ.

---

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع، رقم: (٦١٣٧)، ٥/٢٣٨٤.

(٢)البقاعي ، نظم الدر ،١٢٧/٦، الخطيب الشربيني، السراج المنير،٣٣٥/٤ ،المراغي، تفسير المراغي،٣٤/٢٢.

(٣) قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه القاسم بن مطيب.قال ابن حبان: كان يخطئ كثيرا فاستحق الترك.[الهيثمي، مجمع الزوائد ، ٣٩٩/٢].

(٤) الطبري، جامع البيان،٣٢٤/٢٠.

ويوضح ابن عاشور سرَّ إفراد المؤمنين بالذكر، وذِكْر الوعيد لمن يؤذيهم عَقب وعيد مَن يؤذي الله ﷻ ورسوله فيقول: "أُلحِقَت حُرمة المؤمنين بحرمة الرسول ﷺ تنويهًا بشأنهم، وذُكِروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول ﷺ"(١).

إيذاء المؤمنين مقيد بكونه بغير حقٍّ

وجاء إيذاء الرسول ﷺ في الآية الأولى مطلقًا، بينما جاء إيذاء المؤمنين والمؤمنات في الآية الثانية مُقَيَّدًا: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ ؛ وفي ذلك دلالة على أنَّ أذى الرسول ﷺ لا يكونُ إلا غيرَ حقٍّ ، وأمّا أذى أهل الإيمان فقد يكون حقًا ، وقد يكون غير حقٍّ(٢). وبهذا القيد تكون إذاية المؤمنين والمؤمنات التي تؤذي الرسول ﷺ ، ويُردع عنها مشروطةً بكونها بغير حقٍّ.

فالمؤمنون بشرٌ ، قد يُخطئون ، ويقعون في الإثم ، وقد يرتكبون ما يوجب القصاص والحد والتعزير وهذا غير مقصود من الآية الكريمة ، وإنما المراد ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي : بغير جناية منهم أو ذنبٍ عملوه يستحقون به الأذى ، وإنّما نُسِبَ إليهم ما هم منه براء ، وكان فيه إعتداء على حرمة هؤلاء المؤمنين(٣).

والآيةُ عامةٌ في كلِّ مَنْ يؤذي مؤمنًا أو مؤمنةً بغير حقٍّ بأي وجه من وجوه الأذى، وشاملة لكل زمان ومكان(٤) .

من صور إيذاء المؤمنين بغير حقٍّ

وإيذاء المؤمنين بغير حق – والذي شاع وانتشر في هذه الزمان – له صور وأشكال مختلفة ، منها :

---

(١)ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ١٠٥/٢٢.

(٢) الزمخشري ، الكشاف، ٥٦٩/٣، أبو السعود ،إرشاد العقل السليم،١١٤/٧، الآلوسي، روح المعاني، ٨٧/٢٢.

(٣) انظر:البغوي، معالم التنزيل،٣٧٦/٦/١، البيضاوي، أنوار التنزيل،٣٨٥/٣، الخازن ، لباب التأويل،٤٣٦/٣ ،ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،٤٩٦/٣، ابن عادل، اللباب ،٥٨٨/١٥ ،ابن عجيبة ، البحر المديد ،٥٢/٦ ، الشوكاني ،فتح القدير، ٣٠٣/٤.

(٤) ثناء الله الهندي، تفسير المظهري، ٣٨٢/٧،البروسوي ، روح البيان ،٢٣٨/٧ ، سيد قطب ، في ظلال القرآن، ٢٨٨٠/٥.

• إشاعة الفاحشة بينهم

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور:١٩]

والفاحشة: الفعل القبيح المفرط القبح ، والقول السيء[١]، وفي نسبة الفاحشة وترويجها ضد مؤمن إيذاء له ، وفي إشاعتها ونشرها بين المؤمنين إيذاء لهم ، وإلحاق الضرر بهم؛ فإشاعة الفاحشة لا يقتصر على تهمة مؤمن ورميه بما هو منه براء ، وإنما يشمل المساعدة على نشر الفاحشة ومحبة ظهورها بين المؤمنين ، بغض النظر عن الوسيلة المستخدمة لتحقيق ذلك.

وقد توعد الله ﷻ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

وإذا كان هذا الوعيد الشديد لمجرد محبة إشاعة الفاحشة فكيف بمن يسعى ويحشد طاقاته لإشاعة الفاحشة ونشر الرذيلة فيما بينَ المؤمنين بطريق أو بآخر؟

وللردع عن إيذاء المؤمنين بإشاعة الفاحشة بينهم شرع الله ﷻ لمن رمى المحصنات بما ليس فيهنّ حدَّ القذف ؛ ثمانين جلدة ، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤].

وذكر ﷻ الوعيد الأكيد والتهديد الشديد على رمي المحصنات، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور:٢٣].

---

(١) انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ١٣٧/١٢.

• السخرية والاستهزاء بهم

قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١].

والسخرية بالمؤمن والاستهزاء به يكون باحتقاره واستصغاره[١]، والاستهانة بأقواله وأعماله ... وإنقاصه ما يجب له من التوقير والتقدير والاحترام ، وفي هذا إيذاء لنفسية المؤمن وقلبه.

وهذا النوع من الإيذاء علامة نفاق فاعلــه، قــال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة:٧٩] .

فالآية الكريمة نزلت في المنافقين ، لما في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: لما أمرنا بالصدقة جاء رجل فتصدق بنصف صاع ، فقال المنافقون إن الله لغني عن صــدقة هذا ، فنزلت الآية[٢].

فالمنافقون سخروا بالمؤمنين الذين تصدّقوا بالقليل ــ بقدر جهدهم وطاقتهم ــ وكان ذلك من باب احتقارهم للمؤمنين وإيذائهم ، ولذلك توعدهم الله ﷻ بالعذاب الأليم .

وأخبر الله ﷻ أن الكفار يسخرون من المؤمنين ، فقال ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١٢].

---

(١) انظر: ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم،٤/٢١٣.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب سورة براءة، رقم: (٤٣٩١)،٤/١٧١٤، صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ،باب الحمــل أجرة يتصدق بها ، رقم: (١٠١٨)، ٢/٧٠٦، الواحدي ، أسباب النزول، ١٧٢.

وفيما تقدم ما يردع المتطلعين إلى السلامة من الاتصاف بأوصاف الكفار والمنافقين، والنجاة من عذاب الله ﷻ – عن إيذاء المؤمنين والاستهزاء بهم.

• الإيذاء في العطاء

قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٢ – ٢٦٤].

فهذه الآيات الكريمة تبيِّن حُرمة المؤمن ، وتؤكد وجوب الكفِّ والامتناع عن إذايته ؛ فالآية الأولى منها تبيِّن الأجر العظيم لمَنْ يُخرج صدقته من قلبه كما خرجت من يده ؛ لأنــه إذا لــم يُتبعها منًّا ولا أذى فقد أخلص فيها لله ﷻ وقطع تعلقه بها.

وأما الآية الثانية فتبيِّن أن ردّ السائل بالكلمة الطيبة، والتزام الأدب معه ، خير من إعطائــه صدقة ثُم إتباعَها بالمن والأذى.

وأمّا الآية الثالثة فتبيِّن أن إتباع الصدقة بالمن والأذى مبطل لها، محبط للأجر عليها ، وذلك بتمثيل صدقة المنّان المؤذي بنفقة المرائي الذي لا يؤمن بالله ﷻ ، وتمثيل نفقة المرائي بالحجر الأملس الذي علق عليه تراب ، فلما نزل الغيث الغزير، ذهب بالتراب ولم يُبقي لــه أثــرًا ، فكذلك المنّ والأذى لا يُبقي للمنفق أجرًا[١].

---

(١) انظر: المطلب الثاني من المبحث الثاني في الفصل السابق.

والإيذاء في العطاء له عدة صور، منها مواجهة الفقير بعبارات مؤذية ، نحو: بليت بـك ، وأراحني الله منك ، ومنها التشهير به ، وكشف أمره لمَن يكره الفقير على إطلاعه على ذلك[1]، ومنها الاستعلاء والتكبر عليه، إلى غير ذلك من صور وكيفيّات الإذلال والإيذاء في العطاء.

- **التَّجَسُّسُ عليهم وتتبع عوراتهم**

قال ﷻ:﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢]، التَّجَسُّسُ في اللغة تتبع الأخبار، يقال: جـس الأخبار وتجسسها : إذا تتبعها ، ومنه الجاسوس ؛ لأنه يتتبع الأخبار ويفحـص عـن بـواطن الأمور[2].

والتَّجَسُّسُ في الأعم الأغلب يطلق في الشر، قال ابن الأثير : التَّجَسُّسُ: "التَّفْتِيش عن بـوَاطِن الأمور وأكثَر ما يُقال في الشَّرّ . والجَاسُوس: صاحب سرّ الشَّرّ "[3].

وعلى هذا فالتَّجَسُّس هو تتبع عورات المؤمنين ، والبحث عن المستور من أمورهم بطريقة أو بأخرى ؛ لكشفه ونشره ، وفي هذا انتهاك لحرمات المؤمنين وإيذاء لهم ، فعن ابـن عمـر ــ رضي الله عنهماــ أن رسول الله ﷺ قال:" لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ"[4].

قال الإمام الطبري عند تفسيره لقوله ﷻ:﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴿١٢﴾﴾ : ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه"[5].

---

(١) انظر: ابن الجوزي ، زاد المسير ،٣١٧/١-٣١٨.

(٢) الفيومي، المصباح المنير ، ٥٧.

(٣) ابن الأثير ،النهاية في غريب الحديث ، ٧٥٢/١.

(٤) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب تعظيم المؤمنين، (٢٠٣٢) ٣٧٨/٤. وقال: هذا حديث حسن غريب ، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٥) الإمام الطبري، جامع البيان ،٢٠٤/٢٢.

وإظهار عيوب المؤمن والتشهير ببعض هناته إيذاء له ، وشأن المؤمن أن يستر عيب أخيه ، وأن يجتنب ما يؤذيه .

ولاشك أن التشهير بالمؤمن من الغيبة التي نهى الله ﷻ عنها ، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢]

والغيبة أن يذكر الإنسان أخاه بما يكره ، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قَالَ :" أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"(١).

فمن ذكر أخاه بما يكره مما هو فيه فقد اغتابه، ومن ذكر أخاه بما يكره مما ليس فيه فقد اغتابه وكذب عليه واتهمه بما ليس فيه ، ومن ذكر أخاه بشيء من ذلك فقد آذاه.

ولعلّ أقبح أنواع البهتان وأشدّها إيذاءً أن يفعل إنسان إثمًا أو جريمة ، ثم يرمي غيره بما فعل هو ويتهمه به ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢].

وللرّدع عن الغيبة وما فيها من إيذاء للمؤمنين شبّه المُغتاب المؤذي بآكل لحم أخيه ميتًا ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ .

فهذا تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ، ومن حيث تعلقه بصاحبه ، على أفحش وجه وأشنعه ، وفيه مبالغات من فنون شتى ، منها:

أولاً: الاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي ليفيد التقرير.

ثانيًا : إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدُكُمْ﴾ إيذانًا بأن أحدًا من الأحدين لا يفعل ذلك.

---

(١) صحيح الإمام مسلم ، كتاب البر والصلة،باب تحريم الغيبة ، رقم: (٢٥٨٩) ،٤٠/٢٠٠١.

ثالثًا: تعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة ،

رابعًا: إنَّه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، بل جعله أخًا للآكل.

خامسًا : إنَّه لم يقتصر على أكل لحم الآخر حتى جعله ميتًا[١].

وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما يردع العقلاء أولي النهى عن ذكر المؤمن بشيءٍ مما يكرهه ويؤذيه.

إثم فاعل الإيذاء وعقوبته

وكلُّ مَن آذى مؤمنًا أو مؤمنةً بقولٍ أو فعلٍ بغير حقٍّ فقد حكم الله ﷻ عليه بأنَّه قد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا، قال تعالى:﴿ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ ، فأُدخلت الفاء ؛ لأنّ الاسم الموصول (الذين) متضمن معنى الشرط[٢]، وهي تُفيد أن إيذاء أهل الإيمان بغير حقٍّ سبب لاحتمال البهتان والإثم المبين[٣].

وجملة ﴿ ٱحۡتَمَلُواْ ﴾ خبرُ المبتدأ ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾، وجاء الفعل على صيغة الماضي ، وبصيغة افتعل ، وفي ذلك فوائد بيانية ؛ أمّا فائدة صيغة الماضي فهي الإشارة إلى أنهم قد احتملوا فعلاً [٤]؛ أي: كأن الفعل قد وقع.

وأمّا صيغة (افتعل) فهي أبلغ من صيغة (فَعَلَ) [٥]، وفائدتها الإشارة إلى عِظَم ما احتملوه، وكأنَّ البهتان والإثم جسم ثقيل لا يُحمَل إلا بتكلفٍ ومزيد معاناة ومشقة ، قال ابن عاشور في معنى ﴿ ٱحۡتَمَلُواْ ﴾: "كلّفوا أنفسهم حملاً ، وذلك تمثيل للبهتان بحملٍ ثقيلٍ على صاحبه"[٦].

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،١٢٢/٨، ابن عجيبة ، البحر المديد ، ١٧٢/٧ ،الآلوسي ، روح المعاني ،١٥٨/٢٦.

(٢) انظر:السمين الحلبي، الدر المصون ،٤٢٥/٥، الآلوسي، روح المعاني، ٨٨/٢٢.

(٣) انظر:القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي ، ٤١٩/١٥.

(٤) أبو موسى ، من محاسن التعبير القرآني، ٣٩١.

(٥) انظر: الآلوسي، روح المعاني، ١٠٣/٥.

(٦) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ٢٢ / ١٠٦.

والبُهْتَان: الكذب الذي يُتحيرّ من عِظَمهِ ، من بَهَتَ فلانٌ فلانًا يَبْهَتُه بُهتانًا : إذا كذَبَ عليه ، وقد بُهِتَ فلانٌ يُبْهَتُ بَهْتًا: إذا تَحيَّر[١]، فهو لِعظمه وكمال شنَاعَتهِ وقُبْحِه يُحَيِّر من يسمعه من العقلاء ويثير دهشتَهم واستغرابهم.

والإِثم: الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه، ولا يصح أن يوصف به إلا المحرَّم ، والفرق بين الإثم والذنب : أن الإثم لا يكون إلا عمدًا ، أما الذنب فليس كذلك ، فإنّه يكون عمدًا ، وقد يكون سهوًا[٢].

و﴿مُّبِينًا﴾ صفة للإثم ، فهو ذنبٌ متعمدٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه.

ولعلَّ في تنكير البُهتان والإثم دلالة على فظاعة كُلٍّ منهما وعِظَمه، فمن تعمّد إذاية مؤمن أو مؤمنةٍ بغير حقٍّ ، فقد تحمَّل كذبًا وزورًا فظيعًا ، وذنبًا مُتعمدًا عظيمًا لا خفاء فيه ، واستحق بفعله ذلك الذَّم والخزي في الدنيا، والعقاب في الآخرة[٣].

وفي هذا التهديد الشديد ، والوعيد الأكيد ما يردع أصحاب العقول الرشيدة ، ويزيدهم نفورًا من إيصال الأذى القولي أو الفعلي لأهل الإيمان بغير موجب لذلك ؛ لئلا يحيق بهم ما يَحيقُ بالمؤذين من خُسرانٍ وعذابٍ أليم في العاجل والآجل.

---

(١) الزجاج، معاني القرآن،٢/١٠٣، النحاس، معاني القرآن،٢/١٨٨.

(٢) انظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات ،٤٠٠.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٠/٣٢٤ ، البقاعي ، نظم الدرر،٦/١٢٧،الخطيب الشربيني، السراج المنير،٤/٣٣٥.

المبحث الثالث:

الرّدع عن الانشغال بالدنيا عن الاشتغال للآخرة

المطلب الأول:

الرّدع عن الإفراط في حبّ الدنيا

المطلب الثاني:

الرّدع عن الانشغال بالتكاثر عن العمل للآخرة

المطلب الثالث:

الرَّدع عن الظن أن الإنعام علامة إكرام وأن المنع علامة إهانة

المطلب الرابع:

الرَّدع عن الحرص على المال وحسبان خلود صاحبه

المطلب الأول :

الردع عن الإفراط في حب الدنيا

الدُّنيا تأتي مقابل الآخرة ، وهي مؤنث الأدنى ، وقد عرضت الآيات القرآنية للدنيا، وبيّنت أنها دنيّة فانيةٌ ، ومتاعها قليل زائل لا محالة ، وأن الآخرة – التي تقابلها– لا زوال لها ولا انقطاع ؛ فهي دائمة خالدة ، و هي دار الحياة التي لا موت فيها ، قال الحقُّ ﷻ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[العنكبوت:٦٤]

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

فالدُّنيا على زِنَة فُعلى من "الدُّنوّ وهو الأنزل رُتبةً ، في مُقابلة عُليا ، ولأنَّه لزمتها العاجلة صارت في مُقابلة الأخرى اللازمة للعلوّ ، ففي الدُّنيا نزول قَدْر وتعجُّلٍ ، وفي الأخرى علوُّ قَدْرٍ وتأخر"[1].

وعلى هذا فلكل منهما – الدنيا والآخرة – من اسمها نصيب ؛ فأما الدنيا فمعنى نازلٌ لا علوَّ له ، وأمّا الآخرة فهي على العكس تمامًا تتميز بعلوّ قَدْرها ، ورفعة شأنها.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ركَنَ أكثَرُ النّاس إلى الدُّنيا ، وتعلّقوا بها ، وسَعَوا في تحصيل لذّاتها وشهواتها العاجلة ، وتركوا السّعي للآخرة الباقية ، وما فيها من النَّعيم المقيم ، حبًّا منهم للعاجلة ، وإيثارًا للعاجل وإنْ قلّ ، على الآجل وإنْ كَثُر ، قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر ١٠/١٨٣، المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، ٣٤١، وأحالاه إلى الحرالي.

﴿ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان:٢٧] ، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧] .

ولما كان الإفراط في حبِّ الدُّنيا والإقبالِ عليها مؤدّيًا إلى التلهي عن الآخرة والعمل لها ، وربما أدى إلى تركها والإعراض عنها ردعَ القرآنُ الكريم وزجرَ عن سلوك هذا المسلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠ ، ٢١].

صلة الآيتين بما قبلهما

لما سُبِقت الآيتان الكريمتان بكلام معترضٍ يؤكد التوبيخ على حبِّ العاجلة والذي تضمنه ما قبله تلويحًا ، ناسب أن يأتي الرّدع عن ذلك بالتصريح بالتوبيخ عليه ، وهذا ما جلاّه العلامة الآلوسي بقوله: "هذا متصل بقوله ﷻ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ [القيامة: ٥]، فإنّه ملوحٌ إلى معنى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الخ، وقوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾...﴾ الخ [القيامة:١٦] متوسط بين حُبّي العاجلة : حبُّها الذي تضمَّنه ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ تلويحًا، وحبُّها الذي آذن به ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ تصريحًا؛ لحُسْن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح ، ففي ذلك تدرجٌ ومبالغةٌ في التقريع ، والتدرجُ وإن كان يحصُلُ لو لم يؤت بقوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ...﴾ الخ في البين أيضًا، إلا أنّه يلزم حينئذ فوات المبالغة في التقريع ، وأنّه إذا لم تجز العجلة في القرآن وهو شفاء ورحمة فكيف فيما هو فجور وثبور ، ويزول ما أشير إليه من الفوائد ، فهو استطراد يؤدي مؤدى الاعتراض وأبلغ ، وأطلق بعضهم عليه الاعتراض"[1].

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني، ٢٩ / ١٤٢، وانظر: القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي،١٩/٤٥٥.

فجاء ما قبل الآيتين متضمناً التلويح بالتوبيخ ، وجاءت الآيتان الكريمتان متضمنة التصريح به؛ وفائدة ذلك التدرج والمبالغة في التوبيخ والتقريع ، ففي قوله ﷻ :﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ ــ كما نقل عن مجاهد ، والحسن[١]، والسدي[٢]ــ بيان أن الإنسان لا يجهل أن الله ﷻ قادر على بعثه بعد الموت ، ولكنَّه يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها قُدُما ما عاش ، لا ينزع عنها، ولا يتوب منها أبدا[٣].

قال ابن القيم: "فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه وتمتعه به قبل أوانه"[٤].

وفي قوله:﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ بيان "أنَّ الذي حملهم على ما هم فيه من الحسبان أن العظام لا تُجمَع ، وأنّ البعث ليس بشيءٍ ، حبهم العاجلة ؛ وذلك أنَّهم أولعوا بالعاجلة، وأحبوها حبًّا أنساهم الإيمان بالآخرة ، والنّظر في الحجج والبراهين التي لو أمعنوا النَّظر فيها أدتهم إلى القول بالبعث ، حتى صاروا إلى ألا يرجوا اليوم الآخر"[٥].

فالإفراط في حبِّ العاجلة يدفع صاحبه إلى إيثارها على الآجلة ، والحرص على البقاء فيها من أجل التمتع بشهواتها وملذّاتها، والهروب مما يُعكِّر عليه استمتاعهُ بتلك الشهوات والملذَّات ؛ ولهذا فهو يريد إنكار البعث والحساب للاستمرار على فجوره دون خوفٍ من حسابٍ أو عقابٍ.

---

(١)هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري، الإمام شيخ الإسلام أبو سعيد، نشأ بالمدينة المنورة، وحفظ القرآن ، لازم الجهاد والعلم والعمل ، حدث عن ابن عباس ﷺ وحدث عنه قتادة وأيوب توفي سنة (١١٠هـ). [انظر الذهبي، تذكره الحفاظ ١/٧١].

(٢)هو:إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، أبو محمد التابعي ، الحجازي، الكوفي الأعور، وهو غير السدي الصغير محمد بن مروان المتهم بالكذب،.[الذهبي، سير أعلام النبلاء ،٥/٢٦٤ وما بعدها].

(٣) الطبري، جامع البيان،٢٤/٥٢، البغوي، معالم التنزيل ،٨/٢٨١، ابن عطية ، المحرر الوجيز،٥/٤٠٢.

(٤) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ٩٩، وله، بدائع التفسير، جمع وتوثيق: يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزية، السعودية، ط١، ١٩٩٣م،٥/٨٢.

(٥) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ٥/٣٣٩ ، وانظر :ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤/٤٥٠.

افتتاح الآيتين بـ﴿كَلَّا﴾

وقد صُدِّرت الآيتان بـ ﴿كَلَّا﴾ لردع الإنسان عن محبة الدنيا الفانية المؤدي إلى إهمال العمل للآخرة ، وليحقِّق هذا الإنسان الغاية التي خُلق لأجلها ، فيعمُر هذه الدنيا بطاعةِ الله ﷻ ، والتزود للدار الآخرة مستعينًا على ذلك بما وهبه الله ﷻ من خيرٍ في الدنيا؛ يعمل فيها بما أمره الله ﷻ ، ويأخذ منها بما أُحلَّ له، ويعيش فيها فيما أُبيح له، ويستعد بذلك للدار الآخرة.

وإفادة (كلا) لمعنى الرَّدع والزجر في هذا السياق هو قول غير واحدٍ من المفسرين كأبي منصور الماتريدي[١]والواحدي والزمخشري وغيرهم[٢]، وتبعًا للاختلاف في معاني (كلا) فقد ذُكِرَ أنها جاءت هنا بمعنى حقًّا[٣]، وقيل : بمعنى (ألا) الاستفتاحية[٤]، ولكنَّ القول بإفادتها الردع والزجر هو الأقوى ، فقد جاءت للرَّدع عن واقع غير سويّ ؛ألا وهو حبُّ الدنيا وشهواتها ، وهو واقعٌ يستحقُّ أنْ يُردع عنه.

وربما يكون من الممكن الجمع بين المعاني الثلاثة والإفادة منها في هذا السياق للدلالة على محبَّة أكثر النَّاس للدنيا ، والتأكيد على أن حُبَّها يُلهي عن الآخرة والعمل لها ؛ أما الرَّدع فهو المعنى الذي تفيده (كلا) في أصل وضعها ، وأما (حقًّا) فهو مصدر، وكأنّه يقرر ثبوت تلَّهي

---

(١)هو: محمد بن محمد محمود أبو منصور الماتريدي ، السمرقندي، الملقب بإمام الهدى، إمام المتكلمين، ، من مصنفاته: تأويلات أهل السنة، والمقالات، وبيان وهم المعتزلة،توفي عام(٣٣٣هـ). [الأدنروي، طبقات المفسرين،٦٩،[النويهض، معجم المفسرين،٦١١/٢].

(٢)أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ٣٣٩/٥، الواحدي، الوجيز،١١٥٥/٢، الزمخشري،الكشاف،٦٦٢/٤، وانظر مثلاً: البيضاوي، أنوار التنزيل،٤٢٢/٥، ابن جزي،التسهيل لعلوم التنزيل،١٦٥/٤، ثناء الله الهندي، تفسير المظهري،١٠٦/١٠، الشوكاني، فتح القدير،٣٣٨/٥، ابن عاشور، التحرير والتنوير،٣٥١/٢٩، حبنكة الميداني، معارج التفكر،٤٩٤/٢ ـ٤٩٥.

(٣) انظر: الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،١٩٩/٣٠، ابن عادل ، اللباب ،٥٦١/١٩.

(٤)الجلالان ، جلال الدين المحلي (٨٦٤هـ) ، و جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، تفسير الجلالين، دار المعرفة ـ بيروت،٧٧٩ ، واستظهره الخطيب الشربيني،السراج المنير، ٤٩٥/٤.

الإنسان عن الآخرة وترك العمل لها ما دام مُحبًّا للدنيا مُقبلاً عليها، وأما (ألا) الاستفتاحية فهي تفيد التوكيد ، وتُعدُّ من أدواته[1].

لفت نظر النَّاس لما تتعلق به قلوبهم

وقوله ﷻ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾ يبيّن أن الدنيا هي ما تتعلق به قلوب كثير من النَّاس وتميل إليه نفوسهم ، قال قتادة: "اختار أكثر النَّاس العاجلة، إلا من رَحِمَ اللهُ ﷻ وعَصم"[2].

ومجيء الفعل ﴿تُحِبُّونَ﴾ هكذا بصيغة المضارع يفيد بيانيًّا التجدد والاستمرار؛ أي أن التعبير بهذا الفعل يجعلك تعلم أنّ محبة النّاس للدنيا مستمرةٌ ، وتتجدّد بتجدّد الزمان ، وأنّها مستمرة في نفوس أصحابها ؛ بحيث لا يشاركون مع حبّها حبُّ الآخرة.

و﴿الْعَاجِلَةَ﴾ مأخوذة من (عَجِلَ) ، يقال: عَجِلَ عَجَلاً وَعَجَلَةً إذا أسرع ، قال ابن منظور: العَجَلُ والعَجَلة السرْعة خلاف البُطْء ، والعاجِلُ والعاجِلةُ نقيض الآجل والآجلة عامٌّ في كل شيء ، والعاجِلةُ الدنيا، والآجلة الآخرة[3].

ويعرّف الراغب العَجَلَةُ بقوله: " العجلة: طَلَبُ الشّيء وتَحَرِّيهِ قبلَ أوانِهِ، وهو من مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ ، فلذلك صَارت مَذمُومَةً في عامَّة القُرآنِ حتى قيلَ : العَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ"[4] ، على أن العجلة المذمومة هي العجلة في تحصيل لذّات الدنيا وشهواتها ، وإلا فالمسارعة في الخيرات مطلوبة ، والعجلة في تحصيل ما يرفع الدرجات يوم القيامة محمودة .

---

(١) انظر : أبو البقاء الكفوي، الكليات، ٢٦٩.

(٢)أخرجه الإمام الطبري، جامع البيان،٢٤ / ٧١.

(٣)ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (عَجِلَ) ،١١ / ٤٢٥.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٣٢٦ ، وفي سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال:"الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان"، قال الترمذي:وهذا حديث حسن غريب ،[سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة،(٢٠١٢)،٤/٣٦٧].

ولعلّ إطلاق العاجلة على الدنيا يُشير إلى قصر عمرها وسرعة فنائها وزوالها، ويُشير أيضًا إلى المُسارعة والاستعجال في تحصيل منافعها العاجلة.

وإذا كانت العجَلَة من مقتضيَات الشهوة ، وهي مذمومة في القرآن الكريم، فإن حبّ العاجلـة الذي يدفع إلى الاستعجال في الحصول على لذّاتها وشهواتها مذموم أيضًا، وصاحبه كذلك ؛ إذ يُسارع في طلب تلك الشهوات مع سرعة فنائها، وترك الآخرة والإعراض عنها على الرغم من بقائها .

وربما يكون في مجيء ﴿وَتَذَرُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ المقاربة له إشارة إلى إهمال أمور الآخرة وعدم الاعتناء بها مطلقًا ؛ فـ(تذر) من (وذر) ، وقد أُشيرَ إلى استعمال هذه المادة في مطلق الترك أو في الترك مع الإعراض وعدم الاعتناء بالمتروك مطلقًا[١]، قال الراغب: "يقال: فلانٌ يَذرُ الشيء ؛ أي: يَقْذِفُه لِقلّة اعتداده به ، ولم يُستعمل ماضيه ... والوَذَرَةُ : قطعـة مـن اللحم ، سُميَت بذلك لقلّة الاعتداد بها"[٢].

حُسْن عاقبة حبّ الآجلة وسوء عاقبة حبّ العاجلة

"ولما ردع ﷻ عن حب العاجلة، وترك الآخرة، عقّب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الرّدع ممـا يشير إلى حُسْن عاقبة حبِّ الآخرة، وسوء مغبّة العاجلة"[٣]، فقال ﷻ في حسن عاقبة المـؤثرين للآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

فأُثبت لهم في الآخرة أمران:

---

(١) الزركشي ، البرهان علوم القرآن، السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ٣٩٣/٣، الألوسي، روح المعاني،١٤١/٢٣.

(٢)الراغب الأصفهاني، المفردات، ٥٣٣.

(٣)الألوسي ، روح المعاني،١٤٤/٢٩.

أحدهما: الوجوه الناضرة، وللمفسرين في معنى ﴿نَاضِرَةٌ﴾ عـدة أقـوالٍ ، منهـا: حـسنة، مستبشرة، ناعمة، مسرورة[1]، وهي متقاربة الدلالة؛ فهي وجوه حسنة مضيئة، ناعمة مستبشرة، قد ظهر البِشْر والسرور عليها.

والثاني: النظر إلى الله ﷻ بلا تكييف ولا تحديد ، وهذا حقٌ لاشك فيه ، إذ تؤيده الأحاديث الصحيحة ، قال ابن كثير :"وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة فـي الأحاديـث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة ــ وهما في الصحيحين ــ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَـوْمَ الْقِيَامَــةِ ؟ فقال: " هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ والقمر لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟" قَالُوا لا يَا رَسُولَ اللَّــهِ. قَـالَ :" فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ"[2] [3]. ثم أورد أحاديث أخرى تُثبت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وقد قال بهذا "الصحابة ﷺ والتابعون ، وأئمة الإسلام المعروفة بالإمامة في الدين ، وأهـل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة"[4].

وأمّا عن سوء عاقبة المؤثرين للعاجلة على الآجلة فقال ﷻ :﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة:٢٥،٢٤].

هذه وجوه الأشقياء في الآخرة ؛ وجوه ﴿بَاسِرَةٌ﴾ من (بَسَر) ، والبَسْرُ في الأصل : الاستعجال بالشيء قبل أوانه ، يقال: بَسَر الرّجُل حاجته: طَلَبَهَا في غيرِ أَوَانِها ، ويطلق على عبوس الوجه

---

(١)انظر: الطبري / جامع البيان ،٧١/٢٤،الماوردي ، النكت والعيون، ١٥٦/٦.

(٢)صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى :﴿وجوه يومئذ ناضرة..﴾، (٧٠٠٠)،(٧٠٠١) ،٢٧٠٦/٦، ٢٧٠٤، صـحيح مسلم ، كتاب الإيمان،باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢)،١٦٣/١،كتاب الزهد،(٢٩٦٨)،٢٢٧٩/٤..

(٣)ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ٤ /٤٥٠ ــ ٤٥١.

(٤) ابن أبي العز الحنفي، محمد بن علاء الدين علي بن محمد (ت٧٩٢هـ)، شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق جماعة من العلمـاء، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٩٨٣م ،٢٠٤، وما بعدها ، حيث عرض لأقوال المخالفين ، ورد عليهم.

من همٍّ أو فِكْرٍ ، وبَسَرَ الرجلُ وَجْهَه بُسُوراً: كَلَحَ [١]، وقد أشار الراغب إلى أنّ البُسْر ردّ فعل الإنسان قبل وصول المكروه والأذى إليه ، قال : وقوله ﷻ: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ : "إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النَّار، فخُصَّ لفظُ البُسْر تنبيهًا أنَّ ذلك مع ما ينالُهُم مِن بَعْدُ يجـرى مجرى التكلُّفِ، ومجرى ما يُفْعَلُ قبل وقته، ويدلّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾"[٢].

فعندما يتوقع أولئك الأشقياء الذين آثروا الفاني على الباقي ، ولم يرتدعوا عن ذلـك ـــ أن العذاب نازل بهم ، يصيبهم النّدم والحسرة والحزن على ما قصروا وضيعوا في الدنيا من صالح الأعمال ، فلذلك تتغير وجوههم وتكون كالحة شديدة العبوسة ، والجزاء من جنس العمل ؛ فقـد أحبوا الدنيا، واستعجلوا بنصيبهم منها وتمتعوا به قبل أوانه ، فجيء بلفظ البُسْر ليشير إلـى أن عقابهم المذكور يجري مجرى ما يُفْعَلُ قبل أوانه .

والفاقرةُ : ـــ كما قال مجاهد ـــ الداهيةُ[٣]، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تكسرُ فَقَـارَ الظَّهْـرِ[٤]، فهـم ينتظرون أسوأ العذاب ، إنّهم ينتظرون داهية عظيمة تقصم فَقارَ الظَّهرِ.

إنّ هذا الاختلاف الشاسع البعيد بين حُسن عاقبة حبِّ الآخرة ، وبين سوء عاقبة حبِّ الـدنيا والتوجه إليها يزيد النفوس المؤمنة نفورًا من حبِّ الدنيا وإيثار لذّاتها العاجلة ، وامتثالاً للكـف عنه.

مجيء ﴿كَلَّا﴾ وإفادتها الردّع

وبعد تأكيد الرّدع عن إيثار الدنيا على الآخرة ببيان أحوال الناس ـــ السعداء منهم والأشـقياء ـــ في الآخرة يأتي الرَّدع مرة أخرى عما يوجب العذاب والشقاء من حبِّ العاجلة وإيثارها على

---

(١)الفراهيدي ، العين ،٧/٢٥٠، الراغب الأصفهاني، المفردات، ٥٦،ابن منظور ، لسان العرب ،مادة (بسر) ٤/٥٧.

(٢)الراغب الأصفهاني، المفردات، ٥٦.

(٣)أخرجه الطبري ، جامع البيان،٢٤/٧٤.

(٤)الفراهيدي ، العين ،٥/١٥٠، السمين الحلبي ، الدر المصون،١٤/١٨٧، الشربيني، السراج المنير،٤/٥٩٦.

الآجلة، وذلك في قولـــه ﷻ : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

وقد بدئت الآيات بأداة الرَّدع والزجر﴿كَلَّآ﴾لتردع الإنسان عما يحول بينـــه وبـــين تحقيـــق السعادة الأبدية من محبة الدنيا وترك العمل للآخرة ، وتُذكِّره بما يؤول إليـــه مـــن المنازعـــة والموت الذي ينقطع عنده عن الدنيا، وينتقل منها إلى الدار الآخرة .

قال الفخر الرازي:" ﴿كَلَّآ﴾ردعٌ عنْ إيثارِ الدُّنيا علَى الآخرةِ ، كأنه قيل : لمّا عرفتم صـــفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة ، وعلمتم أنّه لا نسبة لها إلى الدُّنيا ، فارتدعوا عـــن إيثار الدُّنيا على الآخرة ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين"[١]. وقد ذكر غير واحد من المفسرين نحو الـــذي قاله الفخر الرازي[٢].

وبعد حرف الرّدع ﴿كَلَّآ﴾ تأتي ﴿إِذَا﴾الظرفية متضمنة معنى الشرط ، لتفيد وقـــوع الفعـــل المحكي عنه فيما يُستقبل من الزمان ، وجوابُها يُفهم من قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ .

ولمزِيد من الرّدع يجيء وصف حال المحتَضَر، وما يُعانيه مِنْ شَدَائد حين الإشـــرَافِ علـــى المَوت والقرب منه، وقد ذكر ابن عاشور أنه سُلِكَ في الجمل التي بَعد ﴿إِذَا﴾مسلكُ الإطناب[٣]،

---

(١)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٠٣/٣٠.

(٢) انظر مثلاً: أبو حيان ،البحر المحيط، ٣٨٠/٨، أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ٦٨/٩؛ الشربيني،السراج المنيـــر،٤٩٧/٤، ثناء الله الهندي، تفسير المظهري، ١١١/١٠، الآلوسي، روح المعاني، ١٤٦/٢٩.

(٣)الإطناب هو بسط الكلام لتكثير الفائدة .[انظر: أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، ١ / ٥٦] .

وذلك بتفصيل وصف تلك الأحوال التي تفارق الروح فيها الجسد ، والغرض من ذلك تهويل حالة الاحتضار، وإدخال الروع في القلوب[١].

و﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع مُفرده (تَرْقُوَة) ، وهي العَظْم الذي حول الحلقوم عن يمين ثُغْرة النحر وشمالها بين ثُغْرة النَّحر والعَاتِق من أعلى الصدر، ولكل إنسَان تَرْقُوَتان ، من الجانبيّن [٢]. وربما يكون في التعبير عن المثنى بصيغ الجمع "إشارة إلى شدة انتشارها بغاية الجهد لما فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصي البدن إلى هناك"[٣].

وحين تبلغ الروح التراقي ، ولا يبقى على مفارقتها للجسد ومفارقته للدنيا إلا لحظات يكون النزع الأخير، وللأستاذ سيد قطب عبارة رائقة في هذا السياق أستميح لنفسي نقله كاملاً؛ يقول رحمه الله تعالى: "وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ، وتكون السَّكرات المذّهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار .. ويتلفَّت الحاضرون حول المحتَضَر يتلمَّسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب:﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ﴾ ؟ لعلَّ رُقية تفيد ! .. وتلوّى المكروب من السكرات والنزع .. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ ...وبطلت كلّ حيلة، وعجزَت كلّ وسيلة، وتبيَّن الطريق الواحد الذي يُساق إليه كلُّ حيٍّ في نهاية المطاف: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ .

إنَّ المشهد ليكاد يتحرك وينطق ، وكلُّ آية ترسم حركة ، وكلُّ فقرة تخرج لمحة ، وحالة الاحتضار تَرْتَسِم ويرتَسِم معها الجزع والحَيْرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا رادّ .. ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها .. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾...

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ١/ ١٢٣، ٢٩/ ٣٦٠.

(٢)الراغب الأصفهاني، المفردات، ٨١، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ،١/ ٤٩٥؛ المطرزي، المغرب، ١/ ١٠٣.

(٣)البقاعي ، نظم الدرر ،٨/ ٢٥٢، الشربيني،السراج المنير،٤/ ٤٩٧.

ويُسدل السّتار على المشهد الفاجع، وفي العين منه صورة، وفي الحسّ منه أثر، وعلى الجوّ كلّه وجوم صامت مرهوب"(١).

ومع أن الإنسان يكون حين الموت في أشدّ الكربات ، إلا أن مجيء الظنّ مُعبرًا به عن اليقين يُشير إلى أن الإنسان الذي أحبَّ دنياه وآثرها على آخرته وهو يواجه سكرات الموت المذهلة يبقى متشبثًا بالحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه عنها، فقد بلغت روحه التراقي ولا يكاد يصدّق أنه مفارق لدنياه التي أحبها وتعلق قلبه بها ، ولعلّه يشير أيضًا إلى التهكم والسخرية من ذلك الإنسان عندما يخيب أمله ببقاء هذا الذي آثره بزواله بمفارقة الروح للجسد ، بل ومن كلّ إنسان يؤثر الدنيا الفانية ويترك الآخرة الباقية.

قال الفخر الرازي : "ولعلّه إنّما سمّي اليقين هاهنا بالظنّ ، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقًا ببدنه ، فإنّه يطمع في الحياة لشدّة حبّه لهذه الحياة العاجلة ، ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظنّ الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعلّه سماه بالظنّ على سبيل التهكم"(٢).

إن الآيات الكريمة بما فيها من وصف لحالة الاحتضار ، وتذكير للإنسان بالموت الذي لا محيد عنه ، ولا بد من تجرع مرارته ــ تسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، وتردع أصحاب القلوب الواعية ، المتطلعة إلى ما عند الله ﷻ من ثوابٍ عن محبة الدنيا وتمنعهم من الركون

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن،٣٧٧٢/٦.

(٢)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب،٢٠٤/٣٠ ،وانظر: ابن عادل،اللباب ٥٧١/١٩، البروسوي ، روح البيان ،١٢٣/١٠، الألوسي، روح المعاني،١٤٧/٢٩ .

إليها وإيثارها على الآخرة ، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ بالإكثار من ذكر الموت ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال :" أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ"(١).

دور المثل القرآني في الرّدع عن حبّ الدُّنيا

وقد كان للأمثال القرآنية أثرها البارز في الرَّدع عن حبّ الدنيا والاغترار بها ؛ فقد ضرب الله ﷻ المثل للدنيا في سرعة زوالها ، وانقراض نعيمها ، بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز ، ومن ذلك قوله ﷻ :﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[يونس: ٢٤].

ويبدأ هذا المثل القرآني بصيغة القصر؛ "لتأكيد المقصُود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء ، ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدُّنيا ؛ لأنّ حالهم في الانكباب على نعيم الدُّنيا كحال من يحسب دوامه، وينكر أن يكون له انقضاءٌ سريع ومفاجئ "(٢).

لقد أبرز المثل في هذه الآية الكريمة حقيقة الحياة الدُّنيا ، وكشف عن الحال التي تؤول إليها؛ إذ شبَّه حال الدُّنيا في روعتها وبهجتها ، وتزيُّنها في عين الناظر، وميله إليها واغتراره بها ، بغيث نزل من السماء ، فنبت بذلك الغيث أنواعٌ من النبات ، المختلطُ بعضه ببعض مما يأكل

---

(١)سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في ذكر الموت ،(٢٣٠٧)،٥/٥٥٣.قال:هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وقد ورد عند الطبراني بلفظ (هادم) بالدال.[انظر: الطبراني ،أبو القاسم سليمان بن أحمد، (٣٦٠هـ) المعجم الأوسط ،تحقيق : طارق بن عوض الله ،عبد المحسن الحسيني،دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥هـ، ١ / ٢١٣.].

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١١/١٤١.

النّاس ، وما يأكله الأنعام ، ثم يأتيها أمر الله ﷻ ، فتصبح حصيدًا يابسًا ، تطيره الرياح، وتذهب به في كلّ اتجاه، وتعود الأرض على حالها الأولى، كأن لم ينبت فيها نبت قط ، وهذه هي الدنيا في كامل زينتها، وأبهى حلتها، وأجمل بهجتها ، كما قال عزّ من قائل: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]

ومما لا شك فيه أن تشبيه الحياة الدُنيا بما يقارنها من الزينة السريعة الزوال والتي يلحظها كلُّ ناظر يردع العاقل المتدبر عن الغرور بها، ويكفُّه عن محبتها، وإيثارها على الآخرة.

هذا ؛ وليس المقصود من كلّ ما تقدّم ترك الحياة الدُنيا بالكلية، والبعد عنها تمامًا ، وإنما المقصود هو عدم اتخاذها غاية بحدّ ذاتها ، فما هي إلا محلُّ تزوُّد للآخرة ، وطريق إليها، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٧] .

فالدنيا كما يظهر من الآية الكريمة أهم من أن تُنسى ؛ لأنه لا يُسلك إلى الآخرة إلا من طريقها، ولكنَّها في الوقت نفسه أتفه من أن تكون غاية في حدّ ذاتها ؛إذ هي فانية لا محالة ، وقد بيّن ﷻ عاقبة مَن طلب الدُنيا ، وجعلها المقصودةَ بالذّات ، وعاقبة مَن طلبها وأراد من ذلك التوصل إلى سعادة الآخرة ، قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨ – ١٩].

المطلب الثاني :

الردّع عن الانشغال بالتكاثر عن العمل للآخرة

إنّ حبّ الإنسان للدنيا وتعلُّق قلبه بها يُشغِله بما لا يهمه من التنافس في متاعها الزائل عمّا يعنيه ويهمه من صالح الأعمال المنجية من عذاب الله ﷻ وأليم عقابه في الآخرة ، ولهذا ردع القرآن الكريم عن الاشتغال بالتكاثر عما ينفع في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ١ – ٨].

مناسبة السورة لما قبلها

هذه السورة الكريمة لها صلة وثيقة بسورة القارعة والتي جاءت في ترتيب المصحف قبلها ، فلما عرضت سورة القارعة لبعض أهوال القيامة وأحوالها، وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء حسب أعمالهم ، فكأنّ سائلاً سأل عن عِلّة شقاء أولئك الأشقياء وسبب عذابهم ، فجاءت هذه السورة تبيّن العِلّة ، وتبرز السبب الذي يجر الإنسان إلى الشقاء والهوان في الدنيا والآخرة ، وتردع عنه.

قال البقاعي :" لما أثبت في القارعة أمر الساعة ، وقسّم النّاس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي ، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول"(١)؛ وهم السعداء في الدّنيا والآخرة.

وهذا ما أورده الخطيب الشربيني(٢)، وأوضحه السيوطي بقوله : " هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها، كأنه لما قال هناك: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [القارعة:٩] قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فاشتغلتم بدنياكم ، وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام"(٣).وهذه الأقوال تؤكد صلة السورة بالسورة التي قبلها.

عموم الخطاب في السورة

وقد بدئت السورة الكريمة بهذا الخبر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾، وقد خرج هذا الخبر عن حقيقته إلى التقريع والتوبيخ والتذكير(٤)، والخطاب لكل من لها بالتكاثر وتشاغل به عن الطاعة ، والاستعداد للآخرة في كلّ زمان ومكان ، قال ابن القيم : "قوله:﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف ، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله ﷻ"(٥).

ونقل ابن حجر العسقلاني عن ابن بطال في تعليل عموم الخطاب قوله : " قال ابن بطال وغيره: قوله : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾خرج لفظ الخطاب على العموم ؛ لأن الله ﷻ فطر النّاس على

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر، ٥١٦/٨.

(٢) انظر: الخطيب الشربيني ، السراج المنير ، ٦٧٥/٤.

(٣) السيوطي ، أسرار ترتيب القرآن ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام ـ القاهرة، ١٥٧.

(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ،٥١٨/٥، ابن جزي الكلبي ، التسهيل ،٢١٦/٤.

(٥) ابن القيم، بدائع التفسير ،٣٦١/٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، دار ابن كثير ـ دمشق ، دار التراث، المدينة المنورة ـ السعودية ، ط٣، ١٩٨٩م، ١٩٢.

حب المال والولد ، فلهم رَغبَة في الاستكثار من ذلك ، ومن لازم ذلك الغفلة عن القيام بما أُمِرُوا به حَتَّى يَفْجَأهُمْ الموت"[١].

وقد ذهب ابن عاشور إلى أنّ الخطاب خاص بفريق من المشركين ، وهم سادتُهم وأهلُ الثراء منهم ، بقرينة غلظة الوعيد في السورة ، ولأن ما ذكر فيها ليس من خُلق المسلمين يومئذ[٢].

ولست معه فيما ذهب إليه ؛ لأنّ غلظة الوعيد لا تكفي في حمل الخطاب على المشركين عامة فضلاً عن حمله على فريق منهم في عصر النبي ﷺ ، وإنما جاءت غلظة الوعيد مناسبة لشدة ميل النفوس إلى التكاثر ورغبتها فيه ، ثم إنّ التلهي بالتكاثر لا ينحصر في زمان معين ، ولا مكان معين ، ولا في فئة دون أخرى ، بل إن كثيرًا من المسلمين يُلهيهم التكاثر عن أداء فرائض الله ﷻ ، ويوقعهم في معصيته ، وهذا مما خشيه النبي ﷺ على أمته ، فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال :" ما أخشى عليكم الفقر ولكنّي أخشى عليكم التكاثر ، وما أخشى عليكم الخطأ ، ولكنّي أخشى عليكم التّعمد"[٣].

قال ابن القيم : "هذه السورة مع عظم شأنّها ، وشدّة تخويفها ، وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهي ، وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ، وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلّها إلى أنْ زار القبور ، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ، بل أرقد التكاثرُ قلبَه فلم يستفق

---

(١)ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٥٩م، ٣٧٥/١١ .

(٢) انظر: ابن عاشور ،التحرير والتنوير ،٣٠/ ٥١٨ ـ٥١٩.

(٣) الحاكم ،المستدرك على الصحيحين ، برقم (٣٩٧٠) ،٥٨٢/٢ ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، الهيثمي ، مجمع الزوائد ،٣٠٤/٣، ١٠/٤١٠، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

منه إلا وهو في عسكر الأموات ، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبيَّن لك أن العمـوم مقصود"[١].

معنى الإلهاء

والإلهاء : الصرف إلى اللهو، يُقال : لها بكذا : أي : اشتغل به ، ولها عن كذا : إذا تشاغَل وغفَل به عن غيره. وكل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك[٢] .

واللهو عند الراغب الأصفهاني : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، يقال : ألهاه كذا؛ أي: شغله عمَّا هو أهم إليه . ويعبر به عن كل ما به استمتاع [٣].

وهو عند الفخر الرازي: " الانصراف إلى ما يـدعو إليــه الهـوى" . قـال: "ومعلـوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي الإعراض عن غيره"[٤].

وعلى هذا يمكن القول أنّ كلَّ ما يُشغل الإنسان عما يعنيه ويصرفه عما يهمه من الخير فهو من اللهو الذي يدعو إليه الهوى.

وإنّما جيء بلفظ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾دون شغلكم ؛ لأنه أبلغ في الذم ، ذلك أنّ الإنسان قـد يـشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاه به ، بينما اللهو ذهول وإعراض عن الشيء بالجوارح والقلب معًا[٥].

---

(١)ابن القيم: بدائع التفسير،٣/٣٦٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، دار ابن كثير ـ دمشق ، دار التراث، المدينة المنورة ـ السعودية ، ط٣، ١٩٨٩م، ١٩٣.

(٢) ابن فارس،معجم مقاييس اللغة،٥/١٧١-١٧٢، ابن منظور، لسان العرب،مادة(لها) ١٥/٢٥٨.

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات، ٤٥٩،٤٥٨.

(٤) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،٣٢/٧٤.

(٥)ابن القيم : بدائع التفسير ،٣/٣٥٤، الفوائد ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢،١٩٧٣م ،٣٠.

المراد بـ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ لغة: تفاعل من الكثرة خِلاف القِلّة. ونماءُ العَدَدِ، يُقال: كَثُرَ الشيءُ ، يَكْثُرُ كَثْرَةً، فهو كثيرٌ [(١)]. وفي عمدة الحفاظ : هو المغالبة في الأشياء الدنيوية [(٢)].

وذكر الفخر الرازي أن التفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة :

الأول : أن يكون بين اثنين فأكثر ، فيكون من باب المُفَاعَلَة .

الثاني : أن يكون من فاعل واحد لكن على سبيل التَكَلُّف ، تقول : تكارهت على كذا ، إذا فعلته وأنت كاره ، وتعاميت عن كذا ، إذا تكلفت العمى عنه .

الثالث : أن يُراد به مطلق الفعل ، كما تقول : تباعدت عن الأمر أي بعدت عنه .

ثُمَّ قال :" ولفظ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين : فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة ؛ لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه:﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤] ، ويحتمل تكلف الكثرة ؛ فإن الحريص ـ مثلاً ـ يتكلف جميع عمره تكثير ماله"[(٣)].

فالإنسان قد يُبالغ في تنمية شيء دنيوي مرغوب فيه ، ويُسابق غيره في الاستزادة منه وتكثيره ، وقد لا يُسابقه ، وربما يُفاخر بالجاه ، أو بالأولاد وكثرة الأموال ، أو بغير ذلك من الأشياء الدنيوية المُلهية عن طاعة الله ﷻ ، وربما جمع بين تكلُّف الكثرة وبين التفاخر .

وقد أحسن ابن القيم إذ حمل لفظ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾على العموم والشمول لكل ما يتكثّر به الإنسان أو يُكاثر به غيره سوى طاعة الله ﷻ ، وعبارته :" وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (كَثُرَ)،٥/١٣١ ، الزبيدي ، تاج العروس، مادة (كَثُرَ)، ١٤/١٧.

(٢) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ ، ٣/٣٧٧.

(٣)الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،٣٢/٧٢.

وعمومه، وأنّ كل ما يُكاثِرُ به العبد غيره سوى طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، وما يعود عليه بنَفع معَاده فهو داخل في هذا التكاثر.

فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم ، ولا سيّما إذا لم يحتج إليه"[١] ، وهذا ما قاله الفخر الرازي[٢]، وعبد الرحمن السعدي في تفسيره[٣].

وذُكِر أن التكاثر إنما هو في الأموال والأولاد ، لقولـه ﷻ : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠][٤].

ولعلّ تخصيص الأموال والأولاد بالذكر في هذه الآية ؛ لأن الإنسان أشدُّ حرصًا على المال والولد وأكثر تعلقًا بهما من غيرهما ، ولأن الإلتهاء والانشغال بهما أكثر من الإلتهاء والانشغال بغيرهما، وهذا ــ فيما أرى ــ لا يمنع حمل لفظ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ على العموم.

والتعريف في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ليس للاستغراق ، بل للعهد الذهني ، قال الثعالبي :" الألف والـلام في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ للمعهود السَّابق في الذِّهنِ ، وهو التكاثر في الدنيا ، ولذاتها وعلائقها ، فإنّه هو الذي يمنع عن طاعة الله ﷻ وعبوديَّتِه ، ولما كان ذلك مُقرَّرًا في العقول ومُتَّفَقًا عليـه فـي

---

(١)ابن القيم ، الفوائد ، ٣٠ ، وانظر له : عدة الصابرين، ١٨٣.

(٢)الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،٧٣/٣٢.

(٣)السعدي ،عبد الرحمن بن ناصرتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ط١، مؤسسة الرسالة ــ بيروت،٢٠٠٠م، ٩٣٣.

(٤) انظر: عطية سالم ، تتمة أضواء البيان ،٧٧/٩.

الأديان ، لاَ جَرَمَ حَسُنَ دخولُ حرف التعريف عليه ، فالآية دالة على أن التكاثرَ والتفاخرَ بمـا ذُكِرَ مذمومٌ"[١].

وفي حذف الملهي عنه دلالة على التعظيم والمبالغة في الذم ؛ أمّا التعظـيم فـلأنَّ الحـذف كالتنكير قد يجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام .

وأما المبالغة في الذم ؛ فلأنّه أشار إلى أن ما يلهى مذموم ، فضلاً عن الملهـى عـن أمـر الدِّين[٢].

وفيه أيضًا إشعار بالتعميم ؛ أي: شغلكم التكاثر عن كلِّ ما يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله ﷻ ، والتزود للآخرة ، من ذكرِ لله ﷻ ، وقراءة للقرآن ، وأداء للفرائض والمندوبات ، إلى غير ذلك من أنواع القربات والطاعات[٣].

مما تقدم يظهر أنَّ التكاثر المذموم هو التكاثر في متاع الدنيا الزائل ولذّاتها الفانية ، والملهي عما يُقرب إلى الله ﷻ ، وهذا ما يردع عنه القرآن الكريم .

غاية التكاثر إلى زيارة المقابر

لقد ألهاهم التكاثر عن التزود للدار الآخرة بصالح الأعمال إلى أن زاروا المقابر، وللمفسرين في قوله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ قولان :

أحدهما : أن غاية التكاثر ذكر الأموات ، والذهاب إلى القبور لعدِّهم ،؛ فالغاية للمتكاثَر بـه وهذا القول مبني على ما قيل في سبب النزول ، وهو أن أقوامًا افتخروا وتكاثروا بما عنـدهم من العدد ، حتى ذهبوا إلى المقابر وتفاخروا بالأموات .

---

(١) الثعالبي ، الجواهر الحسان ، ٤٣٨/٤، وانظر :البروسوي، روح البيان، ٥١٤/١٠.

(٢) الخطيب الشربيني، السراج المنير، ٦٧٦/٤،الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيـضاوي، ٥٥٧/٩ ، البروسـوي، روح البيان، ٥١٤/١٠، الآلوسي، روح المعاني ، ٢٢٤/٣٠.

(٣) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤٨٨/٥.

ولم يُتفق على تحديد أولئك الأقوام ؛ فعن مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش : بني عبد مناف ، وبني سهم . وعن قتادة : نزلت في اليهود . وعن أبي بُرَيْدة: نزلت في فخذ من الأنصار(١).

والثاني : أن غاية التكاثر انتهاء الأجل ، والدفن في المقابر ؛ فالغاية للمتَكاثِر ، وقد اختار هذا المعنى غير واحد من المفسرين ، وعلى رأسهم شيخ المفسرين الإمام الطبري(٢) .

ويتراءى لي أنّ هذا هو الظاهر؛ لأنَّ التلهي بالتكاثر غيرُ مقتصرٍ على تعداد الآباء والأجداد، فضلاً عن أن التكاثر بالموتى لا يلزم فيه الذهاب إلى المقابر ، هذا إذا أُخذ لفظ الزيارة بمعناه الحقيقي ، وأما إذا حُمل على المجاز فهو كما قال أبو حيان :"معنى ينبو عنه لفظ :﴿زُرْتُمُ﴾"(٣)، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الإنسان حريص على التكاثر إلى أن يموت .

قال ابن كثيرٍ: والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ؛ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعرَابِيٍّ يَعُودُهُ ، فقال: "لا بَأسَ ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ". فقال: قُلْتُ : طَهُورٌ ؟! بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ ، تُزِيرُهُ القُبُورَ ! فَقَالَ ﷺ:" فَنَعَمْ إِذًا"(٤).

حيث استعمل الأعرابي ــ في قوله : تُزِيرُهُ القُبُورَ ــ لفظ الزيارة بمعنى الموت.

---

(١) انظر: الماوردي، **النكت والعيون** ،٦/٣٣٠، الثعلبي ، **الكشف والبيان** ،١٠/٢٧٦ــ٢٧٧، الواحدي ، **أسباب النزول**، ٣٠٥، القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن**، ٢٠/ ١١٥، ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ٤/٥٤٨.

(٢) انظر: الإمام الطبري ، **جامع البيان** ،٢٤/٥٧٩، السمرقندي ، **بحر العلوم** ،٣/٥٨٨، ابن أبي زمنين ، **تفسير القرآن العزيز**، ٥/١٥٨، الثعلبي ، **الكشف والبيان** ،١٠/٢٧٧.

(٣)أبو حيان ، **البحر المحيط** ،٨/٥٠٧.

(٤)ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٤/٥٤٨.والحديث رواه البخاري ، كتاب المرضى ، باب عيادة الأعراب ، (٥٣٣٢) ، ٥/٢١٤١.

ومما يدل على أن الزيارة بالموت لا بالعدّ قول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حينما قرأ هذه الآية: "ما أرى المقابر إلا زيارةً، وما للزائر بُدٌّ مِنْ أن يرجع إلى مَنْزِلِهِ"[١]؛ فقوله هذا مبني على أن المراد من الزيارة الموت .

والتعبير بلفظ ﴿زُرۡتُمُ﴾ فيه دلالة على البعث والنشور؛ فالإقامة في القبر ليست مستمرة ، وإنما هي مؤقتة بوقت يعلمه الله ﷻ ، وما الميت في القبر إلا كالزائر عند مزوره ، يمكث فيه مُدَّةً ثُمَّ يُخرَجُ منه إلى العرض والحساب[٢].

فاستعمال هذا اللفظ "صريح الإيحاء بأن الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة ، وإنما نحن فيها زائرون ، والزائر غير مقيم ، وسوف تنتهي الزيارة حتمًا إلى بعثٍ وحساب وجزاء ، وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ ﴿زُرۡتُمُ﴾عن غيره ، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر"[٣].

هذا من حيث اللفظ ، أما صيغته وهي الماضي فهي أبلغ وأوكد في تحقق الوقوع[٤]، وكأن الموت قد فاجأهم وهم على تلك الحال ، وهو الوحيد الذي يقطع تلهيهم بالتكاثر.

و﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾ جمع مقبرة ، وهي مجتمع القبور ... واستعمال هذا اللفظ هنا ملائم معنويًا لهذا التكاثر ، دال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فانٍ ... هناك حيث مجتمع القبور ومحتشد الرمم ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم ، وطبقاتهم ، ودرجاتهم ، وأزمنتهم، وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور. ويتجلى إيثار البيان القرآني ﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر به المتكاثرون ،

---

(١)السيوطي ،الدر المنثور،٦١١/٨.

(٢) انظر: ابن تيمية ، التفسير الكبير، ط٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨م، ٣٥/٧ ، البقاعي ، نظم الدرر، ٤١٧/٨ ، الألوسي ، روح المعاني، ٢٢٤/٣٠.

(٣) بنت الشاطئ ، عائشة عبد الرحمن ، التفسير البياني للقرآن الكريم ،ط٥، ١٩٧٧م، ٢٠٠/١.

(٤)الألوسي ، روح المعاني، ٢٢٤/٣٠، الخطيب الشربيني،السراج المنير، ٤٢٦/٤، ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٥٢٠/٣٠.

وحين يلفت إلى مصير هذه الحشود من ناس يلهيهم تكاثرُهم عن الاعتبار بتلكم المقابر التي هي مجتمع الموتى ومزار الراحلين الفانين[١].

اقتران ﴿ كَلَّا ﴾ بالوعيد الشديد

وبعد التوبيخ والتقريع الذي استعمل فيه الخبر تـأتي" أم الـرَّوادع ، وجامعـة الزَّواجـر والصوادع"[٢]: ﴿ كَلَّا ﴾ ؛ لتردع الإنسان عن التلهي بالتكاثر والاشتغال بالمنافع الدنيوية العاجلة ولذّاتها الفانية التي يعقبها حسرة وندامة ؛ ليُنافس هذا الإنسان ويُكاثر بالعمل الصالح الذي تزكو به نفسُه ، ويدوم عليه نفعه ، ويُعلي منزلته ، ويُحقِّق سعادته في الـدار الآخـرة ،﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٦].

فهذه هو التنافس الحقيقي ، وهذا هو التكاثر المحمود ؛ فهو " تكاثر لا يزال يُذكِّر بـالله ﷻ وبنعمه ، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى ، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً ، وأحسن منه عملاً ، وأغزر منه علمًا ، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحوقه فيها كاثره بخصلة أخرى ، وهو قـادر علـى المكاثرة بها ، وليس هذا التكاثر مذمومًا ، ولا قادحًا في إخلاص العبد ، بل هو حقيقة المنافسة، واستباق الخيرات"[٣].

وللمفسرين في تفـسيرهم لقولـه ﷻ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ قولان:

---

(١) بنت الشاطئ ، التفسير البياني للقرآن الكريم ، ٢٠١/١.
(٢) البقاعي ، نظم الدرر، ٤١٧/٨.
(٣) ابن القيم ،عدة الصابرين، ١٩٣ ــ ١٩٤.

أحدهما: إنه تكرير للتأكيد، و﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول وأشدّ ، قال ابن عطية : "وهذا تأويل جمهور الناس"[١]، وكذا قال أبو حيان[٢]، والثعالبي[٣].

والثاني: إنه غير مكرّر، بل هو تأسيس جديد ، و﴿ ثُمَّ ﴾ على ظاهرها من المهلة ، قال ابن عباس رضي الله عنه :"﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ما ينزل بكم من العذاب في القبر﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب "[٤]، فالعلم الأول في القبر، والثاني بعد البعث والنشور.

وبنحو هذا قال السمرقندي[٥] [٦].

وعن زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما زلنا في عذاب القبر، حتى نزلت ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾"[٧].

قال الفخر الرازي: "وإنما قال: ﴿ ثُمَّ ﴾ لأن بين العالمين والحياتين موتا"[٨].

وهذا ما تطمئن إليه النفس ؛ وذلك لما يلي:

أولاً : لأن التأسيس أولى من التأكيد ، إذ هو الأصل ؛ فالآية الأولى تضمنت الرّدع ، والوعيد والتهديد بعذاب القبر، وهو أول منازل الآخرة ، والثانية فيها المبالغة في الـرّدع ، والوعيد والتهديد بنوع آخر ، وهو أهوال القيامة، من بعث وحشر وعرض وسؤال إلى غير ذلك من أهوال القيامة ، وهذا أشدُّ من الأول.

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز ، ٥/٥١٨ ـ٥١٩.

(٢) انظر: أبو حيان ،البحر المحيط، ٨/٥٠٨.

(٣)انظر:الثعالبي ، الجواهر الحسان، ٤/٤٣٩.

(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/١١٨، ابن عادل ، اللباب ، ٢٠/٤٧٩.

(٥)هو: نصر بن محمد بن احمد بن ابراهيم ابو الليث، الامام الفقيه المحدث الزاهد. من تصانيفه كتاب النوازل في الفقه، وبستان العارفين ، وبحر العلوم في التفسير. توفي (٣٧٥هـ) .[الزركلي ،الأعلام،٨/٢٧].

(٦) السمرقندي، بحر العلوم ،٣/٥٨٨.

(٧) الإمام الطبري،جامع البيان،٢٤/٥٨٠، ابن أبي حاتم ، تفسير ابن أبي حاتم، ١٠/٥٩.

(٨) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ، ٣٢/٧٥.

ثانيًا: لأن حرف العطف ﴿ ثُمَّ ﴾ والذي توسط بينهما، يدل بوضعه اللغوي على الترتيب مع التراخي ، وهذا يدل على أن بين المعطوف والمعطوف علية فترة من الزمان، وفي هذا دلالة على أن الثاني غير الأول[١].

وقد حُذف مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في الموضعين ، وفائدة حذفه إثارة مشاعر الخوف والرهبّة في النفوس ، قال ابن جزي الكلبي:" وإنّما حذفه لقصد التهويل ، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله"[٢].

وبعد ذلك تأتي ﴿ كَلَّا ﴾ لزيادة الرّدع عن التلهي بالتكاثر وتأكيده ، إذ هو أساس كل شرّ وبلاء، وقد أوضح الفخر الرازي حُسن إعادتها، فقال : " وأعاد لفظ ﴿ كَلَّا ﴾ وهو للزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنّه عقّبه في كلّ موضع بغير ما عقّب به الموضع الآخر، كأنّه قال : لا تفعلوا هذا ، فإنكم تستحقون به من العذاب كذا ، لا تفعلوا هذا ، فإنكم تستوجبون به ضررًا آخر"[٣].

وهذا ما ذكره القرطبي[٤] ، وابن عادل[٥] [٦].

وقال ابن القيم مبينًا حُسن موقعها في هذه السورة :" ومن تأمل حُسن موقع ﴿ كَلَّا ﴾ في هذا الموضع ، فإنها تضمنت ردعًا لهم ، وزجرًا عن التكاثر ، ونفيًا وإبطالاً لما يُؤملونَه من نفع التكاثر لهم ، وعزّتهم وكمالهم به ، فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا"[٧].

---

(١) انظر: ابن القيم ، بدائع التفسير، جمع وتوثيق: يسرى السيد محمد، ط١، دار ابن الجوزية، السعودية، ١٩٩٣م ، ٣١٢/٥ ، حبنكة الميداني ، معارج التفكر ،٦٧٣/١.

(٢)ابن جزي الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل** ، ٢١٦/٣.

(٣) الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب** ،٧٦/٣٢.

(٤) انظر: القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ،١١٨/٢٠.

(٥) هو: عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير المسمى:اللباب في علوم الكتاب ، توفي بعد (بعد ٨٨٠ هـ)، [الزركلي ، **الأعلام**، ٥/ ٥٨،الأدنروي، **طبقات المفسرين**، ٤١٩].

(٦)انظر: ابن عادل ، **اللباب** ، ٤٨١/٢٠.

(٧) ابن القيم، **بدائع التفسير** ، ٣٢٠/٥.

المتلهي بالتكاثر ليس على شيء من العلم اليقيني

ولما كانت عادة الغافلين أنهم إذا ذُكِّروا بالحقِّ، وبعواقب ما هم فيه .. زعموا أنهم ليسوا بحاجة إلى التذكير والإرشاد ؛ لأنهم يفعلون ما يفعلون عن يقظة وعلم بعواقب ما هم فيه ، جاء التنبيه على أنهم ليسوا على شيء من ذلك[1]، فقال ﷻ : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ وفيه تفخيم وتهويل ، وهذا ما يفيده حذف جواب ﴿لَوْ﴾ ، إذ يجعل النفوس تذهب فيه كلَّ مذهب ممكن ، قال ابن تيمية :" فهذا إشارة إلى علمهم في الحال ، والخبر محذوف؛ أي : لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمرًا عظيمًا، ولألهاكم عما ألهاكم ، فإن الإلتهاء بالتكاثر، إنَّما وقع من الغفلة وعدم اليقين ، كما قال ﷻ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، ومثل قول النبي ﷺ :" لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا".

وحَذْفُ جواب (لو) كثير في القرآن ، تعظيمًا له وتفخيمًا ، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ ، إذ المخبر ليس كالمعاين"[2].

والعلم : إدراك الشيء بحقيقته . واليقين : من صفة العلم ، فوق المعرفة والدراية وأخواتها، وهو أعلى مراتب العلم ، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[3].

فعلم اليقين[1]: هو العلم الثابت الذي لا شك فيه ، فلو كان علمهم علم يقين لارتدعوا عن التكاثر المذموم ، وبادروا إلى الاستعداد للآخرة بفعل ما هو فوق الوصف ، ولكنهم ليسوا على شيء من العلم الصحيح.

---

(١)انظر: محمد عبده ، **تفسير جزء عمّ**، دار ومكتبة الهلال ــ بيروت، ١٩٨٥م ،١٥٣.

(٢)ابن تيمية ، **التفسير الكبير** ،٧/٣٥-٣٦ ، والحديث في الصحيحين: **صحيح الإمام البخاري**، كتاب النكاح، باب الغيرة (٤٩٢٣)، ٥/٢٠٠٢، **صحيح الإمام مسلم** ، كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف(٩٠١) ،٢/٦١٨.

(٣)الراغب الأصفهاني، **المفردات** ، ٥٥٣،٣٤٧، ابن عطية، **المحرر الوجيز**،٥/٥١٩.

الوعيد بحال رؤية الجحيم

ثمَّ يجيء تأكيد رؤية الجحيم :﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

لقد بدئت الآيتان باللام الواقعة في جواب قَسَم محذوف ، والقَسَم أكد به الوعيد وشدّد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه بالحذف تفخيمًا وتعظيمًا. ولا يجوز أن يكون قوله ﷻ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ ؛ لأنَّ جوابها يكون منفيًا ، ورؤية الجحيم مثبتة ومحققة الوقوع [٢]، فلو كان جوابًا لها لكانت رؤية الجحيم مشروطة بعلمهم ، وهذا غير صحيح.

فالجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأن ما سبقه من الرّدع والزّجر ، ومن الوعيد المؤكّد على إجماله يثير سؤالاً عما يُترقب من هذا الرّدع والوعيد الشديد ، فكان قوله ﷻ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جواباً عن ذلك[٣].

وقد جاءت الرؤيا الأولى مطلقة ، بينما الثانية مقيدة بـ﴿ عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ، وقد اختُلِفَ في المراد منهما، على قولين:

أحدهما: أنّ الثانية تكرار للأولى معطوفة بـ﴿ ثُمَّ ﴾ تغليظًا في التهديد وزيادة في التهويل[٤].

---

(١) الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: أن علم اليقين هو إدراك الشيء من غير مشاهدة ، وعين اليقين الرؤية التي هي العلم مع المشاهدة ، أما حق اليقين فهو: المشاهدة مع الملاصقة.[انظر: الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين، ٣٤٧/٤].

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل،٥٢٤/٥ ، أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ١٩٦/٩، الألوسي ، روح المعاني، ٢٢٥/٣٠ ، القاسمي، محاسن التأويل ،٣٧٩/٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ٣٠ /٥٢٢.

(٤) انظر:الزمخشري ، الكشاف ،٧٩٩/٤، أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ١٩٦/٩، الألوسي ، روح المعاني،٢٢٥/٣٠.

والثاني: أنّه ليس تكرارًا، بل الرؤيا الثانية غير الأولى، ثم اختلف في المراد منهما؛ فذُكر أنّ الرؤيا الأولى: رؤيتها من مكان بعيد. والثانية : رؤيتها من قريب إذا وصلوا شفيرها[١]. وذُكر أنّ الأولى: رؤيتها في القبور. والثانية: رؤيتها بعد البعث والنشور[٢].

أمّا القول الأول ، فقد ذكرت أنّ التأسيس الجديد أولى ، إذ هو الأصل ، وأن الفصل بين الجملتين بحرف العطف بـ﴿ ثُمَّ ﴾ يفيد الترتيب مع التراخي ، وفي هذا دلالة على أن زمان الرؤيا الثانية متأخر عن الرؤيا الأولى .

وأما القول الثاني فالراجح مما ذُكر ــ والله ﷻ أعلم ــ أنّ الرؤيا الأولى بعد الموت ، قال الخازن[٣]عند تفسيره لقوله ﷻ:﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ :"والمعنى: أنَّكم ترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت"[٤]

ويُستأنس لهذا بما جاء في الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَالْجَنَّةُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَالنَّارُ. قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي تُبْعَثُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[٥].

فهذا الحديث يدل على أن الميّت يُعرَض عليه مقعده من النّار، ولعلّ هذا يتضمن رؤيته لها ، وفي هذا تعجيل للعذاب والتّحسر والندم والحزن .

---

(١)انظر:البغوي، **معالم التنزيل**، ٥١٨/٨ -٥١٩، النيسابوري القمي، **غرائب القرآن** ، ٥٥٦/٦ ، ابن عادل ،اللباب ، ٤٨١/٢٠.

(٢) الخازن، **لباب التأويل**، ٢٨٧/٧، ثناء الله الهندي ، **تفسير المظهري** ، ٣١٥/١٠.

(٣) هو:علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي علاء الدين ،المعروف بالخازن ،عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية، ولد ببغداد، وسكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسة السميساطية فيها ، توفي بحلب عام (٧٤١هـ).[الزركلي ، الأعلام،٥/٥،الأدنروي، طبقات المفسرين،٢٦٧].

(٤) الخازن، **لباب التأويل**، ٢٨٧/٧.

(٥) **صحيح الإمام البخاري** ، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت،(٦١٥٠)،٢٣٨٨/٥ ، **صحيح الإمام مسلم**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ،(٢٨٦٦)٢١٩٩/٤، واللفظ له.

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَبِيُّ ﷺ قَالَ:إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ ، قَالَ : يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا"[١].

وهذا الحديث يدل على أن المؤمن يرى مقعده من النّار والذي أبدله الله ﷻ به مقعدًا من الجنّة، وفي هذا تعجيل المسرّة له ، فيزداد فرحًا ورضًا.

وأمّا الرؤيا الثانية فسوف تكون بعد البعث والنشور، قال ثناء الله الهندي:" ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ، يعني : لترونّ الجحيم بعد النشور"[٢].

وقال حبنكة الميداني بعد أن ذكر أن الرؤيا الأولى ما يُعرض بعد الموت ، وفي مدة البرزخ : وتمتاز هذه الرؤية ــ المتأخرة ــ بأنها تفيدهم العلم من مرتبة (عين اليقين) إذ هو عِلمٌ قائم على الشهود والمعاينة "[٣].

وبهذا تتطابق الآيتان مع قوله ﷻ:﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

الوعيد بالسؤال عن النعيم

ولمزيد من الرّدع عن التلهي بالتكاثر يُخبر ﷻ أنّهم يُسألون يوم القيامة عن النعيم الذي كانوا يتمتعون به، فيقول ﷻ :﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ ، وهذا السؤال جاء مؤكدًا باللام والنون ، فلا مجال فيه للشك ، ولا بدّ من السؤال عن كلّ ما يصدق عليه أنّه نعمة ، قال الإمام

---

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر،(١٣٠٨) ،١/٤٦٢، صحيح الإمام مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٠)،٤ / ٢٢٠٠] ، واللفظ له.

(٢) ثناء الله الهندي، تفسير المظهري ، ١٠/٣١٥.

(٣) حبنكة الميداني ، معارج التفكر ،١/٦٨٠.

الطبري: "يقول ﷻ : ثم ليسألنّكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه ؟ من أين وصلتم إليه ؟ وفيم أصبتموه ؟ وماذا عملتم به" ؟[١]

وقال قتادة : "إن الله ﷻ سائل كلّ عبد عما استودعه من نِعَمه وحقه"[٢].

فالسؤال عن النّعيم محقّق . والمُتَكاثَرُ به من النّعيم ، والتلهي به وعدم الاستعداد للجواب خسارةٌ أيما خسارة ، وتلافي تلك الخسارة لا يكون إلا بالارتداع والامتناع عن ذلك ، والتوجه إلى طاعة الله ﷻ ، واستعمال نِعَمه فيما أمر أن تُستعمل فيه ، ولهذا نهى الله ﷻ عباده المؤمنين عن أن تشغلهم الأموال والأولاد وتلهيهم عن طاعته ﷻ ــ إذ هما أكثر ما يتلهي به الإنسان وينشغل به ــ وأخبر أن من وقع في ذلك فهو من الخاسرين ، فقال عزّ من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون: ٩].

وقد أثنى الله ﷻ على أصحاب الهمم السامية ، والعزائم العالية الذين لم تلههم دنياهم عن آخرتهم ، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن أداء حقّ الله ﷻ ، وعن إعمار المساجد ، التي هي مواطن عبادة الله ﷻ في أرضه بالصلاة وغيرها ، فقال ﷻ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٦ -٣٧].

---

(١)الإمام الطبري ، جامع البيان، ٢٤ / ٥٨١.

(٢)أخرجه الإمام الطبري ، جامع البيان،٢٤ /٥٨٦.

المطلب الثالث:

الردع عن الظن أن الإنعام علامة إكرام وأن المنع علامة إهانة

يتفاوت النَّاس في معايشهم وحظوظهم الدنيوية ، فمنهم مُوسَّع عليه ومنهم دون ذلك ؛ فقد وسَّع الله ﷻ على بعضِ خلقِه فأعطاهم ما أعطى ، وجعل آخرين دونهم ، وهذا التفاوت سنة من سنن الله ﷻ ، لا يستطيع أحدٌ تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه.

وقد بيَّن القرآن الكريم أن كثيرًا من أفراد النوع الإنساني يعتقدون أنّ النِّعمة والسَّعَة دليل على الرِّضا والإكرام ، وأنَّ الضيق دليل على الإهانة والإذلال ، ثمَّ ردع عن هذا ، الاعتقاد الباطل، والقول الكاذب ، فقال ﷻ :﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ.. ﴿١٧﴾ ﴾[الفجر: ١٣ – ١٧].

صلة الآيات بما قبلها

هذه الآيات تتصل بالآية التي قبلها – ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ – اتصالاً وثيقًا ، وهذا ما ذكره الزمخشري[١]وتناقله مفسرون من بعده كالبيضاوي وغيره[٢]، وأكده النيسابوري القمي بقوله :" قال أهل النظم : لما ذكر أنَّه ﷻ بمرصد من أعمال بني آدم عقَّبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة ، وفرط تماديه في إصلاح المعاش ، كأنَّه قيل : نحن مترقبون لمجازاة

(١) انظر : الزمخشري ،الكشاف،٤/٧٥٢.

(٢) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل ،٥/ ٤٨٨، ابن عادل، اللباب،٢/٣٢٥، أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ٩/١٥٦، ، البروسوي، روح البيان،١٠/١٠٢ ، الألوسي، روح المعاني ،٣٠/١٢٥، الصاوي ،حاشية الصاوي على الجلالين،٤/٣١٥.

الإنسان على ما سعى ، فأما هو فإنَّه لا يَهمُه إلا الدنيا وطيباتها، فإنْ وجد راحة فرح بها ، وإن مسه ضرّ كند"[١]،أي: كفر النِّعمة.

ومما يدلُّ على كمال اتصال هذه الآيات بما قبلها مجيء فاء التفريع في قوله ﷻ:﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ، قال ابن عاشور: " دلت (الفاء) على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرع عليه لا محالة"[٢]. ومثل هذا ما ذكره حبنكة الميداني في تفسيره[٣].

لقد بينت الآية السابقة أن الله ﷻ بالمرصاد ، يرصد أعمال كلّ إنسان ، ويحصيها عليه، وسيجازيه بما يستحق، فكان الأجدر بهذا الإنسان أن يعمل على مراقبة الله ﷻ له ، وأن يسعى للآخرة ، وأن يُقدِّم لنفسه أفضلَ ما يقدِر عليه من صالح الأعمال ، لا أن ينسى الآخرة ويقبل على الدنيا الفانية ، بحيث لا يهمه منها إلا معرفة كيفية تحقيق رغباته وشهواته ، معتقدًا أن ما يناله فيها من نعمة وسَعَة هو التكريم من الله ﷻ ، وأن ما يناله من ضيق عيش هو الإهانة والإذلال ، لهذا جاء الرَّدع عن ذلك.

(أل) التعريف في﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

و(أل) في اللغة مفيدة للعهد أو للجنس ، وظاهر السياق يدل على أن (أل) في﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ جنسية لتفيد الاستغراق العرفي ، فهذه طبيعة أكثر أفراد النوع الإنساني، قال ابن جزي الكلبي:"و﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ هنا جنس ، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، وهي مع ذلك على العموم فيمن كان على هذه الصفة"[٤].

---

(١)النيسابوري القمي ،غرائب القرآن،٤٩٧/٦.

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٣٢٤/٣٠.

(٣) انظر:حبنكة الميداني، معارج التفكر،٥٣٣/١.

(٤)ابن جزي الكلبي،التسهيل لعلوم التنزيل،١٩٧/٤.

وقال أبو حيان:"و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اسم جنس ، ويوجد هذا في كثيرٍ من أهل الإسلام"(١).

معنى الابتلاء

والابتلاء لغة: الامتحان والاختبار، يُقال : بَلَوْتُ فلانًا بَلْوًا وبَلاءً وابْتَلَيْته: اخْتَبَرْته. وابْتَلاه الله ﷻ: امْتَحَنَه. والبَلاءُ يكونُ بالخير والنِّعمة كما يكون بالشرّ والحرمان ، يقال: ابْتَلَيته بلاءً حسنًا وبَلاءً سيِّئًا (٢).

وفي المفردات : "اختبار الله ﷻ للعباد تارة بالمسارّ ليشكروا ، وتارة بالمضارّ ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعا بَلاءً، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر" (٣).

فالنعمة وسعة الرزق بلاء، وضيق العيش وقلّة ذات اليد بلاء، ينتهي كلٌّ منهما إما بالنَّجاح وإما بالفشل ؛ أمّا النَّجاح فيكون بالشكر حال سعة الرزق ، أو الصبر حال قلّته، وأمّا الفشل فيكون بكفران المِنْحَة ، أو الجزع وعدم الصبر على المِحْنَة ، وبهذا تكون الحكمة في المِنْحَة والمِحْنَة واحدة ، كما قال ﷻ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ... ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال تعالى:﴿...وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والابتلاء إذا أُسند إلى الله ﷻ فلا يُحمل على الحقيقة ؛ لأنّ الابتلاء والاختبار لمن لا يعرف عواقب الأمور ، والله ﷻ مُنزه عن ذلك ، فهو ﷻ عليم بكلّ شيء ، وقدير على كلّ شيء ، ولذلك قالوا:﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُ﴾؛ أي : "عاملَهُ معاملةَ من يبتليهِ ويختبره بالغنى واليسار" (٤).

---

(١) أبو حيّان ، البحر المحيط، ٤٧٠/٨.

(٢) ابن منظور ، لسان العرب،مادة(بلو)،٨١/١٤.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٧١.

(٤)أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ١٥٦/٩،ابن عجيبة ،البحر المديد،٤٦٠/٨ ، البروسوي، روح البيان،١٠٣/١٠ ، الألوسي، روح المعاني ،١٢٥/٣٠-١٢٦.

وهذا بِلا ريب من عدل الله ﷻ ، إذ يُجازي عباده على ما عملوه ، لا علــى مــا عَلِمَــهُ ﷻ منهم.

و﴿إِذَا﴾ظرف يفيد وقوع الفعل المحكي عنه فيما يُستقبل من الزمان ، وهو متعلق بــ(يقول)، وهو على تقدير التأخير ، وهذا ما نصَّ عليه الزمخشري بقوله :" قولــه: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ، ودخول الفاء لِمَا في (أمَّا) من معنى الــشَّرط ، والظــرفُ المتوسِّطُ بين المبتدأ والخبرِ في نيةِ التأخيرِ، كأنه قيل: فأمَّا الإنسانُ فقائلٌ ربي أكــرمَنِ وقــتَ الابتلاء" (١).

وزاد أبو السعود فأوضح سرَّ هذا التقديم فقال: " وإنما تقديمُه للإيذانِ مــن أولِ الأمــرِ بــأنَّ الإكرامَ والتنعيمَ بطريق الابتلاء ؛ ليتضحَ اختلالُ قولِه المحكي"(٢).

ولعلَّ التعبير بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُۥ﴾ مع إضافته إلى الضمير (الهاء) العائد إلــى الإنــسان إظهار لمزيد لطفه ﷻ بهذا الإنسان واعتنائه بتربيته.

معنى الإكرام والتَّنعيم

والإكرام والتكريم ــ كما يقول الراغب ــ "أن يوصل إلى الإنسان إكرام ؛ أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا كريمًا؛ أي : شــريفًا، قــال ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء:٢٦] ؛ أي: جعلهم كرامًا، وقولــه ﷻ: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]: مُنْطوٍ على المعنيين" (٣).

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤٥٢/٤.

(٢)أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ١٥٦/٩.

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات، ٤٣١.

ويؤخذ من هذا أنَّ الإكرام يطلق على العطاء للمُكْرَم ، ويطلق على تفضيل الشيء وتشريفه في أفراد جنسه ، فمن الأول قوله :﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾؛ أي : أوصل إليه نفعًا لا غضاضة فيه ، ومن الثاني قوله : ﴿أَكْرَمَنِ﴾؛ أي : شرَّفني وفضَّلني ، قال ابن أبي زمنين[1]: "﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ؛ أي : وسَّع عليه من الدُّنيا، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ أي: فضلني" [2].

وأما النَّعْمَة ــ بفتح النون ــ فهي المسرّة والفرح والترفُّه ، يقال : تنعَّمَ فلان : إذا تناول ما فيه النِّعْمَة وطيب العيش ، ونَعَّمَه تَنْعيمًا فتَنَعَّم : إذا جعله يتنعَّم بما أعطاه ويستمتع به ، والنِّعْمَة ــ بكسر النون ــ هي المنَّة والعطية ، وما يُنعِم الله ﷻ على عبدِه[3].

لهذا ربما يكون الجمع بين الإكرام والتَّنعيم في قوله ﷻ:﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ دالاً على أنَّ الإكرام لم يكن مقتَصرًا على مجرد سَعَة الرزق ، بل شمل أيضًا كلَّ ما يُمكِّنُه من الترفُّه بهذا العطاء والتلذذ به ، كسلامة الجسم من العِلل والأسقام ، ونقص الأعضاء ، وغير ذلك مما يحول بينه وبين التنعُّم بما أفاض الله ﷻ من النِّعَم والأرزاق .

وإنّما أنكر قوله:﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾مع أنَّه أثبته بقوله :﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ ؛ لأنَّه أثبت إكرام الله ﷻ له على خلاف ما أثبت الله ﷻ ، وهو قصده أن الله ﷻ أعطاه ما أعطاه إكرامًا لـه لاستحقاقه ، وإنما أعطاه الله ﷻ ابتلاء من غير استحقاق منه[4].

---

(١)هو: محمد بن عبد الله بن عيسى المري، أبو عبد الله، المعروف بابن أبي زمنين: فقيه مالكي، من الوعاظ الأدباء، من أهل إلبيرة، سكن قرطبة، ثم عاد إلى البيرة، فتوفي بها عام(٣٩٩هـ)، له كتب كثيرة في الفقه والمواعظ، منها: أصول السنة ، ومنتخب الأحكام ، وتفسير القرآن، اختصره من تفسير يحيى بن سلام .[الزركلي ،الأعلام،٢٢٧/٦،السيوطي ،طبقات المفسرين،٨٩].

(٢) ابن أبي زمنين ،أبو عبد الله محمد بن عبد الله(٣٩٩هـ) تفسير القرآن العزيز، تحقيق : حسين عكاشة ومحمد الكنز، دار الفاروق الحديثة ــ القاهرة ، ٢٠٠٢م، ١٢٨/٥

(٣) للراغب الأصفهاني، المفردات ، ٥٠١، الجوهري، الصحاح، ٢٠٨/٦،ابن منظور، لسان العرب، مادة(نعم)،٥٧٩/١٢.

(٤) النسفي ، مدارك التنزيل ،٥٢١/٤، الألوسي ، روح المعاني ، ١٢٦/٣٠.

فليس العطاء وسَعَة الرزق دليل محبَّة ، ولا علامــة إكــرام ؛ لأنَّ الله ﷻ يُوسِّــع الــرزق ويبسطه لمَن يُحِبُّ ومَنْ لاَ يُحِبُّ ، ويضيِّقه على مَن يُحِبُّ ومَنْ لاَ يُحِبُّ ، فقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنَّه قال : " إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُم أَخْلاَقَكُم كَمَا قَسَمَ بَيْنَكم أَرْزَاقَكُمْ ، وإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إلاَّ لِمَنْ أَحَبَّهُ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ "(١).

ومجيء الفعل ﴿فَيَقُولُ﴾بصيغة المضارع يدل على تجدد مقولة هذا الإنسان حال بسط الرزق وسَعَته ؛ فهو يفخر بذلك من وقت لآخر، ويُظهر أنَّه أهل لهذا العطــاء ويــستأهله بطريــق أو بآخر.

موقف الإنسان عند ضيق الرزق

وبعد بيان حال الإنسان عند سَعَة الرزق يُبيِّن الحقُّ ﷻ حال الإنسان عند الــضرّ أو ضــيق رزق ، فيقول ﷻ :﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾.

وقد تساءل الزمخشري هنا عن كيفية توازن الجملة الأولى التي صُدِّرت بعد (أمّا) بالاســم: ﴿وَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، وهذه الجملة التي صُدِّرت بعد (أمّا) بالفعل:﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ ﴾، وحق التوازن أن يكونا بعد (أما) و(أما) اسمين أو فعلين ، فأجاب قائلاً: "هما متوازنان من حيث إنّ التقدير :

---

(١)الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، رقم (٣٦٧١)، ٢/٤٨٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.[مجمع الزوائد ١/٥٣، ١٠/٢٢٨].

وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ... و﴿فَيَقُولُ﴾ خبر عن ذلك المبتدأ المقدر"[١]، والذي يعـود علـى الإنسان نفسه.

ومعنى﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾: "ضيّقه عليه بأن جعله على مقدار البُلْغَة"[٢]، وهذا من معاني الفعل الثلاثي (قَدَرَ) يُقال : قَدَرَ عليه الشَّيْءَ يَقْدِرُه ويَقْدُرُه قَدْراً وقَدَراً ، وقَـدَّرَه : ضَـيَّقَه . والقَـدْر والتَّقدير قياس الشيء بالشيء ، يُقال : قَدَرَه به قَدْراً ، وقَدَّرَهُ ، إذا قاسَهُ به وجعله على مقداره، وقدْرُ كل شيء ومِقْدارُه : مقياسُه[٣].

فهذا الإنسان إذا أُعطي من الرزق بقدر ما يكفيه ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾هذه مقولته وقت الابـتلاء بقلة الرِّزق ؛ فهو يعتبر ذلك إذلالاً واحتقارًا له ، وعدم رضا من الله ﷻ عنه ، ومـا علـم أن وراء هذا المنع حكمة لا يعلمها إلا الله ﷻ .

والهوان لغة: الذل والتحقير، يقال : "رَجُلٌ فيه مَهَانة؛ أي : ذُلٌّ وضَعْفٌ. واستَهَان به وتَهَاوَن به استَحْقَره"[٤].

قال الآلوسي : "وإنكار قوله إذا ضيق عليه رزقه: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾لدلالته على قـصور نظـره وسوء فكره ، حيث حسب أنَّ تضييق الرزق إهانة مع أنَّه قد يؤدي إلى كرامة الدارين ، ولعدم كونه إهانة أصلاً لم يقل ﷻ في تفسير الابتلاء : فأهانه وقدر عليه رزقه ، نظير ما قـال ﷻ أولا : ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾"[٥].

---

(١)الزمخشري، الكشاف ،٧٥٢/٤.

(٢)ابن الجوزي، تفسير زاد المسير،١١٩/٩ ، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢/١٧ .

(٣)الزبيدي ، تاج العروس،مادة(قدر) ،٣٧٠/١٣-٣٨٠.

(٤)الرازي، مختار الصحاح ،٧٠٥.

(٥) الآلوسي ، روح المعاني ، ١٢٦/٣٠.

ومجيء الفعل ﴿فَيَقُولُ﴾ بصيغة المضارع يفيد تجدد مقولة هذا الإنسان حال تضييق الرزق وجعله بقدر ما يكفيه ؛ فلا يكاد يترك التضجر والتشكي ، وإظهار الفاقة والحرمان بشكل أو بآخر .

وبعد بيان ما يعتقده الإنسان ويقوله في الحالين ؛ حال سَعَة الرزق والتنعُّم ، وحال التضييق والتقتير ، تجيء ﴿كَلَّا﴾ حاملة معها رسالة الرَّدع لهذا لإنسان عن ذلك الاعتقاد الباطل الذي يُترجمه بالقول[1] ؛ لأنَّ حقيقة الأمر ليست كما يعتقده ويقوله ، فلا صِلة بين الإكرام وسَعَة الرزق ، ولا بين الإهانة وضيق الرزق ، وإنَّما مدار الإكرام والإهانة على طاعة الله ﷻ ؛ فالإكرام للطائع ولو كان فقيرًا محرومًا، والإهانة والإذلال للعاصي ولو كان غنيًّا مُنعَّمًا.

قال قتادة :"ما أسرع ما كفر ابن آدم ، يقول الله ﷻ إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن إنما أكرمُ مَن أكرمت بطاعتي، وأُهينُ من أهنت بمعصيتي"[2].

وقال البغوي : "الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق ، ولكنَّ الفقر والغنى بتقدير الله ﷻ ، فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدِّر على المؤمن لا لهوانه ، إنَّما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته"[3]، وبمثل هذا قال ابن القيم[4].

وخير دليل على أنَّ الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق ما قصه القرآن الكريم عن قارون ؛ فقد ابتُلي قارون بكثرة المال وسَعة الرزق ، فمنحه الله ﷻ مالاً كان يعجز الرجال الأشداء عن حمل مفاتيح خزائنه ، وما كان ذلك عن محبة منه ﷻ له ، ولكنّ

---

(١) انظر مثلاً:للفخر الرازي ،مفاتيح الغيب،١٥٦/٣١، أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٥٦/٩ ،البروسوي، روح البيان،٩٦/١٠ ، الشوكاني ، فتح القدير،٤٣٩/٥، الألوسي، روح المعاني،١٢٦/٣٠، الصاوي ، حاشية الصاوي على البيضاوي، ٤١٦/٤، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٣١/٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ، جامع البيان ،٢٤/ ٤١٣.

(٣)البغوي، معالم التنزيل ،٤٢١/٨.

(٤) انظر: ابن القيم، بدائع التفسير،٢٠٩/٥، مدارج السالكين ،٨٠/١.

قارون ادعى أن ذلك العطاء دليل رضا الله ﷻ عنه ، ولهذا لما أرشده قومه إلى الخير أجابهم بقوله : ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٧] .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية مبينًا حال قارون:" قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال"(١).

وقال ابن كثير: "وهكذا يقول مَنْ قلَّ علمه إذا رأى مَنْ وسَّع الله ﷻ عليه ، يقول : لولا أنَّه يستحق ذلك لما أُعطي"(٢).

وقد كان الذين يطلبون الحياة الدُّنيا عندما يرون قارون متنعِّمًا في أمواله يقولون:

﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩﴾ [القصص:٧٩] ، غير أن أهل التقوى، والعلم النافع ، لما سمعوا هذا القول قابلوا أصحابه بالزَّجر والتعنيف ، قائلين لهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص: ٨٠].

وعلى الرغم من كثرة أموال قارون وتنعُّمه بها إلا أنّ الله ﷻ خسف به وبداره الأرض عقوبة له على تجاوزه الحدود في البغي والإفساد في الأرض ، فما أغنت عنه أمواله وكنوزه من عقاب الله ﷻ ، بل استحقَّ الإهانة والإذلال ، ونال عقابه في الدُّنيا قبل الآخرة ؛ لأنَّه قابل النِّعمة بعدم شُكر المُنْعِم .

لقد فشل في الامتحان ، وثبت أنّه لا قيمة له في ميزان الله ﷻ ، وليس له شيءٌ من الإكرام عند الله ﷻ ولو ملك أموال الدُّنيا ما دام بعيدًا عن طاعة الله ﷻ ، وهذا ما أدركه الذين كانوا يتمنَّون أن يكونوا مثله ؛ فقد أيقنوا أنّ النَّعيم والسعادة والحظَّ ليس في بسط الرزق ، وإنما في طاعة الله ﷻ وتقواه ؛ ولذلك ندموا على ذلك التمني ، وأصبحوا يقولون بعد أن شاهدوا ما

---

(١) أخرجه الإمام الطبري ، جامع البيان،٦٢٦/١٩، وابن أبي حاتم في تفسيره ، ٢٣٠/٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،٣٦٨/٣.

نزل بـــه : ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص:٨٢].

قال ابن كثير:" أي: ليس المال بدالّ على رضا الله ﷻ عن صاحبه ؛ فـإن الله ﷻ يعطـي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة .. ولولا لُطـف الله ﷻ بنا لخسف بنا، كما خسف به" (١).

لقد بان مما تقدم أنّ بسط الرزق لا يصلح أن يكون علامة للكرامة عند الله ﷻ ، بـل إنّ التقوى هي علامة الإكرام عنده ﷻ لا غيرها ، وهذا ما أخبر عنه ﷻ بقولـه :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كانت التّقوى هي معيار التفاضل بين النّاس ، وكان أكرمُهم عند الله ﷻ أشدُّهم اتّقاءً له، لا أغناهم ولا أكثرهم سَعة للرزق ، فإنّ الواجب على الإنسان أن يعتمد هـذا المعيـار الـذي اعتمده القرآن الكريم ، ولا ينسى حكمة الله ﷻ في المنع والعطاء ؛ ليرتدع بالتالي عن جعـل سَعَة الرزق والتنعُّم معيارًا للإكرام ، وضيقه معيارًا للإهانة ، ويمتنع عن الحكم على فلان بأنّ اللّه ﷻ راضٍ عنه لأنّه غنيٌّ مُنَعَّم ، وأن فلانًا قد سخط اللّه ﷻ عليه لأنّه فقيـر محـروم ، بصرف النّظر عن تقوى الله ﷻ وعدمها.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٨/٣.

المطلب الرابع :

الرّدع من الحرص على المال وحسبان خلود صاحبه

المال في الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلِق على كل ما يُقتَنَى ويملَك من الأعيان ، كالنقود ، أو عروض التجارة ، أو العقار ، أو الحيوان[1]. "وسُمِّي بذلك لكونه مائلاً أبدًا وزائلاً، ولذلك سُمِّي عرَضًا"[2].

وقد جعل الله ﷻ المال من زينة الحياة الدنيا ؛ فقال ﷻ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۝٤٦﴾[الكهف: ٤٦] ، ومن حكمته ﷻ أن فطر نفوس البشر على حبِّ المال ، والميل إلى الاستكثار منه ؛ ليسعوا في تحصيله وطلبه ، فتقوم بذلك مصالحُهم ، ويَعْمُروا هذه الأرض وفقًا لما أراد الله ﷻ.

ولكنَّ النّاس في حُبِّهم للمال ليسوا سواءً؛ فصنف منهم توسط في ذلك واعتدل؛ فلم يكسب المال إلا من طريق مباح، ولم يُنفقه إلا فيما يُرضي الله ﷻ .

وصنف أفرط في حبِّ المال فحرص عليه أشدَّ الحرص ، فلم يُبالِ من أين اكتسب المال أمن حلالٍ أم مِنْ حرامٍ ، ولم يُؤدِ حقَّ الله ﷻ فيه ، فهمُّه جمع المال وتكديسُهُ والمفاخرَةُ فيه ، ظنًّا منه أنَّ ذلك يُنمي عُمْرَه ، ويُخَلِّده في الدّنيا ، وهذا ما جاء القرآن الكريم بالرَّدع عنه.

أولاً: الرّدع عن الحرص على المال

أما الرَّدع عن الحرص على المال والمبالغة في حبِّه فقد جاء في قوله تَعَالَى:﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا... ۝٢١﴾ [الفجر: ٢٠-٢١].

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب،مادة (مول)١١ / ٦٣٥، المعجم الوسيط ، ٩٢٧/٢.

(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ٤٨١، الفيروز أبادي ، بصائر ذوي التمييز، ٥٤١/٤.

عرضت الآيات السابقة لحال كثير من أفراد النوع الإنساني مع المال ؛ فهم لا يُـؤدون مـا يجب عليهم في أموالهم من حقِّ اليتيم ، ولا يحضُّ بعضُهم بعضًا على إطعام المحتـاج وسـدِّ حاجته، ويأكلون المال الموروث أكلاً شرهًا دون تميز منهم بين حلاله وحرامه ، فجاءت هذه الآية تبيِّن العِلَّة ، وتبرز السبب الذي حدا بهم إلى الشَّره في جمع المال ، وحرمـان أصـحاب الحقوق من حقوقهم ، قال حبنكة الميداني: "وفي هذا البيان كنايةٌ عـن أنَّ بُخلَهُـم بـأموالهم ، وإمساكَهُم لها ، وحرمانَ ذوي الحقوق من حقوقهم سببُهُ أنَّهم يُحبُّون المالَ حُبًّا جَمًّا"[1].

فَشدَّة الحرص على المال والحبُّ المفرط له يؤدي إلى جمعه من غير وجهه ، ويبعثُ علـى تجاوز الحقوق الواجبة فيه والمترتبة عليه.

ومجيء الفعل ﴿تُحِبُّونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أنَّ حبَّ المال مُتجدِّد بتجدد الزمان، ولم يمضِ وجوده ؛ سواء أكان ذلك المال نقدًا أم عقارًا أم حيوانًا أم غير ذلـك ممـا يُقتَنـى ويملَك من الأعيان ، وقد جاءت جملة ﴿تُحِبُّونَ﴾ مؤكدةً بالمصدر ﴿حُبًّا﴾، والوصف﴿جَمًّا﴾.

والجَمُّ لغة : الكثير من كل شيء ، يقال : جَمّ الشيء واستَجَمَّ : إذا كَثُرَ واجتمع ، ومَالٌ جَمٌّ ؛ أيْ : كَثِيرٌ ، وجمّ الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثُر، وماءٌ جَمٌّ كثير، والجَمُوم: البئر الكثيـرة الماء ، والجَمَّةُ : المكان الذي يجتمع فيه الماء ، والجُمُومُ ــ بالضم ــ المصدرُ ، يقال : جَـمَّ الماءُ يَجُمُّ ويَجِمُّ جُمُومًا: إذا كثر في البئر واجتمع بعدما استُقِيَ ما فيها [2].

والمعنى ــ كما قال الإمام الطبري ــ تُحِبُّونَ جمع المال واقتناءَه حُبًّا كثيرًا شـديدًا[3]، وزاد الزمخشري : مع الحرص والشَّره ، ومنع الحقوق [4].

---

(١)حبنكة الميداني، معارج التفكر ،١/٥٣٩.

(٢)ابن منظور، لسان العرب ،مادة (جمم)، ١٢/١٠٤، الفيومي ، المـصباح المنيـر، ١/١١٠، الفيـروز أبـادي ، بـصائر ذوي التمييز،٢/٣٨٩.

(٣) الإمام الطبري، جامع البيان، ٢٤/٤١٥ .

(٤)الزمخشري ، الكشاف ، ٤/٧٥٤ .

وقد كان ابن عاشور درّاكًا للمحة إذ قال : "ووصفُ الحُبِّ بالكثرة مرادٌ به الشِّدَّة ؛ لأن الحبَّ معنى من المعاني النفسية لا يوصف بالكثرة التي هي وفرة عدد أفراد الجنس، فالجمّ مستعارٌ لمعنى القوي الشديد ؛ أي : حبًّا مفرطًا ، وذلك محلُّ ذمّ حبِّ المال ؛ لأنَّ إفراد حبِّه يُوقِع في الحِرص على اكتسابه بالوسائل غير الحَق كالغصب ، والاختلاس ، والسرقة ، وأكل الأمانات"[1].

ولم تأت لفظة ﴿جَمًّا﴾ في القرآن الكريم إلا في هذه الآية الكريمة ، ذمًّا للمبالغة في حبِّ المال والإفراط فيه ؛ لأنَّه يدفع إلى الحِرص على جمعه من حِلِّه وحرامه ، والامتناع عن أداء الحقوق الواجبة فيه ، فيكون صاحبُه خازنًا له وممسكًا عن إنفاقه ، فلا ينتفع به في دُنياه ولا في آخرته.

وبعد ذم الإفراط في حُبِّ المال وشدَّة الحرص عليه تأتي ﴿كَلَّآ﴾ لتردع الإنسان عن ذلك الحُبِّ الذميم[2] ؛ ليقتصر هذا الإنسان في كسبه للمال على الطرق المباحة ، ويستعمل ما وهبه الله ﷻ من هذا المال في طاعة الله ﷻ ، من نفقةٍ في القُرُباتِ ، وصِلةِ الأرحام ، ووُجوهِ البِـرِّ والطاعاتِ ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، قبل أن يأتي يوم يندم فيه ولا تنفعه الندامة.

قال الفخر الرازي ما مفاده : ﴿كَلَّآ﴾: ردع لهم عن ذلك ؛ أي: فلا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على المال وقصر الهمة على تحصيله ، وجمعه من حيث تهيأ من حلٍّ أو حرام ، وترك المواساة منه ، وتوهم أنْ لا حساب ولا جزاء ، فإنَّ مَن كان هذا حالُه يندم حين

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٣٣٤/٣٠.

(٢) انظر مثلاً: الزمخشري،الكشاف،٧٥٤/٤، ابن عادل، اللباب،٣٣٠/٢٠ ،٥٦٩/١٩، البقاعي، نظم الدرر،٤٢٠/٨ ،أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٥٧/٩، الجلالين ، تفسير الجلالين، ٨٠٧، الشوكاني، فتح القدير،٤٣٩/٥، الألوسي، روح المعاني،١٢٧/٣٠، المراغي، تفسير المراغي،١٥١/٣٠، حبنكة الميداني ،معرج التفكر،٥٣٩/١.

لا تنفعه الندامة ، ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة ، والمواساة من المال إلى الله ﷻ(١).

التعليل للرّدع بطريق الوعيد والتهديد

وأتى بعد ﴿ كَلَّآ ﴾ استئناف فيه التهديد والوعيد بعذاب لا محيص عنه يوم القيامة، حين يَتَذكَّر الإنسان فلا ينفعه التّذكُر، ويتحسَّر على ما فرط في حياته الدنيا ويندم فلا ينفعه الندم ، وقد جيء به تعليلاً للـردّع (٢)، فقـال ﷻ: ﴿ ...إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: ٢١ – ٢٦].

الدَّكُّ لغة: الدَّقّ والهَدْمُ، يقال: دَكَّه يَدُكُّه دكّاً، ودَكّ الأرضَ: سَوّى صَعُودَها وهَبُوطهـا، ودَكّ التُرابَ على المَيتِ: هالَهُ ، ودَكّ البِئْرِ: طَمَّها بالتّراب ، والنَّاقَةُ الدّكَاءُ : التي لا سنام لها(٣).

قال الإمام الطبري في معنى قولـه ﷻ :﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾: "إذا رجت وزُلزلـت زلزلة، وحركت تحريكا بعد تحريك"(٤).

وقال البغوي: "مرة بعد مرة ، وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر، فلم يبـق على ظهرها شيء"(٥).

---

(١)الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،١٥٧/٣١، وانظر: البروسوي ، روح البيان ،١٠/ ٤٣٦

(٢) قال أبو السعود: استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع.[إرشاد العقل السليم، ١٥٧/٩]، ونقله الألوسي بنصه.[روح المعاني،١٢٧/٣٠].

(٣)ابن منظور، لسان العرب ،مادة(دكك)،١٠/٤٢٤.

(٤)الإمام الطبري، جامع البيان،٤١٦/٢٤، وهذا المعنى أورده القرطبي في تفسيره : الجامع لأحكام القرآن،٣٧/٢٠.

(٥)البغوي، معالم التنزيل،٤٢٢/٨، وانظر :الزمخشري، الكشاف،٧٥٤/٤، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،٣٧/٢٠.

ويؤخذ من هذا أن حركة الدك تأتي متكررة ؛ المرة بعد المرة حتى تعود الأرض مستوية لا مَيْل فيها ولا ارتفاع ولا انخفاض.

وأما قوله ﷻ :﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾، "فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض ، ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول .

كذلك قوله ﷻ: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ ﴾، نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى ، فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله ﷻ المكنون ليومه المعلوم .

إنّما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر، مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار . والأرض تُدَك دكاً دكا! والجبّار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفًا صفًا . ثم يُجاءُ بجهنّم فتقف متأهبة هي الأخرى!" [١]

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾، ﴿ يَوۡمَئِذٖ ﴾: بدل من ﴿ إِذَا دُكَّتِ ﴾ ، وجوابها جملة ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾،[٢] والتقدير: يوم تُدَك الأرض ....، وتقع هذه الأهوال العظام يوم القيامة، يتذكر الإنسان إفراطه في حُبِّ المال، وتفريطه في طاعة الله ﷻ، وابتعاده عما يُقرّب إليه من صالح الأعمال ، ولكن لقد قُضي الأمر وفات الأوان، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾.

أنّى: اسم استفهام تكون بمعنى (كيف؟)، وتكون بمعنى (من أين؟)[٣]، والغرض من هذا الاستفهام النفي والإنكار [٤]؛ نفي أن يكون التذكُّر نافعًا في ذلك اليوم ؛ لأن وقته قد مضى،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩٠٦ .

(٢) انظر: ابن جزي، التسهيل ،٤/١٩٩، السمين الحلبي ، الدر المصون ،٦/٥٢٢.

(٣) الزجاجي ، حروف المعاني، ٦١. قال: والمعنيان متقاربان يجوز أن يتأول كل واحد منهما للآخر.

(٤)ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،٣٠/٣٣٩.

وإنكار الإثبات ، والمعنى ـ كما ذكره أبو حيّان ـ وأنّى لَهُ "منفعة الذِّكرى، لأنّه وقت لا ينفع فيه التذكُّر، قاله الجمهور" [١].

وحين لا يُجديه التذكُّر نفعًا يقول متحسرًا على ما فـرّط فـي جنـب الله ﷻ :﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾، يتمنى أن يكون قد قدم في حياته الفانية من صالح الأعمال لحياته الآخرة الباقيـة مـا يُنجيه من عذاب الله ﷻ وغضبه !.

فحسرة الإنسان وندمه إنّما هو لكونه لم يقدم لحياته، ويقصد بها الحياة الآخرة[٢]، ولعلّها لـم توصَفْ بـ (الآخرة) للدلالة على أنها هي وحدها حياته ، إذ هي حياته الحقيقية الأبدية التي لا نهاية لها ، وهي الجديرة بأن يطلق عليها اسم الحياة، كما قال الحقُّ ﷻ : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ويوم يكون ما ذُكر من الأحوال والأقوال﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ ، والهاء في﴿ عَذَابَهُۥٓ ﴾ و﴿ وَثَاقَهُۥٓ ﴾ لله ﷻ، والمعنى : لا يتولى يوم القيامة عذاب الله ﷻ ولا وثَاقَـهُ ﷻ أحدٌ سواه ؛ لأن لأمر يومئذ لله وحدَهُ [٣]، قال الآلوسي:" وفيه تعظيم عذاب الله ﷻ ووثاقه ﷻ لهذا الإنسان الذي شُرح من أحواله ما شرح على طريق الكناية"[٤].

وقد دلّ على شِدَّة عذاب الله ﷻ لمن عصاه عدّة آيات،منها قوله ﷻ:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ۝١٦٥ ﴾ [البقرة: ١٦٥]،وقوله ﷻ:﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج :٢].

---

(١)أبو حيان، البحر المحيط ،٤٧٣/٨.

(٢) حكاه ابن عطية، ونسب هذا القول إلى الجمهور، المحرر الوجيز ،٤٨١/٥.

(٣) الزجاج ،معاني القرآن، ٣٢٤/٥، السمرقندي، بحر العلوم ،ابن عطية، المحرر الوجيز ، أبو حيان،البحـر المحـيط،٤٧٣/٨ ، وقد ذُكرَ أن الهاء تعود على الإنسان المتحسر بمعنى: لا يعذب ولا يوثق أحد من الزبانية أحداً من مثل ما يعذبونه ويوثقونه .[انظـر: الرازي،مفاتيح الغيب ، أبو السعود،إرشاد العقل السليم، ١٥٨/٩، الآلوسي ، روح المعاني ،١٢٩/٣٠] .

(٤) الآلوسي ، روح المعاني ،١٢٩/٣٠.

الردع عن التطفيف

ولما كان الإفراط في حبِّ المال ، وشدَّة الحرص عليه يدفع إلى أخذ المال واكتسابه من حِلِّه وحرامه ردع القرآن الكريم عن تطفيف المكيال واكتساب أقل القليل من المال بهذه الوسـيلة ، وهدَّد المطففين وتوعّدهم بسوء العذاب؛ فقال تبارك وتعـالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ١ – ٩].

وقد بدئت الآيات الكريمة بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ والتي تقال لكلِّ مَن هـو فـي العـذاب والـشقاء الأدوم[١]، قال الراغب:" مَنْ قال الله ﷻ ذلك فيه فقد استحَقَّ مقَرّاً من النّار، وثبت ذلك له"[٢].

"والمطفِّفين : جمع مطفِّف ، وهو مأخوذ من الطَّفيف : وهو الشيء النَّزْرُ الحقير، والتَّطفيف : نقص المكيال والميزان [٣]. والمطفِّف: فاعل التّطفيف؛ وهو الذي يُنقص النَّاس حقَّهم في كيـلٍ أو وزنٍ ، قال الزجاج: وإنّما قيل للفاعل من هذا مطفِّف ؛ لأنّه لا يكاد يسرق فـي المكيـال والميزان إلا الشيء الحقير الطَّفيف"[٤].

---

(١)الزجاج ،معاني القرآن، ٢٩٧/٥، ابن أبي زمنين ،تفسير القرآن العزيز ،١٠٥/٥، ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤٩٩/٥.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات،٥٥٠.

(٣) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ٦١٦، الراغب الأصفهاني، المفردات،٣٠٨.

(٤) الزجاج ،معاني القرآن، ٢٩٧/٥.

لقد استحق المطفِّف الهلاك والشّقاء الأدوم بسرقته النَّزرَ اليسير سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا ؛ لأن من استمرأ ذلك ألِفَه ، وأدمن عليه وغرق فيه حتى صار له خُلُقًا ، فهان عليه أن يسرق الكثير ، سواء أكان المسروق لغنيٍّ أم لفقير ، وسواء أكان لفرد أم لأمَّة .

وقد بيّن الله ﷻ أمر المطففين ، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ ، فهم يكيلون بمكيالين : مكيال لأنفسهم يستوفون فيه ، فيأخذون أكثرَ مِنْ حقِّهم ، ومكيال آخر يُخسرون فيه حقَّ غيرهم ، فيعطونهم أقل مِنْ حقِّهم ؛ فإذا أخذوا زادوا على حقهم ، وإذا أدّوا ما عليهم من حقٍّ نقّصوا ولم يُعْطُوا الحق كاملاً ، والنقص مثل الزيادة ، فكلاهما سرقة ، وعلتهما الإفراط في حبِّ المال وشِدَّة الحرص عليه !

وبعد تهديدهم ووعيدهم ، وبيان سوء حالهم يأتي الاستفهام : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ ، وهذا الاستفهام الذي أفادته الهمزة الداخلة على (لا) النافية خرج عن معناه الحقيقي ليفيد التوبيخ والإنكار والتعجيب ؛ فالتوبيخ والإنكار على أن لا يظنوا أنهم مبعوثون فمحاسبون يوم القيامة العظيم الشأن على مقدارِ الذرة والخردلة ، والتعجيب من جرأتهم على ذلك حتى لكأنَّه لا يخطر لهم إثمه وسوء عاقبته على بال[1]! وفيه دلالة على التوكيد أيضًا ؛ لأنّ اجتماع(الهمزة) و(لا) فيها نفي النفي ، وهما يدلان على الإثبات.

وفي مجيء اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مشارًا به إلى المطففين ، ووضعه موضع ضميرهم ــ إذ لم يقل ألا يظنون ــ فوائد بيانية غاية في الروعة ، منها: تمييزهم بذلك الوصف القبيح عن سائر النّاس أبلغ تمييز وأكمله ، والإشعار بمناط الحكم الذي وصِفوا به ؛ وهو استيفائهم

---

(١) النسفي، مدارك التنزيل،٤/ ٤٩٧، أبو السعود، إرشاد العقل السليم،٩/ ١٢٥ ، ابن عجيبة ،البحر المديد ،٨/ ٢٥٩.

وإخسارهم فإنَّ الإشارة إلى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه ، وأما الضمير فلا يتعرض للوصف ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم في الشَّر والفساد[١].

قال الزمخشري: "وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظنّ ، ووصف اليوم بـالعظم ، وقيـام النَّاس فيه لله ﷻ خاضعين ، ووصفه ذاته بربِّ العالمين : بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على السوية والعـدل في كلِّ أخذ وإعطاء ، بل في كلِّ قول وعمل "[٢].

ولهذا جيء بـ﴿ كَلَّآ ﴾ لردع الإنسان عن التطفيف وسرقة الذَّرِ الحقير[٣]، وتنبيهه على قُبح هذا الفعل ، وأنَّه مما يوجب غضب الله ﷻ وأليم عقابه ؛ لئلا يكون من الفجار الذين قال الله ﷻ فيهم :﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ؛ فالفجار أُعدَّ لهم كتابٌ أُحصيتْ فيه أعمالهم صغيرها وكبيره خفيها وجليِّها ليحاسَبوا عليها، وكتاب أعمال أولئك الأشقياء ، ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ ؛ أي: في الأرض السفلى، فقد جاء في حديث البراء بـن عـازب ﷺ الطويل في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت، أن النبي ﷺ قال : فيقول الله ﷻ : اكتُبُـوا كِتَابَهُ ـــ يعني الكافر ـــ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى"[٤] ، وبهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم[٥].

---

(١)أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،١٢٥/٩،الألوسي ،روح المعاني ، ٧٠/٣٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف ،٧٢١/٤.

(٣) انظر مثلاً: الواحدي ، الوجيز،١١٨٢/٢، البغوي، معالم التنزيل ،٣٦٣/٨،ابن الجوزي زاد المسير ،٥٤/٩، الزمخشري ، الكشاف، ٧٢٢/٤، النسفي ، مدارك التنزيل،٤ /٤٩٧، أبو السعود ، إرشاد العقل السليم،١٢٥/٩، محمد عبده، تفسير جزء عمّ ،٤٥.

(٤) الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ١٧٠/٣ ، قال : هو في الصحيح وغيره باختصار ، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٥) انظر:الإمام الطبري، جامع البيان، ٢٤/ ٢٨٣ -٢٨٤، الثعلبي، الكشف والبيان، ١٠/ ١٥٢، البغوي، معالم التنزيل،٣٦٣/٨.

وهذا ما حققه النيسابوري القمي ، فقال : والتحقيق أنّه ﷻ أجرى أمور عباده على ما تعارفوه فيما بينهم ، ولا شك أن السُّفلة والظُّلْمة والضيق وحضور الشياطين الملاعين من صفات البُغْض فوصف الله ﷻ كتاب الفجار بأنّه في هذا الموضع استهانة بهم وبأعمالهم[١].

فسجين مكان ضيق في أسفل سافلين[٢]، وقد عظمَّ الله ﷻ هذا السجين، وبيّن كتاب الفجار بقوله:﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾،أي : مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم ، كالرقم لا يُنْسى ولا يُمْحى حتى يجازوا به[٣].

وهكذا يدفع الحِرص على المال والإفراط في حُبِّه إلى التطفيف ، وهذا العمل يُوجب لصاحبه الويل والعذاب الشديد ، و يُدخله في عموم الفجار ، والعاقل من تنبَّه إلى عظم هذا الجرم ، فارتدع عن حبِّ المال قبل فوات الأوان.

ثانيا: الرّدع عن حسبان الخلود بالمال

وأمّا الرّدع عن حسبان أن المال يُخلِّد صاحبه أو يطيل عمره فقد جاء في قول الحقِّ تبارك وتعالى :﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾.. [الهمزة:٢-٤].

ومن أنعم نظره في آية ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾يدرك أنها مرتبطة بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فلما عرضت الآية الأولى –﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾[٤]– لوعيد كلِّ مَنْ اعتاد أن يزدري

---

(١)النيسابوري القمي ،غرائب القرآن، ٤٦٥/٦.

(٢) قال ابن كثير: والصحيح أن "سجينا" مأخوذ من السّجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، .. وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.. و(سجين) يجمع الضيق والسفول.[تفسير القرآن العظيم، ٤٨٧/٤].

(٣) الثعلبي ، الكشف والبيان ،١٠/ ١٥٣، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٦٩/١٩، ابن عادل ،اللباب ،٢١٢/٢٠.

(٤) ذكرَ في الفرق بين الهمز واللمز عدة أقوال، منها:١- الهمز: الغيبة، واللمز: الطعن.٢- الهمز: الذي يهمزه في وجهه، واللمز: الذي يهمزه من خلفه.٣- الهمز: باليد، واللمز: باللسان.٤- الهمزة : الذي يهمز الناس ويضربهم بيده ، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه=

الآخرين ويّعيبهم، ويطعن في أعراضهم ، بالقول أو الفعل أو الإشارة ، سواء أكان ذلـك فـي حضورهم أم خلف ظهورهم ، جاءت هذه الآية تبيِّن عِلّة طعنه في الآخرين، استعلائه عليهم ، وتُبرز "السبب في الهمز واللمز ؛ وهو إعجابه بما جمع من المال ، وظنُّه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره من النَّاس ويسخر منهم"[1].

ولهذه العلّة اتصلت هذه الآية بالتي قبلها، ومما يدل على كمال الاتصال بين الآيتين الكريمتين عدم مجيء الواو بينهما.

معنى جمع المال

والجَمْعُ : يدل في الأصل على ضَمِّ المُتَفَرِّق ، وذلك بتَقْرِيبِ بَعْضِه من بَعْضٍ، يُقال: جَمَـعَ الشيءِ يَجْمَعُه جَمْعًا: إذا جاء به من ههنا وههنا ، وجمَّعَه ــ بتشديد الميم ــ للمبالغة[2].

ومعنى ﴿جَمَعَ مَالًا﴾: جمع بعضه على بعض، ولم يؤد حق الله ﷻ فيه، ولكنَّه جمعه فأوعاه وحفظه[3].

وقرئ (جَمَّعَ) بتشديد الميم[4]، وفي هذه القراءة دلالة على المبالغة في الفعـل ومداومـة الجمع ، وأنّه جمعه من ههنا وههنا، وأنّه لم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يـومين ، ولا فـي شهر ولا في شهرين ، وأمّا﴿جَمَعَ﴾بالتخفيف فلا تدل على ذلك[5].

= ويعيبهم .٥- الهمز : هو عيب الناس بالإشارة ، سواء أكانت باليد ، أم بغيرها ، وسواء أكان بحضرة المهموز، أم بغيبته ، واللمز: الطعن. [انظر هذه الأقوال:تفسير الطبري، ٢٤/ ٥٩٥-٥٩٧].

(١) الفخر الرازي ، **مفاتيح الغيب**، ٨٧/٣٢، الخازن ، **لباب التأويل**،٤٦٨/٤ ، ابن عادل ،**اللبـاب**،٤٩١/٢٠ ، البروسـوي، **روح البيان**،٥٢١/١٠.

(٢)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة** ،٤٧٩/١، الراغب الأصفهاني ، **المفردات** ، ١٠٤،ابن منظور، **لسان العرب** ،مادة(جمع) ، ٥٣/٨، الفيومي ، **المصباح المنير** ،١٠٨/١.

(٣) الإمام الطبري، **جامع البيان** ، ٥٩٨/٢٤، ابن كثير،**تفسير القرآن العظيم**، ٤/ ٥٥١.

(٤)وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي.[ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس(٣٢٣هـ) **السبعة في القـراءات**، تحقيق:شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، ط٢،١٤٠٠هـ،٦٩٧].

(٥) انظر:ابن زنجلة،عبد الرحمن بن محمد(٤٠٣هـ) **حجة القراءات** ، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسـالة – بيـروت، ط٢، ١٩٨٢م،٧٧٢، الفخر الرازي ،**مفاتيح الغيب** ، ٨٧/٣٢.

وبهذا يكون في قراءة التشديد تجلية للمعنى المراد ، وزيادة في إيضاحه ، كما تكشف عن مدى تعلُّق قلبِ ذلك الإنسانِ بالمال ، وعن الأوقات الطويلة التي أضاعها من أجل تكثيره.

وقد ذُكِر في قوله ﷻ :﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ عِدَّة معانٍ ، منها : أحصاه وحافظ على عدده ، ادَّخره وجعله عُدَّة لنوازل الدهر ، عدَّة مرة بعد أخرى ، فاخر بعدده وكثرته(١).

والرجوع إلى معجمات اللغة يُؤكِد أن اللفظ صالح لجميع تلك المعاني ، ويصدق عليها فـ(العين والدال) أصل صحيحٌ واحدٌ لا يخلو من العَدّ الذي هو الإحصاء ، ومن الإعداد الذي هو تهيئة الشَّيء ، وإلى هذين المعنيين ترجع فروعُ الباب كلها ، فالعَدُّ: إحصاء الشيء، يقال:عدَّ الشيء يعُدُّه عدًّا ، والعَدَد: مقدار ما يُعَدُّ ، ويقال: ما أكثَرَ عديدَ بني فلان وعَدَدهم . ومن الوجه الآخر العُدَّة؛ ما أُعِدَّ لأمرٍ يحدث ، يقال أعدَّ الشيء يُعِدُّه إعداداً ، واستعدَّ للشيء وتعدَّدَ له(٢).

فهو لشِدّة حُبِّه المال يُجمِّعه ويُكثِّر منه ليكون عُدَّة له ، ولشِدَّة حرصه عليه يُكثِر من عَدِّه وإحصائه عدًّا بعد عدٍّ ، ومرة بعد أخرى ، تلذذاً ومفاخرةً بكثرته ؛ فالمال هو شغله الشاغل في الليل والنَّهار ، وهمُّه الذي لا ينقطع ، لا يفكِّر إلا فيه، ولا يعمل إلا له ، كلُّ شيء عنده هو هذا المال !

يظنُّ أن ماله الذي جمعه يُخلِّده

لقد أخبر ﷻ عن ظنّ ذلك الإنسان فيما جَمَعَ من مالٍ ، فقال ﷻ :﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

(١) انظر: البغوي ، معالم التنزيل ، ٥٣٠/٨، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب،٨٨/٢٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٢٥/٢٠، البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٥٢٨/٥.

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة، ٢٩/٤.

إنّه يظنُّ ــ لفرط غفلته وطول أمله ــ أنّ ماله الذي جمعه ، يُخَلِّده في الدنيا ، ويمنعه من الموت ، ولذلك فهو يعمل عمل من يظن أنه يبقى حيًّا ؛ لا يموت ولا يحيى من جديد ليعاقب على ما كسب من الأقوال والأعمال السيئة(١).

وقد جيء بالاسم الظاهر ــ ﴿مَالَهُۥ﴾ ــ بدلا من الضمير الذي يقتضيه ظاهر الأسلوب المعتاد ، لزيادةِ التقريرِ(٢).

و﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ فعل ماضٍ أريد به المستقبل ، قال الإمام الطبري: أَخْلَدَهُ ، بمعنى: يُخلِّده ، كما يقال للرجل الذي يأتي الأمر الذي يكون سببا لهلاكه : هلك فلان ، بمعنى : أنّه يهْلك من فعله ذلك ، ولمّا يُهلك بعد(٣).

وفائدة الإخبار عن المستقبل بلفظ الماضي الدلالة على تحقُّق الفعل عنده ، وهذا ما ذكره ابن عاشور ، وعبارته:" وجيء بصيغة المضي في ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لتحققه عنده، وذلك زيادة في التهكم به بأنّه موقن بأنّ ماله يُخلِّده حتى كأنّه حصل إخلاده وثبت"(٤).

ولمّا كان هذا الحسبان من الصفات المذمومة المؤدية إلى قبيح الأقوال وسيء الأفعال جيء بـ﴿كَلَّا﴾ لتحمل رسالة الإبطال لأن يكون المال مُخلداً لإنسانٍ ، والرَّدع للإنسان عن التلبس بالحالة الشنيعة التي تجعله في حال من يحسب أنّ المال يخلِّده (٥)؛ ليرتفع هذا الإنسان عن ملازمة المال والركون إليه ، فإنّه مهما كثُرَ لا يغني عنه شيئًا، ولا يزيد في عُمْره لحظة من الزمن ، غير أنّ له منه ما أكل فأفنى ، أو لَبِسَ فأبلى ، أو تصدق فأمضى وتكون أمامه في

(١) السمرقندي ، بحر العلوم ،٣/٥٩١، ابن الجوزي ،زاد المسير ،٩/٢٢٩، المراغي ، تفسير المراغي ،٣٠/٢٣٨.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم،٩/١٩٨،الألوسي ، روح المعاني،٣٠/٢٣١.

(٣) الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢٤/٥٩٨.

(٤) ابن عاشور،التحرير والتنوير ، ٣٠/٥٣٨.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٣٠/٥٣٩.

الآخرة ، وإلا فهو كغيره من النّاس يموت بأجَله ؛ فيترك المال خَلفَه ، ثمَّ يُسأل عنه يوم القيامة وحدَه ، فقد روى الإمام مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي . وإِنَّ مَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَى ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ "[1].

وقد ذكِر احتمال أن تكون ﴿ كَلَّا ﴾ بمعنى: (حقًّا) ، وربما تكون الإفادة من المعنيين ممكنةً ؛ إذ هي في الأصل تفيد معنى الرّدع والزّجر ، ويُفيد (حقًّا) حصول معنى القسم في ﴿ كَلَّا ﴾ ، فضلاً عن كونه مصدرًا يدل على ثبوت حُسبان الخلود بكثْرَة المال في كلّ عصر ومصر .

قال الفخر الرازي: ﴿ كَلَّا ﴾ فيه وجهان أحدهما: أنّه ردع له عن حسبانه.. والقول الثاني معناه (حقًّا) ، واللام في ﴿لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ جواب القسم المقدّر، فدل ذلك على حصول معنى القسم في ﴿ كَلَّا ﴾"[2].

وبنحو هذا القول الذي قاله الفخر الرازي قال النيسابوري القمي[3]، وثناء الله الهندي في تفسيره [4].

وبعد حرف الرّدع يأتي التهديد الشّديد ، والوعيد الأكيد ، لذلك الجاهل المغرور، قال ﷻ: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ...﴾ . فقد بدئت جملة ﴿لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ بـ(اللام) الواقعة في جواب القسم ، وخُتمت بنون التوكيد الثقيلة ؛ لتؤكد الوعيد وتُثبت وقوع الفعل ، وبهذا تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات ؛ القسم ، واللام، ونون التوكيد.

---

(١) صحيح الإمام مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ،(٢٩٥٩)،٤/٢٢٧٣.

(٢)الفخر الرازي ،مفاتح الغيب ، ٨٨/٣٢.

(٣) النيسابوري القمي ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥٦٢/٦.

(٤) انظر: ثناء الله الهندي ، تفسير المظهري ،١٠، ٣٢١/١٠.

والنَّبذ: طرحُ وإلقاء ما هو هيّن حقير لا قيمة له عند النَّابذ، قال الراغب:"النَّبْذُ: إلقاء الشيء وطرحُه لقلَّة الاعتداد به، ولذلك يقال: نبذتُه نَبْذَ النَّعلِ الخَلِق"(١).

وقد ذكر الفخر الرازي أن لفظ النَّبذ فيه دلالة على الإهانة(٢).

وبهذا يظهر أن لفظ النَّبذ في هذا السياق لفظ مفيد لمعنى الطرح والإلقاء ، ويدل على الإهانة والتحقير ؛ فالذي يتكبَّر بماله يحسب انَّه يخلّده أبد الدهر يُطرح - إن لم يرتدع عن ذلك - يوم القيامة في الحُطمة باحتقار ويُلقى فيها بذلّة ومهانة، جزاءً وفاقًا لحالة الاستكبار والفوقية وحسبان الخلود.

وقد جاءت ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ مفسَّرة بما بعدها: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة: ٥-٦].

فالحُطَمَة اسم من أسماء النَّار، سميت بذلك لأنها تَحْطِمُ كلَّ ما ألقي فيها(٣).

وأصل الحَطْمِ الكسر والدق ، يقال: حَطَمَهُ يَحْطِمُهُ حَطْمًا؛ أي : كسره ، وحَطَّمَهُ فانْحَطَم وتَحَطَّم ، والتَّحْطيمُ : التكسير ، وأسد حَطُومٌ : يَحْطِمُ كلَّ شيء يَدُقُّه ، ورجل حُطَمَةٌ : كثير الأكل ، ونار حُطَمَةٌ : شديدة الاشتعال ، والحُطَمَة: النار التي تَحْطِمُ كل شيء وتجعله حُطاماً(٤).

والاستفهام في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ لتهويل أمرها ، وتفظيع شأنها ، ببيان أنَّها لعِظَمها ليست من الأمور التي تدركها العقول ، فهي ليست كسائر النيران(٥).

---

(١)الراغب الأصفهاني، المفردات، ٤٣٨.

(٢)الفخر الرازي ، مفاتح الغيب ،٩٣/٣٢.

(٣) الطبري ، جامع البيان ،٥٩٨/٢٤،ابن الجوزي، زاد المسير،٢٢٩/٩ ، البغوي، معالم التنزيل ،٥٣٠/٨.

(٤)ابن منظور، لسان العرب،مادة(حطم)، ١٣٧/١٢.

(٥) البروسوي، روح البيان،٥٢١/١٠، الشوكاني، فتح القدير،٤٩٣/٥، ، الألوسي، روح المعاني،٢٣١/٣٠.

ولتفخيمها وتعظيمها، وزيادة الترويع والتخويف منها أُضيفت إلى لفظ الجلالة ، ووُصِفت بالإيقاد: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ ، قال أبو السعود: "وفي إضافتِها إليهِ سُبحانَهُ ووصفُهَا بالإيقادِ مِنْ تهويلِ أمرِهَا مَا لاَ مزيدَ عليهِ"[١].

فهي النَّار الموُقَدةُ بأمر الله ﷻ ، لا تخمد أبدًا ، والخلق كلُّهم يعجزون عن إطفائها ، وهي ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ ﴾ ، جمع فؤاد ، سمي بذلك لشدة توقده[٢]، واطِّلاع النَّار عليها بأنْ تعلوها وتشتمل عليها ، وهي تعلوهم في جميع أجسامهم[٣]، ومجيء الفعل ﴿ تَطَّلِعُ ﴾ فيه دلالة على المبالغة في ذلك ؛ فهي تشتمل عليها اشتمالاً بالغًا ، ووفيه أيضًا دلالة على استمرار العذاب بالنَّار وتجدده.

وخُصَّت الأفئدة بالذكر؛ لأنَّها ألطف ما في البدن وأشده تألمًا بأدنى شيء من الأذى، ولأنَّها منشأ العقائد الفاسدة ، ومعدن حبِّ المال الذي هو منشأ الفساد والضلال، وعنها تصدر الأفعال القبيحة[٤]؛ فالفؤاد هو غشاء القلب ، إذا رق نفذ القول الحسن فيه وانتفع به وخلص إلى ما وراءه ، وإذا غلظ وقسا تعذر وصول الموعظة والكلمة الطيبة إلى داخله[٥].

ثمّ يأتي التأكيد على أنهم لا يستطيعون الخروج من تلك النَّار، فيقول ﷻ: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ [الهمزة:٨-٩].

---

(١)أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،٩/١٩٩.

(٢) الفراهيدي ، العين ،٨/٧٩.

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط ، ٨/٥٠٩، .

(٤) البقاعي، نظم الدرر،٨/٥٢٧، الشربيني ، السراج المنير ،٤/٦٨٢.

(٥)أبو الهلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن مهران (ت٤٠٠هـ) الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ، ط١،د.ت،٤٣٣.

قال ابن عباس ﷺوغيره :﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة [١]، وفي المفردات:" يُقال : أوصَدْتُ البَــابَ ، وآصَدْتُهُ ؛ أي: أطْبَقْتُهُ وأحكَمْتُهُ"[٢].

وإنّما قال ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ ولم يقل مطبقة ؛ لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة، والإطباق لا يفيد معنى الباب ، وليس فيه ما يزيد في حسرتهم ؛ فالباب يذكرهم الخروج، فيزيد فــي حــسرتهم وعذابهم .

وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يفيد أن المقصود أولا كونهم بهذه الحالة ، ولو أُخِّر لما أفاد هذا المعنى بالقصد الأول[٣].

وفي الآيتين الكريمتين ــ كما يقول صاحب الظلال ــ " تكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هذه النَّار مغلقة عليه، لا يُنقِذه منها أحد، ولا يَسأل عنه فيها أحد ! وهو موثَّق فيها إلى عمود كما تُوثَّق البهائم بلا احترام!

وفي جرس الألفاظ تشديد ... وفي معــاني العبــارات توكيــد بــشتى أســاليب التوكيــد: ﴿لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ فهذا الإجمال والإبهــام . ثــمَّ ســؤال الاستهوال . ثمَّ الإجابة والبيان... كلها من أساليب التوكيد والتضخيم"[٤]، والغاية من ذلك كلّــهِ كفُّ الإنسان عن الاغترار بكثرة المال ، واتخاذه وسيلة للتكبُّر على الآخــرين أو إيــذائهم ، وردعه عن حسبان أن ماله يُخلِّده في الدنيا، أو يزيد في عمره.

وقد بيَّن القرآن الكريم أنّ المال مهما كثُر لا يُعلي منزلة الإنسان عند الله ﷻ لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يُقرِّب إليه زلفى، وإنما يُقرِّب إليه الإيمان والعمل الصالح ، قــال ﷻ: ﴿ وَمَآ

---

(١) أخرجه الطبري ، جامع البيان ،٥٩٩/٢٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٥٣٩.

(٣) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٨٩/٣٢.

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٣٩٧٣/٦.

أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ:٣٧].

إنّ قيمة الإنسان لا تقاس بمالهِ ، وإنّما تقاس بإيمانه وأعماله ، وكم يُخطئ من يجعل قيمة الإنسان مرتبطةً بما يملك من مالٍ ! وقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنّ الرّسول ﷺ قَالَ :" إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" (١).

وما المال إلا ابتلاء وامتحان يُظْهِر ما في النّفوس من إتباع الهوى أو تجنُّبه، ويُبيِّن قوى الإيمان من ضعيفه، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال:٢٨].

فالمال بلاء واختبار، والنافع منه لصاحبه يوم القيامة ما قُصد به العون على طاعة الله ﷻ والتقرُّب إليه، وإلا فهو عليه وبال وحسرة ، ولن يُغني عنه من عذاب الله ﷻ شيئًا، وسيقول يوم القيامة متحسرًا: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٨].

---

(١)صحيح الإمام مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ،بَاب النَّهْيِ عَنْ الشَّحْنَاءِ وَالتَّهَاجُرِ،(٢٥٦٤)،٤/ ١٩٨٦.

الفصل الرابع:
المخاطبون بالرّدع في القرآن الكريم
المبحث الأول:
ردع المؤمنين.

المطلب الأول: الرّدع عن مخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ

المطلب الثاني: ردع المؤمن عن قتل المؤمن عمدًا

المطلب الثالث: الرَّدع عن الخوف في مجال الدعوة

المطلب الرابع: ردع المؤمنين عن القعود عن الجهاد

المبحث الثاني:
ردع الكافرين

المطلب الأول: ردع الكافرين عن أطماعهم واقتراحاتهم في الدنيا

المطلب الثاني: ردع الكافرين عن الادعاء بأنَّ القرآن أساطير الأولين

المطلب الثالث: ردع الكافرين عن الاستهزاء باليوم الآخر

المطلب الرابع: ردع الكافرين عن طلبهم عند الموت وأمنياتهم يوم القيامة

المبحث الأول:
ردع المؤمنين

المطلب الأول:
الرّدع عن مخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ

المطلب الثاني:
ردع المؤمن عن قتل المؤمن عمدًا

المطلب الثالث:
الرَّدع عن الخوف في مجال الدعوة

المطلب الرابع:
ردع المؤمنين عن القعود عن الجهاد

المطلب الأول:

الردّع عن مخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ

لقد أوجب الله ﷻ على عباده المؤمنين الطاعة المطلقة والانقياد لأمره ﷻ ، وأمر رسوله ﷺ في كل شأن من شؤون حياتهم ، ومما ورد في ذلك من الآيات القرآنية قوله عزّ من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣ ﴾ [محمد: ٣٣].

والانقياد والاستسلام لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ لا يتحقق بمجرد القول ، بل لا بد أن يقترن القول بالعمل ، سواء أكان المأمور به موافقًا للهوى ، أم مخالفًا له ، ولذلك نفى القرآن الكريم الإيمان عن الذين يُظهرون الإيمان والطاعة ، ولا يذعنون لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ إلا فيما يوافق أهواءهم ومصالحهم الخاصة ، قال الله ﷻ : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ ﴾ [النور:٤٧-٥٠].

ولما كان إظهار الإيمان مع المخالفة وعدم الامتثال لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ يُخرج صاحبه من دائرة الإيمان جاء ردع المؤمنين عن مخالفة أو إهمال أمر الله ﷻ وأمر الرسول

ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

صلة الآية بما قبلها

لما ذكرت الآية السابقة ـ وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥] ـ الأوصاف الجليلة لأهل الطاعة وهي: الإسلام ، والإيمان ، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، والعفاف، والذِّكر ، وما أعدَّ الله ﷻ للذين اتصفوا بتلك الأوصاف من الرجال والنساء من المغفرة والأجر العظيم، جاء في هذه الآية ردع المؤمنين والمؤمنات عن مُخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ ، والتي تؤدي إلى نفي الإيمان عنهم ، وتُخرجهم من عداد الذين أعدَّ الله ﷻ لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور بقوله:" والمناسبة تعقيب الثناء على أهل خصالٍ هي من طاعة الله ﷻ ، بإيجاب طاعة الله ﷻ والرسول ﷺ ، فلما أُعقب ذلك بما في الاتصاف بما هو من أمر الله مما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوّى في ذلك بين الرجال والنساء ، أعقبه ببيان أن طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به ويعتزم الأمرَ هي طاعة واجبة وأنها ملحقة بطاعة الله ﷻ وأن صنفي النَّاس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية"(١).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٢/٢٧.

سبب نزول الآية الكريمة

ذُكِرَ أن هذه الآية الكريمة نزلت بسبب زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ حين خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ﷺ ، فظنت أنه ﷺ يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد ﷺ أبت ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية فرضيت وسلّمت[١].

وذكر أبو حيان أن هذا قول الجمهور، وقال: وهو الأصح [٢]، وكذا قال ابن عجيبة[٣].

ولئن نزلت الآية بسبب قصة زينب ، أو لم يكن لها سبب نزول فإنها تعم المؤمنين والمؤمنات في كل عصر ومصر ، وتشمل كلَّ شأن من شؤون حياتهم ؛ فإذا جاء أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ في مسألة من المسائل فليس لمؤمن ولا مؤمنة غير السمع والطاعة.

قال ابن كثير: "هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنَّه إذا حكم الله ﷻ ورسوله ﷺ بشيء ، فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا اختيار لأحدٍ هاهنا، ولا رأي ولا قول ، كما قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥] "[٤].

وقال صاحب الظلال ما مفاده: وهذه الآية أشمل وأوسع وأبعد مدى من أي حادث خاص يكون قد نزل فيه. وأنها تقرر كلية أساسية ، أو الكلية الأساسية ، في منهج الإسلام[٥]!

---

(١) الإمام الطبري ، جامع البيان ، ٢٠/٢٧١ ، ابن العربي ، أحكام القرآن ، ٣/٤٩٠، السيوطي ، لباب النقول في أسباب النزول، ١٥٩، وقال الهيثمي :رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجالُ الصحيح .[مجمع الزوائد ،٣/٢٠٢]

(٢)أبوحيان، البحر المحيط،٧/٢٣٣.

(٣)ابن عجيبة، البحر المديد، ٦/٢٩.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/٤٧١.

(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٥/٢٨٦٨.

افتتاح الآية بـ﴿وَمَا كَانَ﴾

وبدئت الآية بـ(ما كان) لتردع المؤمنين عن اختيار أو تقديم أمر من أمور حياتهم على أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ ؛ ليمتثلوا وينقادوا لأوامر الله ﷻ بكل حزم وعزم، بلا تردد ، ولا تسويف ، ولا مصلحة ، ولا هوى نفس ، وينالوا بذلك رضا الله ﷻ.

وقد سبق أن ذكرت أن هذا التركيب وإن كان يدل على النفي إلا أنه يخرج عن ذلك للدلالة على معانٍ أخرى ، منها الرّدع والزّجر، وأنّه يُؤتى به للرّدع عن الأمر بأبلغ الوجوه ، فليس من شأن المؤمنين رجالاً ونساءً أن يُخالفوا أوامر الله ﷻ ورسوله ﷺ ابتداء البتة ، وإنما شأن المؤمنين أن يقولوا : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ [البقرة:٢٨٥] ، أمّا المخالفة فهي أمر مستبعد غير متصور ؛ فالمؤمنون ما دام أنهم استسلموا وخضعوا للأمر، والإيمان قد باشر قلوبهم، لا يُتصور أنْ يتركوا أمر الله ﷻ، أو أمر رسوله ﷺ ويختاروا غيره.

قال ابن عطية: "﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظه لفظ النفي ، ومعناه : المنع والحظر من فعل هذا، وهذه العبارة تجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون"[1]، ولهذا كان التعبير بهذا التركيب "تعبيرًا قويًا في أداء المعنى ؛ لأن فيه أثرةَ غضبٍ ، ونبرةَ تهديد من حيثُ أفادَ أن الشأنَ في المؤمن والمؤمنة الاستجابة ، والإذعان لأمر الله ﷻ ، والتسليم بِحُكمه وقضائه في كلّ أمرٍ من أُمور الحياة ، جليلها وصغيرها ، فإذا كانت هنا محاولة من الفرد أو من الجماعة ، تبحث عن أمرٍ ترى فيه الخير والنّفع ، بعد سماع الحسم فيه بالقضاء ، كان ذلك خلعًا لشريعة الإيمان ، وخروجًا من دائرة اليقين"[2].

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣٨٥/٤ ، وانظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،١٢١/١٤.

(٢) محمد أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني،٣٢٦.

وما من شك أن انتفاء صفة الإيمان عن المخالف لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ يردع المؤمن الصادق عن أن يختار لنفسه خلاف ما بلغه وسمعه من أمر الله ﷻ أو أمر رسوله ﷺ ، ولهذا لمّا نزلت الآية الكريمة ارتدعت زينب بنت جحش وأخوها ــ رضي الله عنهما ــ عن اختيارهما ، وامتثلا لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ ونفذاه فورًا.

ولما خَطَبَ النبي ﷺ عَلَى جُلَيْبِيبٍ ــ وكانت فيه دمامة وقصر ــ امرَأَةً مِنْ الأنصار إِلَى أَبِيهَا فَقَالَ : حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَنَعَمْ إِذًا". فذهب الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها، فقالت: مَا وَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ إلا جُلَيْبِيبًا ، وقد منعناها فلانًا وفلانًا ؟ فسمعت ابنتُهما بما أراد رسول الله ﷺ من ذلك ، فتلت : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ . وقالت: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ ؟! إِن كان قَد رَضِيَهُ لَكُم فَأَنْكِحُوهُ ، فَكَأَنَّهَا جَلَّت عَن أَبَوَيهَا، وَقَالا: صَدَقْتِ ، فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ :إِن كُنْتَ قد رَضِيتَهُ فقد رَضِينَاهُ[1].

وبهذا تكون الجارية قد رضيت بما رضيه النبي ﷺمخالفة بذلك هوى النفس ، وتكون أم الجارية قد ارتدعت ، وسلَّمت لما رضيه الرسول ﷺ لابنتِها من تزويجها جُلَيْبِيبًا ، وهذا هو شأن المؤمنين ؛ يُذعنون لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ في كلِّ حالٍ قائلين : سمعنا وأطعنا ، وهم المفلحون لا غيرهم ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

---

(١) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، دار الجيل ــ بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ، ٢٧٢/١، الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ٩/ ٦١٥، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، وهذا يظهر أن قصة زواج جليبيب كانت بعد نزول الآية خلافًا لما قيل من أنها نزلت بسببها.[انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧١، سيد قطب ، في ظلال القرآن، ٥/٢٨٦٦].

معنى ﴿قَضَىٰ﴾

و﴿قَضَىٰ﴾ : يأتي في اللغة على وجوه كلُّها ترجِعُ إلى معنى قطع الشيء وإتمامه ، فيطلق مثلاً على الحتم والأمر ، ومنه قوله ﷻ : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۝٢٣﴾ [الإسراء:٢٣] ، معناه : أمر لأنه أمر قاطع حتم.

وعلى الإعلام ، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۝٤﴾ [الإسراء:٤] ؛ أي : أعلمناهم إعلاما قاطعًا.

وعلى القطع والفصل في الحكم ، ومنه قوله ﷻ : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۝١٤﴾[الشورى: ١٤] ؛ أي: لفصل وقطع الحكم بينهم . ومن ذلك قولهم : قضى القاضي بين الخصوم ؛ أي : قد قطع بينهم في الحكم.

وعلى الأداء ، يُقال : قضى فلان دَينه ؛ أي : قطع بالعزيمة عليه وأداه[1].

فقضاء الأمر : حكم الله ﷻ [2] الذي قطعه وفصَّله ، وأعلم به إعلامًا قاطعًا بواسطة الرسول ﷺ ، إذ هو النّاطق بقضاء الله ﷻ والمبلغ عنه : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤] ، وعلى هذا يكون الردّع عن مخالفة الأمر الذي فَصَّل الله ﷻ فيه ، وبلَّغه الرسول ﷺ وأعلم به .

---

(١) الأزهري ، تهذيب اللغة ، ٩/٢١١-٢١٢ ، الثعالبي ، فقه اللغة ، المكتبة العصرية – بيروت ، ط١،١٩٩٩م ،٢٥٩، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة(قضي)،١٥/١٨٦.

(٢) هذا هو القضاء الشرعي، أما القضاء الكوني فهو:إيجاد الله ﷻ للأشياء حسب علمه وإرادته، ومنه قوله تعالى : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢]،[انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية ،٥٠٥-٥٠٦، محمد نعيم ياسين، الإيمان ، ط٣، ١٩٨٢م،١٢٥]، وقد ذكر الراغب الأصفهاني الفرق بينه وبين القدر ، فقال : "القضاء من الله ﷻ أخصُّ من القدر ؛ لأنَّه الفصل بين التّقدير ، فالقدر هو التّقدير ، والقضاءُ هو الفصل والقطعُ .[المفردات ،٤٠٧].

قال الآلوسي عند تفسيره لقوله تعالى :﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ ؛ "أي : قضى رسول الله ﷺ ، وذكر الله ﷻ لتعظيم أمره بالإشارة إلى أنَّه ﷺ بمنزلة من الله ﷻ بحيث تُعدُّ أوامره أوامر الله ﷻ ، أو للإشعار بأنَّ ما يفعله ﷺ إنَّما يفعله بأمره لأنه لا ينطق عن الهوى"[١].

معنى ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾

و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ : اسم من الاختيار يُقام مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضًا، يقال: محمدٌ ﷺ خيَرَةُ الله ﷻ من خَلْقِهِ. والخيرَةُ والخِيَرَةُ ما تختاره ، والاختيارُ: الاصْطِفاءُ ، وكذلك التَّخَيُّرُ[٢].

فالخِيَرَةُ اختيار شيءٍ على غيره ، قال الواحدي:﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ : الاختيار ، فأعلم أنَّه لا اختيار على ما قضاه الله ﷻ ورسوله ﷺ"[٣]، وهذا ما قاله ابن الجوزي[٤] [٥].

ولعلَّ مجيءَ لفظ (الخِيَرَة) وإيثاره على لفظ (الاختيار) يُشير إلى الرَّدع عن أقل القليل من الاختيار ؛ فلفظ "(الاختيار) أكثر حروفًا ، وأوفر معنىً ، و(الخِيَرَةُ) أقلُّ حروفًا، وهم يقولون : إنَّ زيادة المبنى تدل غالبًا على زيادة المعنى ، والآية الكريمة تنفي أقلَّ قَدْرٍ من الاختيار بعد ما يقضي الله ﷻ ورسوله ﷺ ، فناسب ذلك أنْ يذكر (الخِيَرَةُ)"[٦].

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني،٢٢/٢٢.

(٢) البغوي ، معالم التنزيل ،٢١٨/٦، وانظر ابن منظور، لسان العرب، مادة(خير) ٢٦٤/٤.

(٣) الواحدي ، الوجيز ،٨٦٦/٢.

(٤) هو : عبد الحمن بن أبي الحسن ، أبو الفرج ، فقيه حنبلي ، مفسر ، بغدادي ، كان علامة عصره ، من مصنفاته : زاد المسير، المنتظم ، الموضوعات ، نواسخ القرآن ،توفي عام (٥٩٧هـ) .[ابن خلكان ،وفيات الأعيان ،١٤٠/٣ وما بعدها ،الزركلي، الأعلام ، ٣١٦/٣].

(٥) ابن الجوزي ، زاد المسير ،٣٨٦/٦.

(٦) محمد أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني ،٣٢٧.

ولما كان قوله ﷻ:﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يُفيد عموم جميع المؤمنين والمؤمنات ، إذ همـا نكرة ووقعا في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم ، جاء الضميران في قوله ﷻ: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾بصيغة الجمع ، فرجعا إلى المعنى لا إلى لفظ مؤمن ومؤمنة [١].

و﴿مِنْ﴾تبعيضية ، والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم مِلْكًا يملكونه، بل يتعين علـيهم إتباع ما قضى الله ﷻ ورسوله ﷺ فلا خيرَة لهم[٢].

وربما يكون في هذا إشارة إلى أن الرَّدع عن مخالفة ما قضى الله ﷻ ورسوله ﷺ يشمل كلَّ فرد من أفراد المؤمنين ، ويشمل أيضًا جماعةَ المؤمنين ؛ " فكما لا يصح لكلِّ فرد من المؤمنين أن يكون لهم الخيَرَةُ ، كذلك لا يصح أن يجتمعوا ويتفقوا علـى كلمـة واحـدة ؛ لأن تـأثير الجماعة، واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد" [٣]؛ فكلُّ ما قضاه الله ﷻ ورسوله ﷺ ملزم للفـرد ، وملزم للجماعة على حدٍّ سواء ، والكلُّ مُطالب بالارتداع عن مخالفة ذلك واختيار غيره .

وقد استدل الجصاص بهذه الآية على وجوب جعل اختيار المؤمنين تَبَعًـا لأوامـرَ الله ﷻ ورسوله ، فقال ما نصه : "وقوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فيه الدلالة على أن أوامرَ الله ﷻ وأوامرَ رسوله ﷺ على الوجـوب ؛ لأنَّهُ قد نفى بالآية أن تكون لنا الخيَرَةُ في ترك أوامرِ الله ﷻ وأوامرِ الرسول ﷺ ولو لم يكـن على الوجوب لَكُنَّا مُخَيَّرِينَ بين التَّرك والفعل ، وقد نفت الآية التَّخْيير" [٤].

---

(١) انظر: النسفي ، مدارك التنزيل،٤٤٢/٣ ، أبو حيان، البحر المحيط ،٢٣٤/٧ ، الخطيب الشربيني، السراج المنير،٣١٤/٣، ابن عجيبة، البحر المديد،٢٩/٦ ، الشوكاني، فتح القدير ، ٢٨٢/٣.

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢٨/٢٢.

(٣) الآلوسي ، روح المعاني، ٢٣/٢٢.

(٤) الجصاص ، أحكام القرآن، ٤٧١/٣.

تخويف مَن لم يمتثل لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ

ولزيادة الردّع خوّف الله ﷻ مَن يُخالف أمـرَه ، فقـال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ ، فمن عصى الله ﷻ ورسوله ﷺ فخالف أمرهما؛ فقد ضلّ عن الحقّ؛ وعدل عن الطريق المستقيم الموصل إلى السلامة والنجاة (١).

وقد جاء إسناد الضلال للعاصي مؤكدًا بثلاثة مؤكدات ، هي: (قد) الدالـة علـى التحقيـق، وبعدها الفعل الماضي المعبَّرُ به عن المستقبل ، ثم المصدر ﴿ضَلَٰلًا﴾ ، ثم وَصْفُ هذا المصدر بأنّه مبين ؛ فهو ضلال مؤكد ، وظاهر لا خفاء فيه ، وعاقبته الشقاء والخـسران، والعـذاب الأليم، ولهذا فإن المؤمن يسأل ربّه في كلّ ركعة من صلاته الهداية إلى الصراط المستقيم ، قـائلاً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ [الفاتحة:٦ -٧].

ولعلّ مما تحسن الإشارة إليه هنا أن "العصيانَ إذا كان عصيانَ رد وامتناع عن القبول فهو ضلالُ كفرٍ ، وإن كان عصيانَ فعلٍ ، مع قبول الأمر ، واعتقاد الوجوب ، فهو ضلالُ فسق"(٢).

وقد بيَّن الحقُّ ﷻ جزاء عصيان الردّ والامتناع عن الامتثال لأمره ﷻ وأمر رسـوله ﷺ ، فقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝ ﴾ [الجن: ٢٣].

وأمر الله ﷻ عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، وحذرهم من التولي والإعـراض عنه ، والتشبه بالكافرين به ، فقال عزّ من قائـل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا

---

(١) قال الراغب الأصفهاني :الضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويُضاده الهداية. [المفردات ، ٣٠٠].

(٢)ابن عجيبة، البحر المديد،٢٩/٦.

تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ﴾[الأنفال: ٢٠-٢١].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : "يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ؛ ولهذا قال:﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ ؛ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ؛ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه" (١).

وقال ابن العربي:" هذه الآية بيانٌ شافٍ وإيضاح كافٍ في أنَّ القول لا يكون إلا بالعمل ، وأنَّهُ لا معنى لقول المؤمن : سَمِعْت وَأَطَعْت ، ما لم يَظْهَرْ أَثَرُ قوله بامتثال فعله؛ فأما إذا قَصَّرَ في الأوامر فلم يأتها ، واعتمد النَّواهي بِاقْتِحَامِهَا فأيُّ سمعٍ عنده ؟ أو أيُّ طاعةٍ له ؟ وإنَّما يكون حينَئِذٍ بمنزلة المنافق الذي يُظْهِرُ الإيمانَ ، ويُسِرُّ الكفر، وذلك هو المراد بقوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ... ﴾ الآية. يعني بذلك المنافقين ، فالخِبْرَةُ تكشف التلبيس ، والفعلُ يُظْهِرُ كَمَائِنَ النفوس"(٢).

إنَّ مخالفة أمر ربِّ العالمين في أمر من الأمور التي قضى فيها ، سواء أكان على مستوى الفرد ، أو على مستوى الجماعة ، يعقبه الضلال ، والضنك ، والضّعف ، والهوان ... ولذلك فإنَّ المؤمنين إذا أرادوا الخروج في هذا العصر مما هم فيه من شقاء ، وذلة ... وجب عليهم الإذعان والامتثال لأمر ربِّ العالمين ، وأمر رسوله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين ، والارتداع عن كلِّ ما يخالف أوامرهما ، قال ربُّ العزَّة ﷻ:﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧١].

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ٢/٢٨٤.

(٢) ابن العربي، أحكام القرآن ، ٢/٣٢٩.

المطلب الثاني:

ردع المؤمن عن قتل المؤمن عمداً

أكرم الله ﷻ النفس المؤمنة، فأكد حرمتها وتحريمها في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ ، يقول الله ﷻ مخاطبًا عباده المؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء:٢٩] ، فقد "جعل الله ﷻ أهل الإسلام كلّهم بعضَهم من بعض ، وجعل القاتل منهم قتيلاً ــ في قتله إياه منهم ــ بمنزلة قَتله نفسه"[1]؛ فهم كالجسد الواحد ، وقتل المؤمن قطع لعضو من أعضاء هذا الجسد.

وقد جاء التحذير والنهي عن قتل النفس المؤمنة بغير حق ضمن الوصايا العشر والتي جمعت أبواب الخير، وأغلقت أبواب الشر ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام:١٥١].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ :" لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ"[2].

---

(١) الإمام الطبري، جامع البيان ،٨/٢٢٩، وذكر الماوردي معنى آخر في الآية الكريمة ، قال والمعنى الثاني: نهى أن يقتل الرجل نفسه في حال الغضب والضجر .[انظر: النكت والعيون، ١/٤٧٤] .

(٢)صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قوله ﷻ :﴿ أن النفس بالنفس﴾ برقم: (٦٤٨٤)،٦/٢٥٢١، صحيح مسلم، كتاب القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم ، رقم: (١٦٧٦)،٣/١٣٠٢.

ومما يدل على عِظَم حُرمة دم المؤمن ، وشِدَّة قبحِ المعتدي عليه ، أن قتل نفسٍ واحدة حرَّمها الله ﷻ بمثابة قتل النَّاس جميعًا ، وأنَّ إحياء النفس الواحدة مثل إحياء النَّاس جميعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

ولما كان قتل النفس المؤمنة بغير حقٍّ من أعظم الجرائم وأخطر الذنوب التي تنافي الإيمان الصادق ، وأن مثل هذه الجريمة تهدد أمن المجتمع واستقراره وسلامة أفراده ، ولا تُرتَكَبُ والقاتل بكامل إيمانه ، جاء ردَّع المؤمنين عن ذلك ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

مناسبة الآية لما قبلها

يقول الآلوسي مشيرًا إلى مناسبة الآية لما قبلها: "قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين والمنافقين"[(١)]، وقريبًا من هذا قال ابن عاشور[(٢)].

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني ، ١١٢/٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ١٥٦/٥.

فلما ذكرت الآيات السابقة ــ وهي قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴿٨٨﴾﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٨٨ ــ ٩١] ــ بعض أحوال المنافقين ــ الذين وقعوا في الكفر ، والضلال بسبب سوء أعمالهم ــ ومواقفهم المخزية ، ومن يجوز قتاله ومن لا يجوز [١]، جاء الرّدع عن قتل المؤمن الصادق في إيمانه بغير حقٍّ.

افتتاح الآية بـ﴿وَمَا كَانَ﴾

وقد بدئت الآية الكريمة بـ(ما كان) للمبالغة في الرّدع عن قتل المؤمن بغير حقٍّ ، وتغليظ الزّجر عنه ، قال البقاعي:" أخرجه في صورة النفي المؤكد بالكون لتغليظ الزجر عنه ؛ لما للنفوس عند الحظوظ من الدواعي إلى القتل"[٢]، ولما للمؤمن من كرامةٍ ، وحرمة عند الله ﷻ.

لقد أفاد هذا التركيب أنّ الشأن في المؤمن أن تنتفي عنه وجوه قتل المؤمن أبدًا ، إلا إذا وقع منه ذلك بطريق الخطأ ؛ فالمؤمن الذي ملأ الإيمانُ قلبه ، ووقر في فؤاده ، وظهر في أفعاله ، يبتعد عن كلّ ما يخدش إيمانه ، ولا ريب أنّ قتل النفس المؤمنة عمدًا جريمة عظمى ، وكبيرة من الكبائر التي تنافي الإيمان ، بل لا يُقدم عليها إلا من خلا قلبُه من الإيمان.

---

(١)استُثني من القتل فريقان: فريق يلجأون إلى قوم عاهدوا المسلمين فينضموا إليهم، فيكون لهم حكم أولئك في حقن دمائهم ، وفريق آخر ضاقت صدورهم عن قتال المسلمين، وقتال قومهم ، وأحبوا ترك قتال الفريقين.

(٢) البقاعي، نظم الدرر،٢/٢٩٦.

ولذلك كان الحفاظ على النفس المؤمنة ، وعدم قتلها من صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ فقد أثنى الله ﷻ على عباد الرحمن ، ووصفهم بأوصاف عزيزة ، منها: عدم الإشراك به ﷻ ، وعدم قتل النفس المحرَّم قتلها ، فقال ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

ولا يعني ما تقدم جواز قتل الكافرِ المؤمنَ ، وإنَّما خُصَّ بالذكر لفائدة ذكرها ابن العربي بقوله :" فإن قيل: فهل هو جائزٌ للكافرِ؟ فإن قُلتم : نعم ، فقد أحللتم ، وإنْ قلتم: لا، فقد أبطلتم فائدة التخصيص بالمؤمن بذلك ، والكافرُ فيه مِثْلُهُ.

قلنا: معناه إن المؤمنين أبعَدُ من ذلك بِحنانِهم وَأُخوَّتِهم وشفقتهم وعقيدتهم؛ فلذلك خُصَّ المؤمن بالتأكيد ، ولما يَتَرَتَّبُ عليه من الأحكام"[1].

معنى: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾

والخطأ هو الاحتمال الوحيد ، وهو الحالة المستثناه من عموم استبعاد قتل المؤمن أخاه المؤمن ، يقول الإمام الطبري:" وأما قوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾فإنه يقول: إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ، وليس له مما جعل له ربُّه فأباحه له. وهذا من الاستثناء المنقطع"[2]،وهذا ما قاله النحاس[3]، ونسبه ابن عطية إلى جمهور أهل التفسير ، وذكر أن هذا الاستثناء المنقطع بمعنى (لَكِن) ، وتقديره : لكن الخطأ قد يقع [4]، ثم قال: "ويتجه في معنى الآية وجه آخر ، وهو أن تقدر (كان) بمعنى استقر ووجد، كأنه قال: وما وجد ولا تقرر ولا ساغ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن ،٤٨٩/١.

(٢)الإمام الطبري، جامع البيان، ٩/ ٣٠ -٣١.

(٣) انظر: النحاس ، معاني القرآن ،١٥٨/٢.

(٤) ابن عطية ،المحرر الوجيز ،٢٦٨/٣.

﴿يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، إذ هو مغلوب فيه أحيانًا، فيجيء الاستثناء على هـذا غيـر منقطـع وتتضمن الآية على هذا إعظام العمد وبشاعة شأنه كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسيًا ؛ إعظاما للعمد والقصد مع خطر الكلام به البتة"[١].

والخَطَأ : ما ليس للإنسان فيه قصد[٢] ، وهو اسم من أَخْطَأَ خَطَأً وإِخْطاءً[٣]، يقال لمـن أراد فعل ما يَحسُن فعله ففعل غيره : أخطأ إِخْطاءً فهو مخطئ ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطـأ في الفعل [٤].

والقتل الخطأ: "أن تَقْتُلَ إنسانًا بفعلك من غير أنْ تَقْصِدَ قَتْلَه ، أو لا تَقْصِد ضرْبَه بما قَتَلْتَـه به"[٥] ، فهذا القتل لا يكون عن سبق إصرار وترصد ، ولا يكون مرتكبه حين وقوعه على علم بذلك ، بل لا يدري به القاتل إلا بعد أن يقع ، وهذا يؤكد حقيقة عدم إقدام المؤمن الصادق على قتل النفس عمدًا.

ووجوه الخطأ كثيرة ومتعددة ، ويجمعها عدم قصد القتل وإرادته ، وأكثرها في هذا العصر حوادث السير.

والواجب على المؤمن أن يمتنع عن كلِّ ما يُفضي إلى قتل النفس المحرَّم قتلها ، فعن أبـي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: " لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ"[٦].

---

(١) ابن عطية ،المحرر الوجيز ،٢٦٨/٣.

(٢) الجرجاني، التعريفات ، ١٣٤،

(٣) انظر:ابن منظور، لسان العرب ،مادة(خطأ)،٦٥/١.

(٤)انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ١٥٦.

(٥)ابن الأثير ،النهاية في غريب ،١١٣/٢.

(٦) صحيح الإمام مسلم ،كتاب البر والصلة ،باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ،رقم(٢٦١٧)،٢٠٢٠/٤.

ما يجب على القاتل خطأ

وقد أوجب الله ﷻ الكفارة والدية على قاتل النفس المؤمنة خطأ ، ولعلّ من حِكم ذلك الـردّع عن التهاون باتخاذ الاحتياطات الكافية ، والتقصير بالتدابير الوقائية اللازمة ، والتي تحول دون وقوع قتل النفس المؤمنة خطأ، وهذا ما ألمح إليه ابن العربي بقوله : " الكفارة إنما هي زجـرٌ عن الاسترسال وتَقَاةٍ للحذر "[١].

وقد أوضحت الآية الكريمة أنّ للقتل الخطأ ثلاثَ حالاتٍ ، وهي على النحو الآتي:

أولاً : أن يقع القتل الخطأ على مؤمن أهله مؤمنون ، والواجب على القاتل في هـذه الحالـة الكفارة ، ودفع الدية إلى أهل القتيل ، قال ﷻ : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ ؛ أما الكفارة فهي تحرير رقبة مؤمنة ؛ أي : جعلها حُرّة ، والرقبة يُعبَّر بها عن جميع الذات ، وجُعلت في التّعارف اسمًا للمماليك[٢]؛ فالرقبة هنا مقيدة بـ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ ، ولـم يكن هذا التقييد في غيرها كما في الظهار ، ولعلّ في هذا التقييد زيادة في الرّدع عن قتل النفس المؤمنه بغير حقٍّ ؛ فكما أوقع القاتل خطأ المجتمع المسلم بخسارة نفس مؤمنة فإنـه مطالـب بتعويض هذا المجتمع بنفس مؤمنة مماثلة.

وأمّا الدية فهي المال الذي يُسلَّم لأهل القتيل عوضًا لهم عن دم قتيلهم[٣]، ولـم تبـين الآيـة الكريمة مقدار ما يعطى في الدية، ولا من أي شيء تكون، وتفصيل ذلك يطول ، وليس مجاله

---

(١)ابن العربي ، أحكام القرآن ، ٤٩٦/١.

(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٢٠٦.

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٥٠٧/١ ، المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف ، ٣٤٥.

هنا[١]، والمهم أن الديّة يجب أن تُسلَّم إلى أهل القتيل إلا أن يتصدقوا ، فيعفوا، ويتركوا الدية ، فلا تجب حينئذٍ.

ثانيًا: أن يقع القتل الخطأ على مؤمن ، ولكن أهله معادون للإسلام ، والواجب في هذه الحالة الكفارة، وهي إعتاق رقبة مؤمنة ، ولا دية لأهله، قال ﷻ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾،حتى لا تكون الدية عونًا لأعداء الإسلام على مقاتلة المسلمين.

ثالثًا: أن يقع القتل الخطأ على مؤمن أهله أهل ذِمَّة أو هُدنة ، والواجب على القاتل في هذه الحالة الكفارة ، ودفع الدية كاملة ، قال ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[٢].

وإنّما يجب على القاتل إعتاق الرقبة المؤمنة إذا كانت له القدرة على تحصيلها، فإن عجز عن ذلك ـ كما هو الحال في الزمن الحاضر ـ فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين لا إفطار بينهما، قال ﷻ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ ، والتعبير بالتوبة فيه إشارة إلى القاتل خطأ ملوم ؛ لأنه لم يتحرز ، وكان ينبغي له أن يتحرى ويتحفّظ [٣].

---

(١) قال القرطبي ما ملخصه: ثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن الدية مائة من الإبل، واختلف العلماء فيما يجب على غير أهل الإبل؛ فقيل :على أهل الذهب ألف دينار ، وأما أهل الورق فاثنا عشر ألف درهم ، وعلى أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل الشياه ألف شاة ، وقالت طائفة : دية الحر المسلم مائة من الإبل لا دية غيرها . وفي أسنان الإبل خلاف بين العلماء.وثبتت عن النبي ﷺ أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة، وأجمع أهل العلم على القول به.وأجمعوا على أن الدية على العاقلة لا تكون إلا في ثلاث سنين ولا تكون في أقل منها.وأجمعوا على أنها على البالغين من الرجال.[انظر:الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٢٠٣-٢٠٨].

(٢) قال ابن العربي:من قتل كافرًا خطأ، وله عهد ففيه الدية إجماعا ، ومبنى الديات في الشريعة على التفاضل والتفاوت ؛ لأنه حق مالي يتفاوت بالصفات، بخلاف القتل، لأنه لما شرع زجرًا لم يعتبر فيه ذلك التفاوت، فإذا ثبت هذا نظرنا إلى الدية فوجدنا الأنثى تنقص فيه عن الذكر؛ ولا بد أن يكون للمسلم مزية على الكافر؛ فوجب ألا يساويه في ديته ، وزاد الشافعي فجعل دية الكافر ثلث دية المسلم ؛ لأن المسلمة فوق الكافر الذكر، فوجب أن تنقص ديته عن ديتها.[أحكام القرآن ، ١/ ٤٩٧] .

(٣) انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،٥/٢١١، الشنقيطي ، أضواء البيان ،٤/١٠٥.

وقد جاءت تذييل الآية الكريمة ــ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ــ متناسبًا كل التناسب مع موضوع الآية وغرضها الذي سيقت من أجله ؛ فالآية تتحدث عن القتل الخطأ، وليس للبشر إلا الظاهر ، فربما يقع القتل عن قصد من القاتل ، ويُظهر للناس غير ذلك ، والله ﷻ هو الذي يعلم مَنْ يقصد القتل ومَنْ لم يقصده ، وهو ﷻ الذي يعلم ما يَصلح لعباده ويُصلحهم ، ثمّ إن الصيام أمر متروك بين القاتل وبين ربّه عالم السر وأخفى.

وهو ﷻ الحكيم في أحكامه وتشريعاته، ويضع كلَّ حُكم في محلّه... ومن حكمته ﷻ أن أوجب على كلِّ مَنْ قتل مؤمناً خطأً الكفارة والدية ؛ ليكون رادعًا عن قتل النفوس المؤمنة ، ومانعًا عن التقصير بالأخذ بالأسباب الواقية من الوقوع في ذلك.

المبالغة في الرّدع عن قتل المؤمن عمداً

وبعد بيان حكم القاتل خطأً وما يجب عليه، يأتي تغليظ "وعيد قاتل المؤمن عمدًا للمبالغة في الرَّدع والزَّجر"[1]، يقول جلّت حكمته: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النساء:٩٣].

والعَمْدُ: ضِدُّ الخطأ، من عمَدَ الشيء، إذا قصَدَه ، والمتعمِّد : القاصد إلى الشيء[2]، والقتل العَمْدُ عند الجمهور ــ كما قال الشوكاني وغيره ــ: "كل قتلٍ من قاتلٍ قاصدٍ للفعلِ ، بحديدة، أو بحجر، أو بعصى ، أو بغير ذلك"[3]مما يمكن استعماله بقصد إزهاق نفسٍ مؤمنة بغير حقٍّ.

---

(١) الواحدي، الوجيز، ٢٨٢/١.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٣٤٩، ابن منظور ، لسان العرب مادة(عمَدَ)٣، ٣٠٢/.

(٣) الشوكاني ، فتح القدير، ٤٩٨/١ ، وانظر مثلاً:ابن جزي، التسهيل ١٥٣/١، الثعالبي، الجواهر الحسان، ٤٠١/١.

وقد هددت الآية الكريمة مَنْ يقتل مؤمنا متعمدًا بأشدِّ أنواع العقاب ، وأفضع أنواع العذاب في الدار الآخرة ؛ فقد توعدته بأربع عقوبات أُخروية رادعة لأولي النُّهى عن مجرد التفكير في قتل نفس حرَّم الله ﷻ قتلها:

أولها: الخلود في نار جهنّم: ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، ومن دخل نار جهنّم ، فقد أخزاه الله ﷻ وفضحه ؛ ولذلك وصف الله ﷻ المؤمنين أولي الألباب بما وصفهم به ، وأخبرنا أنهم يقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾[آل عمران: ١٩١– ١٩٢] .

وإذا كان دخول نار جهنّم خزي[1]وفضيحة مخجلة، فكيف بمن يكون مصيره الخلود فيها ؟!

وثانيها : إحاطته بغضب الله ﷻ وسخطه :﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ ، ومَنْ حلَّ عليه غضب الله ﷻ فهو هالك لا محالة ،قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١] ، قال النسفي: أي: "هلك أو سقط سقوطًا لا نهوض بعده ، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك ، وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حفرة من حفر النيران"[٢]. والقاتل عمدًا سقط من شرف الإيمان إلى غضب العزيز الجبّار.

وثالثها : اللعن من الله ﷻ :﴿وَلَعَنَهُۥ﴾، ومن لعنه الله ﷻ فطرده من رحمته فلا ينصره ، ولا يمنع عنه آثار اللعنة أحد ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥٢] ، يقول

---

(١)الخِزْي: انكسار يلحق الإنسان إمّا من نفسه وإمّا من غيره. فالذي من نفسه هو الحياءُ المفرِط ،ومصدره الخَزاية، والذي يلحقه من غيره هو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخِزْي. [الراغب الأصفهاني، المفردات ،١٥٣].

(٢)النسفي، مدارك التنزيل،٩٥/٣.

الإمام الطبري : ومَنْ يلْعَن اللهُ ﷻ فيبعده من رحمته فلن تجد له ناصرًا ينصره من عقوبة الله ﷻ ولعنته التي تحلّ به ، فيدفع ذلك عنه [١].

ورابعها : العذاب العظيم الذي لا تبلغ معرفته العقول : ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ، وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه لكثرته سوى الله ﷻ [٢].

فهذه أربعة أنواع من العقوبات الأخرويّة ، خُصّ بها قاتل المؤمن عمدًا ، ولم يُتوعد بها غيره، والواحدة منها- فضلا عن كونها مجتمعة - تردع المؤمن عن هذا الذنب العظيم ، الذي هو مقرون بالشرك بالله ﷻ في غير ما آية في القرآن الكريم ، ويزيده امتثالاً للكفّ عنه ؛ فليس في الدنيا كلِّها ما يستحقُّ قتل نفسٍ بغير حقٍّ لأجله ، وليس في الدنيا كلِّها ما يُنجي ذلك القاتل من عقاب الله ﷻ وأليم عذابه.

ومما يزيد في الرّدع أن الآية الكريمة لم تذكر التوبة بعدها خلافًا للآيات التي تحدثت عن كبائر أخرى ، حتى إن العلماء اختلفوا في توبة قاتل النفس المؤمنة عمدًا[٣].

ومع هذه العقوبات الأخروية الشديدة التي ترجف لها القلوب هناك عقاب دنيوي للقاتل عمدًا ، سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم ــ إن شاء الله ﷻ .

فعلى مَن أراد النجاة من هذه العقوبات ألا يقتُل نفسًا بغير حقٍّ ، ولا يُعين على قتلها بشكل أو بآخر ، فقد روى ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن الرسول ﷺ أنّه قال : "لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"[٤]. فلا يزال المؤمن في سعة من رحمة الله ﷻ طالما أنّه لم يقتل نفسًا حرّم الله ﷻ قتلها.

---

(١) الإمام الطبري، جامع البيان، ٤٧١/٨ .

(٢) الإمام الطبري، جامع البيان، ٥٧/٩.

(٣) انظر: ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ٥٠٨/١ ــ٥١٠.

(٤) صحيح الإمام البخاري ، كتاب الديات ، رقم: (٦٤٦٩)،٢٥١٧/٦.

المطلب الثالث:

الرّدع عن الخوف في مجال الدعوة

إن من طبيعة النفس الإنسانية أن يعتريها شيء من الخوف، والذي هو "توقع حلول مكروه أو فوات محبوب"[١]، وهذا الخوف الجبلي الطبيعي الذي يجده الإنسان بطبيعته نتيجة لتوقع حصول مكروه له أو فوات مرغوب فيه يرد حتى على الفضلاء وأهل الصلاح ، وهو على درجات متفاوتة ، ولا ينافي الإيمان ، ولا يقدح في الخشية من الله ﷻ ، قال الآلوسي: الخوف الجبلي من الأمور المخوفة لا يدخل تحت التكليف والخطاب والنهي"[٢].

وعلى هذا يمكن الحديث عن الرّدع عن الخوف في مجال الدعوة إلى الله ﷻ من خلال الأمور الثلاثة الآتية:

أولاً : الرّدع عن الخوف من حصول مكروه و فوات مرغوب

لقد اصطفى الله ﷻ سيدنا موسى عليه السلام واختاره نبيًّا ورسولاً إلى بني إسرائيل ، وكلّفه بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه .

وكان فرعون قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد في الأرض ، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤] ، وبلغ طغيانه وتعدّيه حدوده في أقبح صورة ، وذلك عندما ادعى الألوهية ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) الجرجاني ،التعريفات ،١٣٧، المناوي ، التعاريف ،٣٢٨.

(٢) الآلوسي ، روح المعاني ،١٠/٦٦.

[القصص:٣٨] ، ولما أمر الله ﷻ موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويبلغه الرسالة قال لـه :

﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه: ٢٤].

ولذلك وقع لكليم الله ﷻ ونبيه موسى عليه السلام ــ حينما أمره ﷻ بالذهاب إلى فرعون وملئـه ــ شيء من الخوف من الطاغية فرعون أن يتعدى عليه، ويبطش به ؛ ولهذا أسندَ حرف الـرَّدع إلى موسى عليه السلام إرشادًا له ، وتثبيتًا لفؤاده ، ولإدخال الطمأنينة إلى قلبه ، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء :١٠– ١٧].

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكرت الآيات السابقة ما كان يُصيب النبي ﷺ من الحزن والألم ؛ لعـدم إيمـان قومـه: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء:٣] ، وبينت سوءَ حال أولئـك القـوم مـن الإعراض عما جاءهم به من الحقّ ، وتكذيبهم به ، ناسب ذِكْر قصة موسى عليه السلام ومعاناته مع فرعون وقومه ، تثبيتًا لفؤاد النبي ﷺ ، وتسلية له فيما كان يلحقُه من الأذى والتكذيب من أولئك الكفار، في سبيل دعوتهم إلى الحقّ ، وذلك من أهداف ما قصّه القرآن الكريم على الرسول ﷺ من أخبار الرسل والأنبياء السابقين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ كما قال عزّ من قائل : ﴿ وَكُلّٗا

﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

[هود: ١٢٠].

قال أبو حيان: "لما ذكر تكذيب قريش بما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه ، ذكر قصة موسى عليه السلام، وما قاسى مع فرعون وقومه ، ليكون ذلك تسلية لما كان يلقاه ﷺ من كفار قريش"[1].

التذكير بما أمر به موسى عليه السلام

وقد بدئت الآيات بالتذكير بما أمر الله ﷻ موسى عليه السلام وقت ندائه ﷻ إياه ؛ فـ﴿ إِذْ ﴾ اسم زمان مبني على السكون في محل نصب مفعول لفعل محذوف ، تقديره : اذكر وقتًا نادى فيه ربُّك موسى عليه السلام ، والمخاطب بذلك الرسول ﷺ ، قال الإمام الطبري: "واذكر يا محمَّدُ ﷺ إذ نادى ربُّك موسى بن عمران عليه السلام "[2].

وهذا النداء كان بالوادي المقدس ،واسمه: (طُوًى) ، وهو بجانب جبل الطور، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم:٥٢] ، وقوله ﷻ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ [النازعات: ١٥- ١٦].

والمُنادى موسى عليه السلام ، فقد كلَّفه الله ﷻ بحمل الرِّسالة ، وأمره : ﴿ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، والإتيان: مجيء بسهولة[3]، وهؤلاء الظالمون هم :﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾، وإنّما وصفهم بالظلم ؛ لأنّهم جمعوا بين ظلمهم أنفسهم ، وظلمهم غيرهم ، فهم علَمٌ في الظلم ، قال الزمخشري :"سجّل عليهم

---

(١) أبو حيان ،البحر المحيط ، ٦/٧.

(٢)الإمام الطبري ، جامع البيان، ٣٣٧/١٩، وانظر: البغوي ، معالم التنزيل ،١٠٧/٦، النسفي، مدارك التنزيل ،٢٦١/٣.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ١٨.

بالظلم بأن قدّم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأنَّ معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنَّهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذاكِرهم عبَّر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبَّر بقوم فرعون .

وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم"[١].

وتعجيبًا من حالتهم الشنيعة في الظلم وأمن العاقبة يجيء قوله ﷻ:﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ؟! قال أبو السعود وغيره: "استئناف جيء به إثر إرسال موسى ﵇ إليهم للإنذار تعجيبًا من غلوهم في الظلم ، وإفراطهم في العدوان"[٢].

وعلى هذا فالهمزة في ﴿أَلَا﴾ للاستفهام ، و(لا) نافية ، وهذا الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي ، فأفاد إنكار عدم تقواهم ، والتعجب من إفراطهم في الظلم والعدوان ، وأمنهم من عذاب الله ﷻ، وربما يكون ذلك تهيئة للمُرْسَلِ نفسيًّا ، وإثارة لاستعداده.

قال ابن عاشور موضحًا فائدة مجيء هذا الاستئناف: "فجيء بما يدل على توغلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لِموسى ﵇ على بلوغ الغاية في الدعوة وتهيئة لتلقّيه تكذيبَهم دون مفاجأة ، فيكون (ألا) من قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مركبًا من حرفين: همزة الاستفهام ، و(لا) النافية. والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم ، وتعجيب موسى ﵇ من ذلك"[٣].

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ،٣/٣٠٧-٣٠٨.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،٦/٢٣٦، وانظر مثلا: الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب،٢٤/١٠٦، الشربيني، السراج المنير، ٣/٤٣.

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ١٩/١٠٤.

ولا يعني الاقتصار على ذكر القوم أن فرعون ليس من ضمنهم ، بل المراد قوم فرعون وفرعون ، فهو مبعوث لهم جميعًا ،" فاكتفى بذكره في الإضافة عن ذكره مفردًا، ومثله قوله ﷻ: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة:٥٠] ؛ أي : آل فرعون وفرعون"(١).

وقد جاء التصريح في إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، في آيات من كتاب الله العزيز، منها قوله ﷻ :﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل:١٢] .

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف:٤٦].

ولكن ربما يكون الاقتصار على ذكر قوم فرعون إشارة إلى مساهمتهم واشتراكهم في طغيان فرعون وتمرده ؛ فلو أنهم وقفوا في وجهه ، ورفضوا الخضوع له ، لما وصل إلى ما وصل إليه من الطغيان والفساد ، ولكنّهم أطاعوه ، ونفذوا أوامره ، الواحد تلو الآخر ، فكانوا مثله في الظلم والفساد والإفساد ، ولهذا قال الله ﷻ فيهم :﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ماذا قال موسى عليه السلام ؟

ولما علم موسى عليه السلام بإرسال الله ﷻ له ، وتكليفه له بدعوة فرعون وقومه ، وقد عرف موسى عليه السلام ما هم عليه من ظلم وطغيان ، ذكر عليه السلام أنّ هناك أمورًا يتوجس منها خيفةً ، وسأل الله ﷻ أن يُرسل إلى هارون عليه السلام ليُعينَه على تبليغ الدعوة المُكلَّف بها، قال ﷻ : ﴿ قَالَ

---

(١)الكرماني،محمود بن حمزة بن نصر (بعد٥٠٠هـ) ، أسرار التكرار في القرآن، ط٢ ، دار الاعتصام ــ القاهرة ، ١٣٩٦ هـ، ١٣٩ ، الفيروز أبادي ، بصائر ذوي التمييز ، ١/١٦٩.

﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء:١٢ ـ ١٤].

فهذا الاستئناف البياني الناشئ عن سؤال تقديره: ماذا قال موسى عليه السلام ؟[١] يُظهر جواب موسى عليه السلام ، ويبيّن ما كان يتوقعه ، فيثير الخوف في نفسه ؛ فقد كان عليه السلام يخاف أن يُكذِّبوه في أمر الرّسالة ، ويضيقُ صدرُه من تكذيبهم له ، ولا ينطلقُ لسانُه بأداء الرسالة على الوجه الأكمل .

فهذه ثلاثة أمور مكروهة كان يتوقع موسى عليه السلام حلولها ، وأن تفوِّت عليه ما يرغبه من أداء مهمته وتبليغ رسالة الله عز وجل على أتمّ وجه وأكمله ، وكلُّ واحدٍ منها مرتب على ما قبله ، قال الفخر الرازي: "فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام ، فلهذا السبب بدأ بخوف التَّكذيب ، ثم ثنَّى بضيق الصدر ، ثم ثلَّث بعدم انطلاق اللسان"[٢].

ولذلك طلب موسى عليه السلام من الله عز وجل أن يُرسل إلى هارون عليه السلام ، ليكون مصاحبًا ومساعدًا له في دعوة القوم الظالمين ، قوم فرعون ، كما أخبر عز وجل عن موسى عليه السلام أنَّه قال : ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص:٣٤].

وقد بيّن القرآن الكريم في غير هذا الموضع أن موسى عليه السلام طلب من الله عز وجل أن يبعث معه هارون عليه السلام ، ليشدَّ به أزره ، وسأله أمورًا أخرى تُزيل تلك المخاوف ، وتحقِّق رغبته في أداء الرسالة وتبليغها على الوجه الأكمل ، قال ربُّ العزَّة عز وجل:

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ٢٣٦/٦.

(٢) الفخر الرازي ،مفاتيح الغيب ،١٠٧/٢٤

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه : ٢٥ ـ ٣٢] .

ثم إنَّ موسى عليه السلام قد خاف أمرًا آخر، وهو أن يُبادروا إلى قتله ؛ لأنَّ لهم عليه ذنبًا[1]، وهذا يُفوِّت تبليغ الرِّسالة المكلَّف بها ، وانتشار أمرها ، والذنب المذكور يُفسِّره قوله عز وجل :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القصص:٣٣].

قال أبو حيان: " وليس قول موسى عليه السلام ذلك تلكأ في أداء الرسالة ، بل قال ذلك استدفاعًا لما يتوقعه منهم من القتل ، وخاف أن يقتل قبل أداء الرسالة"[2].

لقد وقع الخوف لموسى عليه السلام ، وهذا الخوف من طبيعة النفس البشرية ، ولا يتنافى مع عصمة الأنبياء ، وهذا الخوف الذي وقع له عليه السلام لم يكن خوفًا على شخصه ، ولا خوفًا من مواجهة القوم الظالمين ، وإنّما كان خوفًا على مصلحة الرسالة التي كلَّفه الله عز وجل بها، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية في كلِّ زمان ومكان ، فهو ـ كما يقول صاحب الظلال ـ "الاحتياط للدعوة لا للداعية.

الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربِّه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة.

والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربِّه التي كُلِّف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص.

وهذا هو الذي يليق بموسى عليه السلام الذي صنعه الله عز وجل على عينه، واصطنعه لنفسه"[3].

---

(١)أي: تبعة ذنب فحذف المضاف ، أو سمى باسمه كما يسمى جزاء السيئة سيئة ، وسمي ذنبًا على زعمهم. [الشربيني ، السراج المنير، ٣ / ٤٤].

(٢)أبو حيان ، البحر المحيط ، ٨/٧.

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٥/ ٢٥٩٠ .

مجيء ﴿كَلَّا﴾ إرشاداً لموسى عليه السلام وطمأنينة له

وقد أجاب الله ﷻ نبيه وكليمه موسى عليه السلام : ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾ [الشعراء:١٥].

لقد أعطى الله ﷻ لموسى عليه السلام الاطمئنان الكافي ، وحقّق له طلبه ؛ أما الاطمئنان فبحرف الرّدع ﴿كَلَّا﴾ ، وأما إجابة طلبه إرسال هارون عليه السلام فبقوله ﷻ: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ ، فالخطاب موجه إلى موسى وهارون ــ عليهما وعلى نبيّنا الصلاة والسلام.

قال الزجاج: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظنّ ، كأنّه قال ارتدع عن هذا الظن وثق بالله ﷻ" [1].

وقال الزمخشري : "جمع الله ﷻ له الاستجابتين معًا في قوله : ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ ؛ لأنّه استدفعه بلاءهم ، فوعده الدفع بردعه عن الخوف ، والتمس المؤازرة بأخيه ، فأجابه بقوله : ﴿فَاذْهَبَا﴾ ؛ أي : اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون عليه السلام ، فإن قلت : علام عطف قوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ ؟ قلت : على الفعل الذي يدل عليه ﴿كَلَّا﴾ ، كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظنُّ ، فاذهب أنت وهارون عليه السلام " [2].

وقد جاء التصريح في غير هذا الموضع باستجابة الله ﷻ لطلب موسى عليه السلام ، وجعل هارون عليه السلام نبيًّا معينًا له ، كقوله ﷻ: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: ٣٦].

---

(١) الزجاج ، معاني القرآن ، ٨٥/٤.

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ٣١٠/٣.

وقوله ﷻ : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص:٣٥].

وتأكيدًا للطمأنة التي أفادتها ﴿كَلَّا﴾ يجيء قولـه ﷻ :﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ فالتأكيد ، والمعيّة ، والاستماع ،" تعليلٌ للرَّدع عن الخوف ، ومزيد تسليةٍ لهما ، بضمان كمال الحفظ والنصرة" [١] والتأييد ؛ فقد طلب موسى عليه السلام من الله ﷻ معيَّة هارون عليه السلام ونُصرته، فأجابه الله ﷻ لطلبه ، وأيدهما ــ عليهما السلام ــ بمعيته ، وأدخل الطمأنينة في قلبيهما ، كما قال ﷻ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه :٤٦] .

وهذا التأييد والنصرة والحفظ من الله ﷻ شامل لكلِّ الدعاة إلى الله ﷻ المخلصين ؛ لـذلك ينبغي عليهم تبليغ دعوة الله ﷻ دونما خوف من غير الله ﷻ .

ثمَّ أمرهما الله ﷻ بقوله لهما: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾[الشعراء:١٦-١٧]. ، قال ابن كثير : "تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له ، وأن يفك أُسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه . فتكبَّر فرعون في نفسه وعتا وطغى" [٢].

فعلى الرغم من الحجج والآيات والدلالات، وخوارق العادات التي جاءهم بها موسى عليه السلام ، وعاينها فرعون وقومه وأبصروها إلا أنهم كذبوا بها وكفروا واستكبروا عن إتباع موسى عليه السلام والانقياد له ، قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

---

(١)أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،٢٣٧/٦، ابن عجيبة ، البحر المديد ،١٥٥/٥، الشوكاني، فتح القدير، ٩٥/٤، الألوسي ، روح المعاني ،٦٦/١٩.

(٢)ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية ــ بيروت، ٢٠٠١، ٢٥٦.

﴿ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

[النمل:١٣-١٤].

ثانياً: الردّع عن الخوف من حصول مكروه

لم يكتفِ عدو الله ﷻ فرعون بالكفر والعتو والعناد ، بل كان يصدُّ عن سبيل الله ﷻ وعن الإيمان بما جاء به موسى ﷺ من الحقِّ ، ويهدّد أهل الإيمان بقوله :﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولكنَّ موسى ــ ﷺ الواثق بنصر الله ﷻ ــ أوصى قومه بالاستعانة بالله ﷻ على ما قد ينالهم من فرعون ، والصبر على ذلك ، وأشار لهم بالنصر، قال ﷻ: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

[الأعراف: ١٢٨].

وبعد أن قضى موسى ﷺ في دعوة فرعون وقومه ما شاء الله ﷻ أن يقضيه من الزمان ، وبعد أن تعرض هو ومن آمن معه من بني إسرائيل لصنوفٍ من الأذى من فرعون وملئه .. أوحى الله ﷻ لكليمه موسى ﷺ أن يخرج بعباد الله المؤمنين ليلاً ، حتى ينجوا من ظلم فرعون وجبروته ؛ لأن فرعون سيتبعهم بجنوده ليحول بينهم وبين الخروج ، قال ﷻ :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشعراء:٥٢]، ففعل موسى ﷺ ما أمره الله ﷻ به، "فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام"[1].

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ،٢٨٣.

فلما علم بخروجهم فرعون غضب عليهم غضبًا شديدًا، وأرسل سريعا في بلاده مَنْ يحشر له الجيش ويجمعه ليلحقهم ويمحقهم ، قال ﷻ: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشعراء:٥٣].

ثم أخذ فرعون في التهوين من شأن موسى عليه السلام ومن آمن معه ؛ رفعًا لمعنويات جيشه، وتحريضًا لهم على اللحاق بهم ، فقال مناديًا فيهم : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[الشعراء:٥٤-٥٦] ، فهم ــ على حدّ زعم فرعون ــ طائفة قليلة، يغيظون فرعون وملئه ويغضبونهم بأقوالهم وأفعالهم المخالفة لأوامره ، وهو متيقظ حذر من مكائدهم ، يحتاط لمكرهم ، ويريد أن يستأصلهم ويقضي عليهم[١].

ثم خرج فرعون وجنوده[٢]خلف موسى عليه السلام ومن معه :﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء:٦٠] ، فلحقوا بهم عند إشراق الشمس ، وتقارب الجمعان ، ورأى كلٌّ من الفريقين الآخر ، فعندها ملأ الخوف نفوس أصحاب موسى عليه السلام !

لقد وصل موسى عليه السلام وقومُه إلى البحر، فرعونُ وجنوده من ورائهم والبحرُ أمامهم ، فلا محيصَ لهم من عدوٍّ أو غرَق في البحر ، وقد سجّل القرآن الكريم ذلك الموقف ، وكشف خوفهم وذعرهم ، قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١] .

قال السدّي : فلما تراءى الجمعان فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد ردِفهم ، قالوا: أوذينا يا موسى من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ، ومن بعد ما جئتنا، اليوم

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،٣/٣٢٤.

(٢) قيل: خرج فرعون في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم، فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم ، وهذا من الإسرائيليات، ولا فائدة من تعيين العدد، والمهم أنهم خرجوا بأجمعهم،هذا نبّه إليه ابن كثير في تفسيره ،[٣/٣٢٤].

يدركنا فرعون فيقتلنا؛﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾"[١]، ساءت ظنونهم وقالوا ذلك لموسى ﵇ على جهة التوبيخ والجفاء ، والتشاؤم من رأيه[٢] فقد ظنوا أنَّه الهلاك المحقق!

وبعد هذه المقالة التي قالها أصحاب موسى ﵇ ، وفي اللحظات العسيرة تأتي مقالة الواثق المطمئن موسى ﵇ : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢] .

لقد جاء حرف الرَّدع ﴿كَلَّآ﴾ في مقالة موسى ﵇ ؛ ليردع أصحابه ويزجرهم [٣] عن خوفهم وفزعهم من نزول مكروه بهم ؛ وهو ظنهم أن فرعون سيُدركهم ، فيهلكون ويُقتلون الواحد بعد الآخر ، وذلك ليثبت قلوبهم ، ويرشدهم إلى النجاة التي وعده الله ﷻ بها.

فلم يكن ردع موسى ﵇ لقومه الفزعين مجرد رفعٍ لمعنوياتهم ... ، بل ردعهم ردع الواثق المطمئن بوعد الله ﷻ ونصره ؛ فلم يخف من فرعون ، ولم يخش الغرق ؛ لأنَّ خروجه كان بأمر من الله ﷻ ، وقد وعده ﷻ أنهم لا يُدركون ولا يُغرقون ، وهو موقنٌ أنَّ الله ﷻ لا يُخلف وعده ، قال ﷻ :﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه:٧٧]

وقد أوصاهم من قبلُ أن يستعينوا بالله ﷻ ، ويصبروا ، وألمح إلى النجاة وحُسن العاقبة.

ولثقته ﵇ بوعد الله ﷻ ، ولمزيد من الاطمئنان والتثبيت يُعلِّل الرَّدع [٤]بقوله:﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ، وهو تعليلٌ مؤكد بـ﴿إِنَّ﴾، فضلاً عن كون الجملة اسمية تفيد الثبوت ؛ فهو ﵇

---

(١)الإمام الطبري، جامع البيان ،١٣/٤٤.

(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٥/٢٣٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ،١٣/٧٢.

(٣) انظر مثلاً:النحاس، معاني القرآن، ٥/٨٤، القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،١٣/٧٢،النيسابوري، غرائب القرآن ،٥/٢٦٩.

(٤) انظر: نظم الدرر ، البقاعي ، ٥ /٣٦٤، الشربيني ، السراج المنير ،٣/٥٣.

يردعهم عن الخوف ، ويؤكد أن ربَّه ﷻ معه بالعون والنصرة ، وسينجّيه ويهديه طريق النجاة من فرعون وجنوده [(١)].

وهذا ما حصل وتحقق بأمر الله ﷻ ، قال ربُّ العزة ﷻ : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٦٣-٦٨]

فضرب موسى البحر امتثالاً لأمر ربه ﷻ فانفلق البحر ، فكان الجزء المتفرّق منه كالجبل العظيم ، وصار صالحًا للمشي عليه ، وبحكمة الله ﷻ وقدرته قرّب آل فرعون من البحر ، وقدَّمهم إلى مصيرهم المحتوم ، فأنجى الله ﷻ موسى ﷺ ومن معه من فرعون وجنوده ، ومن الغرق في البحر ، ثم أغرق فرعون وجنوده [(٢)].

وهكذا أنجى الله ﷻ موسى ومن آمن معه، وأغرق فرعون وقومه الظالمين، وذلك من آيات الله ﷻ ودلائل قدرته ؛ فقد جعل البحر نجاة للمؤمنين ، وهلاكًا للكافرين ، وفي ذلك عبرة وعظة للمعتبرين.

إنّ هذه النتيجة تزيد أولي النُهى ثباتًا على الحقّ ، وتدفعهم إلى الإقبال على تنفيذ أوامر الله ﷻ ، والدعوة إلى دينه ، مهما بلغت التضحيات ، وتردعهم عن الخوف من غير الله ﷻ ، وتؤكد أن النصر حليفًا لأهل الطاعة مهما بلغ عدد أعداؤهم ، ومهما ملكوا من قوة .

---

(١) ذُكر في وجه اقتصار المعية على نفسه أن طريق نجاتهم لا يحصل إلا بفعل خارق للعادة ، ولا يقع إلا على يد الرسول ، ووجه اختلاف المعية بين ما في هذه الآية وبين ما في قوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة :٤٠] أن تلك معية حفظهما كليهما بصرف أعين الأعداء عنهما.[انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩ /١٣٥].

(٢) انظر: الإمام الطبري ، جامع البيان ،١٩/٣٥٧- ٣٦٠.

ثالثاً: الردّع عن الخوف من فوات مرغوب

لقد حرص الرسول ﷺ على تبليغ دعوته أشدَّ الحرص ، وكان أحبُّ شيءٍ إلى نفسه الكريمة ﷺ أن يدخل الناس في دين الله ﷻ ، وأن يُدركوا الخير الذي جاء به من عند الله ﷻ فيتبعوه ، وقد دفعته الرّغبة والطمع في إسلام عددٍ كبير من النّاس إلى الانشغال بدعوة جماعة من كبار قريش ـ رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم كثير من النّاس ـ عن رجلٍ أعمى جاء طائعًا راغبًا الخير ؛ ولذلك أُسنِدَ حرف الرّدع إلى الرسول ﷺ ،قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ ﴾ [عبس: ١ ـ ١٦] .

سبب نزول الآيات

نزلت هذه الآيات الكريمة في عبد الله بن أم مكتوم ﷺ ، لما روي عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "أُنزِلتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى النبي ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين ، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخرين ، ففي هذا أُنزِلت"[1].

---

(١) الحاكم ، المستدرك ، رقم: (٣٨٩٦)، ٢/٥٥٨، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، الواحدي، أسباب النزول، ٢٩٧، السيوطي ، لباب النقول ،٢٠٩.

وفي رواية أخرى أخرجها الإمام الطبري عن ابن عباس ﷺ ، قريبة من هذا ، وفيها ذكر أسماء رجال المشركين ، وهم: عُتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب، وأن النبي ﷺ كان يتصدّى لهم كثيرًا ، ويَعرض عليهم أن يؤمنوا[١].

قال الفخر الرازي: " أجمع المفسرون على أن الذي ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هو الرسول ﷺ، وأجمعوا على أن ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ هو ابن أم مكتوم" [٢]ﷺ ، وقريبًا من هذا قال القرطبي[٣] ، والنيسابوري القمي[٤].

عبوس النبي ﷺ ليس من التهاون بابن أم مكتوم ﷺ

ولم يكن قصد النبي ﷺ من ذلك التهاون بابن أم مكتوم ﷺ ، حاشاه من ذلك وهو النبي المعلم ﷺ، وإنما قصد مصلحة الدعوة، وتحقيق الخير ، وذلك بإسلام مَن يُسْلِم بإسلامه خلقٌ كثير ، فليس ذلك ذنبًا يُنْسبُ إليه ﷺ ، ورحم الله القاضي عياض[٥] إذ قال :" وليس في قوله ﷺ:﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الآيات ، إثبات ذنب له ﷺ ، بل إعلام الله أن ذلك المتصدي له ممن لا يتزكى ، وأن الصواب والأولى كان ــ لو كشف لك حال الرجلين ــ الإقبال على الأعمى.

---

(١)الإمام الطبري، جامع البيان،٢١٧/٢٤.

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٥١/٣١.

(٣) انظر: القرطبي،الجامع لأحكام القرآن ،١٣٨/١٩.

(٤)انظر: تفسير النيسابوري القمي ،غرائب القرآن، ٦ / ٤٤٦.

(٥)هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي المشهور ولد سنة ٤٧٦ هـ ، استبحر من العلوم وجمع وألف كثيرًا منها : الشفا ، وترتيب المدارك ، وتقريب المسالك للرجال ، توفي عام(٥٤٤ هـ) [الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ٢٠ /٢١٤ وما بعدها ، ابن خلكان، وفيات الأعيان ،٣ / ٤٨٣] .

وفعل النبي ﷺ لما فعل ، وتصديه لذاك الكافر ، كان طاعة لله ﷻ وتبليغًا عنه ، واستئلافًا له ، كما شرعه الله ﷻ له، لا معصيةً، ولا مخالفةً له[١].

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن مجيء قوله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، وعدم مجيئه بتاء الخطاب ، فيه دلالة على إكرام النبي ﷺ وإجلاله ، واللطف به ، وتنزيهه عن المُخاطبة بالعتاب [٢] ، وهذا هو اللائق بمقام النبي ﷺ وعلو منزلته ، وعظيم قدره عند الله ﷻ وليس خلافه [٣].

والفعل (عبس) يدل في الأصل على تكرُّه في شيء ، ثمَّ اشتُقَّ منه عَبَسَ الرجل يَعْبِس عُبوسًا، فهو عابس الوجه[٤]، والعبوس: قُطوب الوجه[٥]عند كراهية شيء ما.

وقال البقاعي:"وآذن بمدحه ﷺ بأن ذلك خلاف ما طبعه عليه ﷺ من رحمة المساكين، ومحبتهم ، والسرور بقربهم ، وصحبتهم ، بقوله :﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ ؛أي: كلَّف نفسه الإعراض عنه رجاء أن يُسلِم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ، ويُسلِم بإسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة الله ﷻ" [٦].

وفي مجيء قوله ﷻ :﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ...﴾ بضمير الخطاب ــ على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ــ دلالة أخرى على إكرام النبي ﷺ وتأنيسه ، قال الآلوسي : "وفي التعبير

---

(١)القاضي عياض ، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ** ، ٢/١٦١.

(٢)انظر مثلاً: أبو حيان ، **البحر المحيط** ،٤٢٧/٨، ابن عجيبة، **البحر المديد** ، ١٣٧/٨، الآلوسي ، **روح المعاني** ،٣٩/٣٠.

(٣) ذهب الزمخشري إلى أن الإخبار بلفظ الغائب لزيادة الإنكار.[انظر: **الكشاف** ،٧٠٢/٤] ، وذهب ابن عطية إلى أن الخطاب بلفظ الغائب للمبالغة في العتب .[انظر: **المحرر الوجيز**، ٤٣٨/٥].

(٤) الفراهيدي ، **العين** ،٣٤٣/١، ابن فارس ، **معجم مقاييس اللغة**، ١٧٢/٤.

(٥) الراغب الأصفهاني ، **المفردات** ، ٣٢٣.

(٦) البقاعي، **نظم الدرر**، ٣٢٤/٨.

عنه ﷺ بضمير الخطاب في قوله ﷻ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ إجلال له ؛ لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش ، والإقبال بعد الإعراض.

والتعبير عن ابن أم مكتوم ﷺ بالأعمى ؛ للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ" [١] ، وربما يكون التعبير بهذا الوصف ـ أيضًا ـ للإشعار بعدم إدراكه لعبوس النبي ﷺ.. وأنّ ذلك لم يُحدث أثرًا سلبيًّا في نفسيّتِهِ.

والمعنى: وما يعلمك لعلّ الأعمى يتطهّر من الذنوب بما يتعلمه منك ، أو يعتبر فينفعه الاعتبار والاتعاظ بما يسمعه منك[٢].

ثم يُبين ﷻ لنبيه ﷺ حال مَنْ كان مُقبلاً عليهم ، ويُحقّر شأن أهل الكفر ؛ فيقول ﷻ: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ ، قال ابن عباس ﷺ : "استغنى عن الله ﷻ ، وعن الإيمان بما لَهُ من المال"[٣].

ومعنى ﴿ تَصَدَّىٰ ﴾ : تُقبِل عليه وتتعرّض له وتَميل إليه حرصًا على إسلامه[٤]، يقال : تَصَدّى فلان لفلان يتَصَدّى : إذا تَعرَّض له ، والأصل فيه تَصَدَّد يتصَدَّد ، من الصَّدَد ، وهو ما استقبلكَ وصار قُبالَتَكَ ، يقال : هذه الدارُ على صَدَدِ هذه ؛ أي : قُبالَتَها[٥].

ولنفي الملامة والمؤاخذة عن الرسول ﷺ بعدم إسلامهم يجيء قوله ﷻ : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾، قال ابن عطية :"وما يضرك ألا يفلح ؟ هذا حضٌ على الإعراض عن أمرهم ، وترك الاكتراث بهم"[١]. وبنحو هذا قال أبو حيّان[٢].

---

(١) الألوسي ، روح المعاني ،٣٠/٣٩.
(٢) انظر مثلاً: الإمام الطبري ، جامع البيان ،٢٤/٢١٩ ، البغوي، معالم التنزيل ،٨/٣٣٦.
(٣)البغوي، معالم التنزيل ،٨/٣٣٦، ابن الجوزي ، زاد المسير ،٩/٢٧.
(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٣١ /٥٢، ابن عادل، اللباب ،٢٠/١٥٦.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة(صدد) ،٣/٢٤٥.

وقد ذكر البقاعي أن صيغة الفعل ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ تُشير إلى أنّ التزكي والتطهير من الكفر لن يكون من ذلك الذي تصدّى له النبي ﷺ ، وليس عليه ﷺ بأس في ذلك ، فقال ما نصه: ما عليك من بأس في ألا يزكّى أصلاً ورأسًا ، ولو بأدنى تزك ــ بما أشار إليــه الإدغــام ــ إن عليــك إلا البلاغ"[٣].

وجُوِّز أن يكون استفهامًا إنكاريًّا، بمعنى : أي شيء يكون عليك في عدم تزكيهم وتطهيرهم من دنس الكفر[٤].

وسواء أكانت (ما) مفيدة للنفي ، أو للاستفهام الإنكاري ، فإنّ فيها دلالة على الإشفاق علــى النبي ﷺ ؛ لشدَّة حرصه على إسلام القوم الكافرين .

وبعد بيان حال المستغني بماله عن الإيمان يجيء بيان حال الراغب بالخير، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ ، فمن حرصه على طلب الخير وتلهفه على التلقّي عن النبي ﷺ يجيء مُسرعًا خاشيًا الله ﷻ .

و﴿تَلَهَّىٰ﴾ : تشاغل ، من لَهِيَ ، يقال: لَهِيَ عن الشيء يَلْهَى : إذا تَشاغل بغيره ، وأصله : تَتَلَهَّى أي تَتَشاغَلُ[٥].

وقد نبّه ابن عطية على أنَّه ليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو[٦]، وهذا ما أكده الــسمين الحلبي ، وزاد أن ذكر علَّة عدم جعله من اللهو ، فقال :"إنَّما لم يَجْعلوه من اللهو لأجْلِ أنه مُسْنَدٌ

---

(١) ابن عطية ،المحرر الوجيز، ٤٣٧/٥.

(٢)أبو حيان ، البحر المحيط ،٨/ ٤٢٨.

(٣)البقاعي، نظم الدرر، ٣٢٤/٨.

(٤) انظر:أبو حيان، البحر المحيط ،٨/ ٤٢٨ ،أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٠٨/٩، الألوسي، روح المعاني ، ٤١/٣٠.

(٥)ابن منظور، لسان العرب، مادة(لهي)، ٢٥٨/١٥، الزبيدي ، تاج العروس،مادة(لهي)٤٩٩/٣٩.

(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤٣٧/٥.

إلى ضمير النبي ﷺ ، ولا يليق بمَنْصِبِه الكريم أَنْ يَنْسُبَ اللَّهُ ﷻ إليه التفعُّلَ من اللهو بخِلاف الاشتغال ، فإنه يجوزُ أَنْ يَصْدُرَ منه في بعض الأحيان ، ولا ينبغي أَنْ يُعْتَقَدَ غيرُ هذا "[١].

ولقد جاء لفظ ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بمادته وصيغته وحذف (التاء) منه متناسبًا كلَّ التناسب مع هذا السياق، ودالاً على دقة التعبير القرآني المعجز ، وهذا ما ألمح إليه البقاعي حينما قال: "﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ أي: خاصة في ذلك المجلس ؛ لكونه في الحاصل ﴿تَلَهَّىٰ﴾؛ أي : تتشاغل ؛ لأجل أولئك الأشراف ـ الذين تريد إسلامهم لعلو بهم الدين ـ تشاغلاً خفيفًا بما أشار إليه حذف(التاء) ، من لَهِيَ عنه كرضِيَ : إذا سلى وغفل وترك ، وفي التعبير بذلك إشارة إلى أن الاشتغال بأولئك لا فائدة فيه على ما تفهمه تصاريف المادة ، وإلى أن مَن يقصد الإنسان ، ويتخطى رقاب الناس إليه له عليك حق عظيم"[٢].

فهو يُشير إلى أن تقديم الجار والمجرور﴿عَنْهُ﴾ يدل على أنَّ المُعاتب عليه ﷺ لم يكن منه إلا في ذلك المجلس ومع ذلك الصحابي ﷺ ، ولم يتكرر منه ذلك قطُّ ، ولولا حِرْصه ﷺ على مصلحة الدعوة ، وإنقاذ أهل الضلال من الشقاء لما فعل ذلك ﷺ.

ويُشير إلى أنَّ حذف (التاء) فيه دلالة على أنّ التشاغل كان خفيفًا ، غير متمكن في نفسه الزكية ﷺ ؛ لأن زيادة المبنى غالبًا ما تدل على زيادة المعنى ، وأنّ أصل الفعل من (لَهِيَ) ، وهذا ـ كما قال السمين ـ الذي يليق بمقام النبي ﷺ ، فهو ﷺ ﴿تَلَهَّىٰ﴾ ولم يلهو كلهو غيره ؛ فقد ﴿تَلَهَّىٰ﴾ فيما يريد من ورائه مصلحة الدعوة .

---

(١) السمين الحلبي، الدر المصون، ٢٧١/١٤.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ٣٢٦/٨.

مجيء ﴿كَلَّا﴾ إرشاداً للنبي ﷺ

وعقب ذلك تجيء ﴿كَلَّا﴾ مُسندة إلى النبي ﷺ " مُبالغةً في إرشاده ﷺ إلى عدم معاودة ما عوتب عليه ﷺ"[١]، "من التصدي لمن استغنى عما دعاه إليه من الإيمان والطاعة وما يوجبهما من القرآن الكريم ، مبالغًا في الاهتمام بأمره ... ــ مشتغلاً ــ بسبب ذلك عن إرشاد من يسترشده"[٢]، من أهل التزكي والقبول للموعظة.

قال ابن كثير: "ومن ها هنا أمر الله ﷻ رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحدًا ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغني ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار. ثم الله ﷻ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة"[٣].

قال قتادة: فكان النبيّ ﷺ بعد ذلك يُكرمه[٤]؛ أي : يكرم ﷺ ابن أمّ مكتوم ﷺ .

وربما يكون المراد من إسناد حرف الرّدع إلى النبي ﷺ تأديب المؤمنين عامة والدعاة إلى الله ﷻ خاصة ، وأنّه ينبغي عليهم الإقبال على المقبلين إلى طاعة الله ﷻ واحترامهم ، وتقريبهم ، وإن كانوا فقراء.

قال ابن عطية :" السبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم ﷺ ، ثمّ هي بعدُ تتناول من شاركهم في هذه الأوصاف ؛ فحمله الشّرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير ، وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خوطب به النبي ﷺ في هذه السورة"[٥].

---

(١)الألوسي، روح المعاني، ٤١/٣٠.

(٢)أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٠٩/٩.

(٣)ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ٤٧١/٤.

(٤)تفسير الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام(٢١٠هــ) تفسير القرآن، تحقيق :مصطفى مسلم ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط١، ١٤١٠هــ ،٣٤٨/٣، الإمام الطبري، جامع البيان ،٢١٨/٢٤.

(٥)ابن عطية، المحرر الوجيز،٤٣٧/٥.

وبعد حرف الرّدع ﴿كَلَّا﴾ يأتي قوله ﷻ : ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ، والمراد به القرآن الكريم بدليل قوله ﷻ: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [1]، وهو جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ) ، وهي تعليل لما أفادته ﴿كَلَّا﴾ ؛ ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَنْ استغنى من أهل الكفر والضلال، ويبتعد عن هدايته وتعاليمه أهل الشقاء ، وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها، فمن تجرد عن العناد والمكابرة اتعظ بها كما قال ﷻ: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: حفظه، واتعظ به ، وعمل بموجبه ، ومن لم يتعظ بها ؛ فلأنه لم يشأ أن يتعظ [2].

ومن رحمة الله ﷻ وفضله أن جعل القرآن الكريم ميسرًا للفهم والإدراك، والعمل به ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر:١٧].

---

(١) ذكره : الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٣٥/٣١، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،١٤١/١٩، ابن عادل ،اللباب، ١٧٢/٢٠، وذكروا أن القرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة . يعني لما جاء اسم إنّ مؤنثًا كان خبرها كذلك.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٠٩/٩، ابن عجيبة، البحر المديد، ٢٣٨/٨، الآلوسي، روح المعاني ،٤١/٣٠ ، محمد عبده، تفسير جزء عمّ ،٢٢، ابن عاشور ، التحرير والتنوير،١٣٨/٣٠.

المطلب الرابع:

ردع المؤمنين عن القعود عن الجهاد

لما كانت رسالة الإسلام آخر رسالات الله ﷻ إلى النَّاس كافةً ، وكانت غايتُها إخراجَهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، كلَّف الله ﷻ عباده المؤمنين بتبليغ تلك الرسالة ، والدعوة إليها بالقول والإقناع ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولمّا كانت بعض هذه الوسائلُ لا تفيد في بعض الأحيان ، بل قد تقابل بالصدّ ، والعدوانِ ، وتوضع العقباتُ في طريق إعلاء كلمة الله ﷻ ، وتبليغِ دينه القويم ، ودعوةِ الناس إليه — شُرع الجهاد في سبيل الله ﷻ من أجل إزالة تلك العقبات ، وكسر الحواجز التي تعترض طريق الدعوة، وتمنعها من الوصول إلى النَّاس ؛ وذلك حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله ﷻ ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ولفظة الجهاد تدل ببنيتها وصيغتها على بذل الوسع للوصول إلى المطلوب ، بعدة وسائل ، باللسان ، أو بالمال ، أو بالقتال ومع ذلك لم تنزل الكلمة هكذا وإنما قُيدت لتكون في سبيل الله ﷻ .

والدليل على أن القرآن الكريم جاء برسالة الهداية للإنسانية جمعاء لم يذكر كلمة (حـــرب) ، هذه الكلمة التي ترتعد منها الفرائص في سياق قتال الأعداء وإنما قال الجهاد في سبيل الله ﷻ.

فليست الغايةُ من الجهاد العدوانَ على النّاس ، ولا سفكَ الدماء ، وإزهاقَ الأرواح ، بل الغاية منه تعبيدُ النّاس لربّهم ﷻ ، ورفعُ الفتنة والشرك عنهم ، وهذا ما عبَّر عنه ربعيُّ بنُ عامر ﷺ ـــ حينما سأله رستم قائد الفرس عن الذي جاء بهم ـــ بقوله : "اللهُ ﷻ ابتعثنا، واللهُ ﷻ جاء بنا لنخرج مَنْ شاءَ من عبادة العباد إلى عبادة الله ﷻ ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جـــور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلـــك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً"[1].

ولذلك فإنَّ الجهاد في سبيل الله ﷻ وسيلةٌ لتحقيق غايات سامية ومقاصد نبيلة ، ولما فيه من الخير كتبه الله ﷻ على عباده المؤمنين ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٦].

وإنما جاء التعبير بصيغة ما لم يسم فاعله ﴿ كُتِبَ ﴾ ؛ لأن النفس تعاف القتال أو الـــصوم أو القصاص ، فجاءت هكذا في هذا السياق ، بينما في قولـــه ﷻ: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴿٢١﴾ ﴾[المجادلة:٢١] جاءت بالفعل المبني للمعلوم.

ولأنَّ النفوس تكره القتال لما فيه من مشقةٍ وتعبٍ ، وتَعَرُّضٍ للموت .. فتتأخر عن الخـــروج للجهاد في سبيل الله ﷻ ، جاء الحضُّ على الجهاد ، وترغيبُ المؤمنين فيه في غير ما آية في القرآن الكريم ، كما جاء الرّدع والزجر عن القعود عن قتال العدو وجهاده في سبيل الله ﷻ إذا

---

(١) الإمام الطبري، تاريخ الأمم والملوك ، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ٤٠١/٢.

أمر ولي الأمر بـذلك ،قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

مناسبة الآية لما قبلها

لما أمر الله ﷻ المؤمنين في الآية السابقة ــ وهي قولــه ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة: ١١٩] ــ بتقواه ﷻ ، وبأن يكونــوا مــع الــصادقين ، وأفضل الصادقين الرسول ﷺ ، اقتضى ذلك موافقةَ الرسول ﷺ ومتابعته في الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ﷻ ، فجاء الرّدع عن التخلف عن الخروج إلى الجهاد إذا أمر ولي الأمر بذلك .

قال الفخر الرازي : " لما أمر ﷻ بقولــه: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبــة: ١١٩] بوجوب الكون في موافقة الرسول ﷺ في جميع الغزوات والمشاهد ، أكد ذلك فنهى فــي هــذه الآية عن التخلف عنه"(١)، وبنحو هذا قال أبو حيان(٢)، وابن عادل (٣).

الحُكمُ المستنبط من الآيةِ الكريمة:

اختلف المفسرون في حكم هذه الآية على قولين:

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،١٦/١٧٧.

(٢)أبو حيان ، البحر المحيط ، ٥/١١٢.

(٣) ابن عادل ، اللباب،١٨/٢٣٦.

أحدهما: إنَّ هذا الحكم كان في قلَّة أهل الإسلام ، فلما كثروا نسخه قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ١٢٢] ، وأُبيح التخلف لمن شاء[1].

وعلى هذا فالخروج للجهاد فرض كفاية وليس فرض عين ، ولا ردع في الآية.

والثاني: أنّ الآية محكمة غير منسوخة ، فهي لأولِ هذه الأمَّةِ وآخرها ، وهذا ما اختاره الإمام الطبري ؛ وذلك لعدم مجيء خبرٍ يوجِّه الحجة بأنَّ إحدى الآيتين ناسخة للأخرى[2]، وممن قال بهذا النحاس[3]، وابن الجوزي[4].

وعلى هذا نُقِل عن قتادة قوله : هذا الحكم خاص بالرسول ﷺ إذا خرج للغزو بنفسه فليس لأحد أن يقعد عنه إلاّ بعذرٍ، فأما غيره من الأئمة والولاة ، فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يقعد عنه، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة[5].

وذُكر أن ذلك حكم من استُنْفِر للجهاد ونُدِبَ بالتعيين ، قال الفخر الرازي: "تتعين الإجابة والطاعة لرسول الله ﷺ إذا أمر ، وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا نَدبوا وعَيَّنوا؛ لأنا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد لم يختصّ بذلك بعضٌ دون بعضٍ ، ولأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد"[6]. وهذا ما قاله النيسابوري القمي[7]، وابن عادل [8].

وهذا ما يؤيده سباق الآية الكريمة وسياقها ، والذي تضمن الحديث عن غزوة تبوك ، والتي كان النبي ﷺ قد أعلن فيها النفير العام ، وندب كلَّ القادرين إلى الخروج معه ، إلا من أذن له،

---

(١) الإمام الطبري ، جامع البيان، ٥٦٣/١٤، النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل (٣٣٨ هـ) الناسخ والمنسوخ ، تحقيق : محمد عبد السلام ، ط١، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، ١٤٠٨هـ ، ٥٢٧.

(٢) الإمام الطبري ، جامع البيان، ٢٥٦/١٤، ٥٦٣.

(٣) انظر: النحاس ، الناسخ والمنسوخ ، ٥٢٧.

(٤) انظر:ابن الجوزي ، نواسخ القرآن، ط١، دار الكتب العلمية ـ بيروت ،١٤٠٥هـ ،١٧٨.

(٥) الإمام الطبري ، جامع البيان، ٥٦٢/١٤ ـ ٥٦٣، البغوي ، معالم التنزيل، ١١٠/٤.

(٦) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،١٧٨/١٦.

(٧) انظر: النيسابوري القمي، غرائب القرآن ،٥٤٦/٣.

(٨) انظر: ابن عادل ، اللباب ، ٣٣٥/١٨.

أو أمره بالمقام بعده ، فتخلف عنه المنافقون ، وخرج معه ﷺ المؤمنون الصادقون ، ولم يتخلف منهم إلا ثلاثة نفرٍ اعترفوا بخطئهم ، ثم تاب الله ﷻ عليهم .

وعلى هذا فالآية الكريمة محكمة ، وحكمها غير مختص بأهل المدينة ومن حولها ، بل يشمل كلَّ المؤمنين ــ من غير أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى ونحوهم ــ في كل عصرٍ ومصرٍ ، فإنَّ الخروج للجهاد واجبٌ على كلِّ مَن استنفره الإمام بالتعيين وأمره بذلك ، وليس خروج الإمام للمعركة بنفسه شرطًا لذلك ، ففي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : "لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا" [١].

قال أبو حيان: "وخُصَّ هؤلاء بالذكر وكلُّ النَّاس في ذلك سواء لقربهم منه ، وأنه لا يخفى عليهم خروجه " [٢] ، وهذا ما قاله النسفي من قبله[٣].

وبهذا يكون الرَّدع عن القعود عن الجهاد في سبيل الله ﷻ للمؤمنين القادرين على الخروج إذا استنفرهم ولي الأمر وندبهم لذلك.

افتتاح الآية بـ﴿ مَاكَانَ ﴾

وقد بدئت الآية الكريمة بـ﴿ مَاكَانَ ﴾للمبالغة في رَدع غير أصحاب الأعذار من المؤمنين عن القعود عن الخروج للقتال في سبيل الله ﷻ حال استنفارهم من قِبَل ولي الأمر وندبهم لذلك.

لقد أفاد هذا التركيب أنَّ الشأن في المؤمن الصادق أن ينتفي عنه القعود عن الجهاد في سبيل الله ﷻ ، وأن التخلف عن الصف الإيماني لا ينبغي أن يكون منه أبدًا ؛ فصدق الأيمان يبعث

---

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد، رقم : (٢٦٣١)،١٠٢٥/٣، صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإمارة ، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام.رقم: (١٣٥٣)،١٤٨٧/٣.

(٢)أبو حيان، البحر المحيط ،١١٢/٥.

(٣)انظر: النسفي ، مدارك التنزيل، ٢١٤/٢.

على الخروج لقتال العدو وجهاده مع ما في ذلك من شدة وبلاء تكرهه النفوس ، كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وإذا كان الخروج للجهاد وبذل النفس رخيصة في سبيل الله ﷻ دليل صدق الإيمان كان القعود عن الجهاد والهروب منه ــ بعد أمر ولي الأمر به والنَّدب إليه على التعيين ــ لسبب من أسباب الدنيا دليل مرض القلوب ، وضعف الإيمان ، بل دليل النِّفاق ، وصفة من صفات المنافقين ، فقد فرّق الله ﷻ بين المؤمنين والمنافقين في قتال العدو وجهاده ، فقال عزَّ من قائل: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1] [التوبة:٤٤ – ٤٥].

ولا شك أن حرص المؤمن على البقاء في صف أهل الإيمان يردعه عن القعود عن الجهاد في سبيل الله ﷻ ، ويزيده نفورًا من دلائل النِّفاق ، وأعمال المنافقين.

وأفاد هذا التركيب أيضًا أن الشأن في المؤمن الصادق أن يحبَّ الرسول ﷺ أكثر من محبته نفسه ، ولا يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس الرسول ﷺ الطاهرة الزكيَّة:﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ، فإذا حصل من المؤمن قعود وتخلف عن الجهاد فقد ناقض إيمانه ؛ لأنَّ إيمانه لا يكتمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحبَّ إليه من نفسه.

(١) ولذلك سميت سورة التوبة (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين وكشفت معايبهم.[انظر:السيوطي،الإتقان، ١/ ٢٥٤].

والرَّغبة : السَّعة في الإرادة ، ويُعدى الفعل (رغب) بـ (عن) فيفيد معنى ترك الشيء عمدًا والزهد فيه ، يقال رغبت عن كذا ؛ أي : توقفت عنه وتركته ، ويُعدى بـ (في) فيفيد معنى إرادةِ الشيء والحرصِ عليه [١]، وعُدي هنا بـ (عن) ، فأفاد مع ما قبله الرَّدع والزَّجر عن ترك ما كان يرضاه الرسول ﷺ لنفسه من الخروج للجهاد في سبيل الله ﷻ.

قال الزمخشري :" أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يُلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علمًا بأنها أعزُّ نفسٍ على الله وأكرمُها عليه . فإذا تعرضت ـ مع كرامتها وعزّتها ـ للخوض في شدَّةٍ وهولٍ ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزنًا، وتكون أخفَّ شيء عليهم وأهونَه ، فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها .. وهذا نهي بليغ ، مع تقبيح لأمره ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية" [٢].

وقال صاحب الظلال : "وفي التعبير تأنيب خفي . فما يُؤنب أحد يصاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه : إنَّه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ ، وهو معه ، وهو صاحبه!

وإنَّها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل . فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله ﷺ في سبيل هذه الدعوة ؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة ؛ وأنَّه يتأسى فيها برسول الله ﷺ !" [٣].

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات ،٢٠٤، الزبيدي ، تاج العروس، مادة (رغب)، ٨٠٨/٢.
(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ٣٠٦/٢.
(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١٧٣٣/٣.

الثواب المُعدُّ للمجاهدين

وبعد ردع المؤمنين عن القعود عن الجهاد يأتي بيان علة الرّدع وإبراز سـببه ، قـال ﷻ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢٠ – ١٢١].

قال أبو حيان : "والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تضمنه انتفاء التخلف من وجوب الخـروج معه ﷺ وبذل النفس دونه ، كأنه قيل : ذلك الوجوب للخروج وبذل النفس هو بسبب ما أعد الله ﷻ لهم من الثواب الجسيم على المشاق التي تنالهم ، وما يتسنى على أيديهم من إيـذاء أعـداء الإسلام" [(١)]، وممن قال بمثل هذا أبو السعود[(٢)]، الشوكاني[(٣)]، وابن عاشور[(٤)].

وقد ذُكرت سبعة أمور تُكتب للمجاهدين أعمالاً صالحة ، يُثابون عليها أجزل الثواب ، وهي :

أولاً: الظّمأ: وهو العطش الشّديد ، يُقال: ظمِئَ فلان يَظْمَأُ ظَمَأً، إذا اشتدَّ عَطَشُه [(٥)].

ثانيًا: النَّصب : وهو الإعياء والتّعَبُ ، يُقال : نَصِبَ يَنْصَبُ. نَصَبًا ،إذا تَعِبَ[(٦)].

---

(١)أبو حيان ، البحر المحيط ، ١١٢/٥.

(٢) انظر: أبو السعود ، إرشاد العقل السليم،١١١/٤.

(٣)انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤١٥/٢.

(٤)انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير،٥٦/١١.

(٥)ابن منظور، لسان العرب ، مادة(ظمأ) ،١١٦/١٠.

(٦) الفراهيدي ، العين ، ١٣٥/٧.

ثالثًا: المَخْمَصَةُ : وهي خَلاء البطن من الطعام جوعًا ، مأخوذ من خَمَصَ ، وهو يدل في الأصل على الضُمُور ، يقال : خَمَصَ يخمص خَمْصًا ومَخْمَصةً ، والخَمْصانُ والخُمْصانُ:الجائعُ الضامرُ البطنِ ، والمَخْمَصة : المجاعة التي يظهر بها ضُمور البطن [١].

رابعًا: وطؤهم موطئًا يغيظ الكفار : والوطء هو الدَّوس ، يقال : وَطِئَ الشيءَ ؛ أي : داسَه برجله [٢]، والمَوْطِيء : مصدر ميمي للوطء ، "والوطء في سبيل الله ﷻ هو الدَّوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو ، فإنه الذي يغيظ العدو ويغضبه لأنه يأنف من وطء أرضه بالجيش"[٣].

خامسًا: نيلهم من العدو : والنيل إصابة الشيء وإدراكه ، يقال: فلان يَنالُ من عِرْضِ فلان؛ إذا سبَّه ، وهو يَنال من ماله ، ويَنال من عدوِّه ؛ إذا وَتَرَه في مالٍ أو شيء ، كل ذلك من نِلْتُ أنالُ ؛ أي : أصَبْت[٤]، فالنيل من العدو إصابته بأي مصيبة تسوؤه من أسر، وقتل ، وهزيمة ، وأخذ ما يمكن أخذه قليلاً كان ذلك أو كثيرًا.

فهذه خمسة أنواع من متاعب المجاهدين في سبيل الله ﷻ وأفعالهم ، يُكتب لهم بكلٍ واحدٍ منها ثواب عمل صالح ؛ فتوسيط ﴿لا﴾ بينها فيه دلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به[٥] ، ولا يُشترط أن تجتمع هذه الخمسة في المجاهد حتى يُكتب له عمل صالح يُثاب عليه ، بل يحصل على ذلك بكل ما وقع له منها.

---

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ،١٧٧/٢، الراغب الأصفهاني،المفردات ،١٦٥، ابن منظور، لسان العرب مادة(خمص)، ١٢٩/٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب مادة(وطأ) ،١٩٥/١.

(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير،٥٦/١١.

(٤)ابن منظور، لسان العرب، مادة (نيل)،٦٨٥/١١.

(٥) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،١١١/٤، الألوسي، روح المعاني ،٤٧/١١.

ومن دقة البيان القرآني أن هذه الأفعال المذكورة جاءت مرتبة وفق ترتيب الأحداث، قال البقاعي: " ورتبت هذه الأشياء ترتيبها في الوجود فإنّ مطلق الحركة يهيج الحرارة فينشأ العطش وتماديها يورث التعب ، والأغلب أن يكون قبل الجوع"[١].

وجاءت فاصلة الآية ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ـ جملة اسمية ، بدئت بأم المؤكدات ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد أن الله ﷻ يُجازي كلَّ مُحسنٍ من خلقه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله ، وأنّه كتبَ للمجاهدين الثوابَ على كلّ ما فعلوه ، فلم يضيّع لأحد منهم أجرَ فعل فعله.

ومجيء لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في هذه الجملة المؤكدة فيه إشارة إلى علو مرتبة الجهاد في سبيل الله ﷻ ، وأن المؤمن يصل بجهاده درجة الإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان .

سادسًا: النفقة: وهي اسم لما يُنفقُ[٢] نقدًا كان أو عينًا ، قليلاً كان أو كثيرًا ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : تمرة فما فوقها [٣].

وقد بين القرآن الكريم ما للمنفقين أموالهم في قتال العدو وجهاده من الأجر العظيم في مواضع أخرى ، كقوله ﷻ : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١] ، وعدّ الإمساك وعدم الإنفاق في ذلك استسلامًا إلى أسباب الهلاك ، فقال الحقُّ ﷻ : ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ

---

(١) البقاعي، نظم الدرر،٣/ ٤٠١.

(٢)الراغب الأصفهاني ،المفردات، ١٦٥.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير، ٣/٥١٥.

اللهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] ، وأي سببٍ للهلاك أعظم من اجتياح العدو البلاد ؟! بل وماذا ينفع المال إذا دخل العدو البلاد ، فطغى وبغى وعاث فيها الفساد ..؟!

سابعًا: الأجر على كل خطوة يخطوها المجاهد في سبيل الله ﷻ ، قال ﷻ: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ، والوادي في الأصل الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي كلُّ مَفْرَجٍ ما بينَ جبالٍ أو تِلالٍ أو آكامٍ واديًا ، وقد شاع استعماله بمعنى الأرض ، يقال: لا تُصلِّ في وادي غيرك[١].

فكل نفقة للجهاد في سبيل الله ﷻ قليلة أو كثيرة ، وكل خطوة يخطوها المجاهدون في ذلك ذهابًا وإيابًا تُكتب لهم عند الله ﷻ ؛ ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ أي: ليجزيهم الله ﷻ على ذلك أحسن الجزاء وأكمله ، قال الآلوسي : "على معنى أنَّ لأعمالهم جزاء حسنًا وجزاء أحسن ، وهو ﷻ اختار لهم أحسن جزاء"[٢].

وإنَّما أُخِرَ هذان الأمران وفُصلا ؛ لأنَّ الخمسة المتقدمة أشقُّ على النفس ، وأنكى في العدو ، وهذا الأمران أهون ؛ لأنهما في الأموال واجتياز الأرض إلى العدو، سواء حصل غيظ الكفار والنيل من العدو أم لم يحصلا[٣]، فقُدِّم ما هو أشقُّ على النفس ، وأكثر نكاية في العدو ، وأُخِر ما هو أهون من ذلك.

فالجهاد في سبيل الله ﷻ يحصل بسببه من الأجر والمثوبة الشيء العظيم ، بل هو أعظم تجارة ، تحصل بها النجاة من عذاب الله ﷻ ، والمؤمن الصادق يوقن أنَّ ما وُعِد به من ثوابٍ حقٌّ لا مرية فيه ، ولذلك يرتدع عن القعود عن الجهاد ، ويُسارع إلى بذل نفسه رخيصة إلى

---

(١)الزمخشري ، الكشاف ،٣٠٨/٢، الزبيدي ، تاج العروس،مادة(ودى) ١٧٩/٤٠.

(٢)الآلوسي، روح المعاني ،٤٧/١١.

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط ، ١١٣/٥.

شاربها دونما أدنى تردد ، ليفوز بما وعد الله ﷻ به من مغفرة الذنوب ، ودخول الجنة ، والنصر القريب ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١] ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ – ١٣].

ثمَّ إنَّ مَنْ يُكتَبُ له الموتُ وهو يقاتل أعداء الله ﷻ إعلاءً لكلمته ، وابتغاءً لمرضاته ﷻ ، لا يكون كسائر الأموات ، إنما هو كما أخبر الله ﷻ بقوله :﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤] ، وقوله ﷻ :﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩ – ١٧١].

هذا، وإنّ الآيات الكريمات تحمل في مضامينها دروسًا هادفة للمؤمنين في كل زمان ومكان ، وبخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه الفتن والمحن ، وتعددت بين المسلمين مع بعضهم من جهة، ومع غيرهم من جهة أخرى.

المبحث الثاني:
ردع الكافرين

المطلب الأول:
ردع الكافرين عن أطماعهم واقتراحاتهم في الدنيا

المطلب الثاني:
ردع الكافرين عن الادعاء بأنَّ القرآن أساطير الأولين

المطلب الثالث:
ردع الكافرين عن الاستهزاء باليوم الآخر

المطلب الرابع:
ردع الكافرين عن طلبهم عند الموت وأمنياتهم يوم القيامة

المطلب الأول:

ردع الكافرين عن أطماعهم واقتراحاتهم في الدنيا

لقد بيّن القرآن الكريم أنّ للكافرين المكذّبين بما جاء به الرسول ﷺ من الحقّ إدعاءات باطلة واهية ، وأطماعًا زائفة ، وأنّ لهم مطالب سخيفة ، واقتراحات متعنتة ، وردعهم عن ذلك ، ويمكن بيان ذلك وتوضيحه على النحو الآتي:

أولاً:ردع الكافرين عن أطماعهم

الكافرون لهم إدعاءات باطلة ، في كلّ زمان يزعمون أنهم قريبون من الله ﷻ على الرغم من إنكارهم لدينه ﷻ، فضلاً عن زعمهم دخول الجنّة قبل المؤمنين ، ومن هذه الإدعاءات الباطلة والأطماع الزائفة :

- **زعمهم دخول الجنّة بلا إيمانٍ بالله ﷻ ولا عمل صالح:**

قال تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المعارج: ٣٦ – ٣٩].

قال الواحدي وغيره : "قال المفسّرون : كان المشركون يجتمعون حول النبيّ ﷺ يستمعون كلامه ولا ينتفعون به ، بل يُكذّبون به ، ويستهزؤون به بأصحابه ، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد ﷺ لندخلنّها قبلهم ، وليكوننّ لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله ﷻ : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ ﴾"(١).

---

(١) الواحدي ، أسباب النزول، ٢٩٤، الثعلبي ، الكشف والبيان ، ١٠/٤٠، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،١٨/١٩٠، الشوكاني ، فتح القدير ، ٥/٢٩٤.

وربما يكون ذلك صدر عنهم فقالوه عند رؤيتهم النبيّ ﷺ يقرأ القرآن وهو يُصلي عند الكعبة المُشرفة [١]، وربما يكون ذلك عند دعوته ﷺ لهم ، وإسماعهم بعض ما أُنزل عليه من آيات الذكر الحكيم ، والمهم أنّهم قالوا ذلك.

ومناسبة الآيات لما قبلها : لما ذكرت الآيات السابقة أحوال المؤمنين وأوصافهم ، وما أُعدّ لهم من الأجر والكرامة في الجنّة ، جاءت هذه الآيات لتُبيِّن أحوال الكفرة المستهزئين بالرسول ﷺ ، الطامعين في دخول جنّات النّعيم مع إصرارهم على الكفر ، وتردعهم عن ذلك.

و﴿مُهْطِعِينَ﴾ من الفعل الثلاثي هَطَعَ ، وهو يدل في الأصل على إقبالٍ على الشّيء ، يقال : هَطَعَ وأَهْطَعَ الرّجلُ ببصره : أَقْبَلَ على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه . وهَطَعَ وأَهْطَعَ: أقبل مُسْرِعًا[٢].

و﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزَةٍ ، وهي في اللغة الفرقة أو الجماعة من النّاس ، وأصلها عِزْوٌ[٣]، فهم جماعات متفرقة.

قال ابن عباس ﷺ :"العزين: العُصَب من الناس ، عن يمين وشمال ، معرضين عنه، يستهزئون به"[٤].

والمعنى : فما بال الذين كفروا ، مسرعين مقبلين نحو النبي ﷺ ، ومديمي النظر إليه متطلعين نحوه ﷺ ، وملتفين من حوله عن يمينه وعن شماله ﷺ ، جماعات متفرقة، يستمعون و يستهزؤون بكلامه ﷺ ، ويُعرضون عنه ؟![٥]

---

(١) انظر: الثعالبي ، الجواهر الحسان،٣٤٢/٤ ، الآلوسي ، روح المعاني ، ٦٤/٢٩.

(٢) ابن فارس ،معجم مقاييس اللغة،٤١/٦، ابن منظور ، لسان العرب مادة(هطع)، ٣٧٢/٨،.

(٣) ابن منظور ، لسان العرب، مادة(عزا)، ٥٢/١٥.

(٤)الإمام الطبري ، جامع البيان ،٦١٩/٢٣.

(٥) البغوي ، معلم التنزيل ،٢٢٥/٨، الزمخشري،الكشاف ،٦١٦/٤ ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،١٩٠/١٨.

وعلى هذا فالاستفهام الذي أفادته (ما) من قوله :﴿ فَمَالِ ﴾ استفهام إنكاري وتعجبي[1]، من أمرهم حيث يُسرعون إليه ﷺ ، ويجتمعون حوله ﷺ لا ليأخذوا منه ويطيعوه ، بل ليسمعوا كلامه .. ويكذبوه ويستهزؤوا به ؛ فهذه الحال مستنكرة ، وتثير التعجب والاستغراب ؛ لأن العاقل إنَّما يُسرع لما فيه سعادته.

يقول صاحب الظلال :" وفي التعبير تهكم خفي بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تتم بها . وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يُسرعون الخطى تجاه الرسول ﷺ ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن فقط ليستطلعوا في دهشة ، ثم يتفرقوا كي يتحلقوا حلقات يتناجون في الكيد والرد على ما يسمعون!" [2]

وبعد بيان الحال التي كانوا عليها من الإصرار على الكفر، والنفور من الحقّ ، يجيء إنكار قولهم إن دخل المؤمنون الجنّة لندخلنّ قبلهم ، فيقول ﷻ: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، فالهمزة التي بُدئت بها الآية الكريمة همزة استفهام ، وقد خرج هذا الاستفهام عن أصل دلالته إلى الإنكار المتضمن للنفي،[3]والتوبيخ.

والطَّمع : لغة: من طَمِعَ في الشيء وبه فهو طامع وطَمِعٌ: إذا حَرَص عليه ورَجاه[4].

وهو عند الراغب : "نزوع النفس إلى الشيء شهوة له"[5].

---

(١) ابن عاشور ،التحرير والتنوير، ١٦٣/٢٩

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٣٧٠٢/٦.

(٣) انظر: البقاعي ، نظم الدرر، ١٥٧/٨، الآلوسي ، روح المعاني،٦٥/٢٩.

(٤) ابن منظور ،لسان العرب ،مادة(طمع) ، ٢٣٩/٨.

(٥) الراغب الأصفهاني، المفردات ، ٣١٠.

فالنفس إذا طمعت في شيء ، ساقت صاحبها للحصول عليه سوقًا ، فأخذ بكل الأسباب الموصلة إليه ، وأهل الكفر لما أصروا على كفرهم ، وطمعوا في دخول الجنّة بلا إيمان ولا عمل كانوا في غاية الجهل .

وعلى هذا فالتعبير" بالطّمع إشارة إلى أنّهم بلغوا الغاية في السّفه ؛ لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له"[١].

قال ابن عباس ﷺ في تفسيره لهذه الآية: "أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنّتي كما يدخلها المسلمون ، ويتنعم فيها ، وقد كذّب نبيي ﷺ "[٢].

فكل واحد من أولئك الكفار كان طامعًا في دخول الجنّة ، وذلك لسفاهة عقله ، واستيلاء الجهالة على قلبه ، وفي هذا تصوير لحالهم ونفسيتهم ، كما قال ﷻ:﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الكهف: ٣٦].

وبعد بيان حالهم ، واستفهام طمعهم في دخول جنّة النّعيم وإنكاره عليهم تجيء﴿ كَلَّآ ﴾لتردع كلّ كافرٍ عن طمعه الضار الفاسد[٣]، وهو دخول الجنّة مع إصراره على الاستهزاء والتكذيب بالحقّ ؛ لأنّ الطمع على الحقيقة هو الطمع الذي يبعث على الإيمان بالله ﷻ، والتزود من العمل الصالح ، إذ لا طريق إلى الجنّة إلا الإيمان المقرون بالعمل الصالح ، وهذا ما أثبته القرآن الكريم ، فقد أخبر الله ﷻ أن كلاً من اليهود والنصارى يزعمون كذبًا وزورًا أن الجنّة خاصة بهم ، وأنّه لن يدخلها إلا من كان على ملتهم ، فقال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر، ١٥٧/٨، الخطيب الشربيني، السراج المنير، ٤٢٨/٤.

(٢) البغوي ، معالم التنزيل، ٢٢٥/٨، الخازن ، لباب التأويل ، ١٥٢/٧.

(٣) انظر مثلاً: الزمخشري، الكشاف، ٦١٦/٤، الرازي، مفاتيح الغيب، ١١٧/٣٠، البيضاوي، أنوار التنزيل، ٣٩١/٥، البقاعي ، نظم الدرر، ١٥٧/٨، الألوسي، روح المعاني، ٦٥/٢٩، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧٨/٢٩.

﴿هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

[البقرة:١١١]، ثُمّ أكذبهم الله ﷻ ، ورد عليهم زعمهم ، وبيّن أن السبيل الوحيد لدخول الجنّة هو إسلام الوجه لله ﷻ مع الإحسان، فقال ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١٢].

فهذا هو السبيل الوحيد لدخول الجنّة والنجاة من العذاب ، فمن طمع في ذلك وجب عليه أن يرتدع عما هو فيه من كفرٍ وضلال ، وأن يعمل بعمل أهل الجنّة.

وتعليلاً للرّدع وتأكيدًا له يجيء قوله ﷻ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، فهذه الجملة تعليل للرّدع عن ذلك الطمع الفاسد ، والمعنى : إنهم يعلمون أن الله ﷻ خلقهم من نطفةٍ مَذِرة ، ثمَّ من علقة ، وسائر الأطوار؛ كما خلق سائر جنسهم ، فلا فضل لهم يستوجبون به الجنّة إلا الإيمان والعمل الصالح(١).

والتعبير عن النطفة المَذِرة بـ (ما) الموصولة فيه تحقير لذلك الأصل الذي خلق منه الإنسان، وفي ذلك أعظم ردعٍ (٢)، عن ذلك الطمع الفارغ ، وأبلغ زجرٍ عن النفور من الإيمان ، والتكبر على عباد الرحمن.

وقد أخرج الحاكم في مستدركه أن الرسول ﷺ تلا هذه الآيات: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ، ثم بصَقَ رسول الله ﷺ على كفه فقال : يقول اللّهُ ﷻ يا ابن آدَمَ أَنَّى تُعجِزُنِي وقد

---

(١)القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن،١٩١/١٨ ، البيضاوي،أنوار التنزيل، ٣٩١/٥ ، ابن عجيبة، البحر المديد ،١٤١/٨.

(٢) انظر: الشنقيطي ، أضواء البيان ،٢٣١/٢٠.

خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ." (١)

- **الطّمع في زيادة النّعم مع كفرانها:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المدثر: ١١ – ١٧]

هذه الآيات نزلت بسبب الوليد بن المغيرة ، لما رواه الحاكم بسنده عن ابن عباس ﷺ، "أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنّه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ . قال : ليعطونَكَهُ، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَله قال : قد علِمتْ قريشٌ أنّي من أكثَرِها مالاً. قال : فقل فيه قولاً يبلُغُ قومَكَ أنَّكَ مُنكِرٌ له ، أو أنَّكَ كارهٌ له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته منّي، ولا بأشعار الجنّ . والله ما يُشبه الذي يقولُ شيئًا من هذا ، ووالله ، إنَّ لِقولِهِ الذي يقولُ حلاوةً ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنّه ليعلو وما يُعلى وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومُكَ حتى تقول فيه. قال : فدعني حتى أفكر، فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر يأثُرُهُ من غيره ، فنزلت :﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾"(٢).

(١) الحاكم،المستدرك،رقم: (٣٨٥٥)،٢/٥٤٥، وقال:صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وانظر: مسند الإمام أحمد ، رقم (١٧٨٧٦)، ٢٧٢/٤ ، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله : إسناده حسن، والبُرد: نوع من الثياب، والجمع أبراد وبُرُود، وقيل: كساء أسود مُربَّع فيه صورٌ تَلْبسه. و(الوئيدُ) : صَوت شِدّة الوَطءُ على الأرض يُسْمَع كالدَّوِيّ من بُعْد .[ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ٢٩٣/١، ٣٠٤/٥].

(٢)الحاكم،المستدرك،رقم: (٣٨٧٢)،٥٥٠/٢، قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه .وانظر:الواحدي، أسباب النزول ،٢٩٥، السيوطي ، لباب النقول ،٢٠٥.

فهذه رواية ، وهناك روايات أخرى تؤكد أن هذه الآيات نزلت بسبب الوليد بـــن المغيـــرة [١]، وهذا ما أكده غير واحدٍ من المفسرين ، يقول ابن عطية: " لا خلاف بــين المفــسرين أنّ هــذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي"[٢].

ولئن نزلت هذه الآيات في الوليد ، فإنّها تشمل أمثاله ومن هم على شاكلته فــي كــلٍّ عــصر ومصر حتى قيام الساعة.

مناسبة الآيات لما قبلها: أشارت الآيات السابقة إلى ما كان يلقاه النبي ﷺ من أذى، وذكرت عُسر يوم القيامة وشدته على الكافرين ، وهذه الآيات عرضت لزعيمٍ من زعمــاء الكــافرين ، أنعم الله ﷻ بنعم المال والجاه والأولاد .. وكذّب النبي ﷺ ، وطعن في القرآن الكــريم، وطمــع في الزيادة مما وهبه الله ﷻ وهو مصرّ على كفره ، ولذلك استحق هو وأمثاله الرّدع والزجر.

وقد بدئت الآيات بلفظ ﴿ ذَرْنِي ﴾، وهو يتضمن الوعيد والتهديد الشديد ، فقد أمر الله ﷻ نبيــه محمد ﷺ بأن يَكِلَ أمر هذا الكافر والتنكيل به إليه ﷻ ، قال ابن عطية: وعيد محض، والمعنى: أنا أكفيك عقابه وشأنه كلّه [٣]. وأي شيء أعظم وأشدُّ من أن يتولى الله ﷻ تعــذيب عبــدٍ مــن عبيده وعقابَه؟!

و﴿ وَحِيدًا ﴾ منصوب على الحال من ضمير المفعول﴿ خَلَقْتُ ﴾ المحــذوف العائــد علــى الموصول ﴿مَنْ﴾ ؛ أي: خلقته حال كونه وحيدًا منفردًا لا مال له ولا ولد ، فأعطاه الله ﷻ بعد ذلك ما أعطاه ، فكفر بأنعُم خالقه ورازقه ﷻ، وأشرك به واستهزأ بدينه [٤].

---

(١) انظر :الإمام الطبري ، جامع البيان ، ١٩/٢٣ ، ٢٤/٢٤-٢٥.

(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣٩٤/٥.

(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣٩٤/٥.

(٤) انظر: البغوي ، معالم التنزيل،٢٦٦/٨، أبو حيان، البحر المحيط، ٣٧٨/٨.

وعلى هذا فـ﴿وَحِيدًا﴾ يرجع إلى الوليد بن المغيرة ـ وأمثاله ممن يكفرون بالله ﷻ ، ويجحدون نِعَمه ـ ، ولذلك قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ﴾ ، فقد منحه الله ﷻ وأعطاه مالاً مبسوطًا كثيرًا ، ممدودًا بالنماء [١].

فالمدُّ لغة: يدل في الأصل على جَرّ شيءٍ في طول ، واتّصال شيء بشيء في استطالة. يقال: مدَّ الشيءَ يمدُّه مَدًّا : إذا بسطه وأطاله . ومَدَّ النهرُ النهر الآخر ؛ أي : مدَّه بالماء زيادة على ما فيه وواصله فأطال مدّته. وأمَدَّ الجيشَ بمدَدٍ ؛ أي: زاد إليه عددًا آخر [٢].

وإلى جانب المال هذا المال جعل الله ﷻ له بنين ﴿شُهُودًا﴾ جمع شاهد ، وهو الحاضر [٣]، وقد ذُكر في معناه وجهان :

أحدهما : أنهم بنين حضورًا معه بمكة لا يفارقونه البتة ؛ لأنهم كانوا أغنياء غير محتاجين إلى مفارقته لطلب لقمة العيش ، فهو مستأنس بهم ، مطمئن النفس.

وثانيها: أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل [٤].

ولعل لفظ ﴿شُهُودًا﴾ يشمل الوجهين معًا ؛ فهم حاضرون عنده ليسوا غائبين عنه ، ويشهدون معه المحافل ، ويجدهم إلى جانبه عند حاجته إليهم ، وتلك غاية الراحة ، وطمأنينة النفس ، وهذا من تمام النعمة .

---

(١) انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ٥٤٩/٤.

(٢)ابن فارس ، **معجم مقاييس اللغة**،٢١٦/٥.

(٣) ابن منظور ، **لسان العرب** ،مادة(شهد)،٢٣٨/٣.

(٤)الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب** ،١٧٥/٣٠ ، الخازن ، **لباب التأويل**،١٧٥/٧.

ومع هذا وذاك يقول ﷻ:﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾ ، والتمهيد : التوطئة، والتسهيل والبسط للشيء، يقال: مَهَدَ الفِراش : إذا بسطه ووطّأه . وتمَهَّد: تَوطأ. ومن المَجاز: مهّد الأمر: إذا وطّأه وسهله[١].

فقد جعل الله ﷻ بحكمته أمور الوليد بن المغيرة سهلة ميسرة ، وبسط له الجاه ؛ فكان من سادات قريش ، صاحب مكانة عالية، وكلمة نافذة ، قال الزمخشري : بسط الله ﷻ له الجاه العريض والرياسة في قومه ، فأتمّ ﷻ عليه نعمتَي المال والجاه . واجتماعُهما هو الكمال عند أهل الدنيا[٢].

و﴿ تَمۡهِيدٗا ﴾ مفعول مطلق مؤكّد للفعل (مهّدتُّ)، جيء به لإفادة تحقيق التمهيد، وتعظيمه[٣].

وعلى الرغم من عِظم النِّعم التي حباه الله ﷻ بها إلا أنّه قابل ذلك بالإصرار على الكفر والعناد ، ومع ذلك فهو يطمع أن يزيدَه اللهُ ﷻ ، قال ﷻ:﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ ﴾.

ولفظ ﴿ ثُمَّ ﴾، يكون لِتَراخي الثاني عن الأول ، و بمعنى (واو العطف) ، وبمعنى التعجّب[٤]، وهو هنا بمعنى التعجُّب ، قال الفخر الرازي :"معنى ﴿ ثُمَّ ﴾ ههنا للإنكار والتعجب"[٥]، وهذا ما قاله ابن عادل[٦].

وربما يكون في مجيء لفظ ﴿ أَزِيدَ ﴾ مطلقًا دلالة على أنّه طمع بالزيادة من كلّ ما أعطاه الله ﷻ ، من الولد، والجاه ... مع كفره وعناده.

---

(١)ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة،٢٢٥/٥، الرازي، مختار الصحاح ،٦٤٢ ،الزبيدي ، تاج العروس، مادة(مهد)،١٩٢/٩.

(٢) الزمخشري، الكشاف ،٦٥٠/٤.

(٣) انظر:ابن عاشور، التحرير والتنوير ،٣٠٥/٢٩، حبنكة الميداني ، معارج التفكر ،١٠٣/١.

(٤) ابن فارس ، الصاحبي ، ٣٧.

(٥)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،١٧٦/٣٠.

(٦) ابن عادل ، اللباب ، ٥٠٩/١٩.

ولذلك جيء بـ﴿كَلَّآ﴾ حاملة معها رسالة الرّدع عن الطمع في زيادة النِّعم مع كفرانها ، والإصرار على الكفر بالله ﷻ المُنعم المُتفضل على خلقه ؛ ليرتجع هذا الكافر ويعود عن باطله وصلفه وغروره ؛ لأنَّ الكفر سبب زوال النِّعم لا زيادتها ، قال ابن عاشور ما ملخصه:

﴿كَلَّآ﴾ ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النِّعم ، وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيُقطع عنه مدد الرزق ؛ لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين، فيغريهم حاله بأنَّ عنادهم لا يضرهم.

وفي هذا الرّدع والإبطال إيذان بأنَّ كفران النِّعمة سببٌ لقطعها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧][١].

وقد جاء هذا الرّدع معللاً بقوله ﷻ : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦﴾،هذه الجملة الاسمية المفيدة للثبوت ، والتي افتُتِحت بأداة التوكيد (إنَّ) ، جاءت لتؤكد إسناد العناد للوليد بن المغيرة ، وتبرز السبب الذي لأجله حُرِم الزيادة من نِعم الله ﷻ .

فهذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا ناشئًا عن سؤال تقديره : لم الرّدع عن طلب الزيادة ؟! فجاء الجواب: إنه جحد دلائل التوحيد، ورفض ما جاء به النبي ﷺ ، وقال في آيات القرآن الكريم ما قال ، والمعاندة تمنع من الزيادة ، وتناسب النقصان والإزالة[٢].

وقد ذكر مقاتل بن سليمان أن ذلك تحقق فعلاً، فقال: "منعه الله ﷻ المال ، فلم يُعطه شيئًا حتى افتقر ، وسأل الناس ، فأهلكه الله ﷻ ، ومات فقيرًا"[٣].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠٥/٢٩.

(٢) النسفي ، مدارك التنزيل ،٤٥٣/٤، أبو حيان،البحر المحيط،٣٧٣/٨، الألوسي ،روح المعاني، ١٢٢/٢٩.

(٣) مقاتل بن سليمان ، تفسير مقاتل ، ٤١٦/٣.

ثمَّ توعده الله ﷻ وأمثاله في الكفر والعناد بعذابٍ يوم القيامـة ، فقـال ﷻ : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي: "سأكلِّفه مشقة من العذاب لا راحة له منها"(١).

وما تضمنته الآيات السابقة من ردع وتهديد ليس خاصًا بالوليد بن المغيرة، وإنمـا هـو لـه ولأمثاله من المترفين المتنعمين المكذبين ؛ فهو واحد من جملة المُعاندين، الذين يقفون في وجـه الدعوة الإسلامية، ويسخرون من الرّسول ﷺ، فصدّوا عنها أنفسهم وغيرهم، وقد توعـد الله ﷻ جميع أولي النِّعم المكذبين بالحقّ، فقـال ﷻ:﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾[المزمل: ١١– ١٣].

ثانيا:ردع الكافرين من اقتراحاتهم الباطلة

للكفار مطالب سخيفة ، واقتراحات متعنتة ، دفعهم إليها صـلفهم ، وتكبـرهم وغـرورهم ، تستحقُّ أن يُردع عنها ويزجر ؛ ومن ذلك أن يُنزّل على كلّ واحدٍ منهم كتابًا من الله ﷻ خاصًا به ، فيه الأمر باتباع النبي ﷺ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩– ٥٦].

وقد بدئت الآيات الكريمة بالتعجب من إعراض أهل الكفر عن اتباع ما جاء به النبيُّ ﷺ مـن الحقّ بغير سبب ، وإنكار ذلك عليهم ؛ إذ سُبقت هذه الآيات بما يُوجب الإتباع والتذكر ، وهـو

---

(١)الإمام الطبري ، جامع البيان ، ٢٢/٢٣.

بيان ما يكون عليه المؤمنون من النّعيم ، وما يكون عليه الكافرون من العذاب الأليم يوم القيامة.

قال أبو السعود: "الفاء في قوله ﷻ:﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها ، من موجبات الإقبال عليه، والاتعاظ به من سوء حال المكذبين" [(١)].

وقد شُبِّه فرارُ الكافرين من الرسول ﷺ وإعراضهم عن القرآن الكريم ومما فيه من الهدى بفرار حمر الوحش من الأسد أو الصيَّاد إذا أحست بأي منهما ، لا لشيءٍ ، إلا لأنهم يُدْعَون إلى الإيمان بالله ﷻ، ويوضح ابن القيم هذا التشبيه بعبارة قيِّمة ، فيقول:" شبَّههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد والرماة ففرت منه، وهذا من بديع التمثيل ، فإنَّ القوم من جهلهم بما بعث الله ﷻ رسوله ﷺ كالحمر فهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور ، وهذا غاية الذم لهؤلاء ؛ فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم ، كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها.

وتحت المستنفِرَة معنى أبلغ من النافرة ؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضُها بعضًا وحضَّه على النُّفور ، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد ، فكأنَّها تواصت بالنفور وتواطأت عليه" [(٢)].

وبعد هذا التشبيه وما فيه من مذمة وتحقير لهم يجيء بيان مطالبهم واقتراحاتهم، فيقول ﷻ :

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾

---

(١) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٩/٦٢.

(٢) ابن القيم ،الأمثال في القرآن ، ٦٢.

فقد أضافوا إلى رذيلة الإعراض عن القرآن الكريم رذيلة أخرى ؛ فكلُّ واحدٍ منهم يُريد أن ينزل عليه كتاب من الله ﷻ مفتوحٌ غير مطويٍّ ، قال البغوي:" قال المفسرون: إنَّ كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ : ليصبح عند رأس كلِّ رجلٍ منَّا كتابٌ منشورٌ من الله ﷻ أنك لرسوله نؤمر فيه باتباعك"[١]. وهذا ما قاله الخازن في تفسيره[٢].

ونظير هذا الطلب والاقتراح المتعنت ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ..﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٤] ، وقوله ﷻ: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ..﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣].

ولما كان طلبهم ذلك لأجل التعنت ، لا لطلب الحقّ واتباعه جيء بحرف الردّع ﴿كَلَّا﴾ ؛ لردعهم عما اقترحوه ، وزجرهم عما أرادوه من نزول كتابٍ على كل واحدٍ منهم[٣]، فلو أوتى كلّ واحدٍ منهم هذه الصحف لم يؤمنوا ، وهذا ما بيّنه القرآن الكريم في غير ما آية ، كقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام:٧] ، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١].

وبعد الردّع يجيء بيان سبب إعراضهم ، قال ﷻ :﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾، "فهذا هي العلة والسبب في إعراضهم"[٤]؛ فعدم خوفهم من عذاب الله ﷻ وأليم عقابه ، الناتج عن عدم

---

(١) البغوي، معالم التنزيل ،٨/٢٧٤-٢٧٥، وانظر:السمرقندي ، بحر العلوم، ٣/٤٩٦،الثعالبي ، الكشف والبيان ،١٠/٧٩.

(٢) انظر: الخازن ، لباب التأويل ،٧/١٨٠.

(٣) انظر مثلاً: الزمخشري، الكشاف ،٤/٦٥٧، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٣٠/١٨٧، النسفي ، مدارك التنزيل ،٤/٤٥٧، أبو حيان ، البحر المحيط،٨/٣٨١، الآلوسي ، روح المعاني، ٢٩/١٣٤، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٩/٣٣١.

(٤)ابن جزي الكلبي،التسهيل ،٤/١٦٣، الثعالبي ، الجواهر الحسان ، ٤/٣٦٤.

إيمانهم باليوم الآخر هو السبب الحقيقي في عنادهم وتكبرهم ، وإعراضهم عن تـذكرة القـرآن الكريم ، وما جاء به النبي ﷺ ، وجرأتهم على طلب ما طلبوه واقترحوه ؛ لأن الإيمان بـالآخرة رادع قويٌّ للإنسان عن المعاصي ، وعن الكفر بالله ﷻ ، والإعراض عما جاء بـه الرسـول ﷺ.

قال قتادة :"إنَّما أفسدهم أنَّهم كانوا لا يُصدِّقون بالآخرة ، ولا يخافونها، هو الذي أفسدهم"[١].

ثمَّ تجيء﴿ كَلَّا ﴾ مرة ثانية ؛ لتؤكد ردع الكفرة المعرضين عما أرادوه واقترحوه[٢]، ويـأتي بعدها بيان علة هذا الردع وإبراز سببه ، قولهﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

فهذه الجملة الاسمية المفيدة للثبوت ، التي بدئت بأداة التوكيد (إنّ) ، تؤكد أن القرآن العظـيم تذكرة ، وهي ــ كما يقول ابن عاشور ــ "تعليلٌ للردع عن سؤالهم أن تنزّل علـيهم صـحفٌ منشّرةٌ ، بأنَّ هذا القرآن تذكرة عظيمة"[٣].

فهذا الكتاب العظيم فيه من العبر والعظات ، والآيات البيّنات ، والدلالات الباهرات ، شـيء كثير ، وهو كافٍ في الدلالة على صدق النبي ﷺ ، ومُغنٍ عن كلّ كتـابٍ أرادوه ، وكـلّ آيـة اقترحوها ، وهو كذلك إلى قيام الـساعة ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨ – ٥١].

---

(١) الإمام الطبري، جامع البيان ، ٤٣/٢٤.

(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز، ابن جزي الكلبي،التسهيل ،١٦٣/٤، الثعالبي ، الجواهر الحسان ، ٣٦٤/٤، سيد قطب، في ظلال القرآن،٣٧٦٢/٦.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٣٢/٢٩.

إنَّ القرآن الكريم تذكرة من الله ﷻ للنّاس أجمعين ؛﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ ، فمن شاء منهم أن يتعظ به اتعظ ، فعمل بما فيه من أمر الله ﷻ ونهيه ، ثمَّ ردَّ الله ﷻ المشيئة إلى نفسه ، فقال ﷻ: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، فلا أحد يقدر على الاتعاظ والتذكر ــ وغيره ــ إلا بــأن يشاء الله ﷻ ذلك له، ويعطيه القدرة عليه [1].

ثمّ وصف الله ﷻ نفسه بأنّه ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، فهو ﷻ المُستَحقُّ أن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يُتّقى عذابه وعقابه ، وهو المُستَحقُّ لأن ترتجى مغفرته ورحمته.

ولئن كان الكفار معروفون بكفرهم ، فإن المنافقين معلومون بلحن القول ، وقد نبتت نابتة في هذا الزمان تزعم الإيمان وهي تؤمن بمذاهب أرضية ووسواساتٍ شـيطانية تـأتي بتـأويلات وتمحلات ومصطلحات تكشف حالهم ، وتبين أنهم ليسوا من المؤمنين في شيء، هؤلاء هم من بني جلدتنا يتكلمون بلساننا ، ويعيشون بيننا لكنهم ليسوا من ديننا ، ولهم أطماع لا تختلف عــن أطماع الكافرين ، ولذا فإن هذه فيها ردعٌ وزجر لهؤلاء وأمثالهم.

---

(١) انظر: الإمام الطبري، جامع البيان ، ٤٣/٢٤، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥٩/١٩.

المطلب الثاني:

ردع الكافرين عن الادعاء بأنّ القرآن أساطير الأولين

وقف الكافرون ــ وما زالوا يقفون ــ من القرآن الكريم موقف العداء الساخر ، وحاولوا تشويه حقيقته ، وإثارة الشكوك حوله ، فمرة ادعوا أنّه سحر، كما جاء ذلك في قول ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف:٧]، ومرة أخرى ادعوا أنّه شعر، فردّ القرآن الكريم عليهم، بقوله ﷻ: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١– ٤٣] .

وكان من جملة ادعاءاتهم فيه أنّه أساطير الأولين؛ أي: أكاذيب وأباطيل من كتب السابقين ، وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك في غير ما آية ، كقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال :٣١] ، وبيّن أنّ هذا الادعاء الباطل من صفات المكذبين بيوم الدين ، ثمّ ردع عنه ، وعن أسبابه.

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾

[المطففين: ١٠ – ١٨].

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكرت الآيات السابقة أن للفجار كتابًا تُحصى فيه أعمالهم ؛ ليحاسبوا عليها ، جاء ذكر ما يكون للمكذِّبين بيوم الدين من شدّة وعذاب في ذلك اليوم العظيم الـذي يعـرض فيـه كتـابهم المرقوم، وبيان بعض قبائحهم ، وسببها، وذلك للرّدع عنها.

قال ابن عطية :"وقوله:﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله:﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ ، وذلك أنّه يتضمن أنّه يرتفع ليوم عرضٍ وجزاءٍ ، وبهذا يتم الوعيد ويتجه"[١].

ما ذُكرَ للمكذِّب بيوم الدين من صفات

وقد افتُتِحت الآيات الكريمة بتهديد المكذبين بالويل وشدّة العذاب والهلاك ، ثم بيَّنت ما كـذبوا به ، فقال ﷻ :﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾؛ أي : يكذبون بيوم القيامة ، يوم الجزاء والحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب.

ثُمَّ وُصِفَ المكذِّبون بذلك اليوم بثلاث صفات ، قال ﷻ: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

فالصفة الأولى:﴿مُعۡتَدٍ﴾، والمعتدي اسم فاعل من الاعتداء ، وهو مجاوزة الحق[٢]، يقـال: اعتدى يعتدي اعتداءً ، فهو مُعتَدٍ ؛ أي : متجاوز للحقِّ . وأصله من العَدْو، يقال : عـدا يعـدو عدوانًا ، وهذه المادة تدل على تجاوز في شيءٍ ، قال ابن فارس : "(عـدو): العـين والـدال

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤٥١/٥.
(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٣٢٨.

والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يرجع إليه الفروعَ كلّها، وهو يدلُّ على تجاوُزٍ في الشيء وتقدُّمٍ لما ينبغي أن يقتصر عليه ... قال الخليل: التعدّي: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصَر عليه"[١].

فالمعتدي: المتجاوز لأوامر الله ﷻ ونواهيه ؛ فلا يعمل بما أمر الله ﷻ ، ولا يكفُّ ويمتنع عما نهاه عنه.

والصفة الثانية: ﴿أَثِيمٍ﴾ ، والأثيم المتمادي في الإثم ، والآثم فاعل الإثم [٢]، والإثْمُ لغة : الذنب ، يقال: أَثِمَ إثمًا وأثمًا ؛ أي: وقع في الإثم ، فهو آثِمٌ ، وأثِيمٌ[٣].

فالآثم: اسم فاعل ، والأثيم المُبالغ في ارتكاب الآثام والذنوب ؛ فهو بتجاوزه لأوامر الله ﷻ لا يتورع عن ارتكاب أي إثمٍ يُحقّق له شهوة ، أو هوى!

والصفة الثالثة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، وهذه الصفة تكشف موقف ذلك الكافر المكذِّب بيوم الدين من القرآن الكريم ، إنّه يقول عنه ما ليس فيه ؛ إذ يدعي ظلمًا وزورًا أن القرآن الكريم أساطير الأولين.

والأساطيرُ لغة: تأتي بمعنى: الشيء المسطور في كتب ، من سَطَرَ يَسْطُرُ: إذا كتب.

تأتي بمعنى : أباطيل وأكاذيب ، وأحاديث لا نظام لها ، واحدتها: إِسْطارٌ وإِسْطارَةٌ ، وأُسْطُورٌ، وأُسْطُورَةٌ ، يقال: سَطَّرَ فلانٌ علينا يُسَطِّرُ ؛ إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل [٤].

ويمكن حمل معنى مقولة المكذِّب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على أحد المعنيين: ما سطَّره الأولون فكتبوه ، من الأحاديث والأخبار ، أو أباطيل الأولين وأكاذيبهم ؛ لأنّ المراد من أي منهما الطعن في القرآن الكريم ، وإثارة الشبهات حوله ، وبث الاستهانة عند القارئين له والسامعين.

---

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ٢٠٣/٤ ،وانظر: الفراهيدي، العين،٢١٣/٢.

(٢) أبو الهلال العسكري، الفروق اللغوية ، ١٦.

(٣) الرازي، مختار الصحاح ، ٦.

(٤)ابن منظور، لسان العرب ، مادة(سطر) ،٣٦٣/٤.

قال الفخر الرازي: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أكاذيب الأولين. والثاني: أخبار الأولين ، وأنّه عنهم أخذ ؛ أي: يقدح في كون القرآن من عند الله ﷻ بهذا الطريق"[١]. وهذه أقبح صفات أولئك المكذبين.

ولذلك جيء بأداة الرَّدع ﴿كَلَّا﴾؛ لتردع كلّ معتدٍ أثيمٍ وتزجره عن ذلكَ القولِ الباطلِ، وتُكذِّبه فيه [٢]؛ فهو قول باطل ، ولا يستند إلى شبه دليل.

والرَّدع عن الادعاء بأنّ القرآن الكريم أساطير الأولين ، يُضاف إلى الأدلة على أنّ القرآن الكريم من عند الله ﷻ ووحيه ، ويضاف أيضًا إلى الردود على القائلين بأنه أساطير الأولين، كقوله ﷻ : ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان:٥-٦]

سبب التفوه بتلك المقولة الباطلة

وقد بيّن الحقّ ﷻ السبب الذي حملهم على التفوه بتلك المقولة الباطلة، فقال ﷻ: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤﴾.

فالإضراب بـ﴿بَلۡ﴾ يؤكد ردّ ما قبله وإبطاله ، ويبرز سبب تلك الدعوى الباطلة ، والمقولة الكاذبة ، قال الآلوسي:" بيان لما أدى بهم إلى التفوّه بتلك العظيمة ؛ أي : ليس في آياتنا ما يصحح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة ، بل ركب قلوبهم ، وغلب عليها ما استمروا

---

(١)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٣١/٨٥-٨٦.

(٢) انظر مثلاً: الزمخشري، الكشاف ، ٤/٧٢٢، ابن عطية، المحرر الوجيز ،٥/٤٥٢، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩/١٧٠، ابن عجيبة، البحر المديد ،٨/٢٦٠، ابن عاشور ، التحرير والتنوير،٣/١٩٨.

على اكتسابه من الكفر ، والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرآة ، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحقّ ، فلذلك قالوا ما قالوا "[١].

وقد روى أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ الرَسُولِ ﷺ أنه قَالَ :" إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾" [٢].

والرَّين في اللغة يدل على غطاءٍ وسترٍ ، ومنه الصَّدأُ الذي يعلو السيفَ والمِرآة . ورَانَ الذَّنبُ على قلبه يَرِينُ رَيناً ورُيُوناً : غلب عليه وغطّاه [٣].

الرّدع عن أسباب التفوّه بتلك المقولة الباطلة

وبعد الكشف عن أسباب ذلك الادعاء الكاذب تجيء أداة الرّدع ﴿ كَلَّا ﴾ ؛ لتردع "عن الكسب الرائن على القلب"[٤]، من الكفر والمعاصي ، والتي تحول بين القلب وتقبل الهدى وإدراك الحقّ الواضح وضوح الشمس في رابعة النّهار.

ولزيادة الرّدع جاء الوعيد الأكيد والتهديد الشديد لمن لم يرتدع ، وذلك بثلاثة أنواع من العقوبات :

أولها: قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، وللمفسرين في المراد منه قولان:

أحدهما: إنهم محجوبون عن رؤية ربهم ﷻ .

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ٧٢/٣٠، وانظر:أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٢٧/٩،ابن عجيبة ،البحر المديد،٢٦٠/٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير،باب ومن سورة ويل للمطففين ،رقم : (٣٣٣٤)،٤٣٤/٥. قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣٩٠/٢، ابن منظور، لسان العرب ، مادة(رين)،١٩٢/١٣.

(٤) النسفي، مدارك التنزيل ، ٤٩٨/٤، البيضاوي، أنوار التنزيل ، ٤٦٥/٥، النيسابوري القمي، غرائب القرآن ،٦ /٤٦٥، الشربيني، السراج المنير ،٥٧٢/٤.

وثانيهما: إنهم محجوبون عن كرامته ﷻ.

وقد حمل الإمام الطبري اللفظ على عمومه ، ولم يخصصه بمعنى دون آخر، فقال ما نـصه: "ولا دلالة في الآية تدلّ على أنّه مراد بذلك الحجاب عن معنى منه دون معنى، ولا خبر به غن رسول الله ﷺ قامت حجته.

فالصواب أن يقال: هم محجوبون عن رؤيته، وعن كرامته إذ كان الخبر عامًا، لا دلالة على خصوصه" [(١)].

وسواءٌ خُصِّص اللفظ بأحد المعنيين أم حُمِل على عمومه فإن المقصود من ذلك هـو الإهانـة والإذلال لمن أصرّ على التكذيب والطعن بآيات القرآن الكريم.

وقد جاء تأكيد الجملة بمؤكدين اثنين ، هما: (إنّ) التوكيدية ، ولام الابتداء ، فضلاً عن كون الجملة اسمية تفيد الثبوت.

ثانيها: قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: معذبون في نار جهـنّم، و﴿ ثُمَّ ﴾ تفيـد العطف مع التراخي الرتبي ، وهو ارتقاء في الوعيد ؛ لأنّ صلى الجحيم اشد من الإهانة [(٢)].

وقد جاءت هذه الجملة مؤكدة بما أُكِّدت به الجملة السابقة ؛ لكي لا يبقى مجـالٌ للإنكـار أو الشك بمضمون أحدهما أو كلاهما.

ثالثها: قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، وذلك على سبيل التوبيخ والتقريـع ، والتنديد بشناعة ما كانوا عليه في الدنيا ، قال البقاعي: "وهذا هو عذاب النفس" [(٣)]؛ لأن التـذكير بالجرم وقت العقوبة عليه ــ وقد كان بمقدور صاحبه أن يأخذ بأسباب النجاة من ذلك ــ يزيـد النفس حسرة وتألمًا على ترك تلك الأسباب المنجية، وعدم التفاته لها.

---

(١) الإمام الطبري ، جامع البيان ،٢٨٩/٢٤ -٢٩٠.

(٢) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١٢٧/٩، الشوكاني فتح القدير، ٤٠٠/٥، ابن عاشور ، التحرير والتنوير،٢٠١/٣٠.

(٣) البقاعي ، نظم الدرر ، ٨/ ٣٦١.

ومجيء اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾فيه إشارة إلى تعذيبهم وأنهم صاروا إلى الجحيم [١]، وتقديم الجار والمجرور﴿بِهِۦ﴾للاهتمام بالمُكذَّب به.

الردّع عن التكذيب بعذاب الآخرة

وعقب هذا الوعيد الأكيد والتهديد الشديد تجيء ﴿كَلَّآ﴾ ؛ لتردع عن التكذيب بعذاب الآخرة[٢]، والذي يجرُّ لارتكاب أكبر المعاصي وأقبح الذنوب ؛ فالمكذِّب بعذاب الآخرة لا يرقبُ حسابًا ولا عذابًا ولا ثوابًا، فيُنزع من قلبه الخوف من العقاب والعذاب ، ويُنزع من قلبه الطمع في الثواب ، ويأبى التسليم لما يكفه ويمنعه عن هواه و شهوته ، ولذلك يرفض الإذعان لآيات القرآن الكريم ، وما تضمنته من أوامر ونواهي ، ويسعى لإثارة الشبهات والشكوك حول القرآن الكريم.

فالتكذيب بعذاب الآخرة هو رأس البلايا، ومنبع الشرور والآثام ، ويوجب لصاحبه أسوأ العذاب ، قال الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل:٤-٥].

أما التصديق باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب فهو الرّادع الأكبر عن المعاصي، والمحرّض الأقوى في النفوس للالتزام بأوامر الله ﷻ ؛ ولذلك ذُكِر اليوم الآخر في كتاب الله العزيز في مواضعَ كثيرة ، وقد اقترن ذِكرُ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله ﷻ في كثيرٍ من الآيات.

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤٥٢/٥.

(٢) انظر مثلاً: النسفي، مدارك التنزيل ، ٤٩٨/٤، ابن عجيبة، البحر المديد ،٢٦٢/٨، محمد عبده ، تفسير جزء عمّ ،٤٨، سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٣٨٥٨/٦.

هذا وقد جاء بعد الردّع عن التكذيب بعذاب الآخرة بيان ما للمصدقين باليوم الآخر الذين أعرضوا عن عاجل شهوات الدنيا ، والتزموا طاعة الله ﷻ من عظيم الأجر والثواب ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: ١٨ – ٢١].

ولا يعني ما تقدم أن الردّع عن الادعاء بأنّ القرآن أساطير الأولين مقتصر على الكافرين ، وإنما هو شامل لكل من سلك طريق أولئك الكفار في كل عصر ومصر ، فأثار الشُبه والشكوك حول القرآن الكريم ، أو ادعى أن القرآن الكريم لا يصلح لهذا العصر ، أو طعن في حكم من الأحكام التي تضمنها القرآن الكريم.

المطلب الثالث:

ردع الكافرين عن الاستهزاء باليوم الآخر

إن قضية الإيمان باليوم الآخر من القضايا العقدية الرئيسة ، وقد أثارت دهشة الكافرين عند نزول القرآن الكريم، وما زالت تُثير دهشة الكافرين واستغرابهم ، فأعجب ما يُدهشون له ويستغربونه إعلامهم أنّ هناك بعثًا بعد الموت وحياة أخرى ، كما قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾[الإسراء:٤٩]؟! وقال ﷻ:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[النمل: ٦٧ – ٦٨].

ولم يقفوا عند حدّ الدهشة والاستغراب ، بل تجاوزوا ذلك إلى الاستهزاء باليوم الآخر، وذلك بعد أن كذّبوا به من غير دليلٍ ولا حجّة يستندون إليها إلا استبعاد بعث الأجسام وإعادتها بعد فنائها وتفتتها، ثم اختلاطها بالتراب ، وقد ظهر هذا الاستهزاء الذي ردع القرآن الكريم عنه في ثلاث صور ، هي:

أولاً: الامتناع من دفع الحقوق وتأجيلها للآخرة استهزاءً :

يتخذ أهل الكفر من عدائهم لدين الله ﷻ طريقًا لمنع المؤمنين بالله ﷻ حقوقهم ، وأكل أموالهم ، والسيطرة عليها بكل تهكم واستخفاف...، وقد ذكر القرآن الكريم نموذجًا لذلك ، فقال عزّ من قائل :﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ [مريم: ٧٧ – ٨٠].

سبب نزول الآيات الكريمة

هذه الآيات الكريمة نزلت في العاصِ بن وائل السهمي ، لما جاء في الصحيحين عن مسروق عن خَبَّابٍ قَالَ كُنتُ قَيْنًا ــ أي: صائغًا ــ في الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ لي دَيْنٌ عَلَى العاصي بْــنِ وَائِــلٍ قَالَ فَأَتَاهُ يَتَقَاضَاهُ ، فَقَالَ : لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ : وَاللَّهِ لاَ أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ . قَالَ : فَذَرْنِى حَتَّى أَمُوتَ ثُمَّ أُبْعَثَ ، فَسَوْفَ أُوتَى مَالاً وَوَلَدًا ، فَأَقْضِيكَ فَنَزَلَــتْ هَــذِهِ الآيَاتُ[1].

وعلى هذا فالمراد بالذي كفر بآيات الله ﷻ هو العاصِ بن وائل السهمي ، ولكنَّ هذا لا يعنـــي أن الآيات خاصةٌ به ، بل تشمل كلَّ مَنْ فعل مثل فعله وقال مثل مقولته في كلِّ زمان ومكـــان ؛ لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر في الآيات السابقة ــ وهي قولــه ﷻ :﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾[مريم: ٦٧] ــ "الدلائل أولاً على صحة البعث ، ثمَّ أورد شبهة المنكرين وأجـــاب

---

(١) صحيح الإمام البخاري ، كتاب التفسير، باب (كلا سنكتب ما يقول) ،رقم: ٤٤٥٧)،١٧٦١/٤، صحيح الإمام مسلم ، كتـــاب المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح،رقم:(٢٧٩٥) ،٢١٥٣/٤، الواحدي، أسباب النزول ،٢٠٤.والقين:الحداد والصائغ.

عنها ، أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنًا في القول بالحشر"[١]، وردعهم عن ذلك.

وقد افتُتِحت الآيات الكريمة بجملة﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ ، وقد ذكرت فيما سبق[٢]أن همزة الاستفهام، والفعل (رأى) المتصل بتاء الخطاب لا تستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة ، وأن (أرأيت) تستعمل في معنى (أخبرني) ولا يقصد بها الاستفهام الحقيقي ، وإنما المقصود منها التعجب والتنبيه ؛ لأنّ الله ﷻ عالم بكلِّ شيءٍ ، وهو ﷻ منزه عن أن يستفهم استفهامًا حقيقيًا.

وقد جاء الاستفهام هنا مفيدًا التعجيب من حال هذا الكافر الغريبة العجيبة ؛ فقد أضاف إلى كفره بالله ﷻ وآياته أكل مال أحد المؤمنين ومنعه حقَّه، والتكذيب باليوم الآخر والاستهزاء به ، والتنبيه على ما قاله وما حدث منه ، فذلك شيء قبيح مستغرب ، وهو جدير بأن يُتَعجب منه.

قال أبو السعود : " الهمزة للتعجيب من حاله ، والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضى منها العجب ... و(الفاء) للعطف على مقدر يقتضيه المقام؛ أي : أنظرت فرأيت ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الباهرة التي حقّها أن يؤمن بها كلُّ مَن يشاهدها، ﴿وَقَالَ﴾ مستهزئًا بها ، مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ ؛ أي: انظر إليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة"[٣]. وهذا ما ذكره ابن عجيبة[٤]، والآلوسي[٥].

---

(١)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢١/٢١٣ ، وانظر: ابن عادل ،اللباب ، ١٣/١٣٦] ، المراغي، تفسير المراغي ،١٦/٨٠.

(٢) انظر : المطلب الثالث من المبحث الثالث من الفصل الثالث.

(٣) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٥/٢٧٩.

(٤)انظر: ابن عجيبة ، البحر المديد ،٤/٢٤٨.

(٥)انظر: الآلوسي ، روح المعاني،١٦/١٣٠.

وبعد التعجيب من مقالة هذا الكافر الغريبة ودعواه القبيحة يـأتي إظهـار بطلانهـا، وذلـك بالاستفهام الإنكاري المتضمن للنفي، قـال ﷻ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾، فالهمزة للاستفهام ، واستُغنيَ بها عن همزة الوصل فحذفت ، والأصل: أاطّلع(١).

وقد أشار الزمخشري إلى أن سرَّ التعبير بلفظ ﴿أَطَّلَعَ﴾ دون غيره كعَلِمَ أو عرف مثلاً هو الإشارة إلى الظهور والعلو والتملك ، وأنَّ ذلك لله ﷻ وحده ، فقال ما نـصه: "﴿أَطَّلَعَ﴾ مـن قولهم : أطلع الجبل : إذا ارتقى إلى أعلاه ، ويقولون : مرّ مطلعًا لذلك الأمر ؛ أي : عاليًا لـه مالكًا له ، ولاختيار هذه الكلمة شأن ، يقول : أو قد بلغ من عظمة شانه أن ارتقـى إلـى علـم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار ؟! والمعنى : أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصـل إليه إلا بأحد هذين الطريقين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما توصل إلـى ذلك ؟"(٢). وهذا ما تناقله مفسرون من بعده(٣).

وما من شك بأن كلا هذين الطريقين باطل ؛ لأنَّ العاص بن وائل لم يطلع الغيب ، ولم يتخـذ من عالم الغيب عهدًا أن يؤتيه مالاً وولدًا ، فثبت بذلك كذب هذا الكافر وافتراؤه.

وقد ذُكر في معنى﴿عَهْدًا﴾ عدة أقوال ، منها: أن الله ﷻ عهـد إليـه أن يدخلـه الجنـة، والشهادتان ، وتقديم العمل الصالح (٤)، ولم يكن للكافر شيء من ذلك.

---

(١) انظر: ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣١/٤ ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٩٨/١١.

(٢) الزمخشري ، الكشاف ،٣/٤٠-٤١.

(٣) انظر مثلاً: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢١/٢١٣، أبو حيان ، البحر المحيط ،٦/٢١٣.

(٤)انظر: ابن الجوزي ، زاد المسير ، ٥/٢٦١.

ثُمَّ جيء بأداة الرّدع ﴿ كَلَّا ﴾ ، لتردع عن التفوّه بتلك المقولة القبيحة[١]، وما تتضمنه من التكذيب باليوم الآخر والاستهزاء به ، وما ينتج عن ذلك من الاعتداء على المؤمنين وأكل أموالهم .

ولمزيد من الرّدع يجيء الوعيد والتهديد على تلك المقولة الشنيعة ، قال ﷻ:﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

فهذا بيان للمصير المحتوم، والعذاب الأليم لذلك الكافر وأمثاله ، وإنما بُدئ بحرف التنفيس الدال على الاستقبال ؛ لأن الجزاء يكون في المستقبل ، وإلا فانّ الكتابة تكون في الحال ، قال ﷻ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٨].

قال ابن جزي الكلبي: " إنما جعله مستقبلا ؛ لأنَّه إنّما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل"[٢].

وقال أبو حيان: "وكنّى بالكتابة عن ما يترتب عليها من الجزاء ، فلذلك دخلت السين التي للاستقبال ؛ أي: سنجازيه على ما يقول"[٣].

ومدُّ العذاب : زيادته لذلك الكافر ومضاعفته له، قال الفخر الرازي:" وقوله ﷻ: ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ ؛ أي: نطوّل له من العذاب ما يستأهله ، ونزيده من العذاب ونضاعف له ، من المدد ، ويقال مدّه وأمده بمعنى"[٤].

و﴿ مَدًّا ﴾ مفعول مطلق مؤكِد لفعله (نمدُّ) ، وفيه دلالة على فرط غضب الله ﷻ على ذلك الكافر ومَنْ اقتفى أثره إلى قيام الساعة[١].

---

(١) انظر مثلاً: الزمخشري ، الكشاف ،٤١/٣، ابن عطية، المحرر الوجيز، ٣١/٤، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢١٣/٢١ ، أبو حيان ، البحر المحيط ،٦/ ٢١٣،ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،١٣٣/٣، الشنقيطي ،أضواء البيان، ٤٩٢/٣.

(٢)ابن جزي الكلبي ، التسهيل، ٩/٣.

(٣)أبو حيان، البحر المحيط،٢١٤/٦.

(٤)الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٢١٣/٢١.

وزيادة على ذلك فإنّه يحصل له عكس ما قاله وادعاه ؛ إذ يُنْزعُ منه ما أُعطِيَه في الدنيا من مالٍ وولدٍ ، ويأتي في الآخرة بلا مالٍ ولا ولد ، قال ﷻ: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾؛ أي:"من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتى في الدار الآخرة مالاً وولدًا، زيادة على الذي له في الدنيا ؛ بل في الآخرة يُسلَب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ؛ أي: لا مال ولا ولد"(٢)، ولا غير ذلك ، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ... ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام:٩٤]

ثانياً: الاستهزاء بعدد خزنة جهنّم :

وهذه صورة أخرى من صور استهزاء الكفار باليوم الآخر، والتي رُدعوا عنها ، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المدثر: ٣١ – ٣٥].

قال البغوي: "لما نزل قول الله ﷻ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر:٣٠] ، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم ، أسمعُ ابن أبي كبشة يُخبر أنَّ خزنة النَّار تسعة عشر وأنتم الدَّهم ؛ أي: الشجعان ، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحدٍ من خزنة جهنَّم !

---

(١) انظر: النسفي ، مدارك التنزيل ، ٣/٧٠، البيضاوي، أنوار التنزيل ،٤/٣٣.

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣/١٣٣.

قال أبو الأشد أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً... (٣١)﴾ [المدثر: ٣١][1].

وإنّما قال أبو جهل وأبو الأشد ما قالاه استهزاء منهم وسخرية بكون عدد خزنة جنّهم ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ؛ ولذلك جاء الردُّ على المستهزئين ببيان حقيقة أولئك التسعة عشر ، وبيان الحكمة من ذكر عددهم .

أما حقيقتهم ، فقد جعلهم الله ﷻ ملائكة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ ، ولم يجعلهم بشرًا ، ومن يقوى على مغالبة خزنة النّار وهم الملائكة الغلاظ الشّداد ؟! قال الآلوسي: "الظاهر أن المراد بـ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ هم التسعة عشر، ففيه وضع الظاهر موضع الضمير، وكأن ذلك لما في هذا الظاهر من الإشارة إلى أنهم المدبرون لأمرها، القائمون بتعذيب أهلها ما ليس في الضمير. وفي ذلك إيذان بأن المراد بسقر: النّار مطلقا لا طبقة خاصة منها ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها: أنهم يتولون أمرها ، وإليهم جماع زبانيتها"[2].

وأما حِكم ذكر عددهم ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ، فهي:

أولاً: فتنة الكفار:

قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي : سببًا لفتنة الكفار، قال الفخر الرازي: "إنما صار هذا العدد سببًا لفتنة الكفار من وجهين:

---

(١) البغوي، معالم التنزيل ، ٨/٢٧٠-٢٧١، وانظر: السيوطي، لباب النقول، ٢٠٧-٢٠٧.

(٢) الآلوسي، روح المعاني ، ١٢٦/٢٩.

الأول : أن الكفار يستهزئون يقولون لِمَ لَمْ يكونوا عشرين ، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود. الثاني : أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكون وافيًا بتعذيب أكثر خلق العالم من الجن والإنس" [١].

ولعلَّ مما تحسن الإشارة إليه هنا أن هناك سخرية من وجه آخر أقبح من سخرية الكفار ظهرت في هذا العصر ، حين نظر رشاد خليفة[٢] في قوله ﷻ :﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾نظرة خبيثة مغرضة ، تقوم على الهوى والمزاجية ، فزعم أن البسملة هي المقصودة من قوله ﷻ:﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ، وما ذلك إلا لإبطال حقيقة نار جنهم ، والحقُّ أن جهنّم حقٌّ وعليها تسعة عشر ملكًا لا حرفًا[٣].

ثانيًا: حصول اليقين لأهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين :

قال ﷻ: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ قال ابن عباس ﵄:" وإنها في التوراة والإنجيل تسعة عشر ، فأراد الله ﷻ أن يستيقن أهل الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا"[٤]؛ وذلك بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ[٥].

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٨٠/٣٠.

(٢) هو: محمد رشاد خليفة ، من مواليد مصر عام(١٩٣٥م) ، حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة(كاليفورنيا) بأمريكا ، تزوج أمريكية ، وحصل على جنسية الأمريكية، ويدين بالدين البهائي ، وأظهر فريته في كتابين له، هما (عليها تسعة عشر) و(دلالات جديدة في القرآن).[انظر:الخالدي، صلاح عبد الفتاح ،البيان في إعجاز القرآن ،ط٣،دار عمار ــ عمّان، ١٩٩٢م،٣٦٦-٣٧٢]

(٣) للمزيد حول نقض هذا الزعم الفاسد انظر: الخالدي ، البيان في إعجاز القرآن، ٣٧٢-٣٧٧.

(٤) الإمام الطبري، جامع البيان ، ٣٠/٢٤.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٤٥/٤.

ثالثًا: انتفاء الارتياب:

قال ﷻ: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ، مؤكد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة عارضة تطرأ على قلوبهم [١].

رابعًا: قوله ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ :

أي : وليقول الذين في قلوبهم مرض الشك والريب [٢]، والكافرون : ما الـذي أراده اللهُ ﷻ بذكر هذا العدَدِ العجيب المستغرَبِ استغرابَ المثل[٣]؟ يقولون ذلـك علـى سـبيل الاسـتهزاء والتهكم.

وأعيد اللام في ـ﴿وَلِيَقُولَ﴾ـ "للفرق بين العلتين ؛ إذ مرجّح الأولـى الهدايـة المقـصودة بالذات ، ومرجّح هذه الضلال المقصود بالعرض الناشيء من سوء صنيع الضالين" [٤].

ثمَّ يجيء قوله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، المشار إليه باسم الإشارة ما قبلـه، قال ابن كثير :" أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة " [٥].

وقال الآلوسي:" مِثْلُ ذلك الإضلال وتلك الهداية يضل الله ﷻ من يـشاء إضـلاله؛ لـصرف اختياره حسب استعداده السيء إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله ﷻ الناطقة بالهدى ،

---

(١) النسفي ، مدارك التنزيل، ٤٥٥/٤، أبو السعود ،إرشاد العقل السليم، ٦٠/٩، ابن عجيبة ،البحر المديد،١٧٩/٨.

(٢) وقيل: المراد منهم المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة، وأن هذا من الإخبار عن غيب سـيقع. [انظـر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،٤٥/١٩].

(٣) البيضاوي ، أنوار التنزيل ،٤١٦/٥، البقاعي، نظم الدرر،٢٣٢/٨.

(٤)الآلوسي، روح المعاني ، ١٢٨/٢٩.

(٥)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٤٥/٤.

ويهدي من يشاء هدايته ؛ لصرف اختياره حسب استعداده الحسن عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى ، لا إضلالاً وهداية أدنى منهما" [١].

والتعبير عن الضلال والهداية بصيغة المضارع يفيد تجدُّدَهُما واستمرارهما بتجدد الزمان.

ولدفع توهم أن الملائكة المكلفين بتعذيب المعذبين منحصرون في التسعة عشر يأتي قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾؛ ليبيّن أن الأمر فوق ما يُظنُّ ويتوهم ؛ لأن ذلك من علم الغيب، فهو ﷻ وحده الذي يعلم حقيقتهم، وصفاتهم ، ووظائفهم ، وأعدادهم[٢].

قال القرطبي:" وهذا جواب لأبي جهل حين قال : أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر" [٣]؛

والضمير﴿هِيَ﴾في قوله ﷻ:﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يعود على سقر ؛ وهي النّار، قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الإمام الطبري [٤]، ورجحه أبو حيان[٥]، واقتصر على ذكره غير واحد من المفسرين ، قال ابن عجيبة :" أي : ما سقر وصفتها إلاّ تذكرة للبشر ؛ لينزجروا عن القبائح"[٦].

وذُكِرَ احتمال رجوع الضمير للآيات الناطقة بأحوال سقر ، أو لعدد خزنتها ، أو للجنود ، وقد عقب ابن عاشور على هذه الأقوال بعد أن ذكرها بقوله:" وإنّما حملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع ، وهذا من بلاغة نظم القرآن"[٧].

ولكن لعلّ الراجح من ذلك هو عود الضمير إلى النّار ؛ لأنه تقدم ذكر النّار في أول الآية ، وذكر عدد خزنة جهنم لزيادة التخويف من أمرها.

---

(١)الألوسي، روح المعاني ، ١٢٨/٢٩.

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ، ٢٣٣/٨، سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٣٧٦٠/٦.

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،٥٤/١٩.

(٤) الإمام الطبري ، جامع البيان ،٢١/٢٤-٢٢.

(٥) أبوحيان ، البحر المحيط ، ٣٧٧/٨.

(٦) ابن عجيبة، البحر المديد، ١٨٠/٨.

(٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٢٠/٢٩.

وعلى هذا فالتخويف بسقر والترهيب منها ليس عبثًا ، وإنما يُقصد به تذكير البشر ، والعاقل منهم حين يتذكر حرَّ النّار وسعيرها وشدّة عذابها، وخزنتها يرتدع عن كلّ ما يوقع فيها ويقرب إليها.

وبعد الردّ على الكفرة المستهزئين ودفع أوهامهم ، وبيان الغاية من التخويف بسقر ، بعد كلّ ذلك تجيء ﴿ كَلَّا ﴾؛ لتردع عما تضمنته الآية التي قبلها من الاستهزاء والتهكم بعدد خزنة جهنّم ، فهم ملائكة ، وكفى ، لا يقوى البشر على دفعهم ومقاومتهم ، قال الإمام الطبري: "يعني تعالى ذكره بقوله:﴿ كَلَّا ﴾ليس القول كما يقول من زعم أنه يكفي أصحابَهُ المشركين خزنةُ جهنم حتى يجهضهم عنها"[١].

وقال السمرقندي:" ﴿ كَلَّا ﴾ردًا عليهم"[٢].

وقال حبنكة الميداني: "الرّدع والزجر موجهان لمنكري سقر وللشّاكين في وُجودها ، وللمستهزئين بأنّ خزنتَهَا تسعة عشر"[٣].

وذكر البغوي أن ﴿ كَلَّا ﴾هنا بمعنى (حقًّا)[٤]، وهذا ما قاله ابن الجوزي[٥].

وقد ذكرت فيما سبق إمكانية الإفادة من المعنيين، إذ يدل (حقًا) على ثبوت استهزاء الكافر المكذب بالآخرة ، والرّدع هو ما تفيده في أصل وضعها.

---

(١)الإمام الطبري ، جامع البيان،٣٢/٢٤.

(٢) السمرقندي، بحر العلوم ، ٤٩٥/٣.

(٣) حبنكة الميداني، معارج التفكر ،١٢٤/١٠.

(٤) البغوي، معالم التنزيل ، ٢٧١/٨.

(٥) انظر : ابن الجوزي، زاد المسير ،٤٠٩/٨.

وإذا كان الاستهزاء بالبشر قبيحًا مذمومًا فإن الاستهزاء بالملائكة الذين لا يعصون الله ﷻ ما أمرهم ، أشدُّ قُبحًا ، وأعظم ذمًّا ، وإنّ الفاعل لذلك إنّما يقتفي أثر أبي جهل فرعون هذه الأمة ، وحسبُه قُبحًا ... أنّ أبا جهل قدوته.

ثم أقسم الله ﷻ ، فقال :﴿ وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، فالواو (واو) القسم — والله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته — والمقسم به : القمر ، والليل عند إدباره وبداية ظهور نور الفجر، والصبح إذا أضاء وتبيَّن نوره [١]، وهذه الثلاثة من الآيات الكونيــة،والتي تــشتمل على آيات الله ﷻ العظيمة، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته ﷻ.

قال أبو حيان :"أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها وتنبيهًا على ما يظهر بهــا وفيهــا مــن عجائب الله ﷻ وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها" [٢].

وجاء القسم بهذه الأمور متناسبًا مع حالي الهدى والضلال في قوله ﷻ:﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾؛ فهذه الثلاثة تمثل ظهور النور بعد الظلام ، والهداية بعد الضلال [٣].

وجواب القسم قوله ﷻ:﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، والضمير يرجع إلى نار جهنّم ، قاله غير واحدٍ من أئمة التفسير ، وعلى رأسهم ابن عباس ﷺ [٤].

و﴿ الْكُبَرِ ﴾ : جمع (كُبرى) ، مِثل الصُّغْرَى والصُّغَر ، وهي الأمور العظام [١]، وفي الكشاف: هي "البلايا أو الدواهي الكُبر ، ومعنى كونها من إحداهنّ: أنها من بينهنّ واحدة فــي العِظــم لا نظير لها" [٢].

---

(١)انظر :الإمام الطبري ، جامع البيان،٣٢/٢٤ -٣٣، الثعلبي، الكشف والبيان ، ٧٦/١٠.

(٢) أبوحيان ، البحر المحيط ، ٣٧٨/٨.

(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٢٢/٢٩.

(٤) انظر:الإمام الطبري ، جامع البيان،٣٣/٢٤ ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،٤٤٦/٤.

إنَّ نار جهنَّم التي يستهزئ بخزنتها الكافرون ويكذبون بها، لإحدى الدواهي الكبار ، والأمور العِظام ، التي لا مثيل لها في عِظَمها، وفي شدّة هولها.

وقد جاءت جملة ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ مؤكّدة بأربع مؤكدات : القسم ، وأداة التوكيـد (إنّ) ، ولام الابتداء التي دخلت على خبر (إنّ) ، واسمية الجملة ، وهذا الحشد من المؤكِدات إنما يكون في خطاب المنكرين وهو أسلوب قرآني فيه زيادة ردع للمنكرين ، أو من ينزل منزلتهم ؛ فنـار جهنّم من الأمور الخفية الغائبة، وهي تحتاج لإثبات ، ثُمَّ إنَّ الكافرين قد اتخذوا من عدد خزنـة جهنّم مجالاً فسيحًا للسخرية والاستهزاء ، فجاءت هذه المؤكِدات متناسبة مـع حـالهم ، وحـال أمثالهم .

ثالثاً: التساؤل من اليوم الآخر استهزاءً :

وهذه صورة ثالثة من صور استهزاء الكافرين باليوم الآخر؛ فقد كانوا يتساءلون عنه، ولكـنَّ سؤالهم لم يكن بقصد معرفة الجواب، وإنَّما هو سؤال تهكم واسـتهزاء ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ① عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ② ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤ ﴾ [النبأ:١ – ٧]

مناسبتها لما قبلها:

لما تحدثت السورة ـــ سورة المرسلات ـــ السابقة عن اليوم الآخر ، وذُكر فيهـا تكـذيب الكافرين بالبعث والنشور، جاءت هذه السورة مشتملة على ردع الكافرين عن الاستهزاء بـاليوم الآخر ، وذكر براهين البعث بعد الموت وأدلة القدرة عليه.

---

(١)ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هــ) غريب القرآن ،المحقق : أحمد صقر ، دار الكتب العلميـة ـــ بيـروت ، ١٩٧٨م، ٤٩٧، الواحدي ، الوجيز ،١١٥١/٢.

(٢)الزمخشري ، الكشاف ،٦٥٥/٤.

قال الآلوسي : "ووجه مناسبتها لما قبلها : اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذي دل ما قبل على تكذيب الكفرة به [١]. وبمثل هذا قال المراغي [٢].

وقد افتتحت الآيات الكريمة بلفظ ﴿عَمَّ﴾ وهو مركب من حرف الجر(عن) واسم الاستفهام (ما) ، فأصله : (عن ما) ، فأدغمت النون في الميم ؛ لأن الميم تشاركها في الغنة ، فصارت (عمّا) ، ثمّ حذفت الألف ليتميز (ما) الاستفهامية عن غيرها ، أو تخفيفًا لكثرة استعمالها[٣].

وهذا الاستفهام ليس على حقيقته ؛ لأن الله ﷻ يعلم السّر وأخفى ، وإنّما المراد منه التفخيم والتعجيب ، قال أبو حيان: "والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب، كما تقول : أي رجل زيد ؟ وزيد ما زيد ، كأنّه لما كان عديم النظير أو قليله خفيّ عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه ، ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء – أي: جرد للدلالة على التفخيم – ، فجاء في القرآن"[٤].

وقال أبو السعود – والآلوسي من بعده – :الاستفهام "للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة ؛ أي : عن أي شيء عظيم الشأن يتساءلون"[٥] ؟!

والضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكفار قريش وأمثالهم ، ممن يتساءلون عن البعث والحشر، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً وتهكمًا[٦].

ثمّ بيّن ﷻ المتسائَل عنه، فقال ﷻ: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني، ٢/٣٠.

(٢) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ٣/٣٠.

(٣) الزجاج ، معاني القرآن، ٢٧١/٥ ، ابن عطية ، المحرر الوجيز،٤٢٣/٥ ، ابن عجيبة ، البحر المديد، ٢١٤/٨.

(٤) أبو حيان ، البحر المحيط ، ٤١١/٨.

(٥)أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٨٤/٩ ،الآلوسي ، روح المعاني، ٢/٣٠.

(٦) انظر: الزمخشري ،الكشاف ،٦٨٤/٤، البيضاوي، أنوار التنزيل ،٤٣٨/٥، أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٨٤/٩.

والنبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، ويتعرى عن الكذب[١].

والمراد بـ﴿النَّبَإِ﴾ : البعث بعد الموت ، قاله قتادة ، واختاره ابن كثير[٢]، والنيسابوري القمي[٣]، وغيرهما، وقيل : القرآن الكريم ، وقيل : أمر النبي ﷺ [٤].

والراجح من ذلك القول الأول ، بدليل سياق آيات السورة الكريمة بما فيه من دلائل القدرة على إمكان البعث ، ومن الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل.

قال صاحب تتمة أضواء البيان بعد إيراده الأقوال في المراد بالنبأ:" أظهرها دليلاً هو يوم القيامة والبعث ؛ لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهي معلومة أربعة: خلق الأرض والسماوات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا"[٥].

و﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة لـ﴿النَّبَإِ﴾ ، وفيه مزيد تنويه به ، وتفخيم لأمره ، قال البقاعي : "ولما كان في مقام التفخيم له ، وصفه تأكيدًا بقوله : ﴿الْعَظِيمِ﴾ مع أن النبأ لا يقال إلا لخبر عظيم شأنه ، ففي ذلك كلّه تنبيه على أنّه من حقه أن يُذْعِن له كلُّ سامع ويهتمّ بأمره ، لا أن يشك فيه ويجعله موضعًا للنزاع"[٦].

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، ٤٨٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/٤٦٢.

(٣) النيسابوري القمي، غرائب القرآن ، ٦/٤٩٢.

(٤) انظر: الماوردي ، النكت والعيون، ٦/ ١٨٢، ابن الجوزي ، زاد المسير ، ٩/٤.

(٥) محمد عطية سالم، تتمة أضوء البيان، ٨/ ٤٠٧.

(٦) البقاعي ، نظم الدرر، ٨/٢٩٥.

وإلى جانب هذه الصفة المؤكدة هناك صفة أخرى وهي وقوع الاختلاف فيه، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، جيء بها للمبالغة في تأكيد خطره، والإشعار بمدار التساؤل عنه، والجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ ، وقُدِّم عليه للاهتمام به [١]، وللإشعار بأنَّ الاختلاف ما كان مِن حقه أن يتعلق به [٢].

والجملة الاسمية ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ صلة الموصول ، جيء بها للدلالة على ثبات هذا الاختلاف ودوامه فيهم وتمكنه منهم [٣]؛ فمنهم مَنْ أنكر القيامة وجزم باستحالة البعث والنشور، كما أخبر الله ﷻ أنهم قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٧] ، ومنهم غير جازم ، بل شك في وقوعه ، كما أخبر الله ﷻ أنهم قالوا: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية:٣٢] [٤].

وبعد بيان عِظم شأن ذلك اليوم تجيء أداة الرَّدع ﴿كَلَّا﴾ ؛ لتردع أهل الكفر والضلال عن التساؤل الذي يُراد به الاستهزاء باليوم الآخر وإنكار وقوع البعث بعد الموت [٥]؛ إذ هو حقٌّ وصدقٌ ، وليس بموضع استهزاء وتهكم.

وأعقب هذا الرّدع التهديد الشديد والوعيد الأكيد ، قال ﷻ: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ، فهذا "وعيد لهم بطريق الاستئناف ، وتعليل للرّدع ، و(السين) للتقريب ، والتأكيد ، ومفعول يعلمون محذوف، وهو ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات. والتعبير عن لقائها بالعلم لوقوعه في معرض

---

(١)أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،٨٤/٩ ، البروسوي، روح البيان ،٢٩٦/١٠، الآلوسي ، روح المعاني، ٢/٣٠.

(٢)ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،١١/٣٠.

(٣)أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٨٥/٩، الآلوسي ، روح المعاني، ٤/٣٠، ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،١١/٣٠.

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ،٤/٣١، أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٨٥/٩، الآلوسي ، روح المعاني، ٤/٣٠.

(٥) انظر مثلاً: الزمخشري ،الكشاف،٦٨٥/٤، ابن عطية، المحرر الوجيز ، ٢٢٤/٥،الشربيني، السراج المنير ، ٥٢٩/٤، الشوكاني ، فتح القدير ، ٣٦٣/٥، محمد عبده، تفسير جزء عمَّ ،٧، ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،١١/٣٠.

التساؤل والاختلاف ، والمعنى: ليرتدعوا عما هم عليه، فإنهم سيعلمون عما قليلٍ حقيقة الحـال إذا حل بهم العذاب والنكال" [١].

وقد اختلف المفسرون في تفسيرهم لقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ على قولين:

أحدهما: إنه تكرير للتأكيد، و﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول وأشدّ [٢].

والثاني: إنه غير مكرّر، بل هو تأسيس جديد و﴿ ثُمَّ ﴾ على بابهـا فـي التراخـي ، قـال السمرقندي: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾، يعني: سيعرفون ذلك الوعيد على أثر الوعيد ، يعني : سيعلمون عند الموت ، وفي الآخرة ، ويتبين لهم بالمعاينة" [٣]. وهذا ما قاله صاحب أيسر التفاسير [٤].

وقد ذكرت فيما سبق أن التأسيس هو الأصل [٥]؛ فالآية الأولى تـضمنت الـردع ، والوعيـد والتهديد بنوع من العقاب عند النزاع أو في القبر ، وفي هذه الآية جيء بـ﴿ كَلَّا ﴾ للمبالغة في الرّدع ، وجيء بعدها بوعيد وتهديد غير الأول.

ثم جاء ــ بعد الرّدع ، وتهديد من لم يرتدع ــ ذكر ما يدل على أنّ البعث بعد الموت حقٌ لا مرية فيه ؛ لأنّ القادر على إيجاد الأشياء المذكورة ، قادر على بعث البشر وإعادتهم إلى الحيـاة بعد الموت ، وفي ذلك ما يردع العقلاء في كلّ عصر عن الاستهزاء بالآخرة ، بقول أو فعـل ، وفيه من الدروس التربوية النفيسة المفيدة في هذا العصر.

---

(١) أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،٩/٨٧، الألوسي ، روح المعاني، ٣٠/٤ ، والنصّ للألوسي.

(٢) انظر: الزمخشري ،الكشاف،٤/٦٨٥، ابن عطية، المحرر الوجيز ، ٥/٢٢٤، أبو حيان ، البحر المحيط ، ٨/٤١١.

(٣) السمرقندي، بحر العلوم ،٣/٥١٤.

(٤) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ،٥/٥٠١.

(٥) انظر: المطلب الثاني ،من المبحث الثالث من الفصل الثاني.

المطلب الرابع:

ردع الكافرين عن طلبهم عند الموت، وأمنياتهم يوم القيامة

إنّ الفرصة الوحيدة للرجوع عن الكفر والمعاصي، والإقبال على الإيمان بالله ﷻ ، وصالح الأعمال هي فرصة الحياة الدنيا ، إذ هي دار الابتلاء والامتحان ، وهي دار العمل والتكليف ، وهي الطريق الوحيد للنجاة من عذاب الله ﷻ ، وهي إلى نهاية.

وقد أمر الله ﷻ الكفار المعاندين بالاستجابة للحقّ قبل فوات هذه الفرصة ، وذلك قبل الموت، وقبل قيام الساعة ، فقال ﷻ: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ... ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى:٤٧].

والكافر الذي يرفض الإذعان للأمر، والاستجابة للحقّ ، ويتمسك بالباطل ، يندم ويتحسّر على فوات هذه الفرصة ، وعلى التفريط في الأعمال الصالحة ، ولذلك يطلب الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فاته من صالح الأعمال ، ويتمنى النجاة من العذاب.

وقد وجّه القرآن الكريم الرّدع لذلك الكافر عن طلبه ، وأمنياته بعد انقضاء زمن تدارك ما سلف منه من الكفر وسيء الأعمال ، ويمكن بيان ذلك بما يأتي:

أولاً: ردع الكافرين عن طلبهم عند الموت

تبدأ حسرات الكافرين وآلامهم من لحظة الموت ؛ فإذا نزل بهم الموت ، وصاروا في غمراته وسكراته ، كابدوا غاية الإهانة والإذلال ، وعاينوا مصيرهم المؤلم، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام:٩٣].

ومنذ تلك اللحظة يطلب الواحد منهم الرجعة إلى الحياة الدنيا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠].

افتتحت هاتان الآيتان الكريمتان بـ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ ، وفيها عدة أوجه ، منها ما ذكره الزمخشري بقوله : "﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ يتعلق بـ﴿ يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، والآيةُ فاصلةٌ بينهما على وجهِ الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن يستنزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم.

أو على قوله ﷻ:﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾"[1].

وقدّم أبو السعود الأول ، ولم يرض هذا الوجه ، وعبارته :" وتعلقها بـ (كاذبون) في غاية البعد لفظًا ومعنى"[2].

وهذا ما أكده الآلوسي بقوله :" وجوز الزمخشري أن يكون مرورًا على قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ويكون من قوله ﷻ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ... ﴿٩١﴾ ﴾ إلى هذا المقام كالاعتراض تحقيقًا لكذبهم ، ولاستحقاقهم جزاءه ، وليس بالوجه"[3].

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ،٣/٢٠٥.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ٦/١٥٠.

(٣) الآلوسي ، روح المعاني ، ١٨/٦٢.

ومنها ما ذكره ابنُ عطية بقوله: "﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه المواضع حرفُ ابتداءٍ ، ويُحتمل أن تكونَ غايةً مجردةً بتقديرِ كلام محذوفٍ ، والأولُ أَبْيَنُ ؛ لأنَّ ما بعدها هو المَعنِيُّ به المقصودُ ذِكْرُه"[١]. وهذا ما استظهره الشنقيطي[٢].

وعقّب أبو حيان على ما ذكره ابنُ عطية بقوله: "فتَوَهَّمَ ابنُ عطيـة أن ﴿حَتَّىٰٓ﴾ إذا كانت حرف ابتداءٍ لا تكون غايةً ، وهي إذا كانت حرفَ ابتداءٍ ، لا تفارقها الغاية ، ولم يُبَيِّنْ الكلامَ المحذوفَ المقدّرَ ، وقال أبو البقاء: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية في معنى العطف ، والذي يظهر لي أن قبلها جملة ، محذوفة تكون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لها يدل عليها ما قبلها، التقدير : فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ "[٣].

فالوجه الذي استظهره أبو حيان في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذا السياق هو الابتداء والغاية لكلام محذوف دلّ ما قبلها عليه ، وهذا ما قدّمه الآلوسي[٤].

يتبيّن مما تقدم أن ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه الآية إما أن تكون غاية لـــ ﴿يَصِفُونَ﴾ ، أو حرفُ ابتداءٍ ، أو ابتداء وغاية لمحذوف يدل عليه ما قبلها.

والضمير في قوله ﷺ: ﴿أَحَدَهُمُ﴾ للكافرين ، قاله غير واحد من المفسرين ، وذكر الفخر الرازي على أن هذا قول أكثر المفسرين[٥].

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز، ١٥٦/٤.

(٢) الشنقيطي ، أضواء البيان ، ٣٥٣/٥.

(٣) أبوحيان ، البحر المحيط ، ٤٢٠/٦-٤٢١.

(٤) الآلوسي ، روح المعاني ، ٦٢/١٨.

(٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٠٤/٢٣،وانظر مثلاً: البغوي، معالم التنزيل،٤٢٨/٥، النيسابوري ،غرائب القرآن،١٣٤/٥.

فإذا حضر أحد الكافرين الموت وعاين نزول أمر الله ﷻ به ، قال متحسرًا نادمًا على ما فرَّط فيه من طاعة الله ﷻ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ، وفي عودة الضمير ــ (واو) الجماعة ــ في ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ أقوال ، منها :

أولاً: أن يكون راجعًا إلى الربّ ﷻ وهو واحد لا شريك له ، ولكن جيء به بصيغة الجمع لتعظيم المخاطَب وهو الله ﷻ .

ثانيًا: أن يكون راجعًا إلى الملائكة؛ فيكون قول الكافر:﴿رَبِّ﴾ استغاثة بالله ﷻ، وقوله ﷻ : ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ خطاب للملائكة[1].

وإذا كان المفسرون قد اختلفوا في عود ضمير ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ فإنهم لم يختلفوا على أن غاية ما يطلبه الكافر ويتمناه عند الموت هو الرجوع إلى الدنيا.

سبب طلب الرجعة إلى الدنيا

والكافر حينما يطلب الرجعة إلى الدنيا لا يريد من ذلك أن يتمتع بلذّاتها ، أو يتملك مزيدًا الأراضي والعقارات ... وإنّما غاية ما يريده ويطلبه حياة يستدرك فيها ما فاته من الإيمان بالله ﷻ، وصالح الأعمال ، قال قتادة : "ما تمنّى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ، ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنّى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ﷻ ، فَرَحِمَ الله ﷻ امرءًا عمل فيما يتمنّاه الكافر إذا رأى العذاب "[2].

---

(١) الثعلبي، الكشف والبيان،٥٦/٧، البغوي ، معالم التنزيل، ٤٢٨/٥ ،الشنقيطي ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، مطبعة المدني ــ القاهرة،٢١٣.

(٢)البغوي، معالم التنزيل،٤٢٨/٥، الخازن ، لباب التأويل ،٤٤/٥.

وقد بيّن القرآن الكريم أن الكفار يطلبون الرجعة إلى الدنيا في مواقف أخرى يوم القيامة؛ ليصلحوا أعمالهم ، منها : عند محشرهم ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢] ، وعند وقوفهم على النار ومعاينتهم لها ، كما قال ﷻ :﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧] .

قال ابن كثير بعد أن ذكر آيات في هذا المعنى:" فذكر ﷻ أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النّار ، وهم في غمرات عذاب الجحيم"[1].

ثمَّ تجيء ﴿كَلَّآ﴾ حاملة معها رسالة الرّدع والزجر عن طلب تلك الرجعة ، والتنبيه على استبعادها، وأنّه لا يكون شيء من ذلك[2]، فقد أُعطي الكافرون من العمر والمهلة في الدنيا ما يتعظ فيه مَنْ أراد أن يتعظ ، ويرتدع عن الكفر وسيء الأعمال ، كما قال ﷻ:﴿...أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾[فاطر: ٣٧] .

والله ﷻ يعلم أن رجوع الكفار إلى الدنيا بعد الموت لا يكون ، ويعلم أنّهم لو رُدوا إلى الدنيا لعادوا لِمَا كانوا عليه من الكفر والمعاصي ، كما قال ﷻ:﴿...وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١)ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ٢٤٧/٣، وانظر مثلاً :[الأعراف: ٥٣]، [إبراهيم:٤٤]، [فاطر: ٣٧]، [غافر:١١، ١٢] ، [الشورى:٤٤].

(٢) انظر مثلاً:النحاس ، معاني القرآن ،٤٨٥/٤، البغوي ، معالم التنزيل ،٤٢٨/٥ ،الزمخشري، الكشاف،٣/ ٢٠٥، ابن عجيبة، البحر المديد ،٣٨/٥.

قال ابن القيم: "ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يُجيب مَنْ استغاث ، وأن يفسح له في المُهلــة ليتذكر ما فاته أخبر ﷻ أن سؤال هذا المفرط الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب ، وإنَّما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنَّه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه ، وأنَّه من الكاذبين ، فحكمة أحكم الحاكمين، وعزته ، وعلمه ، وحمـده ، يـأبى إجابته إلى ما سأل فإنَّه لا فائدة في ذلك، ولو رُدَّ لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى"[١].

ثمَّ أخبر الله ﷻ عما يـأتي الكـافرين بعـد مـوتهم ، فقـال ﷻ :﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

البَرْزَخُ لغة:" ما بين كل شيئين. والميت في البَرْزَخِ ، لأنه بين الـدنيا والآخـرة"[٢]. وقـال الراغب : "البَرْزَخُ الحاجز والحدُّ بين الشيئين"[٣].

وقد ذُكِر في المراد بالبرزَخ في الآية الكريمة عدَّة أقوال ، منها: ما بين الدنيا والآخرة، بقيـة الدنيا ، الإمهال إلى يوم القيامة ، الأجل ما بين النفختين ، وقد أورد القرطبـي هـذه الأقـوال وعقَّب عليها بقوله: " وهذه الأقوال متقاربة" [٤].

وقد حكى ابن عطية إجماع المفسرين على أنّ البرزخ هنا مستعار للمدة التـي بـين مـوت الإنسان وبين بعثه [٥]. وهذا ما ذكره الثعالبي [٦].

---

(١)ابن القيم، عدة الصابرين ،١٥٤.
(٢) الفراهيدي ، العين ،٣٢٨/٤.
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات ، ٥٤.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠٠/١٨.
(٥)ابن عطية ، المحرر الوجيز، ١٥٧/٤.
(٦) الثعالبي، الجواهر الحسان،١٠٥/٣.

فكل من مات صار من أهل البرزخ ، فلا هو من أهل الدنيا ، ولا هو من أهل الآخرة، والعاقل من يستدرك ما فاته من طاعة الله ﷻ قبل أن يأتيه الموت بغتة ، فيصبح من أهل البرزخ ... وإلاّ فلا ينفع الندم بعد فوات الأوان!

ثانياً: ردع الكافرين عن أمنياتهم يوم القيامة

إنّ الكافر الذي أجرم بحقّ نفسه في الحياة الدنيا وطلب الرجعة ليتمنّى عند مشاهدته أهوال القيامة أن يفدي نفسه بكل شيء ؛ لينجو من عذاب الله ﷻ ، قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ٨ – ١٨].

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما وصفت الآيات السابقة ــ وهي قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٨ – ١٠] ــ القيامة وأهوالها، وبيّنت أن الحميم ــ وهو القريب والصديق في غاية القرب والصداقة ــ لا يسأل حميًا لاشتغاله بنفسه ، جاءت هذه الآيات لتدفع توهم عدم رؤية بعضهم بعضًا، وتبيّن ما يتمناه الكافر في ذلك الموقف الرهيب ، وتردعه عنه.

قال البقاعي: "لما كان عدم السؤال قد يكون لعدم رؤية بعضهم بعضاً لكثرة الجمع وشدة الزحام وتفرق الناس فيه على حسب مراتب أعمالهم ، استأنف الجواب لِمَنْ كأنّه يقول : لعلّ

ذلك يُتْرَكُ لعدم رؤيتهم لهم ، فقال ...:﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يبصِّرهم مُبصِّر فلا يخفى أحدٌ على أحدٍ وإن بعد مكانه، ويفر كل من الآخر لشغله بنفسه"[١].

فالضميران (الواو، والهاء) في الفعل ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾راجعان إلى الحميمين في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ ـ فالواو راجعةُ لـ﴿حَمِيمٌ﴾، والهاء لـ﴿حَمِيمًا﴾ ـ لأنّهما نكرتان في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم[٢].

قال الثعلبي: "﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: يرونهم ، وليس في القيامة مخلوق إلاّ وهو نصب عن صاحبه من الجن والإنس ، فيبصِّر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ، ويبصِّر الرجل حميمه فلا يكلمه ؛ لاشتغالهم بأنفسهم"[٣]. وهذا ما ذكره البغوي[٤].

غاية ما يتمنى الكافر المجرم في ذلك اليوم

ولشدّة هول الموقف في ذلك اليوم فإنّ غاية ما يتمناه الكافر المجرم ويحبه فداء نفسه بكل غالٍ ونفيس ، قال ﷻ:﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾.

و﴿يَوَدُّ﴾، من (ودّ) : إذا حبّ وتمنى، قال الراغب :" الوُدُّ: محبَّة الشيء، وتمنِّي كونه، ويستعمل في كل واحدٍ من المعنيين على أنّ التَّمني يتضمن معنى الودّ ؛ لأنّ التَّمنّي هو تشهي حُصول ما تودُّهُ "[١]. فالودُّ مشترك بين التمني وبين المحبة.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ١٤٦/٨.

(٢) الزمخشري، الكشاف ، ٤/ ٦١٣، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١١٢/٣٠، السمين الحلبي، الدر المصون، ٩٢/١٤.

(٣) الثعلبي، الكشف والبيان، ٣٦/١٠.

(٤) البغوي، معالم التنزيل، ٢٢/٨.

و﴿يَفْتَدِي﴾ ، من (فدى) ، والفداء: أنْ يُجعلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِميً له ، يقال: فـداهُ يَفديـه، كأنَّه يحميه بنفسه أو بشيء يعوِّض عنه[٢].

فالكافر يتمنَّى أن يحميَ نفسَه من العذاب النازل به يومئذٍ ويخلِّصَها منه بأحبِّ النّاس وأقـربهم إليه ، وأعزِّهم عليه ، "ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم . . ببنيه . . وزوجه . وأخيه ، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه ، بل إنَّ لهفته على النَّجـاة لتفقـده الشعور بغيره على الإطلاق ، فيودُّ لو يفتدي بمن في الأرض جميعًا ثمَّ ينجيه ، وهـي صـورة لِلَهفة الطاغية والفزع المُذهل والرَّغبة الجامحة في الإفلات ! صورة مبطَّنة بالهول ، مغمـورة بالكرب ، موشاة بالفزع ، ترتَسِم من خلال التعبير القرآني الموحي"[٣].

قال قتادة: "الأحبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته ؛ لشدائد ذلك اليوم"[٤].

مجيء ﴿كَلَّآ﴾ لإفادة الردع

ثمَّ تجيء ﴿كَلَّآ﴾ ؛ لتردع عما يتمناه ذلك الكافر المجرم ويحبه ، وتنبّه علـى أنَّـه لا ينفعـه الافتداء ، ولا ينجيه من العذاب[٥] ؛ فهي أمنيات مستحيلة ؛ لأنَّ الآخرة دار جزاء وليـست دار عمل ولا دار أمانيّ .

وقد صرح القرآن الكريم في غير هذا الموضع أن الذين كفروا وماتوا على الكفر لا يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى بـه ، كمـا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات،٥٣٢.

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ٣٨٥/٤

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٩٧.

(٤) الإمام الطبري،جامع البيان ،٦٠٦/٢٣.

(٥) انظر مثلاً : السمرقندي، بحر العلوم،٤٢٧/٣، الزمخشري، الكشاف،٦١٣/٤،الشوكاني ،فتح القدير،٢٩٠/٥، سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٩٧، ابن عاشور، التحرير والتنوير،١٦٢/٢٩.

[آل عمران:٩١] ، وذكر في مواضع أخر أنه لا يقبل فداءً في ذلك اليوم منهم قطُّ، كما قال ﷻ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحديد: ١٥].

ما أعدّ لمن لم يرتدع يوم القيامة

وبعد الرّدع عن أمنية النجاة من العذاب بالافتداء يجيء بيان ما أعدَّ لمن لم يرتدع يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

و﴿ لَظَىٰ ﴾ : من أسماء جَهَنَّمَ ، وهي معرفة لا تنوّن ولا تنصرف للعلمية والتأنيث ، وسميت بذلك ؛ لأنَّها أشد النيران ، واللَّظى لغة: اللَّهَبُ الخالص ، والتِظاءُ النار : التِهابُها، وتَلَظِّيها تَلَهبُها ، يقال : تَلَظَّت النار تَلَظِّيًا: إذا تَلَهَّبت ، قال ﷻ: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[الليل:١٤] ، والأصل: تَتَلظَّى ، والمعنى: تَتَوَهَّج وتَتَوَقَّدُ ، ويقال: فلانٌ يَتَلَظَّى على فلان تَلَظِّيًا : إذا تَوَقَّد عليه من شدَّة الغضب[١].

وربما يكون في هذا اللفظ دلالة على عِظَمها، وشدَّة هولها ؛ فهي شديدة النيران ، شديدة الغضب على أهلها.

و﴿ نَزَّاعَةً ﴾ : من نزع ، وهو يدل في الأصلّ على قَلْع شيء ، يقال: نَزَعَ الشيءَ من مكانِه نَزْعًا :إذا جذبه من مقره وقلعه[٢]. ومجيئه بصيغة المبالغة فيه دلالة على شدّة هذا النزع وقوته.

والشَّوَى: اليدان، والرجلان ، وسائر الأطراف ، ومفردها: شواة ، قال الإمام الطبري: أخبر الله ﷻ عن ﴿ لَظَىٰ ﴾ أنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن، والشَّوَى: جمع شَواةٍ ، وهي من

---

(١) الفراهيدي،العين ، ١٦٩/٨،الراغب الأصفهاني، المفردات، ٤٥٤، ابن منظور، لسان العرب، مادة(لظي)، ٢٤٨/١٥.

(٢)ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة، ٣٣٢/٥..

جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً، يقال: رمى فأشوى: إذا لم يصب مقتلا، فربما وصف الواصف بذلك جلدة الرأس ، وربما وصف بذلك الساق" [١].

وهذه النار الملتهبة تدعو مَن أعرض عن الإيمان بالله ﷻ وترك صالح الأعمال في الدنيا، وجمع المال ، ولم يؤدِّ حق الله ﷻ فيه ، قال ابن كثير: هذه النار تدعو إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلق ذَلِق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب. وذلك أنهم ــ كما قال الله ﷻ كانوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾؛ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه ،ومنع حق الله ﷻ منه، من الواجب عليه في النفقات، ومن إخراج الزكاة"[٢].

ومَن أراد السلامة من ذلك كله فعليه أن يرجع إلى الله ﷻ ، ويعمل بما أمر به وينتهي عما نهى عنه وزجر، كما قال ﷻ :﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٤ – ٥٦].

وإلا فلا عودة مرّة أخرى إلى الحياة، ولا يملك أحدٌ أن يفتدي بما في الأرض كله من عذاب الله ﷻ ، ولا أن يدبر عن ذلك العذاب ويتولى .

---

(١) الإمام الطبري، جامع البيان ، ٢٣/٦٠٧-٦٠٨.وانظر ابن منظور، لسان العرب ،مادة(شوا) ١٤/٤٥٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،٤/٤٢١.

الفصل الخامس:
العقوبات التي شُرعت للرَّدع وآثارها

المبحث الأول:
العقوبات التي شرعت للردع

تمهيد

المطلب الأول:
العقوبات الدنيوية التي شُرعت لردع المعتدين من الداخل

المطلب الثاني:
الأمر بإعداد القوَّة لردع العدو عن عدوانه

المبحث الثاني:
آثار العقوبات التي شرعت للرّدع

المطلب الأول:
أثر العقوبات التي شُرعت للرَّدع على الفرد

المطلب الثاني:
أثر العقوبات التي شُرعت للرَّدع على المجتمع

المبحث الأول:
العقوبات التي شرعت للردع

تمهيد

المطلب الأول:
العقوبات الدنيوية التي شُرعت لردع المعتدين من الداخل

المطلب الثاني:
الأمر بإعداد القوَّة لردع العدو عن عدوانه

تمهيد

لقد أشرت فيما سبق إلى أن الرّدع في القرآن الكريم لا يقتصر على القول ، وإنّما يشمل القول والعمل معًا ، ولا يختص بإنسان دون آخر ، ولا بمجتمع دون مجتمع، وإنّما هو شامل لجميع أفراد النوع الإنساني في أرجاء الأرض ، وفي سائر الأزمنة حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

وأفراد النوع الإنساني ليسوا سواءً ؛ فمنهم مَنْ يكفيه القول ويؤثّر فيه ... ، فيرتدع عن مخالفة أمر الله ﷻ ، ومعصيته لعلمه بقبح تلك المخالفة ، وشناعة تلك المعصية، وعلمه بسوء عاقبة ذلك ، ومعرفته بأن فترة التوبة محدودة ، وزمان العمل الصالح قصير ، وجهله بالوقت الذي يُحال فيه بينه وبين قبول التوبة والعمل الصالح .

ولا شكَّ أن مَنْ اكتفى بالقول وتأثر بمضمونه يلتزم بطاعة الله ﷻ وتنفيذ أوامره ، وهذا الالتزام نابع من استحضاره لمراقبة الله ﷻ ، وهي أعظم رادع عن معصية الله ﷻ ومخالفة أمره.

وأكثرهم لا يكتفي بهذا الأسلوب ، وهم قسمان:

القسم الأول: ضعاف الإيمان الذين تغلب عليهم نزوة الشّر والهوى ، ويرتكبون أفعالاً قد تبدو في نظرهم منافع لهم ومصالح حتى لو كان فيها انتهاك لحقوق الآخرين وإضرار بهم ، واعتداء على أمن المجتمع واستقراره ، مُخالفين بذلك أوامر الله ﷻ.

وقد قضت حكمة الله ﷻ أن يكون لهذه الفئة ما يناسبها من الرّدع والزجر عن تجاوز حدود الله ﷻ، والاعتداء على الآخرين ، فشرع لها من العقوبات[١]الدنيوية ما يردعها عن ذلك ، طالما لم يردعها قول ... ولا تهديد ووعيد بعذاب الله ﷻ وأليم عقابه في الآخرة .

وإنما شُرعت هذه العقوبات لحفظ المصالح الحقيقية والضرورية للناس ، وهي الدين والعِرض والنفس والعقل والمال ، والتي اتفقت على حفظها الأديان والشرائع ، ذلك أن الاعتداء عليها أو على بعضها يترتب عليه مفاسد كبرى ، منها الإخلال بأمن المجتمع المسلم من الداخل وإضعاف بنيانه.

قال الإمام الغزالي: "فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة ... وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة، والزجر عنها يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق ولذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر، والقتل ، والزنا، والسرقة ، وشرب المسكر" [٢].

والقسم الثاني: وهم الذين أصروا على الكفر ، فأعرضوا عن طاعة الله ﷻ ، ورفضوا الإذعان لأوامره ﷻ، وليس هذا فحسب ، بل يعيثون في الأرض الفساد ، ويبذلون ما في وسعهم للصدّ عن طاعة الله ﷻ بوسائل وأساليب مختلفة ، وردّ المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ﴾ [البقرة:٢١٧] .

---

(١)العقوبة ، اسم المعاقبة، وهو أن يجزيه بعاقبة ما فعل من السوء، واختصت العقوبة والعقاب والمعاقبة بالعذاب ،يقال: عاقبه بذنبه مُعاقَبة وعِقابًا أخذه . وسمّيت عقوبة لأنّها تكون آخراً وثانيَ الذّنْب ، فهي مشتقة من (عقب) ، وهو يدلُّ على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره .[انظر: الفراهيدي، العين،١/١٨٠، ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**،٤/٦٢، الراغب، المفردات،٣٤٣].

(٢) الإمام الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد(٥٠٥هـ) **المستصفى في علم الأصول** ، ١٧٤.

ولذلك أمر الله ﷻ بإعداد القوة المناسبة لردع عدو الله ﷻ عن عدوانــه ، وذلــك بإخافتــه ومنعه من استخدام قوته في تحقيق أهدافه وغاياته .

وإذا كانت العقوبات تحفظ أمن المجتمع الإسلامي من الداخل وتحميه من شرور المعتدين ، فإن هذه القوة التي أمر الله ﷻ بإعدادها تحقق أمن الدولة واستقرارها، وتحفظها من أي عدوان خارجي ، فيبقى الناس في أمن وأمان ، وراحة بال واطمئنان.

ولما كان تفصيل هذا الموضوع يطول ، ويخرج عن غرض هذه الدراسة فقد رأيت أن أُوجز ذلك من خلال المطلبين الآتيين :

المطلب الأول:

العقوبات الدنيوية التي شُرِعت لردع المعتدين من الداخل

لقد شرع الله ﷻ بحكمته وعلمه عقوبات دنيوية لردع كلّ مَنْ تُسوّل له نفسُه ارتكاب المعصية والاعتداء على حرمات الآخرين ، والعبث بأمن المجتمع المسلم واستقراره.

وهذه العقوبات على قسمين:

أحدهما : العقوبات المقدرة من الشارع نوعًا ومقدارًا ؛ فلا تقبل زيّادة ، ولا نَقصًا ، ولا تعديلاً ، ولا تغييرًا ، كعقوبة الزنا والسرقة ، ويطلق عليها الحدود[1]، وعقوبة القصاص .

والحدود لغة : جمع حدّ ، وأصل الحدّ المنع ، والفصل بين الشَّيئين ، ولهذا يقال للبواب حدّاد؛ لأنه يمنع الناس عن الدخول . وحَدُّ كل شيءٍ منتهاه ؛ لأنه يردّه ويمنعه عن التمادي . وحَدَدْت الرجل : أقمت عليه الحدّ [2]. ومنه الحدود المقدَّرة ؛ لأنها مانعة للجاني عن معاودة المعصية ، ومانعة لغيره أن يسلك مثل مسلكه[3].

وثانيهما : العقوبات غير المقدرة شرعًا ، وإنّما تُرِك أمر تقديرها وتحديدها لولي الأمر؛ ليختار ما يراه ملائمًا للجريمة ، ولحال المجرم ، ومحقّقًا لمصلحة الجماعة ، وتسمى التعزيرات[4].

---

(١)علي منصور، نظام التجريم والعقاب في الإسلام، مؤسسة الزهراء ــ المدينة المنورة ، ط١٩٧٦،١م، ٦٧، أبو زهرة، محمد ، (١٩٧٤م) الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي ، دار الفكر العربي، ٢٥ ، وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته ، دار الفكر ــ دمشق ، ط٢، ١٩٨٥م،٦/١٢.

(٢)ابن الأثير ، النهاية في غريب الأثر ،١/٩٠٩، ابن منظور، لسان العرب ، مادة(حدد) ،٣/١٤٠.

(٣)الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ١١٧، الفيومي ، المصباح المنير،١/١٢٥.

(٤)علي منصور، نظام التجريم والعقاب ، ٦٧، أبو زهرة ، الجريمة والعقوبة ، ٢٥ .

التعزير لغة : من العَزر ، وهو المنعُ والرَّدُّ ، يقال :عَزَرَه عن الشيء يَعْزِره عَزْرًا وعَزَّرَه : منَعَه وردَّه . وسمي ما دون الحدّ تعزيرًا ؛ لأنه يمنع الجاني من معاودة الذنب(١).

وقال الراغب : التعزير النُّصرة مع التَّعظيم ، والتعزير: ما دون الحدّ ، وهو يرجع إلى الأول؛ فإنه تأديب ، والتأديب نصرة ما ، لكن الأول نصرة بقمع ما يضره عنه ، والثاني: نصرة بقمعه عما يضره ، فمن قمعته عما يضره فقد نصرته (٢).

يتبيّن مما تقدم أن العقوبات بقسميها وإن كانت متنوعة في طريقة تنفيذها ، ومتفاوتة في شدَّتها إلا أنها تهدف إلى ردع الناس عن ارتكاب المعاصي والآثام ، وحملهم على طاعة الله ﷻ، وهذا ما يستفاد من المعنى اللغوي للفظي (الحدّ) و(التعزير) ، إذ هما يلتقيان في معناهما اللغوي مع المعنى اللغوي للفظ (الرّدع).

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن تشريع العقوبات المختلفة يهدف إلى الرّدع عن المعصية ، قال الماوردي(٣) : "والحدود زواجر وضعها الله ﷻ للرّدع عن ارتكاب ما حظر ، وترك ما أمر به ؛ لما في الطبع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة ، فجعل الله ﷻ من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذرًا من ألم العقوبة وخيفة من نكال الفضيحة ؛ ليكون ما حظر من محارمه ممنوعًا ، وما أمر به من فروضه متبوعًا، فتكون المصلحة أعمُّ ، والتكليف أتم"(٤).

---

(١)ابن منظور، لسان العرب ، مادة(عزر)، ٥٦١/٤.

(٢)الراغب الأصفهاني ، المفردات ،٢٣٦-٢٣٧.

(٣) هو الحسن ، علي بن محمد حبيب، الماوردي: أقضى قضاة عصره ،من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة ، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، نسبته إلى بيع ماء الورد ، ووفاته ببغداد عام(٤٥٠ هـ)، من كتبه : أدب الدنيا والدين ، الأحكام السلطانية ، والنكت والعيون، ونصيحة الملوك.[الزركلي ،الأعلام ،٣٢٧/٤].

(٤)الماوردي، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ٢٧٥-٢٧٦.

وقال القرافي[١]: " الزواجر مشروعة لدرء المفاسد المتوقعة ...ومعظم الزواجر على العصاة زجرًا لهم عن المعصية ، وزجرًا لمن يَقْدُمُ بعدهم على المعصية"[٢].

إنّ مشرّع هذه العقوبات هو الله ﷻ ، وهو أعلم بما يصلح العباد ، ويعلم أن المنفعة أو اللذة العاجلة كثيرًا ما تغلب على ألم الآجلة وعذابها، وتحول بين الإنسان وبين التفكير في سوء العاقبة ، ولذلك شرع ﷻ العقوبات العاجلة التي تحقق الرّدع بسبب ملائمتها لطبيعة الإنسان وما جُبل عليه من الخوف مما يؤذيه ويؤلمه ،.والحذر مما يضره ويشوه سمعته.

وقد ذكر ابن القيم أن العقوبات المقدَّرة جاءت محكمة غاية الإحكام ، ومناسبة للجرائم التي قُدِّرت لها، فقال : " شرع ﷻ العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض في النفوس ، والأبدان ، والأعراض ، والأموال ؛ كالقتل والجراح والقذف والسرقة ، فأحكم ﷻ وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام ، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع ، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان والقتل ولا في الزنا الخصاء ولا في السرقة إعدام النفس ، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله ؛ لتزول النوائب ، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه فلا يطمع في استلاب غيره حقه "[٣].

ويذكر توفيق علي وهبه ــ وهو من المعاصرين ــ أن الهدف من العقوبات هو منع الجريمة، وهذا المنع على قسمين:

---

(١)هو:أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي: من علماء المالكية ، مصري المولد والمنشأ والوفاة، كان ، من البارعين في عمل التماثيل المتحركة في الآلات الفلكية وغيرها،من مصنفاته:أنوار البروق في أنواء الفروق ، والذخيرة في فقه المالكية، توفي عام (٦٨٤هـ).[الزركلي ،الأعلام ،١ / ٩٤-٩٥].

(٢)القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله الصنهاجي (٦٨٤هـ) أنوار البروق في أنواع الفروق ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ،١/٢١١.

(٣) ابن القيم ،إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق : طه عبد الرؤوف ، دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٧٣م ،٢/١١٤.

"الأول : منع عام، ويكون بتقرير العقوبات وعلانية تنفيذها، مما يزجر ويردع الكافة.

والثاني: منع خاص ويكون بتطبيق العقوبة على الجاني ، مما يزجره عن العودة إلى الجريمة مرة أخرى"(١).

ولكنّه لم ينبه إلى أن المنع الخاص لا يتحقق في العقوبات التي تنتهي بالمجرم إلى الموت ، كعقوبة الزاني المحصن ، إذ أنها تهدف إلى الرّدع العام فقط.

أقسام الرّدع الذي تهدف إليه العقوبات

يتضح من كلّ ما تقدم أن الرّدع الذي تهدف إليه العقوبات قسمان:

أحدهما: الرّدع العام ، ويكون بإيقاع العقوبة على الجاني وإعلان تنفيذها ؛ لأن في ذلك تنبيهًا للناس وإشعارًا لهم بأن من يرتكب تلك الجريمة تلحقه العقوبة المؤلمة التي شُرعت لها ، ويصيبه مثل هذا العقاب الذي أصاب هذا الجاني.

فإيقاع العقوبة وإعلانها يساعد الإنسان على مقاومة دوافع الإجرام الداخلية ، ويعينه على السيطرة عليها ، فلا تخرج إلى حيّز التنفيذ(٢).

ومما يؤكد هذا المعنى حثُّ القرآن الكريم على حضور جماعة من المسلمين إقامة حدّ الزنا ، فقال ﷻ: ﴿...وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢]

قال ابن العربي:" ومَنْ شهده وحضره يتّعظ به ويزدجرُ لأجله ، ويشيع حديثُه ؛ فيعتبر به مَنْ بَعْدَهُ"(٣).

---

(١) توفيق علي وهبه، التدابير الزجرية والوقائية، دار اللواء ـ الرياض ، ط١٩٨١،١م، ٨٦.

(٢) انظر:العتيبي، الإعلان عن الحدود الشرعية وأثره في الردع العام، ٨.

(٣) ابن العربي ، أحكام القرآن ، ٢٨١/٣.

فمن فوائد إعلان إقامة الحدّ حصول الرّدع العام ، إذ يـتعظ الحاضـرون بمـا يُـشاهدون ، ويرتدعون ، وينتشر خبر ما وقع للجاني بتبليغ الحاضر الغائب ، فيكون فيه عبرة لمن تسوّل له نفسه فعل مثل تلك الجريمة .

ويشهد لذلك قوله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة: ٣٨]

فالنكال ــ كما ذكرت فيما سبق[١] ــ عقوبة تجعل المُنَكَّل به عبرَة لغيـره ، وتـردع عـن ارتكاب مثل فعله الّذي عوقب عليه ، وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو زهرة : "هذا العقاب منـعٌ من الارتكاب ، فإنَّه ينكِّل بالجاني ، لكيلا يقع في الفعل غيرُهُ ؛ أي : لكي يكون ذلـك التنكيـل سببًا في أن يَنكُل الغير عن الفعل"[٢].

فقد تضمن حدُّ السرقة وسم السارق بعلانية بيِّنة ، وعلامة واضحة كلّ الوضـوح ، لا يملـك إخفاءها ؛ فاليد المقطوعة من موضع محدد ، وبطريقة معينة علامة دائمة تـلازم صـاحبها ، وتفضحه أمام الناس ، وتجعله عبرة لغيره ، ورادعًا عن مثل فعله.

وثانيهما: الرّدع الخاص، ويكون بإيقاع عقوبة ما دون الموت على الجاني؛ لردعه عن العودة إلى الجريمة مرة ثانية ، فإنّ ما يترتب على العقوبة من ألم ، وأذى مادي ومعنوي يكفُّـه عـن تكرار تلك الفعلة القبيحة ويمنعه من ارتكابها مرة أخرى.

وهذه العقوبات التي شُرعت للرّدع لا تخرج عن وسطية التشريع القرآني واعتداله؛ فالعقوبـة ترد الجاني إلى الوسط الأعدل ، وتردعه عن تجاوز هذا الوسط مرة ثانية ، وتردع غيره عـن تجاوز الوسط الأعدل .

---

(١) انظر: المطلب الثالث من المبحث الثاني في الفصل الأول.

(٢)أبو زهرة ، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي ،٤/٢١٧٠.

يقول الشاطبي: "فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنّة انحراف عن الوسط إلى أحد الطرفين ، كان التشريع رادًا إلى الوسط الأعدل ، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه ، فعل الطبيب الرفيق الذي يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته ، وقوة مرضه وضعفه حتى إذا استقلت صحته هيأ له طريقًا في التدبير وسطًا لائقًا في جميع أحواله" [١].

فالعقوبات "إنما شرعت رحمة من الله ﷻ بعباده ، فهي صادرة عن رحمة الله ﷻ وإرادة الإحسان إليهم ، ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على الذنوب أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم كما يقصد الوالد تربية ولده وكما يقصد الطبيب معالجة المريض" [٢] .

وبهذا يظهر أن الغاية من العقوبات ليست الإذلال أو حبّ الانتقام ، وإنما هي تعديل سلوك المنحرفين ، وردع المعتدين ، وردهم إلى الوسط الأعدل.

نماذج من العقوبات التي شُرعت للردع

لما كانت العقوبات الدنيوية متعددة، ومتفاوتة في شدة تنفيذها فإنني سأتناول فيما يأتي نماذج من هذه العقوبات:

أولاً: عقوبة الردّة

الردّة : هي رجوع الإنسان عن الإسلام إلى الكفر ، بقول أو فعلٍ مكفرٍ أو بإنكار ما علم من الدين بالضرورة [٣]، وقد بيّن الله ﷻ حالَ مَن يرتد ، ويستمر على ردته إلى أن يموت ، فقال .

---

(١) الإمام الشاطبي ،إبراهيم بن موسى(٧٩٠هـ)، الموافقات ، تحقيق: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ٢/ ١٦٣.
(٢)ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ ٢٣٧/٥
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات ،١٩٩، الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته ،١٨٣/٦.

ﷺ: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة:٢١٧]

فقد بينت الآية الكريمة أن مَنْ ارتدَّ عن دينه فمات على الكفر، فقد ذهب عمله في الدنيا والآخرة، وصار في الآخرة من الخالدين في نار جهنم.

وأما العقوبة الدنيوية التي شُرِعت في حقِّ المرتد عن الإسلام فهي القتل حدًّا ، وجاء بيان هذه العقوبة في أحاديث صحيحة ، منها: قول الرسول ﷺ :" مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"[(١)]، قوله ﷺ: "لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي ، والمفارق لدينه التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ "[(٢)].

قال الإمام الشافعي ﵀: ومن انتقل عن الإيمان إلى الشرك من بالغي الرجال والنساء استتيب، فإن تاب قُبل منه ، وإن لم يتب قُتل ، واستدل لذلك بالآية السابقة ، وبما رواه بسنده عن النبي ﷺ أنه قال :" لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا مِنْ إِحْدَى ثَلاثٍ : كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ، وَزِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ"[(٣)]، وبقوله ﷺ:" مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ ".

ثمَّ قال : "ومعنى قوله ﷺ:(كفر بعد إيمان) ومعنى : (من بدل قتل) ، معنى يدل على أن من بدل دينه دين الحق وهو الإسلام لا من بدل غير الإسلام".

وبعد ذلك ذكر علَّة قتل المرتد عن الإسلام ، فقال: "وذلك أن من خرج من غير دين الإسلام إلى غيره من الأديان فإنما خرج من باطل إلى باطل ولا يقتل على الخروج من الباطل إنما يقتل

---

(١)صحيح الإمام البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة ، رقم(٦٥٢٤)، ٢٥٣٧/٦.

(٢)صحيح الإمام البخاري ، كتاب الديات، باب قوله ﷺ:﴿ أن النفس بالنفس..﴾ رقم:(٦٤٨٤) ،٢٥٢١/٦، صحيح الإمام مسلم ، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم ، رقم: (١٦٧٦)،١٣٠٢/٣،سنن الترمذي، كتاب الحدود، باب الردة ، رقم:(١٤٥٨) ،٩٥/٤، وعقب قائلاً: هذا حديث صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم في المرتد.

(٣) انظر: الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس ،(٢٠٤هـ) مسند الشافعي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٧.

على الخروج من الحق ؛ لأنه لم يكن على الدين الذي أوجب الله ﷻ عليه الجنة وعلى خلافه النار، إنما كان على دين له النار إن أقام عليه، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥]"[١].

وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد ، قال ابن قدامة:" أجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد، لكن اختلفوا في استتابته هل هي واجبة أم مستحبة ؟ وفي قدرها ، وفي قبول توبته"[٢]. وهذا ما ذكره الإمام النووي[٣] [٤].

وإنما شُدّدت عقوبة المرتد ؛ لأن الردة فتنة في الدين ، واستهانة به، وتشويه لعقيدة التوحيد التي بعث الله ﷻ بها جميع الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وخيانة للدين الإسلامي الذي انخرط في عداد أفراده ، وأقل ما يوصف به المرتدُّ أنه خارج عن نظام الجماعة المسلمة أو نظام الدولة ، وبذلك استحقَّ هذه العقوبة حماية للمجتمع من شرّه وفساده ، وردعًا لمن تسوّل له نفسه الدخول في الإسلام لتحقيق حاجة في النفس ، كالتجسس والتشويه.

يقول الشيخ عبد القادر عوده:" وتعاقب الشريعة على الردة بالقتل ؛ لأنها تقع ضد الدين الإسلامي وعليه يقوم النظام الاجتماعي للجماعة ، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة هذا النظام ، ومن ثَمّ عُوقب عليها بأشدّ العقوبات ؛ استئصالاً للمجرم من المجتمع ، وحماية للنظام الاجتماعي من ناحية ، ومنعًا للجريمة وزجرًا عنها من ناحية أخرى ... وأكثر الدول

---

(١)الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس ،(٢٠٤هـ) كتاب الأم ، دار الفكر ــ بيروت،٢٩٤.

(٢) ابن قدامة المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد(٦٢٠هـ)**المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل** ، دار الفكر ــ بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ، ٧٢/١٠.

(٣)هو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرّى النووي الدمشقي ، كان مثالاً في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وإذا مشى في الطريق كان يشتغل في تكرار ما يحفظ له من المصنفات الحديثية والفقهية الكثير منها :شرح صحيح مسلم ،والأربعين النووية ، والمجموع في الفقه ، توفي عام(٦٧٦هـ)،[ابن قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**،١٥٣/٢ وما بعدها، الزركلي، **الأعلام**، ١٤٩/٨].

(٤) الإمام النووي، **شرح صحيح الإمام مسلم** ، ٢٠٨/١٢.

اليوم تحمي نظامها الاجتماعي بأشد العقوبات تفرضها على من يخرج على هذا النظام أو يحاول هدمه أو إضعافه، وأول العقوبات التي تفرضها القوانين الوضعية لحماية النظام الاجتماعي هي عقوبة الإعدام ؛ أي : القتل ، فالقوانين الوضعية اليوم تعاقب على الإخلال بالنظام الاجتماعي بنفس العقوبة التي وضعتها الشريعة لحماية النظام الاجتماعي الإسلامي" [١].

هذا ، وقد ظهر في عصرنا نابتة سوء في العالم عامة وفي بعض بلاد الإسلام خاصة تتعرض لصاحب المقام المحمود والحوض المورود رسول الله ﷺ بالشتم والأذى ، وقد حكي عن غير واحدٍ من الأئمةِ الأعلام الإجماع على أن حدّ من سبَّ النبي ﷺ القتل ، قال القاضي عياض:" أجمعت الأمة على قتل منتقصه ﷺ من المسلمين وسابه"[٢].

وبعد أن نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عدة أقوال لأئمة أعلام تؤكد الإجماع على قتل ساب الرسول ﷺ و تكفيره قال: و تحرير القول فيه : "إن الساب إن كان مسلمًا فإنه يكفر، و يقتل بغير خلاف"[٣].

وكذلك التعرض لأي نبيٍّ من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — يوجب القتل بلا استتابة ، قال القاضي عياض: "من سبَّ رسول الله ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقصه قُتِل: مسلمًا كان أو كافرًا ولا يستتاب" ، ثم قال: "قال بعض علمائنا : أجمع العلماء على أن مَن دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة"[٤].

وفي ذلك دلالة على عظيم قدر أنبياء الله — عليهم الصلاة والسلام — ووجوب نصرتهم وتوقيرهم ، دون تفريق بينهم.

---

(١)عبد القادر عوده ، التشريع الجنائي، دار الكتاب العربي — بيروت ،٦٦٢/١.

(٢) القاضي عياض، الشفا في حقوق المصطفى، ٢١١/١.

(٣) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ١٠/١ ،وانظر: تقي الدين السبكي ،السيف المسلول،٩٦وما بعدها.

(٤)القاضي عياض، الشفا في حقوق المصطفى، ٢١٦/٢-٢١٧، وانظر: تقي الدين السبكي ،السيف المسلول، ١٠١.

ثانياً: القصاص

القصاص لغة مأخوذ من القصّ وهو التتبع ، يقال: قَصَّ أثره تتبعه[1]. والمقصود به: معاقبة الجاني بمثل ما فعل بالمجني عليه[2]، وقد جعل الله ﷻ هذه العقوبة لجريمة متعمدة في النفس أو ما دون النفس ، فإن كانت في النفس فعقوبتها القتل بالمثل ، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وإن كانت فيما دون النّفس ، فالعقوبة تماثل الطرف أو الأطراف والجوارح المُتلفة ، قال ﷻ: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥].

والقصاص الذي دلت الآيتان على وجوبه ــ ما لم يعف المجني عليه أو وليُّه ــ يهدف إلى تحقيق الرّدع العام ، والرّدع الخاص ؛ فحينما تُطبق هذه العقوبة ، ويُقتصُّ من الجاني نفسًا بنفسٍ ، وعينًا بعينٍ ، وأذنًا بأذن ... يرتدع غيره عن الوقوع في مثل ما وقع به خوفًا من الاقتصاص منه وتنفيذ العقوبة بحقه ، هذا من جهة الرّدع العام ، ومن جهة أخرى فإنّ الجاني

(١) انظر:الرازي ، مختار الصحاح، ٥٦٠.

(٢) انظر:الجرجاني ، التعريفات، ٢٢٥، عبد القادر ، التشريع الجنائي الإسلامي، ١١٤/٢.

يرتدع عن العودة إلى مثل ما فعل ؛ لئلا تقع العقوبة ــ فيما دون القتل ــ بحقه مــرة أخــرى ، وهذا هو الردّع الخاص ، وفي ذلك صونٌ للنفــوس البــشرية ، وســببٌ لبقائهــا ، قــال ﷻ :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[البقرة: ١٧٩].

فهذا بيان لمحاسن هذه العقوبة بكلام وجيز بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع ؛ فتقــديم الجــار والمجرور يفيد الاختصاص ، فمنفعة القصاص مختصة بكم راجعة إليكم لا إلــى غيــركم[١] ، وتعريف: ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ وتنكير: ﴿حَيَوٰةٌ﴾ فيه دلالة على أن في هذا الجنس من الحكم الذي هــو القصاص نوعًا من الحياة عظيمًا لا يبلغه الوصف ؛ وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتــل فيتسبب لحياة نفسين ، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم ، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون ، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية[٢].

وهذه العقوبة أعدل العقوبات ، إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله ، وهي أفــضل العقوبــات للأمن والنظام ؛ لأن المجرم حينما يعلم أنّه سيجزى بمثل فعله يرتدع ، ولا يرتكــب الجريمــة غالبًا، وبهذا تكون عقوبة القصاص أفضل عقوبة عرفها التاريخ[٣].

وما كثُر القتل العمد وانتشر في هذا العصر إلا بسبب تعطيل حدّ القصاص ،وعــدم تطبيقــه على المعتدين على الأنفس البشرية التي حرّم الله ﷻ قتلها ، فضلاً عن حدّ الحرابة الذي يختلف عن القصاص؛إذ في القصاص عفو ، وأما الحرابة فلا عفو فيها إذا قتل المجرم وأخذ المال.

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ٢/٩٧.

(٢) الزمخشري ،الكشاف ،١/٢٤٨-٢٤٩،أبو السعود ،إرشاد العقل السليم ،١/١٩٦، القنوجي ، فتح البيان، ١/٢٨٥.

(٣) انظر: عبد القادر عوده ، التشريع الجنائي ،١/٦٦٤.

ثالثاً: عقوبة الحِرابة (قطع الطريق والإفساد في الأرض)

والحِرابة جريمة من أقبح الجرائم ، وأكثرها خطرًا على أمن المجتمع ؛ لما فيها من إثارة الخوف بين الناس ، والسعي بالفساد في الأرض ؛ وذلك بقطع الطّريق والاعتداء على الأنفس، أو الأموال ، أو هما معًا، ولهذا شُدِّد العقاب على مرتكبها بما يردع عنها، ويمنع من ارتكابها، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾ [المائدة:٣٣] .

وقد تضمنت الآية الكريمة أربع عقوبات لمن يرتكب جريمة الحِرابة، وهي: القتل ، والقتل مع الصلب ، وقطع الأيدي مع الأرجل من خلاف ، والنفي ؛ فالقتل لقاطع الطريق إذا قتل فقط، والقتل مع الصلب لمن جمع بين جريمتي القتل وأخذ المال ، وللصلب أثر شديد في تحقيق الرّدع العام .

وإذا اقتصر قاطع الطريق على أخذ المال ولم يقتل ، فعقوبته قطع يده ورجله من خلاف دفعة واحدة ، فإن لم يكن منه اعتداء على نفسٍ أو مالٍ وإنما أخاف الناس فعقوبته النّفي[١]، ولا يخفى ما في هاتين العقوبتين من أثر في الرّدع بقسميه العام والخاص.

هذا وقد أدخل الشيخ أبو زهرة في باب الحرابة وقطع الطريق العصابة التي تعمل لجمع الرجال على النساء ، وتخطف النساء لذلك الغرض ، والعصابة التي تقوم بتجميع المواد المخدرة المحرّم دينًا وقانونًا تناولها [١].

---

(١) انظر:عبد القادر عوده ، التشريع الجنائي ،١/٦٥٦-٦٦١.

وعلى الرغم من أنّ عقوبة الحرابة تحفظ كيان الأمة ، والمجتمع من عبث العابثين إذا طُبقت إلا أن المعاصرين يتجاهلونها، ولا يُطبقونها ...!؟

رابعاً: عقوبة السرقة

لقد شرع الله ﷻ حدّ السرقة عقوبة تلائم بشاعة هذه الجريمة ، وتتفق مع خطورتها ، وأغراضها الخبيثة ؛ لتكفل بذلك حفظ المال الذي لا قيام لفرد أو أسرة أو دولة إلا بقدر منه ، ولتكون هذه العقوبة رادعة لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على أموال الآخرين خُفية .

وجاء تحريم السرقة وتحديد عقوبتها في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾[المائدة: ٣٨].

قال الجصاص: "لم تختلف الأمة في أن اليد المقطوعة بأول سرقة هي اليمين، فعلمنا أن مراد الله ﷻ بقوله: ﴿أَيۡدِيَهُمَا﴾ أيمانهما، فظاهر اللفظ في جمعه الأيدي من الاثنين يدل على أن المراد اليد الواحدة من كل واحد منهما"[٢].

وقد جاءت العقوبة مناسبة للجريمة وملائمة لها ؛ فالهدف من السرقة هو الحصول على المال لزيادة الثراء ، أو زيادة القدرة على الإنفاق ، بطريق غير مشروع ، وهذه العقوبة تعالج الدوافع النفسية التي تدعوا إلى ارتكاب هذه الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن السرقة ، ألا وهي قطع اليد ، إذ هي الأداة التي استعملها السارق وساعدته على تنفيذ جريمته . وما من شكّ أن قطع يد السارق يُنقص من قدرته على الكسب ، ويُبقي أثر العقوبة ظاهرًا للناس ، ونتيجة لذلك يفقد ثقة الآخرين به ، فلا يتعاونون معه، ويكون عبرة لهم[٣].

---

(١) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ،١/٢١٥٥٥.

(٢)الجصاص، أحكام القرآن،٢ /٥١٨.

(٣)انظر:سيد قطب ، في ظلال القرآن ، /٨٤٤، عبد القادر عوده ، التشريع الجنائي ،١/٦٥١- ٦٥٥.

وقد أشرت من قبل إلى أن هذه العقوبة تهدف إلى تحقيق الرّدع بقسميه العام والخاص.

خامساً: عقوبة الزنا

الزنا لغة: يمد ويقصر ، يقال: زَنَى الرجلُ يَزْني زِنىً مقصور، وزناءً ممدود ، وكذلك المرأة تزني مزاناة وزنًا؛ أي: تباغي[1]، واصطلاحًا: هو أن يأتي رجل وامرأة فعل الجماع بغير أن تكون بينهما علاقة الزوجية المشروعة[2].

وهو جريمة عظمى ، جاء النهي عنها بأبلغ صيغ النهي ، قال ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء:٣٢] ؛ فهو نهي عن مباشرة مقدماته القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته ؛ وإنما نهى عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه ؛ ولأنَّ قربانه داعٍ إلى مباشرته [3].

والزاني لا يخلو أن يكون محصنًا أو غير محصن ، وللردّع عن هذه الفاحشة شُرع العقاب الملائم لكل منهما ؛ أما الزاني غير المحصن فعقوبته الجلد مئة جلدة ، جاء بيان ذلك في قوله ﷻ : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور:٢]

وأمّا الزاني المحصن فعقوبته الرجم حتى الموت ، ثبت ذلك في قول النبي ﷺ وفعله ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَنَادَاهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ، مادة (زنا) ، ٣٥٩/١٤]].

(٢)علي منصور، نظام التجريم والعقاب،١/ ٢٣٣.

(٣)أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ،١٦٩/٥-١٧٠، الآلوسي ، روح المعاني ، ٦٧/١٥.

زَنَيْتُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، حَتَّى رَدَّدَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : "أَبِكَ جُنُونٌ" ؟ قَالَ : لا. قَالَ: "فَهَلْ أَحْصَنْتَ"؟ قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ" (١).

وهذا العقاب شُرع على أساس محاربة الدوافع التي تدعو للجريمة بالدوافع التي تصرف عنها؛ فالدافع الذي يدعو الزاني للزنا هو شهوة اللذة والاستمتاع بالنشوة التي تصاحبها ، والدافع الوحيد الذي يصرف الإنسان عن اللذة المحرمة هو الألم ، ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تذوق الألم أو فكَّر فيه (٢).

ولكنّ عقوبة المحصن أشدُّ من عقوبة البكر ؛ لأن المحصن توافرت فيه موانع الزنا، وقابل نعمة الزواج بضدها ،هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن جريمة المحصن يتبعها آثارٌ غاية في القبح والشناعة ، كزعزعة الأسرة ، وتشويهها ، وتشريد أفرادها ، ولذلك كانت عقوبته غاية في الشدة.

وتشريع هذه العقوبة يهدف إلى تحقيق الرّدع العام والخاص معًا، هذا من جهة تطبيقه على الزاني غير المحصن ، ومن جهة تطبيقه على الزاني المحصن فإنه يهدف إلى تحقيق الرّدع العام فقط .

وقد أثبت التاريخ أثر إيقاع عقوبة جريمة الزنا في تحقيق الرّدع عنها ؛ فعندما كانت تُطبق هذه العقوبة المشروعة في المجتمع الإسلامي كانت هذه الجريمة نادرة ، وفي غيابها انتشر الزنا ، وفشت آثاره الاقتصادية والصحية السيئة بين المجتمعات..

---

(١) **صحيح الإمام البخاري**، كتاب الحدود ، باب لا يرجم المجنون والمجنونة، رقم: (٦٤٣٠) ،٢٤٩٩/٦، **صحيح الإمام مسلم** ، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ، رقم: (١٦٩١) ،١٣١٨/٣، وانظر مثلاً: **صحيح الإمام مسلم**، كتاب الحدود، باب حدّ الزنا، (٣١٩٩).

(٢) انظر:عبد القادر عوده ؛ **التشريع الجنائي** ، ٦٣٦/١.

سادساً: عقوبة القذف

شرع الله ﷻ هذه العقوبة من أجل التربية على الأخلاق الفاضلة ، وصيانة الأعراض من التهجم ، وحماية أصحابها من التجريح وإهدار الكرامة ، وقد جاء بيان هذه العقوبة ومقدارها في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور:٤].

والرمي في الأصل القذف بالحجارة أو بشيء صلب[١]، وهو مستعار هنا للقذف باللسان والشتم بفاحشة الزنا ، وهذه جناية بالقول[٢].

والمحصنات : العفيفات ، جمع محصنة ، وهي المرأة العفيفة ، وخصهن بذلك وإن كان الرجال يشركونهنّ في الحكم ؛ لأن القذف فيهن أشنع وأنكر للنفوس ، ومن حيث هنّ هوى الرجال ، ففيه إيذاء لهنّ ، ولأزواجهن ، وقراباتهن[٣].

فهذه الآية الكريمة تبيّن أن قاذف المحصنات يُعاقب بعقوبة مادية تنال الجسد ، وتتمثل في الجلد ثمانين جلدة ، وعقوبة معنوية ، وتتمثل في إسقاط اعتباره وحرمانه من حقّ أداء الشهادة ، إضافة إلى وصفه بالفسق والخروج عن طاعة الله ﷻ .

وهذه العقوبة ــ كغيرها من العقوبات ــ جاءت ملائمة للجريمة ومناسبة لها ، فغرض القاذف هو تحقير المقذوف وإيلامه نفسيًا ، وعقوبته الجلد ليؤلمه بدنيًا ، وهذا الإيلام يقع على الحسّ

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ،مادة (رمي)١٤/٣٣٥.
(٢) الشوكاني ، فتح القدير ،٤/٧.
(٣) أبو حيان ، البحر المحيط ، ٦/٤٣١.

والنَّفس معًا ، والتحقير العام ، وهو بعض العقوبة التي تصيبه ، فتسقط عدالته، ولا تقبل شهادته أبدًا ، ويوصم بالفسق[١].

وبهذا يتضح أن هذه العقوبة تهدف إلى تحقيق الرّدع بقسميه العام والخاص؛ وذلك لصيانة الأعراض ، وتطهير المجتمع المسلم من قول السوء، لتظل منزلة الفرد والأسرة محفوظة، وتبقى الروابط الاجتماعية قويّة.

هذه بعض العقوبات المقدرة التي شُرعت للرّدع عن جرائم واضحة الخطر على أمن الفرد واستقرار المجتمع ، وقد تبين من خلال هذه النماذج أنه ما من عقوبة إلا وجاءت مناسبة للجريمة التي خُصّصت لها ، ووضعت على أساس محاربة الدوافع التي تدفع إليها، وأن العقوبات التي دون القتل تجمع بين الرّدع العام والرّدع الخاص ، أما العقوبة بالقتل فليس فيها إلا الرّدع العام.

شبهة والردُّ عليها

ومع ملائمة كلّ عقوبة للجريمة التي خُصصت لها ، ووضوح ما هدفت إليه هذه العقوبات ، إلا أن أهل الشُبَه من أعداء الإسلام زعموا أن هذه العقوبات قاسية ولا تتناسب مع الإنسانية [٢]!

وهذه شبهة داحضة من عدة وجوه ، منها:

أولا: إن الزعم بأن هذه العقوبات فيها قسوة على الإنسان ، ولا تتفق مع الإنسانية إنما هو افتراء على الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ هو الرحمن الرحيم ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وهو قدّر هذه العقوبات ؛ لتكون زواجر وجوابر لهذا الإنسان في الحياة قبل الممات .

---

(١)انظر:عبد القادر عوده ، **التشريع الجنائي**،١/٦٤٦-٦٤٧.

(٢) البوطي ، محمد سعيد رمضان ، **على طريق العودة إلى الإسلام** ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط١٩٨١،١م ، ١٢١.

وشأن العقوبة دائمًا أن تكون شديدة موجعة، "فاسمها مشتق من العقاب، ولا يكون العقاب عقابًا إذا كان موسومًا بالرخاوة والضعف، بل يكون لعبًا أو عبثًا أو شيئًا قريبًا منه" (١).

فلكي تتحقق الغاية من العقوبة فلا بدَّ أن يكون فيها من الشدة ما يلائم الجريمة المخصصة لها، يقول ابن القيم : "ومن المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمؤلم يردعهم ، ويجعل الجاني نكالاً وعظةً لمن يريد أن يفعل مثل فعله ، وعند هذا فلا بدَّ من إفساد شيء منه بحسب جريمته في الكبر والصغر والقلة والكثرة " (٢).

فالقسوة تمثل الركن الأساسي لمعنى العقوبة ، فإذا فُقدت القسوة فُقِد معها الرّدع والزجر بلا شكٍّ، والذي يحدد درجة هذه القسوة هو تصور مدى خطورة الجريمة التي استلزمتها؛ فما تشتدُّ العقوبة أو تلين إلا تبعًا لتقويم الجريمة التي اقتضتها وللإيمان بمدى خطورتها وشدَّة آثارها السيئة.

وهذه الحقيقة محل وفاق عند جميع المشتغلين بتشريع القوانين ، مهما اختلفوا في تحليل فلسفة العقاب ، وإذا كان من الناس من يصف العقوبات الشرعية بأن فيها قسوة زائدة على مقتضى هذه الحقيقة الواضحة ، فإن ذلك راجع إلى ما يخفيه هؤلاء من عداوة واضحة لتعاليم الإسلام ، بالإضافة إلى عدم إدراكهم لخطورة الجرائم التي استوجبتها(٣).

ثانيًا: إنّ أهل الشُّبَه قصروا نظرهم على مقدار الأذى الذي يقع على الفرد الجاني ، ولم ينظروا إلى ما يترتب على الجريمة من نتائج خطيرة تهدد أمن المجتمع واستقراره ! ولو أنهم جمعوا بين العقوبة والجريمة ، ولاحظوا أن ضرر الجريمة وأثرها لا يقتصر على مرتكبها فقط ، بل يتعدى إلى غيره من الأفراد والجماعات ، لأيقنوا بعدالة هذه العقوبات.

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن، ٨٨٥/٢، عبد القادر عوده ، التشريع الجنائي، ٦٥٥/١.

(٢) ابن القيم ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق: طه عبد الرءوف ، دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٧٣م، ١٢٢/٢.

(٣) البوطي ، على طريق العودة إلى الإسلام، ١٠١، ١٢٤-١٢٥.

فالسرقة مثلاً فيها اعتداء على أموال الناس ، وحرمانهم من الاستمتاع بأمنهم وأموالهم اللذين من حقهم أن يستمتعوا بهما، والعقوبة جاءت عادلة ومصلحة ، وتتفق مع منافع الناس ؛ لأن الجريمة ليست في المقدار المسروق ، وإنما الجريمة في ترويع الآمنين وتهديد المطمئنين ، والمقابلة ليست بين ذات الفعل والعقاب ، بل المقابلة بين أثر الفعل، وما يعقبه من انزعاج ، ومضاعفات خطيرة ...!

وكذلك الزنا جريمة يترتب عليها اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد بنيان الأسرة ، وانتشار الأمراض ... فالعقاب الذي شرعه الله ﷻ موافق لتلك الجريمة .

وهذا القذف جريمة تتفرع عنها عدة جرائم ، ففيه تجريح للأعراض، وتلويث للسمعة، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ... والشكوك في جو الأسر، وتلك حالات تهدد البيوت بالتفكك والانهيار [١].

وهكذا الشأن في بقية العقوبات، كلٌ منها يتناسب مع الجريمة وما يترتب عليها من آثار سيئة، ولم يتجاوز أي منها حدّ العدالة ، ولم يخرج عن نطاقها .

ثالثًا: إنّ العقوبات ليست غاية في حدّ ذاتها ، بل هي وسيلة تهدف إلى الرّدع الذي يمنع عن ارتكاب ما يؤدي إليها ، وهذه الوسائل الرادعة قلما تنفذ لشدة وسائل إثباتها.

وللبوطي كلام جزل في ردّ إدعاءات الذين يصفون العقوبات الشرعية بالقسوة ، أستميح لنفسي تلخيصه في الأسطر الآتية: إن ادعاء القسوة والشدة في حدود الشريعة الإسلامية؛ مظهر من مظاهر السطحية في فهمها ، بل الجهل العجيب بطبيعتها وأنظمتها وقيودها .

---

(١) انظر: أبو زهرة ، الجريمة والعقاب ،٤٧-٤٩، الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته ،٦/١٥-١٧.

وإن كل دارس للشريعة الإسلامية يدرك أن ما قد يبدو في حدودها من القسوة لا يعدو أن يكون قسوة تلويح وتهديد . فهو أسلوب تربوي وقائي أكثر من أن يكون عملاً انتقامياً. وهي بهذا تنطلق من أدق الأسس التربوية السليمة للمجتمع .

ويمكن توضيح ذلك من خلال جريمة الزنا ، وهي أكثر ما يتحدث الناس عن قسوة عقوبتها ؛ فقد أعلنت الشريعة أن عقوبة الزاني المحصن هي الرجم، وهو إعلان مخيف، وتلويح بسلاح رهيب ولا شك ، ولكنها شرطت لإيقاع هذه العقوبة أحد الشرطين : الاعتراف القاطع الصريح، أو شهادة أربعة شهود برؤية الفعل على حقيقته.

فأما الإقرار: فشيء نادر لا يقام عليه أي اعتبار . وعندما يقع هذا الشيء النادر ؛ فإن على القاضي أن يبادر فيقطع سبيل الإقرار على الزاني قبل أن يتفوه بالاعتراف القاطع الصريح ، وأن ينصحه بالتوبة والستر ، إتباعًا لهدي الرسول ﷺ في ذلك.

وأما الشهادة : فإن ثلاثة أرباع الشهادة التامة فيها ؛ تنقلب ردعًا للشاهد وزجرًا له عن التفوه بالشهادة ؛ كي يظل المتهم في حماية من الستر ونجوة من العقاب .

وحسبك أن تعلم أن عدد الشهود ما لم يتكاملوا أربعًا ؛ يعدّون آثمين متلبسين بجريمة القذف ، وتغدو شهاداتهم سببًا لإنزال العقوبة عليهم بدلاً من أن تكون موجبًا لأخذ المتهم بجريمة الزنا .

فإذا ما تكامل الشهود أربعًا ؛ فإن العقوبة تتحول عندئذ إلى المشهود عليه ، حيث يستحق عقوبة الزنا ... فإنه لم يقترف جريمته هذه بحيث رآه متلبسًا بها أربعة من الرجال الثقات العدول ، إلا وهو مستعلنٌ بعمله في الناس ، مستهينٌ بكرامة الأمة وسمعة المجتمع ، وتصرف من هذا القبيل من شأنه أن ينشر وباء الفاحشة فيه كما تنتشر النار في الهشيم .

لا جَرَمَ أن فاحشة تُرتكب بهذا الشكل تستدعي عقوبة صارمة ، تُحقّق الغاية المرجوّة منها ، وهي العبرة والرّدع [١].

وجملة القول : إنّ هذه العقوبات قد شرعها الله ﷻ لسعادة الإنسان ، وهو وحده الذي يعلم ما يَصلُح لعباده وما يُصلحهم ويحقق سعادتهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤] ، وهو ﷻ الذي يعلم خطر هذه الجرائم على الفرد والمجتمع ، وبعلمه وحكمته وضع لكلٍّ منها العقوبة الملائمة لها، والصالحة لكل زمان ومكان.

---

(١)البوطي ، على طريق العودة إلى الإسلام، ١٠٤- ١٠٥ ، ١٢٧-١٢٨.

المطلب الثاني:

الأمر بإعداد القوّة لردع العدو عن عدوانه

لقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بإعداد القوة التي تكون مُرهبة للأعداء ، ورادعة للكفار، تنصر الحقّ وتدفع الظلم ، وتنشر الأمن وتحقق السّلم ، فقال جلّت قُدرته وتعالت عظمته: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

مناسبة الآية لما قبلها:

هذه الآية الكريمة مرتبطة بالآيات السابقة ارتباطًا وثيقًا ؛ فلما ذكرت الآيات السابقة ـــ وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٥ – ٥٩] ـــ أنّ شرَّ مَنْ دبَّ على الأرض هم الكافرون الذين رفضوا الإيمان بالله ﷻ ، وكلما عاهدوا عهدًا نقضوه ، وبيّنت ما يجب أن يُفعل في حقّ الذين خانوا منهم ونقضوا العهود والمواثيق ، وفي حقّ مَنْ يُتوقع منه

الخيانة ونقض العهد ، وكان ذلك سبيلاً للحرب والقتال، ناسب أن يأتي الأمر للمؤمنين بإعداد المستطاع من القوة ؛ لإخافتهم من عاقبة نقض العهود ، وردعهم عن العدوان.

قال الفخر الرازي: "لما أوجب على رسوله ﷺ أن يُشرِّد مَنْ صدرَ منه نقض العهد ، وأن ينبُذَ العهد إلى من خاف منه النَّقض ، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار"[١].

الإعداد الذي يأمر الله ﷻ به

الإعداد لغة: تهيئة الشَّيء ، يقال : أعدّ الشيء يُعِدُّه إعدادًا : هيأه وأحضره ، والاستِعْدَادُ للأمر التهيؤ له . والعُدَّةُ ما أُعِدَّ لأمرٍ يحدث ، وما أعْدَدْتَهُ من مال أو سلاح أو غير ذلك[٢] ، فالإعداد هو التهيئة والإحضار.

وقد أمر الله ﷻ المؤمنين بنوعين من الإعداد لمواجهة أعدائه:

النوع الأول: إعداد ما استطاعوا من القوّة: ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وجاء اللفظ ﴿قُوَّةٍ﴾ مطلقًا غير مقيّد بنوع معين ، ولذلك اختُلِف في تعيين المراد بالقوة ، على أقوال ، منها : القوة ذكور الخيل ، السلاح ، التصافي واتفاق الكلمة[٣].

وفسّرها النبي ﷺ بالرمي، فعن عقبة بن عامر قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ "[٤].

---

(١) الفخر الرازي ، **مفاتيح الغيب** ،١٤٨/١٥. وانظر: أبو حيان، **البحر المحيط**، ٥١١/٤، ابن عادل ، **اللباب**، ٥٥١/٩.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ٢٢/٤، الرازي، **مختار الصحاح** ، ٤٦٧، الفيومي، **المصباح المنير** ،٣٩٦/٢.

(٣) الإمام الطبري، **جامع البيان** ،١٤/ ٣١-٣٤، الماوردي ، **النكت والعيون** ، ٣٢٩/٢.

(٤) **صحيح الإمام مسلم** ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه ، رقم :(١٩١٧) ،١٥٢٢/٣.

وذهب الإمام الطبري إلى عموم اللفظ ، ولم يُقيده بمعنى مُحدد ، وقد ذكر أن الرمي أحد معاني القوّة ، وأن من معانيها أيضًا: السيف والرمح والحربة ، وكل ما كان معونة على قتال المشركين ، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم ، وفي النكاية منهم[١].

وقد اختار هذا الرأي غير واحد من المفسرين ، قال الجصاص: "ومعنى قوله ﷺ: (ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ) : أنّه من معظم ما يجب إعداده من القوة على قتال العدو، ولم ينف به أن يكون غيره من القوّة، بل عموم اللفظ شاملٌ لجميع ما يُستعان به على العدو من سائر أنواع السلاح وآلات الحرب"[٢].

وهذا هو الراجح ــ والله ﷻ أعلم ــ ؛ لأن لفظ القوة جاء مطلقًا، وهو يتسع ليشمل كلّ أنواع القوّة ، وكلّ آلات الحرب التي تتطوّر بتطوّر الزمان ، وتنتقل من حال إلى حال، وتختلف من عصر إلى عصر ، وبهذا الإطلاق يكون الأمر بإعداد القوة وتوفير أسبابها ومقوماتها باقٍ ومستمر إلى قيام الساعة ، وذلك بما يتناسب مع كلِّ عصر.

وكما جاء لفظ القوة مطلقًا غير محدد جاء تفسير النبي ﷺ للقوة بلفظ مماثل لها في الإطلاق وعدم التقييد ، ولا شك أن معظم القوة في العصر الحاضر هي قوة الرمي ، فهي تشمل رمي الطائرات ، ورمي الصواريخ ، ورمي المدافع ، ورمي البنادق ، وغيرها.

قال ابن عاشور:" ودخل في ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾كل ما يدخل تحت قدرة الناس اتخاذه من العدة ، والخطاب لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم ؛ لأنَّ ما يراد من الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها.

---

(١)الإمام الطبري، جامع البيان ،١٤/٣٧.

(٢) الجصاص ، أحكام القرآن ، ٣/٨٩، وانظر مثلاً: ابن عطية ،المحرر الوجيز ،٣/٥٤٦، أبوحيان ، البحر المحيط، ٤/٥١١ .

والقوة كمال صلاحية الأعضاء لعملها ... فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القـوة فـي جيوش عصرنا.

وبهذا الاعتبار يُفسّر قول الرسول ﷺ : (ألاَ إنّ القوة الرمي) ؛ أي: أكمل أفراد القـوة آلـةُ الرمي ؛ أي : في ذلك العصر . وليس المراد حصر القوة في آلة الرمي"[١].

النوع الثاني: المستطاع من رباط الخيل:﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾؛ أي: اقتناءها وربطها للقتال في سبيل الله ﷻ، وخُصَّت بالذكر مع أنها تدخل في القوّة المأمور بإعدادها ، تشريفًا لها وإيذانًا بفضلها ، حيث كانت في العصور السابقة هي أصل الحروب والخير فـي نواصـيها ، وهـي مراكب الفرسان الشجعان ، وبها يجال في الميدان[٢].

والرِّباطُ أيضًا ملازمة ثغر العدو ، كأنهم قد رُبِطوا هناك فثَبَتوا به ولازَموه ، وربط الخيل به إعدادًا للعدو[٣]، واستعدادًا لرده وصدّ عدوانه إذا حاول ذلك.

قال الباجي[٤] :"**الرِّباطُ يكون على وجهين :**

أحدهما: رباط الخيل ، وهو ربطها واقتناؤها، والأصـل فيـه قولـه ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ، ورباط الخيل يكون اتّخاذَهَا في موطن الْمُتَّخِـذِ لهـا، وغير موطنه سواءٌ كان في الثّغر وقربِ العدوّ ، أو في معظم الإسلام وبالبعد من العدو ؛ لأن ذلك كلّه من باب إعداد القوة ...

---

(١)ابن عاشور ،التحرير والتنوير ،١٠/٥٥.

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٨/٢٥، الخازن ، لباب التأويل ،٣/٤٦، أبو حيان ،البحر المحيط ،٤/٥١١.

(٣) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ،٢/٣٩٧، البقاعي ، نظم الدرر ، ٣/٢٣٦.

(٤) هو: أبو الوليد ، سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، ولد في باجة بالأندلس، من كتبه: السراج في علم الحجاج،وإحكام الفصول، في أحكام الأصول ،والمنتقى في شرح موطأ مالك ،توفي(٤٧٤ هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء ،١٨/ ٥٣٧ وما بعدها ، الزركلي ،الأعلام،٣/١٢٥].

والوجه الثاني : رباط الرّجل نفسَهُ ؛ وهو أن يربط نفسه لحفظ الثُّغور ويُكْثِرُ سَوَادَهَا، والإرهاب على مَنْ جَاوَرَهُ مِنْ العدوّ، والأصل في ذلك قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] "[١].

ولا شك أن بين الرّباط وملازمة الثغور وبين القوّة ارتباطًا وثيقًا ؛ ففي ملازمة الثغور حراسة للقوّة وحماية لها من مُباغتة العدو ، وفي القوّة مساندة للمرابطة ودعم لملازمة الثغور وحراستها.

والرّباط في هذا العصر لا يقتصر على الثغور والحدود فقط ، بل يمتد ليشمل سماء الدولة ، ومياهها الإقليمية ، وكافة منشآتها الحيوية [٢]، ولذلك تجددت أساليب حراسة الثغور ومراقبتها ، وتجددت معها طرق مساندة المرابطين وتطورت ، فشملت أنواعًا من الأسلحة ، والأجهزة المستعملة في الرصد والمراقبة الأرضية والجوية.

الغاية من الأمر بإعداد القوّة

وبعد الأمر بإعداد ما يستطاع من القوة يجيء بيان حكمته البالغة وغايته النبيلة، قال ﷻ:

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾.

وهذه الجملة الكريمة تبدأ بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار ﴿تُرْهِبُونَ ﴾، وهو مأخوذ من الفعل الثلاثي (رَهِبَ) ، وهذه المادة تدور حول المخافة من شيء ، يقال: رَهِبَ ــ بالكسر ــ يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْبًا ورَهَبًا ؛ أي : خافَ .

---

(١)الباجي: أبو الوليد ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي (٤٧٤هـ) المنتقى شرح الموطأ ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط١٣٣٢،١هـ ، ٣/١٦١.

(٢) انظر: محفوظ ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ، ١٧٤-١٧٦.

ورَهِبَ الشيءَ رَهْبًا ورَهَبًا ورَهْبةً : خافَه ، والاسمُ : الرُّهْبُ والرُّهْبَى .

والرَّهْبةُ : الخَوْفُ والفَزَعُ ، وأرْهَبَه ورَهَّبَه واسْتَرْهَبَه : أخافَه وفَزَّعه ، وتَرَهَّب الرجل : صار راهِبًا يَخْشَى اللّه ، والرَّاهِبُ : المُتَعَبِّدُ في الصَّوْمعةِ ، وأحدُ رُهْبانِ النصارى ، ومصدره الرَّهْبةُ ، والرَّهْبانِيّةُ ، والجمع الرُّهْبانُ .

وأصلُ الرَّهْبانِيّة من الرَّهْبةِ ، ثم صارت اسمًا لِما فَضَلَ عن المقدارِ وأفْرَطَ فيه[١].

ووردت مادة (رَهِبَ) واشتقاقاتها في القرآن الكريم في اثني عشر موضعًا، بصيغ مختلفة[٢]، بعضها يدل على الخوف والفزع[٣]، وبعضها الآخر يدل على التَّرَهُّب والتَّعبُّد[٤]، قال الراغب: الرَّهْبةُ والرُّهْبُ : مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضطراب...والتَّرَهُّب : التَّعبُّد ، وهو استعمال الرَّهبة"[٥].

وعلى ضوء المعنى اللغوي والاستعمال القرآني لمادة (رَهِبَ) والتي تدل على الخوف والفزع يظهر أنَّ الغاية من إعداد القوة هي إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء ومنعهم من استخدام قوتهم .

يقول الفخر الرازي: " ذكر الله ﷻ ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء ، فقال:﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له، مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة : **أولها**: أنَّهم لا يقصدون دخول دار الإسلام ، **وثانيها** : أنَّه إذا اشتدَّ خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم

---

(١) ابن منظور ، **لسان العرب** ،٤٣٦/١ ، الزبيدي ، **تاج العروس**، ٥٣٧/٢.

(٢) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، ٣٢٥.

(٣) وهي: (فارْهَبُون) [البقرة:٤٠،النحل:٥١]،(استَرْهَبُوهُم) [الأعراف:١١٦]،(يَرْهَبُون) [الأعراف: ١٥٤] ،(رَهَبًا)[الأنبياء:٩٠] ، (الرَّهْب) ، [القصص:٢٨]، (رَهْبَةً)[الحشر: ١٣].

(٤) وهي: (رهبانا) [المائدة:٨٢] ، (الرهبان)[التوبة : ٣٤]، (رهبانهم) [التوبة : ٣١]، (رهبانية) [الحديد :٢٧].

(٥) الراغب الأصفهاني ، **المفردات** ،٢٠٩-٢١٠.

جزية، وثالثها: أنَّه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان، ورابعها: أنَّهم لا يعينون سائر الكفار"[١].

وقد ألصق أعداء الإسلام في هذا العصر بالإسلام والمسلمين تهمة الإرهاب – ليخوفوا الناس منه وينفروهم عنه – وذلك أخذًا من هذه الآية الكريمة: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهي تهمة باطلة جملة وتفصيلاً، فهم الذين يملكون الأساطيل والجيوش الجرارة التي جعلت العالم الآخر يهابهم لما عندهم من قوّة، فإذا زعموا أن هذه القوّة التي يملكونها هي لمجرد إرهاب أعدائهم ومنعهم من الاعتداء عليهم فإن هذا المفهوم القرآني هم قد طبقوه، فلماذا لا يطلقون الإرهاب على أنفسهم ؟!

إنّ إعداد القوّة بهدف تخويف العدو ومنعه من استخدام قوّته هو أساس ما يُعرَف في مصطلحات الدراسات والعلوم العسكرية المعاصرة بنظرية الرّدع، وهي – كما أشرت فيما مضى – تتمثل في توفر القوّة التي تكفّ العدوّ وتمنعه من تحقيق أهدافه وأطماعه العدوانية.

وهذه النظرية التي أرساها القرآن الكريم، والتي تتفق بداهة مع جوهر الإسلام ومقاصده الدفاعية غير العدوانية، لم يصل إليها الفكر العسكري إلا في هذا العصر، وبعد معاناة قاسية وطويلة في حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها، فوجد أن الرّدع هو الوسيلة الكفيلة بمنع وقوع الحرب[٢].

ولكنّ الرّدع الذي أرساه القرآن الكريم يبقى منفردًا، ومتميزًا بخصائص متعددة، منها :

أولا: إنّ الأمة الإسلامية إذا تملّكت القوّة المتفوقة على أعدائها حتى يصبح ميزان القوى في صالحها فإن ذلك لن يغريها باستخدام تلك القوة ضدهم ما داموا ممتنعين عن العدوان عليها ؛

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٤٩/١٥.

(٢)انظر: محفوظ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية، ١٢-١٣.

فهي لا تتعدى حدود الرّدع ما دام يحقق هدفه ، وهو إخافة العدو ومنعه من استخدام القوة ، والذي تضمنه قوله ﷻ: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ؛ لأن العدوان ليس من غايات إعداد القوّة في الإسلام ، ولم يُشرع الجهاد إلا إعلاءً لكلمة الله ﷻ ، ودفاعًا عن الأمة الإسلامية ، كما قال ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[البقرة: ١٩٠].

أما الرّدع المعاصر فهو مرتبط بتوازن القوى ، فإذا فُقد هذا التوازن فُقد الرّدع ، واندلعت الحرب [١].

ثانيًا: إنّ الرّدع أرقى منهج للتوفيق بين الغاية وهي إعلاء كلمة الله ﷻ ، والدفاع عن الأمة الإسلامية ، وبين الوسيلة لتحقيق تلك الغاية ، وذلك بتطبيق الرّدع قبل الحرب ، وهذا التوفيق يؤدي إلى الاقتصاد التام في القوّة ماديًا ومعنويًا ، ويحقن الدماء.

ثالثًا: إنّه يهدف إلى تحقيق الأمن والعزّة للأمة الإسلامية ؛ فبالإعداد والاستعداد تصبح الأمة قويّة البأس مرهوبة الجانب من قبل الأعداء ، قادرة على الدفاع عن نفسها ومواجهة كلّ مَن يعتدي عليها، وبذلك يطمئن كلُّ فرد من أفرادها على نفسه ، ويأمن على ماله ودينه وعرضه[٢].

يقول القاسمي: "ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزًا ، عظيمًا ، أبيّ الضيم ، قويّ القنا ، جليل الجاه ، وفير السّنا ؛ إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ،

---

(١)انظر: محفوظ ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ، ١٣-١٤، ١٠٦-١٠٧.

(٢)انظر: محفوظ ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ، ١١٠-١١٢.

وزحزح سجوف الظلم والاستعباد ، وعاش بنوه أحقابًا متتالية وهم سادة الأمم ، وقادة الشعوب، وزمام الحول والطول وقطب رحى العز والمجد ، لا يستكينون لقوّة ، ولا يرهبون لسطوة"[١].

رابعًا: إنّه يهدف إلى ردع العدو الخارجي الظاهر ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، وردع العدو المستتر ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ، والذي ينفث سمومه في الخفاء ، فيُثير الفتنة ، ويُروّج الإشاعات ، بطرق وأساليب مختلفة[٢].

الحضُّ على الإسهام في إعداد القوّة الرادعة

مَن أنعم نظره في نظم الآية الكريمة يدرك ما بين أولها ووسطها وآخرها من مناسبة تامة وارتباط وثيق ؛ فأول الآية أمر بإعداد المستطاع من القوّة ، وأوسطها بيان الحكمة البالغة والهدف النبيل ، وآخرها حضٌّ على الإنفاق والمساهمة في هذا الإعداد المفضي إلى ردع العدوّ، ومنعه من التفكير في الاعتداء على المسلمين ، وبشارة للمنفقين في هذا السبيل بأنّ الله ﷻ سيجازيهم على إنفاقهم جزاءً وافيًا لا نقص معه ولا ظلم .

"فلما كان إعداد العُدَّة يقتضي أموالاً ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله ﷻ"[٣]، ولما كانت النفوس شحيحة بالمال تكفّل الله ﷻ للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه[٤]، فقال ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ ، فهذا إخبار من الله ﷻ

---

(١) القاسمي ، محاسن التأويل ، ٥٨/٤.

(٢)انظر: محفوظ ، المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ، ١١٢-١١٣.

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن، ١٥٤٤/٣.

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٥٧/١٠.

أن ما ينفقه المسلمون من شيء سواء أكان قليلاً أم كثيرًا في سبيل الله ﷻ ، وهو إعداد القوّة لردع العدو وجهاده ، يوفَّ إليهم جزاؤه على التمام والكمال .

والتعبير عن ترك الإثابة أو نقص الثواب بالظلم للمبالغة في وعد الله ﷻ بالثواب والوفاء به[١]. ولعلَّ في هذا إبرازًا لدور المال وأثره في إعداد القوّة الرادعة ، وفيه أيضًا فتح المشاركة في إعداد هذه القوّة على أوسع أبوابها ، إذ تبدأ مما يُطلق عليه اسم شيءٍ ، وهذا مما لا يعجز عنه كلُّ مَنْ أرادَ الخير لنفسه وأمته .

وجاء في سنن الترمذي أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: "مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"[٢].

لقد بان من كل ما تقدم أن المقصود الأعظم من الأمر بإعداد القوّة لم يكن لمجرد القهر والإذلال ، وسفك الدماء ، والسيطرة على خيرات البلاد ... وإنما هو إخافة قوى الكفر والشّر وردعها عن الظلم والفساد ... وصولاً إلى الأمن والاطمئنان، والسلام في ظل عدالة الإسلام، ولعلَّ هذا ما تشير إليه الآية التي بعدها مباشرة ، وهي قوله ﷻ: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١] .

قال ابن عادل وغيره : "لمَّا بيَّن ما يرهب به العدو من القوة ، بيَّن بعده أنَّهم عند هذا الإرهاب إذا مالوا إلى المصالحة ، فالحكمُ قبولُ المصالحةِ"[٣].

فإعداد القوّة إنما هو لردع الأعداء حتى يضطروا إلى طلب المسالمة والمهادنة ، فهو سِلم تفرضه القوّة ، وتمليه الرغبة في الأمان ، لا الرغبة في الحروب وسفك الدماء ، سِلمٌ يُحقِّق العدالة وينشر الأمن والأمان ، لا البغي والعدوان.

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم، ٣٢/٤ ، الآلوسي روح المعاني ، ٢٧/١٠.

(٢)سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله ، رقم:(١٦٢٥) ، ٤ / ١٦٧.قال:وهذا حديث حسن.

(٣)ابن عادل ، اللباب، ٥٥٧/٩، وانظر: الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ،١٤٩/١٥، الشربيني، السراج المنير ،٦٦٣/١.

المبحث الثاني:
آثار العقوبات التي شرعت للرّدع

المطلب الأول:
أثر العقوبات التي شُرعت للرَّدع على الفرد

المطلب الثاني:
أثر العقوبات التي شُرعت للرَّدع على المجتمع

المطلب الأول:

أثر العقوبات التي شُرعت للردّع على الفرد

إنّ تطبيق العقوبات الدنيوية التي شرعها الله ﷻ يعود على الفرد بكلّ خيـرٍ، ويُحقّـقُ آثـارًا إيجابية ونتائج طيبة ، منها:

أولاً: تحقيق التوازن النفسي للفرد:

الإنسان بحكم طبيعته وفطرته مسرح للصراع بين دوافع الخير وعوامل الشّر ، والـدوافع المحركة لارتكاب الجرائم والآثام بالغة المدى ، من حيث تأثيرها في الغرائز والميول الفطرية الأولى التي جاء الدين لتهذيبها في الإنسان ، فالزنا مثلاً مرتبط بالشهوة، والسرقة مرتبطة بحب المال والرغبة في التملك ، وما يُنتجه من أسباب المتعة .

فهذه الجرائم والآثام تنبعث عن دوافع بالغة القوّة ، والوقوف في وجههـا ومواجهتهـا بمـا يوقف آثارها يحتاج إلى موازنتها بدوافع مضادة لا تقلُّ عنها قوة وتأثيرًا في النَّفس الإنـسانية ، والعقوبات المشروعة ــ بما فيها من قسوة وألم زائدٍ على اللذة العاجلة ، وما يُظن أنّه منفعـة ــ هي التي تحقق التوازن النَّفسي للفرد ، هذا التوازن من شأنه أن يُبعد الغالبيـة العظمـى مـن الأفراد عن الذنوب ولآثام الموجبة للعقاب[١].

ثانياً: حفظ نفس الفرد وما دونها :

وهذا ما ينتج عن تطبيق عقوبة القصاص، والزنا بعد إحصان ، والسرقة ، وقطع الطريـق ؛ فعقوبة القاتل عمدًا فيها حفظ لنفس مَنْ يهمُّ بالقتل ولنفس غيرة من الهلاك ، ورجـم الزانـي

---

(١) انظر: الذهبي، محمد حسين ، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ،دار الاعتصام، ط١ ،١٩٧٨م ،٥٤-٥٩.

المُحصن حتى الموت ، إحياء للنفس وحفظ لها من الهلاك ، وقطع يد السارق يحفظ اليد ويمنع قطعها.. وهكذا.

ثالثاً: حفظ العقل مما يُخرجه عن وظيفته:

لقد ميَّز الله ﷻ الإنسان بالعقل ، وجعله مناط تكليفه ، فبه يفكر ويتدبر ، وبه يتعلم ، وبه يعرف الخير من الشَّر والنافع من الضار ، ولذلك أمر الله ﷻ بالمحافظة عليه ، فحرّم شُرب ما يؤثر فيه ويفسده ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠] .

إنّ المسكرات تُزيل عقل الشارب ، وتجعله مختلط الفكر مضطرب النظر لا يعرف الحق من الباطل ، ولا يُميّز الخير من الشّر ... وثبت علميًا ، أنها تؤدي إلى الجنون في كثير من الأحوال ، فضلاً عن إضعافها لقوّة التركيز ، وعمق التفكير [١]، وفي إيقاع العقوبة على مرتكب هذه جريمة صيانة لعقله وحفظ له مما يضره.

رابعاً: حماية الفرد من الأمراض:

يُصاب الفرد بسبب بعض الجرائم والآثام الموجبة للعقوبة كالزنا وشرب الخمر بأمراضٍ خطرة ، فقد أثبت العلم الحديث أن الزنا سبب لانتشار العديد من الأمراض كالزهري والسيلان، وجرب التناسل [٢]، وآخر ما عرف من هذه الأمراض مرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز)،

---

(١) انظر: الشاذلي، حسن علي، أثر تطبيق الحدود في المجتمع، ضمن مجموعة من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ، ١٣٩٦هـ ، طباعة ونشر جامعة الإمام،١٩٨١م، ٦٨-٦٩.

(٢) انظر :عبد الحميد دياب ، أحمد قرقز، مع الطب في القرآن، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط١، ١٩٨٠م، ١٦٧-١٧٦، فضل إلهي ، التدابير الوقائية من الزنا في الفقه الإسلامي ، إدارة ترجمان الإسلام ـ باكستان،ط١،١٩٨٣م ، ٥١-٥٧.

ولغياب العلاج الناجع لهذا المرض قدمت منظمة الصحة العالمية نصيحة للناس باتباع الطريـق الفطري عند قضاء الشهوات ، والابتعاد عن تعدد الشركاء(١).

وأما الخمر فهو ـ كما يثبت العلم الحديث ـ يأكل الكبد ويضخمه ، ويفسد الكلية ، ويضعف أنسجة الجسم وينهك الأعضاء الداخلية العاملة ، ويفقد الشهية للطعام ، ويفسد المعدة ، ويحـدث تصلبا في الشرايين وتمددًا فيها ، ويضعف الحنجرة ، وشعب التنفس ، ويكثر السعال ، ويعيـق دورة الدم ، وقد يوقفها فيموت السكّير فجأة (٢).

ولا ريب أن تطبيق العقوبة التي شُرعت لكل من الجريمتين وإيقاعها على المجرم تحفظ الفرد من هذه الأمراض التي تفتك بجسمه.

خامساً: تكفير الذنب الذي حصل بفعل الجريمة :

مَن أقيمت عليه عقوبة في الدنيا بسبب جريمة توجب ذلك ، فهي كفارة لهـذا الـذنب الـذي استحقَ العقوبة بسببه ، لما جاء في صحيح البخاري عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: "تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَـى أَنْ لاَ تُـشْرِكُوا بِاللَّـهِ شَـيْئًا ، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ ، وَلاَ تَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْـدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُـمْ ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِـهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَـهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ "(٣).

---

(١) انظر: القضاة، عبد الحميد ، الإيدز حقائق وأرقام ، ط٢، ٢٠٠٠م ، وقد ذكر أن أول البدايات لهذا المرض عـام (١٩٨١م) ، وتقدر منظمة الصحة العالمية أن سبعة عشر مليون مصابون بفيروس الإيدز ، ونسب إلى مدير عام (اليونيسيف) قوله: يصاب فـي اليوم الواحد خمسة آلاف شخص بهذا الفيروس (٧٠%)منهم دون السن الخامسة والعشرين .

(٢) انظر: أبو زهرة ، زهرة التفاسير ،٧٠٥/٢ ، الصابوني، محمد علي ، روائع البيان في تفسير آيات الأحكـام ، ط٣، مكتبـة الغزالي ـ بيروت ،١٩٨٠م،٢٨١/١.

(٣) صحيح الإمام البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ ، رقم : (٣٦٧٩)، ٣ /١٤١٣.

وعَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب ﷺ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَفَا عَنْهُ ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ"(١).

ولما أُقيمَ الحدُّ على مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ بعد أن اعترف على نفسه بالزنا أربع مرات ، ورجم حتى الموت ، كَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرقَتَيْنِ : قَائِلٌ يَقُولُ : لَقَدْ هَلَكَ ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، وَقَائِلٌ يَقُولُ : مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ "(٢).

وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه باب : توبة السارق ، وقال في نهايته :" إذا تاب السارق بعدما قطعت يده قُبلت شهادته ، وكل محدود كذلك ، إذا تاب قُبلت شهادته"(٣).

وقال ابن القيم : " بلغ من سعة رحمة الله ﷻ وَجُوده أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها ، وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدموا عليه ، ولا سيّما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة ، فرحمهم بهذه العقوبات أنواعًا من الرحمة في الدنيا والآخرة"(٤).

فالعقوبة الدنيوية تطهّر الفرد الجاني ــ إذا تاب ــ من جريمته وتمحو ذنبها، وفي هذا تشجيع له على إصلاح نفسه وتهذيبها ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة:٣٩] ؛ أي: فمن تاب من السارقين بعد سرقته ، وأصلح نفسه بحملها على مكروهها في طاعة الله ﷻ ، تاب الله ﷻ عليه وقبل توبته(٥).

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، رقم (٢٦٢٦) ،٥/١٦، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح ، الحاكم ، **المستدرك على الصحيحين** ،١/٤٨، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، و لم يخرجاه.

(٢) **صحيح الإمام مسلم** ، كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم:(١٦٩٥)،٣ / ١٣٢١.

(٣) **صحيح الإمام البخاري**، ٦ / ٢٤٩٤.

(٤) ابن القيم ، **إعلام الموقعين** ،٤/١١٥.

(٥) انظر: الإمام الطبري ، **جامع البيان** ، ١٠/٢٩٨-٢٩٩.

المطلب الثاني:

أثر العقوبات التي شُرعت للردّع على المجتمع

لتطبيق العقوبات التي شُرعت لمن لم يمتثل أوامر الله ﷻ ، وارتكب ما حرّمه الله ﷻ مخالفـا بذلك الأمر والنهي ، آثارٌ إيجابية على المجتمع ، منها:

أولاً: نشر الأمن والأمان في المجتمع:

الأمن نعمة عظيمة من نعم الله ﷻ ، يطلبها النّاس كافة ويبحثون عنها بشتى الوسائل، فبالأمن تصلُح الحياة في جميع جوانبها، ويطيب العيش ، وتندفع الشرور والمخاوف عن أفراد المجتمع، ولذلك لما فرغ سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ من بناء البيت دعا لسكّانه بقوله :﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ۝١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦] ، فبدأ بنعمةِ الأمـن وقدمها على الرزق ؛ لأنّ بحصوله يتحقّقُ الخير بإذن الله ﷻ .

وقد امتنّ الله ﷻ بهذه النّعمة على قريش ، فقال ﷻ :﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش: ٤] .

وارتكاب الجرائم والآثام سلوك شاذ ، يهدد أمن المجتمع واستقراره ، وإقامة العقوبات المشروعة الملائمة لكلّ جريمة ، وتطبيقها على مستحقيها دون تفرقة أو استثناء ، يؤدي إلى قِلة وقوع الجرائم أو نُدرتها ، وبذلك يسود الأمن والأمان بين أفراد المجتمع.

فبظل تطبيق العقوبات المشروعة " ينعم النّاس بالأمن الشامل على ما تقوم به الحياة المثلى ، ويتفيأ الناس ظلال حرية شاملة يتحررون فيها من قيود الهوى في داخلهم ، ومن عوامل الخوف تأتي من خارجهم"(١).

وفي غياب تطبيق تلك العقوبات تنتشر الجرائم ، وتشيع الفاحشة ، ويتمادى المجرم في إجرامه ، والعدو في عدوانه ، فتحل الرذيلة محل الفضيلة ، والخوف محل الأمن ، والضعف محل القوّة ، والذلة محل العزة والكرامة.

ثانياً: حماية الأسَرِ من التشتت والضياع:

الأسرة المسلمة نواة المجتمع الصالح ، فصلاح الفرد من صلاح الأسرة ، وصلاح المجتمع بأسره كذلك من صلاح الأسرة ، ومن شأن بعض الجرائم تفكيك الأسَر وتدميرها، وتشتيت أفرادها، ولا شكّ أن هذا ينعكس سلبًا على المجتمع بأسره ، فجريمة الزنا مثلاً لها أثر مباشر على الأسرة والمجتمع ؛ لأنه يؤدي إلى الطلاق ... وإثارة الشكوك حول الأولاد ، وقد يؤدي ذلك إلى تركهم وعدم الاعتناء بهم ... وقد يترتب على الزنا نسبة إنسان لغير أبيه ... ووجود اللقطاء ، فلا أب يعطف ، ولا أُمّ تحنو ، ولا أسرة تضم وتعتني ... ولا يخفى ما يترتب على ذلك من ضياع وانحراف ... إلى غير ذلك من المفاسد المترتبة على جريمة الزنا.

وتطبيق العقوبة المقدّرة لهذه الجريمة يؤدي إلى حفظ للأنساب من الاختلاط ، وحماية الأُسر من التفرق والتشرد والضياع ، وتقوية للروابط الاجتماعية ، وحماية المجتمع من اللقطاء

---

(١) الذهبي، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ،٨٦-٨٩.

وما يترتب على وجودهم من مفاسد ... واستئصال المجرم المحصن وإراحة المجتمع من خطره وشره[١].

وجريمة القذف فيها تجريح للأعراض ، وإشاعة للسوء والشكوك في الأُسر، وتلك حالات تهدد البيوت بالانهيار ، وفي تطبيق عقوبة هذه الجريمة تظل الأُسر متماسكة ، والأعراض نقيّة مصونة من تهجم الفسقة الفاجرين ، ويبقى المجتمع عزيزًا منيعًا.

فعقوبة القذف هي " الحارس على أعراض النّاس من أن تُمس زورًا ، والحارس على ألسنة الناس من أن تنطق فحشًا، والحارس على المستوى الأخلاقي في المجتمع الإسلامي حتى ينهج الناس في حياتهم وصِلاتهم وعلاقاتهم ، في رضاهم وسخطهم ، في هدوئهم وفورتهم ، منهجًا معتدلاً ، منهجًا سليمًا، يُرضي الله ﷻ"[٢].

ثالثًا: عموم الخير والبركة للمجتمع :

إنّ طاعة الله ﷻ سبب لنزول البركات وكثرة الخيرات التي تعمُّ المجتمع بأسره ، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦].

ومخالفة أوامر الله ﷻ وانتشار الجرائم والآثام سبب لرفع البركات ونقص الخيرات ،كما قال ﷻ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]، وفي إقامة العقوبات المشروعة وتطبيقها تطهير للمجتمع من هذه الآفات

---

(١) انظر: الشاذلي ، أثر تطبيق الحدود في المجتمع ،٢٧-٣٠، افضل إلهي ،التدابير الوقائية من الزنا ،٥٨-٧٩.

(٢) الشاذلي ، أثر تطبيق الحدود في المجتمع ،٣٥ .

المانعة من نزول البركات والخير ، وحصرٌ لها في أضيق نطاق ممكن ، فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال:"حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا"[١].

قال ابن تيمية :" وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، كما يدل عليه الكتاب والسنة ، فإذا أقيمت الحدود ، ظهرت طاعة الله ﷻ، ونقصت معصية الله ﷻ فحصل الرزق والنصر"[٢].

وقال ابن كثير:" إذا أقيمت الحدود ، انكف الناس أو أكثرهم ، أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا ارتُكبت المعاصي كان سببًا في محاق البركات من السماء والأرض"[٣].

فالمطر فيه صلاح الأرض ، ومصالح لأفراد المجتمع ، وإقامة العقوبات المشروعة أكثر نفعًا من المطر ؛ لأن بها تطهير للمجتمع من الإفساد والمفسدين.

رابعاً: تطهير القلوب من الحقد على الجاني وأقاربه:

يُورِث ارتكاب بعض الجرائم ــ كالقتل العمد والزنا ــ الحِقد والغِلّ والعداوة ، وحُبّ الثأر والانتقام ، ولا يقتصر ذلك على الجاني والمجني عليه ــ إن كان حيًّا ــ بل يمتد ليشمل أقارب كلٍّ منهما ؛ "لأن طبيعة النفوس الحنق على مَن يعتدي عليها عمدًا ، والغضب ممن يعتدي خطأً فتندفع إلى الانتقام ، وهو انتقام لا يكون عادلاً أبدًا ؛ لأنَّه صادر عن حنق وغضب تختلُّ معهما الرويَّة، وينحجب بهما نور العدل ، فإنْ وجد المجنيُّ عليه أو أنصاره مقدرة على الانتقام لم

(١) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجة ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ــ بيروت ، كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود ،رقم : (٢٥٣٧) ، ٢ /٨٤٨ ، قال لألباني حديث حسن.

(٢) ابن تيمية ،مجموع الفتاوى ،٣٠١/٢٨-٣٠٢.

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ،٤٢٠/٣.

يتأخروا عنه ، وإنْ لم يجدوها طووا كشحًا[1]على غيظٍ حتى إذا وجدوا مكنةً بادروا إلى الفتك ، كما قال ﷻ :﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۝٣٣﴾ [الإسراء: ٣٣] ، فلا تكاد تنتهي الثارات والجنايات، ولا يستقر حال الأمة "[2].

وتطبيق العقوبات المشروعة يؤدي إلى إخماد الفتنة ، وتطييب القلوب وتطهيرها مما علِقَ بها من الأحقاد والضغائن التي يورثها حب الانتقام والأخذ بالثأر ، وتنحصر رقعة الشّر ، فلا تمتدُّ لغير الجاني.

وجملة القول : إنّ تطبيق العقوبات المشروعة وإيقاعها على مستحقيها بالعدل والمساواة يؤدي إلى حفظ القواعد والأصول التي يرتكز عليها بناء المجتمع ونقاؤه ، وهذه القواعد هي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال ، وبحفظ هذه القواعد يظل المجتمع المسلم قويًا منيعًا حصينًا ، ويقف أفراده صفًّا واحدًا في مواجهة أعدائهم المتربصين بهم ، والحاقدين عليهم وعلى دينهم ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) الكاشحُ: الذي يضمر لك العداوة يقال كشَحَ له بالعداوة، وطوى فلان علي كشحه؛ أي: قطعني. [مختار الصحاح، ٥٨٦].

(٢)ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط١، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٨م ، ٢٠٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبإعانته تكتمل الأمور ، وتستقيم ، وتزول الكربات الحمد لله في الأولى والآخرة حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأزكى الصلاة وأتم التسليم على مَنْ أُنزِل عليه القرآن الكريم تبيانًا لكلِّ شيءٍ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعـــد ؛

فإن (**أسلوب الرّدع في القرآن الكريم**) من الأساليب القرآنية البديعة لهداية الإنسان لعبادة الله تبارك وتعالى ، وبعد دراسة هذا الأسلوب أرى أن أُسطِّر أهم النتائج التي تم التوصل إليها في النقاط الآتية:

- بينت الدراسة أن (**أسلوب الرّدع في القرآن الكريم**) هو: الطريقة الخاصة التي سلكها القرآن الكريم لكفّ المخالفين عن مخالفة أوامر الله ﷻ ومنعهم من ارتكابها ؛ لتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة..
- أبرزت الدراسة طرق الردع التي استعملها القرآن الكريم ، و جاءت هذه الطرق في لفظي (كلا) و(ما كان) ، وهما اللفظان اللذان وردا في آيات الردع ، ومما يلحق بذلك أيضًا ضرب الأمثال ، وأخذ العبر مما حلَّ بالأمم السَّابقة.
- أظهرت الدراسة أن كلاً من السور المكية والمدنية استعملت طريقة الرّدع اللفظي ، بيد أن السور المكية اختصت باستعمال لفظ (كلا) ، بينما لفظ (ما كان) أكثر ما استخدم في السور المدنية .
- بينت الدراسة أن لفظ (كلا) غالبًا ما يأتي بعد المردوع عنه ، وقد يُقدم عليه .
- إنّ لفظ (ما كان) استعمل في ردع المؤمنين وحدهم .

- إن تنوع طرق الرّدع يناسب حال المخاطبين، وما طُبعت عليه نفوسهم من تباين في التكوين والاستعداد.

- أظهرت الدراسة الخصائص العامة لأسلوب الردع في القرآن الكريم وبيّنت مزاياه، وديمومته، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

- إنّ مجالات الرّدع في القرآن الكريم متعددة ، وشاملة لجميع ما يُصلح الإنسان، ويهذب سلوكه، ويُعلي منزلته في الدنيا والآخرة.

- إنّ إيذاء الرسول ﷺ من خصائص أعداء الدين ، ولا يصدر إلا ممن حادّ الله ﷻ ورسوله ﷺ ؛ فالمؤمن يدافع عن الرسول ﷺ ، ويعمل بما يرضيه ، ويعادي مَن يؤذيه.

- العطاء وسعة الرزق ليس علامة إكرام للعبد ، وليس تضييق الرزق وقلة ذات اليد علامة إهانة له ؛ فالعبد إنما يُكرَم بطاعته لله تبارك وتعالى ، ويُهانُ بما يرتكب من معاصٍ وذنوب .

- شمول أسلوب الردع للمؤمنين والكافرين ؛ كلاً بما يخصه.

- تميز أسلوب الردع بالإمتاع والإقناع ؛ فقد كان ـــ في الأعم الأغلب ـــ يبرز آفات ومخاطر الفعل المردوع عنه ثم يتبع الرّدع عنه بتهديد من لم يرتدع ووعيده ، أو ببيان علة الرّدع وإبراز سببه ، وقد يجتمع التهديد وبيان السبب ، وهذا قليل جدًا .

- أظهرت الدراسة أن الرّدع عن القعود عن الجهاد هو الوحيد الذي أعقبه ببيان الثواب المُعد للمجاهدين في سبيل الله ﷻ، وهذا يلائم كُره النفوس للقتال ؛ لما فيه من مشقة وتعرض للموت.

- إن أسلوب الرّدع هو أحد طرق الدعوة إلى الله ﷻ ، فقد بينت الدراسة أن الـرّدع فـي مجال الدعوة ورد في ثلاثة مواضع ، أعقب اثنين منها تأكيد معية الله ﷻ ونصرته ، وأعقـب الثالث بيان علو رتبة القرآن الكريم الذي استغنى عنه من استغنى من أهل الكفر والضلال.
- إن العقوبات التي شُرعت للرّدع – باستثناء عقوبة القتل – تجمع بين الرّدع الخـاص ؛ والذي يمنع الجاني عن معاودة الذنب ، والرّدع العام الذي يمنع غير الجاني عن الوقوع بمثل ما وقع فيه من الذنوب .
- تفنيد دعوى القسوة في العقوبات المشروعة ؛ بأن نظرتهم قاصرة على الفـرد الجـاني لحظة تنفيذ العقوبة لا إلى مخاطر جريمته على الفرد والمجتمع والإنسانية.
- إنّ الرّدع العسكري الذي أضحى مصطلحًا مشهورًا في الكليات العـسكرية المعاصـرة يستمد أصوله من القرآن الكريم.
- إنّ الغاية من العقوبات التي شرعت للردع حفظ (القواعد والكليات الخمس) التي يرتكـز عليها بناء الإنسان في حياته.

الفهارس الفنية

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجمة

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الآيات

آل عمران

النساء

الآية	النص	الصفحة
٢٩	﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾	٢٠١
٣١	﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾	١٢٦،١٠
٣٦	﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾	١٣
٤٨	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾	١٠٦
٥٢	﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾	٢٥٩
٥٨	﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾	٥٤
٥٩	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾	٢٤١
٦٥	﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾	٢٤٣
٧٥	﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	١٠
٨٢	﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾	٩٦
٨٤	﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾	٣٧
٨٨	﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾	٢٥٣
٩١	﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾	٢٥٣
٩٢	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾	٦١،٢٥١
٩٣	﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾	٢٥٨
١٠١	﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٢،٦٨
١١٦	﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ﴾	١٠٦
١٥٤	﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾	٨٦
١٣٩	﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾	١٢٢
١٦٥	﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾	٢
١٧١	﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾	٥٣
	المائدة	
٣	﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾	٤،١١
١٥	﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾	٦
١٨	﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾	٩٨،٩٩

الآية	النص	الصفحة
	الأعراف	
١٢٧	﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾	٢٧٠
١٢٨	﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾	٢٧٠
١٥٧	﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾	١٥٧
١٦٣	﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾	٨٦
١٧٥	﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا (١٧٥)﴾	٧٤
	الأنفال	
٦	﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾	٥٣
٢١	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾	٢٥٠
٣١	﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾	٣١٠
٣٩	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾	٢٨٢
٢٨	﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾	٢٣٨
٣٨	﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ﴾	٣٥
٥٢	﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾	٨٣
٦٠	﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾	٣٧٢
٦١	﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾	٣٨١
	التوبة	
٧	﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾	٥٥
١٢١	﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾	٢٨٤، ٢٨٩
١٢٢	﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾	٢٨٥
٣٢	﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾	١٥١
٤٤	﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	٢٨٧
٤٥	﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	٢٨٧
٦١	﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾	١٦٦

رقم الآية	الآية	الصفحة
٧٢	﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾	١٠١
١١١	﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾	٢٩٣
١١٩	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾	١٣،٢٨٤
١٢٠	﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾	٢٨٩،٢٨٤،٦٠، ٥٩
	يونس	
١١	﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾	٨٩
١٣	﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾	٩٠
١٥	﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾	٩٦
١٨	﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	١١٩
٢٤	﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	١٩٢
٣٧	﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾	٩٦
	هود	
١٧	﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾	٥
١٨	﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٢٨
٢٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾	٢٠
١٢٠	﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾	٢٦٣
	الرّعد	
٦	﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾	٦٦،٨٩
١٧	﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾	٦٨
٣٥	﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾	٦٦
	إبراهيم	
٢	﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾	٢٨
٣	﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾	٢٨
٧	﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾	٧٩،٢٠٤
٩	﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾	٨٤

رقم الآية	الآية	الصفحة
٢٥	﴿ويضرب الله الأمثال﴾	٦٨
	الحجر	
٢	﴿ربما يود الذين كفروا﴾	٥٣
٧	﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾	٥٣
٩	﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾	٤، ٩٦
٩٥	﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾	١٦٨
	النحل	
٢	﴿ينزل الملائكة بالروح من﴾	٣
٣٦	﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾	٢
٤٩	﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض﴾	٥٤
٧٢	﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾	١١
٨٨	﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾	١٥٤
٨٩	﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾	٥
٩٠	﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾	٣٤
١١٢	﴿وضرب الله مثلا قرية﴾	٧٨، ٨٣
١١٥	﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾	١٢
١٢٥	﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾	٢٨٢
	الإسراء	
٤	﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾	٢٤٦
٩	﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾	٧
١٧	﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾	٨٤
١٨	﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء﴾	١٩٣
١٩	﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها﴾	١٩٣
٢٣	﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾	٢٤٦
٢٧	﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾	٥٧

رقم الآية	الآية	الصفحة
٢	﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾	١١،٣٥٥،٣٦٤
٤	﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾	١٧٣،٣٦٦،١٤٨
٢١	﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾	١١،١٧٣
٢٣	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ﴾	٢١٠
٣٦	﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾	٢١٠
٣٧	﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾	٢١٠
٤٧	﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾	٢٤١
٤٨	﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	٢٤١
٤٩	﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾	٢٤١
٥٠	﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾	٢٤١
٥١	﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	٢٤٥
	الفرقان	
٥	﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾	٣١٣
٦	﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾	٣١٣
٣١	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾	١٥٨
٤٤	﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾	١٠٠
٦٨	﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾	٢٥٤
	الشعراء	
٣	﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾	٢٦٢
١٠	﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾	٢٦٢
١١	﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾	٢٦٢
١٢	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾	٢٦٢،٢٦٦
١٣	﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾	٢٦٢،٢٦٦
١٤	﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾	٢٦٢،٢٦٦
١٥	﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ﴾	٢٦٢،٢٦٨

١٦	﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا﴾	٢٦٩،٢٦٢
١٧	أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾	٢٦٩،٢٦٢
٥٢	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾	٢٧٠
٥٣	﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾	٢٧١
٥٤	﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾	٢٧١
٥٥	﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾	٢٧١
٥٦	﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾	٢٧١
٦٠	﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾	٢٧١
٦١	﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾	٢٧١
٦٣	﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾	٢٧٣
٦٤	﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾	٢٧٣
٦٥	﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾	٢٧٣
٦٦	﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾	٢٧٣
٦٧	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾	٢٧٣
٦٨	﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾	٢٧٣
	النمل	
٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾	٣١٦
٥	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾	٣١٦
١٣	﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾	٢٦٩
١٤	﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾	٢٧٠
١٢	﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾	٢٦٥
٤٨	﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾	٥٦
٦٠	﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٥٩،٥٨
٦٧	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٣١٨
٦٨	﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾	٣١٨

الآية	النص	الصفحة
	القصص	
٤	﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٢٦١
٣٣	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾	٢٦٧
٣٤	﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي ﴾	٢٦٦
٣٥	﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾	٢٦٩
٣٨	﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾	١٣٩،٢٦١
٦٣	﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾	١٢١
٧٨	﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾	٢١٩
٧٩	﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾	٢١٩
٨٠	﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ ﴾	٢١٩
٨٢	﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾	٢٢٠
	العنكبوت	
٣٨	﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾	٨٢
٣٩	﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾	٨٢
٤٠	﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾	٨٢
٤١	﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾	١١٤
٤٣	﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾	٦٦،٧٢
٦٤	﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ ﴾	١٨١،٢٢٦
	الروم	
٢٢	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	٩٨
٤١	﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾	٣٨٩
٤٢	﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾	٨٤،١١٥
٥٨	﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾	٥٨
	لقمان	
١٣	﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾	١٠٦
١٧	﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾	١٤٧

رقم الآية	الآية	الصفحة
	الصف	
١٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾	٢٩٣
١١	﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾	٢٩٣
١٢	﴿ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾	٢٩٣
١٣	﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله ﴾	٢٩٣
	الجمعة	
١٠	﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾	١٢
	الملك	
١٤	﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾	١٠٠
	الحاقة	
٤١	﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾	٣١٠
٤٢	﴿ بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾	٣١٠
٤٣	﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾	٣١٠
	المعارج	
١١	﴿ يبصرونهم ﴾	٣٤١
١٢	﴿ وصاحبته وأخيه ﴾	٣٤١
١٣	﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾	٣٤١
١٤	﴿ ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾	٣٤١
١٥	﴿ كلا إنها لظى ﴾	٣٤١
١٦	﴿ نزاعة للشوى ﴾	٣٤١
١٧	﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾	٣٤١
١٨	﴿ وجمع فأوعى ﴾	٣٤١
٣٦	﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾	٢٩٩،٢٩٥
٣٧	﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾	٢٩٩،٢٩٥
٣٨	﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾	٢٩٩،٢٩٥

الآية	النص	الصفحة
٣٩	﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾	٢٩٥،٢٩٩
	المزمل	
١١	﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾	٣٠٥
١٢	﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾	٣٧،٣٠٥
١٣	﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾	٣٠٥
	المدثر	
١١	﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾	٣٠٠
١٢	﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾	٣٠٠،٣٠٢
١٣	﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾	٣٠٠،٣٠٢
١٤	﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾	٣٠٠،٣٠٢
١٥	﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾	٣٠٠،٣٠٣
١٦	﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾	٣٠٠
١٧	﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾	٣٠٠
٣٠	﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾	٣٢٣
٣١	﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾	٣٢٣
٣٢	﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾	٤٤،٤٦
٣٣	﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾	٤٤،٣٢٣
٣٤	﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾	٤٤،٣٢٣
٣٥	﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾	٤٤،٣٢٣
٤٩	﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾	٣٠٥
٥٠	﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾	٣٠٥
٥١	﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾	٣٠٥
٥٢	﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ ﴾	٣٠٥
٥٣	﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾	٣٠٥
٥٤	﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾	٣٠٥

٢٣	﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾	١٤٠
٢٤	﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾	١٤٠
٢٥	﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾	١٤٠
٢٦	﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾	١٤٠
	النازعات	
١٥	﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾	٢٦٣
١٦	﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾	٢٦٣
٢٤	﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾	١٣٩
١٧	﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾	١٣٩
	عبس	
١	﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾	٢٧٤
٢	﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾	٢٧٤
٣	﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾	٢٧٤
٤	﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾	٢٧٤
٥	﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾	٢٧٤
٦	﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾	٢٧٤
٧	﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾	٢٧٤
٨	﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾	٢٧٤
٩	﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾	٢٧٤
١٠	﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾	٢٧٤
١١	﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾	٢٧٤
١٢	﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾	٢٧٤
١٣	﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾	٢٧٤
١٤	﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾	٢٧٤
١٥	﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾	٢٧٤

رقم الآية	الآية	الصفحة
١٦	﴿كرام بررة﴾	٢٧٤
١٧	﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾	١٢٣، ٥٥
١٨	﴿من أي شيء خلقه﴾	١٢٣
٢٣	﴿كلا لما يقض ما أمره﴾	١٢٣

الانفطار

رقم الآية	الآية	الصفحة
٦	﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾	١٢٧
٧	﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾	١٢٨
٨	﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾	١٢٨
٩	﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾	١٢٩
١٠	﴿وإن عليكم لحافظين﴾	١٣٠
١١	﴿كراما كاتبين﴾	١٣٠
١٢	﴿يعلمون ما تفعلون﴾	١٣٠

المطففين

رقم الآية	الآية	الصفحة
١	﴿ويل للمطففين﴾	٢٢٧
٢	﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾	٢٢٧
٣	﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾	٢٢٧
٤	﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾	٢٢٧
٥	﴿ليوم عظيم﴾	٢٢٧
٦	﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾	٢٢٧
٧	﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾	٢٢٧
٨	﴿وما أدراك ما سجين﴾	٢٢٧
٩	﴿كتاب مرقوم﴾	٢٢٧
١٠	﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾	٣١٠
١١	﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾	٣١٠
١٢	﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾	٣١٠

الآية	نص الآية	الصفحات
٦	﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾	٤٢،٤٥،١٣٢،١ ٣٣،١٤٢
٧	﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾	١٣٢،١٣٣،١٣٨ ١٤٢،
٨	﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾	١٣٢،١٣٣،١٣٨ ١٤٢،
٩	﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴾	١٣٣،١٤٣،١٤٤
١١	﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾	١٤٦
١٢	﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾	١٤٦
١٣	﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾	١٤١،١٤٧
١٤	﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾	١٤١،١٤٧
١٥	﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾	١٤١،١٤٩
١٦	﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾	١٤١،١٤٩
١٧	﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾	١٤١،١٥١
١٨	﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾	١٤١،١٥١
١٩	﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾	١٤١
	التكاثر	
١	﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾	٤٤،١٩٤
٢	﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾	٤٤،١٩٤
٣	﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾	٤٤،١٩٤
٤	﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾	١٩٤
٥	﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾	١٩٤
٦	﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾	١٩٤
٧	﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾	١٩٤
٨	﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾	١٩٤
	الهمزة	

فهرس الأحاديث

٢٤.	لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ	٢٥٥
٢٥.	لقد تاب توبةً	٣٨٦
٢٦.	لو تعلمون ما أعلم	٢٠٦
٢٧.	لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا	١٣٢
٢٨.	ما أخشى عليكم	١٩٦
٢٩.	مَنْ آذى مسلمًا فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذى الله ﷻ..	١٧١
٣٠.	مَنْ أصاب حدًّا	٣٨٦
٣١.	مَنْ أَنفقَ نفقةً	٣٨١
٣٢.	مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ	٣٥٧،١٠
٣٣.	مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا	١٧١
٣٤.	هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ والقمر لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟	١٨٧
٣٥.	وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ...	٥
٣٦.	يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ...	١٦٧
٣٧.	يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي ..	٢٣٤
٣٨.	يقول اللَّهُ ﷻ يا ابن آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ ...	٢٩٩

فهرس الأعلام

٢٢	الإمام الشافعي	٧٢	.٦٠	الفراهيدي	٣٨
٢٣	الإمام الطبري	٢٧	.٦١	القرافي	٣٥٣
٢٤			.٦٢	القرطبي	١١١
٢٥	الإمام النووي	٣٥٨	.٦٣	الكسائي	٤٢
٢٦	الباجي	٣٧٥	.٦٤	الماوردي	٣٥٢
٢٧	البقاعي	٤٩	.٦٥	المبرد	٤٣
٢٨	البغوي	١٤٦	.٦٦	مجاهد بن جبر	١٢٤
٢٩	ابن عطية	٤٨	.٦٧	محمد ثناء الله الهندي	١٦٧
٣٠	البيضاوي	٤٩	.٦٨	محمد عبده	١٤٣
٣١	الثعالبي	٤٩	.٦٩	المرادي	٤٧
٣٢	الثعلبي	١٦	.٧٠	النحاس	٤٢
٣٣	الجرجاني	٧٣	.٧١	مقاتل بن سليمان	٤١
٣٤	الجصاص	٦	.٧٢	مكي بن أبي طالب	٤٢
٣٥	السيوطي	٤٥	.٧٣	النسفي	٤٩
٣٦	الجوهري	٦٣	.٧٤	النضر بن شميل	٤٦
٣٧	الحسن البصري	١٨٣	.٧٥	النيسابوري القمي	١٩
٣٨	المطرزي	٦٠	.٧٦	الواحدي	١٤٦
٣٩	القاضي عياض	٢٧٥	.٧٧	ابن رشيق	٦٣

المصادر والمراجع

١. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(٦٨١هـ) ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٢. ابن أبي العز الحنفي، محمد بن علاء الدين علي بن محمد (٧٩٢هـ)، **شرح العقيدة الطحاوية** ، تحقيق جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٩٨٣م .

٣. ابن أبي حاتم ،عبد الرحمن بن محمد إدريس الرازي (٣٢٧هـ) ، **تفسير ابن أبي حاتم** ، تحقيق:أسعد الطيب ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، د.ت.

٤. ابن أبي زمنين ،أبو عبد الله محمد بن عبد الله(٣٩٩هـ)، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق : حسين عكاشة ومحمد الكنز، دار الفاروق الحديثة ـ القاهرة ، ٢٠٠٢م.

٥. ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ،(٦٠٦هـ) **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٩٧٩م .

٦. ابن الأنباري ،أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار(٣٢٨هـ) **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ﷻ** ، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن ـ دمشق ، ١٩٧١م .

٧. ابن التمجيد ، مصلح الدين مصطفى ابراهيم الرومي(٨٨٠هـ) **حاشية ابن التمجيد على البيضاوي** ، بهامش حاشية القونوي على البيضاوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت،ط١، ٢٠٠١م.

٨. ابن الجزري، محمد بن محمد،(٨٣٣هـ) **غاية النهاية في طبقات القراء** ، مكتبة المتنبي ـ القاهرة ،د.ط .ت.

٩. ابن الجوزي ،عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ) ، **زاد المسير في علم التفسير** ، المكتب الإسلامي ـ بيروت،ط٣ ،١٤٠٤هـ.

١٠. ـــــــ ، **نواسخ القرآن**، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١ ، ١٤٠٥هـ.

١١. ابن الحاجب ،أبو عمر عثمان بن عمر (٦٤٦هـ) **الإيضاح في شح المفصل**،تحقيق:موسى العليلي، مطبعة العاني ــ بغداد .

١٢. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد (٥٤٣هـ)**أحكام القرآن** ، تحقيق:محمد عبد القادر عطا، دار الفكر ــ بيروت.

١٣. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي(١٠٨٩هـ) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ــ بيروت ، د.ط. ت.

١٤. ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب (٧٥١هـ) **الجواب الكافي** ، مكتبة المعارف ــ الرياض،ط١، ط١٩٨٧م.

١٥. ـــــــ ، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: طه عبد الرعوف ، دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٧٣م.

١٦. ـــــــ ، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** ،تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ــ بيروت ،ط٣،١٩٧٥م

١٧. ـــــــ ، **الأمثال في القرآن الكريم**، تحقيق: إبراهيم محمد ، مكتبة الصحابة ــ طنطا، ط١،١٩٨٦م

١٨. ـــــــ ، **بدائع التفسير**، جمع وتوثيق: يسرى السيد محمد ، دار ابن الجوزية ــ السعودية، ط١، ١٩٩٣م.

١٩. ـــــــ ، **بدائع الفوائد** ،دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط٢،١٩٧٣م .

٢٠. ـــــــ ، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** ، دار ابن كثير ــ دمشق ، دار التراث، المدينة المنورة ــ السعودية ، ط٣،١٩٨٩م.

٢١. ـــــــ ، **التبيان في أقسام القرآن**، دار الفكر، بيروت ، د. ط. ت.

٢٢. ـــــــ ، **طريق الهجرتين وباب السعادتين** ، دار ابن القيم ــ الدمام ، ط٢، ١٩٩٤م.

٢٣. ابن المنير، أحمد بن محمد بن منصور،(٦٨٣ هــ) **الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال** ، بهامش الكشاف ،دار إحياء التراث العربي ــ بيروت،ط١٩٩٧،١م.

٢٤. ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم(٧٢٨هــ) **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، تحقيق : محمد الحلواني ، محمد شودري، دار ابن حزم ــ بيروت،ط١،١٩٨٧م.

٢٥. ـــــــ ، **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية ــ بيروت ،ط٢ ،١٩٨٨م.

٢٦. ـــــــ ، **منهاج السنة النبوية**، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة،ط١،١٤٠٦هــ.

٢٧. ـــــــ ، **رسالة في العبودية**، دار البشير، عمّان، ١٩٩٢م.

٢٨. ـــــــ ، **مجموع الفتاوى**، دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط١،٢٠٠٠م .

٢٩. ـــــــ ، **الفتاوى الكبرى** ،تحقيق: محمد عبد القادر ، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٩٨٧م

٣٠. ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي(٧٤١هــ) **التسهيل لعلوم التنزيل** ، دار الكتاب العربي ــ بيروت،ط١٩٨٣،٤م.

٣١. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (٨٥٢هــ) **تهذيب التهذيب**، دار الفكر، بيروت ،ط١، ١٩٨٤م.

٣٢. ـــــــ ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٩م.

٣٣. ابن دريد الأزدي ،أبو بكر محمد بن الحسن، (٣٢١هــ) **جمهرة اللغة**، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٤. ابن رشيق ، الحسن بن رشيق القيرواني ،(٤٦٣هـ) **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٧٢م.

٣٥. ابن زنجلة ،عبد الرحمن بن محمد، (٤٠٣هـ) **حجة القراءات** ، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢،١٩٨٢م.

٣٦. ابن عادل ، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ،(٨٨٠هـ) **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق : عادل عبد الموجود وعلي معوض ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١،١٩٩٨ م.

٣٧. ابن عاشور، محمد الطاهر (٧٥١هـ)، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر ــ تونس، ١٩٨٤م ، والطبعة الأولى مؤسسة التاريخ ــ بيروت ، ٢٠٠٠م

٣٨. ــــــــ ، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشركة التونسية للتوزيع، ط١،١٩٧٨م .

٣٩. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، دار الجيل ــ بيروت،ط٢،١٤١٢هـ .

٤٠. ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي(١٢٢٤هـ) ، **البحر المديد**، دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط١،٢٠٠٢ م.

٤١. ابن عطية، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (٥٤٢هـ)، **المحرر الوجيز** ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط ١،١٩٩٣م.

٤٢. ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة** ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت،ط١،١٩٩١م.

٤٣. ــــــــ ، **الصاحبي في فقه اللغة**، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٧م.

٤٤. ــــــــ ، **مقالة كلا** ، تحقيق: أحمد فرحات، دار عمار ــ عمّان،ط١،٢٠٠٢م.

٤٥. ابن قاضي شهبة ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر، (٧٩٠ هـ) **طبقات الشافعية** ، عالم الكتب – بيروت ، ط١، ١٤٠٧ هـ.

٤٦. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ) **غريب القرآن** ،تحقيق : أحمد صقر ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٧٨م.

٤٧. ابن قدامة المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد(٦٢٠هـ)**المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل** ، دار الفكر – بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ .

٤٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٥، ١٩٩٦م

٤٩. ـــــــ ، **قصص الأنبياء** ، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت،ط١، ٢٠٠١م.

٥٠. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، **سنن ابن ماجة** ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت .

٥١. ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله (٦٧٢هـ) **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** ، تحقيق: محمد بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م.

٥٢. ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس(٣٢٣هـ) **السبعة في القراءات**، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة ،ط٢، ١٤٠٠هـ.

٥٣. ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ط. ت.

٥٤. ابن هشام ، جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله (٧٦١هـ) **شرح قطر الندى** ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،ط١١، ١٩٦٣م.

٥٥. ــــــ ، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** ، دار الجيل ــ بيروت ، ط٥،١٩٧٩ م .

٥٦. ــــــ ، **مغني اللبيب**، دار الكتاب العربي ــ بيروت.

٥٧. ابن هشام، أبو محمد بن هشام بن أيوب(٢١٨هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار الفكر ــ بيروت ،د، ط٢،ت.

٥٨. ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن على، (٦٤٣) **شرح المفصل**، عالم الكتب ــ بيروت ، د.ط .ت.

٥٩. أبو البركات الأنباري ، عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد ، (٥٧٧هـ) **الإنصاف في مسائل الخلاف** ، دار الفكر ــ دمشق ، د. ط . ت.

٦٠. ــــــ ، **أسرار العربية** ، تحقيق : د.فخر صالح ، دار الجيل ــ بيروت، ط١،٩٩٥م.

٦١. أبو البقاء العكبري، محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله ،(٦١٦هـ) **اللباب في علل البناء والإعراب** ، تحقيق : غازي طليمات، دار الفكر ــ دمشق ، ط١، ١٩٩٥.

٦٢. أبو البقاء الكفوي ، أيوب بن موسى الحسيني (١٠٩٤هـ) ، **الكليات** ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط٢، ١٩٨٨م

٦٣. أبو الحسن علي بن الحسن المشهور بكُراع (٣١٠هـ)، **المنجد في اللغة** ، تحقيق: أحمد مختار، وضاحي عبد الباقي،١٩٧٦م ،د.ط.

٦٤. أبو السعود، محمد بن العمادي (٩٥١هـ)، **إشاد العقل السليم** ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، د.ط.ت.

٦٥. أبو الليث السمرقندي، نصر بن محمد ين أحمد(٣٧٥هـ)، **بحر العلوم**، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر ــ بيروت ،د .ط .ت .

٦٦. أبو الهلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن مهران (ت٤٠٠هـ) **الفروق اللغوية**، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ، ط١، ١٤١٢هـ .

٦٧. ـــــــ ، **جمهرة الأمثال** ، دار الفكر – بيروت ، ط٢، ١٩٨٨م.

٦٨. أبو بكر جابر الجزائري، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أضواء المنار ـ المدينة المنورة، ط٢، ١٤١٩هـ .

٦٩. أبو جعفر النّحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل (٣٣٨هـ)، **معاني القران**، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٧٠. أبو حيان، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي يوسف الأندلسي الغرناطي (٧٤٥هـ) **البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد المجود وآخرون ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م ، والطبعة الثانية لدار الفكر ـ بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٧١. أبو زهرة، محمد، (١٩٧٤م) **الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي**، دار الفكر العربي، د. ط. ت.

٧٢. ـــــــ ، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي ، د. ط. ت.

٧٣. أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود ،(٣٣٣هـ) **تأويلات أهل السنة**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٧٤. أبو موسى، محمد محمد، **من أسرار التعبير القرآني**، مكتبة وهبه ـ القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

٧٥. الأدنروي،أحمد بن محمد ، **طبقات المفسرين** ، تحقيق : سليمان الخزي ، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ، ط١، ١٩٩٧م.

٧٦. الأزهري، محمد بن أحمد، (٣٧٠هـ)، **تهذيب اللغة** ، تحقيق :محمد النجار، الدار المصرية للتأليف ، د.ط .ت.

٧٧. الآلوسي، أبو الفضل محمود البغدادي (١٢٧٠هـ)، **روح المعاني** دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

٧٨. الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.

٧٩. الإمام البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ،(٢٥٦هـ) **التاريخ الكبير**، تحقيق: هشام الندوي، دار الفكر – بيروت. د.ط. ت.

٨٠. ـــــ ، **صحيح البخاري**، تحقيق : مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

٨١. الإمام الشاطبي ،إبراهيم بن موسى(٧٩٠هـ)، **الموافقات**، تحقيق: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت ،د.ط .ت.

٨٢. الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس ،(٢٠٤هـ) كتاب الأم، دار الفكر – بيروت، د.ط.ت.

٨٣. ـــــ ، مسند الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ط.ت.

٨٤. ـــــ ، **أحكام القرآن**،تحقيق: عبد الغني عبد الخالق،دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٠هـ.

٨٥. الإمام الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١١هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق:أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

٨٦. ـــــ ، **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٨٧. الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(٥٠٥ هـ) **المستصفى في علم الأصول**، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .

٨٨. ـــــــ ، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى** ،تحقيق : بسام الجابي ، الجفان والجابي ــ قبرص ، ط١، ١٩٨٧م.

٨٩. الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) **صحيح مسلم**، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ،د.ط .ت.

٩٠. الآمدي، علي بن محمد (ت ٦٣١هـ)، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٩١. الإيجي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد (٩٠٥هـ) **جامع البيان في تفسير القرآن** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

٩٢. الباجي: أبو الوليد ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي (٤٧٤هـ) **المنتقى شرح الموطأ** ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط١، ١٣٣٢هـ.

٩٣. البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود (٥١٦ هـ) **معالم التنزيل** ، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٧ م.

٩٤. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٥م.

٩٥. البلخي ، مقاتل بن سليمان ،(١٥٠هـ)الأشباه والنظائر ، تحقيق: عبد الله شحاته ، المكتبة العربية ــ القاهرة ، ١٩٧٥م.

٩٦. بنت الشاطئ ، عائشة عبد الرحمن ، التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط٥، ١٩٧٧م،

٩٧. البوطي ، محمد سعيد رمضان ، **على طريق العودة إلى الإسلام** ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط١ ، ١٩٨١م.

٩٨. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد (٦٨٥هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٦م.

٩٩. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى(٢٧٩هـ) **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،د.ط .ت.

١٠٠. تفسير الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام(٢١٠هـ) **تفسير القرآن**، تحقيق :مصطفى مسلم ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط١، ١٤١٠هـ .

١٠١. تقي الدين السبكي، علي بن عبد الكافي (٧٥٦هـ) **السيف المسلول على من سبّ الرسول** ﷺ، دار ابن حزم – بيروت،ط١، ٢٠٠٥م.

١٠٢. توفيق علي وهبه ، **التدابير الزجرية والوقائية**، دار اللواء – الرياض، ط١، ١٩٨١م.

١٠٣. الثعالبي ،عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف،(٨٧٦هـ) **الجواهر الحسان** ، مؤسسة الأعلمي – بيروت ، د. ط .ت.

١٠٤. أبو منصور الثعالبي، عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ) **فقه اللغة وأسرار العربية** ، المكتبة العصرية – بيروت،ط١، ١٩٩٩م

١٠٥. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (٤٢٧هـ) **الكشف والبيان**، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١، ٢٠٠٢م .

١٠٦. **ثناء الله الهندي** ، محمد ثناء الله الهندي الحنفي(١١٢٥هـ) **تفسير المظهري**، تحقيق: أحمد عنايه، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

١٠٧. الجرجاني ، علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ) **التعريفات** ،تحقيق :إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٠٨. الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي (٣٧٠هـ) **أحكام القرآن**، تحقيق :عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت،ط١، ١٩٩٤م .

١٠٩. الجلالان ، جلال الدين المحلي (٨٦٤هـ) ، و جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، **تفسير الجلالين**، دار المعرفة – بيروت ،د.ط.ت.

١١٠. الجمل، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي (١٢٠٤هـ) **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين**، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٦م.

١١١. جنيدي ، محمد سعيد اسبر بلال ، **الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها** ، دار العودة – بيروت ،د. ط١.ت.

١١٢. الجوهري ، إسماعيل بن حمّاد، (٣٩٣هـ) ، **الصحاح** ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط١، ١٩٩٩م.

١١٣. حافظ أحمد حكمي (١٣٧٧هـ)، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تحقيق: عمر محمود، دار ابن القيم – الدمام،ط١، ١٩٩٠م .

١١٤. الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

١١٥. حقي البورسوي ، إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي(١١٢٧هـ) **روح البيان في تفسير القرآن**، دار الكتب العلمية – بيروت –،ط١، ٢٠٠٣م.

١١٦. الحكيم الترمذي ، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن ،(٣٢٠هـ) **الأمثال في الكتاب والسنة**، دار الكتب العلمية – بيروت – ط٣، ٢٠٠١م

١١٧. الخازن ،علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم(٧٢٥هـ) **لباب التأويل في معاني التنزيل**، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط١، ٢٠٠٤م.

١١٨. الخالدي، صلاح عبد الفتاح ،**البيان في إعجاز القرآن** ، دار عمّار ــ عمّان، ط١٩٩٢،٣م.

١١٩. الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد(٣٨٨هــ) **شأن الدعاء**، دار المأمون للتراث ــ دمشق ،ط١ ،١٩٨٤م.

١٢٠. الخطيب الشربيني ، محمد بن أحمد(٩٧٧هــ)**السراج المنير**، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، ط١،٢٠٠٤م.

١٢١. الدامغاني ، أبو عبد الله الحسين بن محمد ،(٤٧٨هــ) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، تحقيق: عربي عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ،د. ت. ط.

١٢٢. داود ، محمد محمد ،**معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المُعاصرة** ،دار غريب للطباعة والنشر ــ القاهرة ،٢٠٠٣م.

١٢٣. دراز ، محمد عبد الله ، **دستور الأخلاق في القرآن** ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط١٠ ، ١٩٩٨م.

١٢٤. الدمشقي ،عبد القادر بن بدران (١٣٤٦هــ)،**المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل** ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط١،١٩٨١م

١٢٥. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هــ) **سير أعلام النبلاء** ، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ،د،ط،ت.

١٢٦. الذهبي، محمد حسين ، **أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع** ، دار الاعتصام ، ط١،١٩٧٨م .

١٢٧. الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، (٧٢١هــ)، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ــ بيروت، ١٩٩٥م ، د.ط.

١٢٨. الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد ، (٥٠٢هـ) **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** ، دار الغرب العربي – بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٢٩. ـــــ ، **المفردات في غريب القرآن** ، دار المعرفة – بيروت ،د. ط٢.ت.

١٣٠. الرضي الاسترابادي ، رضي الدين محمد بن الحسن ، **شرح الرضى على الكافية** ، جامعة قاريونس ، ١٩٧٨م.

١٣١. الرماني ،أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ) ، (**النكت في إعجاز القرآن**) ضمن "ثلاث رسائل في الإعجاز"، تحقيق : محمد خلف الله، محمد زغلول سلام ، دار المعارف – مصر،ط٢،١٩٦٨م

١٣٢. ـــــ ، **معاني الحروف**، دار الشروق – جدة، ط٣،١٩٩٤م.

١٣٣. الزَّبيدي ، محمد مرتضى ،(١٢٠٥هـ) **تاج العروس**، دار ليبيا للنشر والتوزيع – بنغازي، د.ط.ت.

١٣٤. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم السري(٣١١هـ) **تفسير أسماء الله الحسنى** ،تحقيق: أحمد الدقاق ، دار الثقافة العربية – دمشق ، ١٩٧٤م .

١٣٥. ـــــ ، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق:عبد الجليل شلبي، عالم الكتب – بيروت ط١.

١٣٦. الزجاجي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، (٣٣٩ هـ) **حروف المعاني**، تحقيق : علي الحمد ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٩٨٤م.

١٣٧. الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، **مناهل العرفان في علوم القرآن** ،دار الكتب العلمية – بيروت ،١٩٩٦م .

١٣٨. الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر (٧٩٤هـ)، **البحر المحيط في أصول الفقه**، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط١،٢٠٠٠م.

١٣٩. ـــــ ، **البرهان في علوم القرآن** ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ .

١٤٠. الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت،ط٥، ١٩٨٠م.

١٤١. الزمخشري ، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، **الكشاف** ، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩٧م .

١٤٢. ـــــ ، **المُفصَّل في صنعة الإعراب**، تحقيق :علي أبو ملحم ، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١،١٩٩٣م.

١٤٣. ـــــ ، **أساس البلاغة** ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٤٤. السعدي ،عبد الرحمن بن ناصر، (١٣٧٦هـ) **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق :عبد الرحمن اللويحق ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

١٤٥. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (٧٥٦هـ) **الدر المصون**، تحقيق:أحمد الخراط، دار القلم – دمشق، ط٢،١٩٩١م.

١٤٦. ـــــ ، **عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ** ، تحقيق: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٦م

١٤٧. سيد قطب، (١٣٨٧هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط٢٢،١٩٩٢م.

١٤٨. السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر(٩١١ هـ ،**طبقات المفسرين** ، تحقيق : علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١،١٣٩٦هـ.

١٤٩. ـــــ،**أسرار ترتيب القرآن**،تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام – القاهرة.

١٥٠. ـــــ ، **لباب النقول في أسباب النزول** ، ضبط وتصحيح احمد عبد الشافي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، د. ط.ت.

١٥١. ـــــ ، **الإتقان في علوم القرآن** ، مؤسسة النداء ـ أبو ظبي ، ط١ ، ٢٠٠٣م.

١٥٢. ـــــ ، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد العـال مكّـرم ،دار البحـوث العلمية ـالكويت،١٩٧٩م.

١٥٣. الشاذلي، حسن علي، **أثر تطبيق الحدود في المجتمع**، ضمن مجموعة من البحوث المقدمـة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بـن سـعود الإسـلامية ـ الريـاض ، ١٣٩٦هـ ، طباعة ونشر جامعة الإمام،١٩٨١م.

١٥٤. الشريف الرضي، محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمـد بـن موسـى الكـاظم الموسوي،(٤٠٦هـ) **تلخيص البيان في مجاز القرآن** ، عالم الكتب ـ بيروت،ط١ ،١٩٨٦م.

١٥٥. الشنقيطي ، محمد الأمين بن مختار الجكني، (١٣٩٣هـ) **دفع إيهام الاضطراب عن آيـات الكتاب** ، مطبعة المدني ـ القاهرة ،د. ط.ت.

١٥٦. ـــــ ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٥هـ.

١٥٧. الشهاب الخفاجي، القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد، (١٠٦٩هـ) **حاشية الشهاب علـى تفسير البيضاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٧م.

١٥٨. الشوكاني ، محمد بن علي ،(١٢٥٠هـ) **إرشاد الفحول إلى علم الأصول** ، دار الفكـر ـ بيروت ،ط١،١٩٩٢م .

١٥٩. ـــــ ، **فتح القدير** ، دار الفكر ـ بيروت،د. ط.ت.

١٦٠. الصابوني، محمد علي ، **روائع البيان في تفسير آيات الأحكام** ، مكتبة الغزالي ـ بيـروت، ط٣،١٩٨٠م.

١٦١. الصاوي، أحمد بن محمد (١٢٤١هـ) **حاشية الصاوي على الجلالين**، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٧٧م .

١٦٢. صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم للملايين ــ بيروت ،ط١١،١٩٨٩م.

١٦٣. صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي** ،دار الكتاب اللبناني ــ بيروت،١٩٨٢م.

١٦٤. الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام(٢١٠هـ) **تفسير القرآن**، تحقيق :مصطفى مسلم ، ط١، مكتبة الرشد – الرياض ، ١٤١٠هـ .

١٦٥. الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد، (٣٦٠هـ) **المعجم الأوسط** ،تحقيق : طارق بن عوض الله ،عبد المحسن الحسيني،د.ط، دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥هـ.

١٦٦. عبد الحميد دياب ، أحمد قرقز، **مع الطب في القران**، ط١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق،١٩٨٠م.

١٦٧. عبد الرزاق حسين أحمد ، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ط١،دار ابن عفان ــ القاهرة، ١٩٩٩م .

١٦٨. عبد الفتاح لاشين ،**صفاء الكلمة**، دار المريخ ــ الرياض ،١٩٨٣م.

١٦٩. عبد القادر بن بدران الدمشقي،(١٣٤٦هـ) **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل** ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط٢، ١٩٨١م.

١٧٠. عبد القادر عوده ، **التشريع الجنائي**، دار الكتاب العربي ــ بيروت ،د. ط.ت.

١٧١. عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ، **أسرار البلاغة** ،ط١، دار الكتاب العربي ــ بيروت،١٩٩٦م.

١٧٢. عبد اللطيف ، محمد عبد الوهاب ، **موسوعة الأمثال القرآنية** ، مكتبة الآداب ــ القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.

١٧٣. العتيبي، صالح بن علي بن ذعار، **الإعلان عن الحدود الشرعية وأثره في الردع العام**، أكاديمية نايف العربية ــ الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

١٧٤. علي منصور ، **نظام التجريم والعقاب في الإسلام** ، مؤسسة الزهراء ـ المدينة المنورة، ط١، ١٩٧٦م.

١٧٥. العمري ، شحاده حميدي، ردع الإنسان عن الطغيان في ضوء قوله ﷻ:﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى** ﴾ ،مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ،المجلد ٢٢ـ العدد الأول ـ٢٠٠٦.

١٧٦. الفخر الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦هـ) **مفاتيح الغيب** ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ،ط١ ،١٤٢١هـ.

١٧٧. الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧هـ) **معاني القرآن**، عالم الكتب ـ بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

١٧٨. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ) **كتاب العين** ، تحقيق: مهدي المخزومي ،وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال.

١٧٩. ـــــ ، **الجمل في النحو**، تحقيق:فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت،ط٥، ١٩٩٥م.

١٨٠. فضل إلهي ،**التدابير الوقائية من الزنا في الفقه الإسلامي** ، إدارة ترجمان الإسلام ـ باكستان،ط١، ١٩٨٣م .

١٨١. فضل عباس، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، دار الفرقان ـ عمّان،ط١، ١٩٩٧م .

١٨٢. ـــــ ، **البلاغة فنونها وأفنانها**(علم المعاني) ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ عمّان ، ط١٠، ٢٠٠٥م.

١٨٣. ـــــ ، **إعجاز القرآن** ، دار الفرقان ـ عمان ،ط١، ١٩٨٩م.

١٨٤. فياض، محمد جابر ، **الأمثال في القرآن الكريم** ، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد،ط١، ١٩٨٨م.

١٨٥. الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب، (٨١٧هـ) ، **القاموس المحيط**، د.ط، ت.

١٨٦. ـــــ، **بصائر ذوي التمييز**، تحقيق: محمد النجار ، دار الكتب العلمية ـ بيروت د.ط، ت.

١٨٧. الفيومي ، أحمد بن علي المقري ،(٧٧٠هـ)، **المصباح المنير** ، المكتبة العلمية ـ بيروت،د.ط، ت. .

١٨٨. القاسمي، جمال الدين ، (١٣٢٢هـ) **محاسن التأويل**، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

١٨٩. القاضي عياض، أبو الفضل اليحصبي، (٥٤٤ هـ) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، دار الفكر ـ بيروت ،١٩٨٨م.

١٩٠. القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله الصنهاجي، (٦٨٤هـ) **أنوار البروق في أنواع الفروق** ، عالم الكتب ـ بيروت ،د.ط.ت.

١٩١. القرطبي، أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري (٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القران**، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٣م.

١٩٢. القضاة، عبد الحميد ، **الإيدز حقائق وأرقام** ، ط٢، ٢٠٠٠م .

١٩٣. القطان، مناع ، **مباحث في علوم القرآن** ، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط٣ ، ٢٠٠٠م.

١٩٤. قنبس ،عبد الحليم محمد ،**معجم الألفاظ المشتركة في اللغة** ، مكتبة لبنان ـ بيروت ، ١٩٨٧م.

١٩٥. القنوجي، صديق بن حسن(١٣٠٧هـ) **فتح البيان في مقاصد القرآن** ،إحياء التراث الإسلامي ـ قطر،١٩٨٩م.

١٩٦. القونوي، عصام الدين إسماعيل بن محمد(١١٩٥هـ) **حاشية القونوي على البيضاوي**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١، ٢٠٠١م.

١٩٧. كحالة ،عمر رضا، **معجم المؤلفين**، مكتبة المثنى ــ بيروت ، ودار إحياء ، التراث العربي ــ بيروت .د.ط .ت.

١٩٨. الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر (بعد٥٠٠هـ) **أسرار التكرار في القرآن**، دار الاعتصام ــ القاهرة ، ط٢،١٣٩٦هـ.

١٩٩. اللكنوي الهندي، محمد عبد الحي، **الفوائد البهية في تراجم الحنفية** ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط.ت.

٢٠٠. الماتريدي ،أبو منصور محمد بن محمد (٣٣٣هـ) **تأويلات أهل السنّة**، مؤسسة الرسالة ــ بيروت،ط١، ٢٠٠٤م .

٢٠١. المالقي، أحمد بن عبد النور(٧٠٢هـ) **رصف المباني في حروف المعاني**، دار القلم ــ دمشق،ط٢، ١٩٨٥م.

٢٠٢. الماوردي، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (٤٥٠هـ)، **النكت والعيون** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١،١٩٩٢م .

٢٠٣. ـــــ ، **الأحكام السلطانية** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ،ط١، ١٩٨٥م.

٢٠٤. مجاهد بن جبر المخزومي (١٠٤هـ) **تفسير مجاهد** ، تحقيق:عبد الرحمن السورتي ، المنشورات العلمية ــ بيروت ، د.ط.ت.

٢٠٥. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط** ، القاهرة،ط٢، ١٩٧٢ م.

٢٠٦. محفوظ ،محمد جمال الدين ، **المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية**،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٠٧. محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ)، **تفسير المنار**، دار المنار ــ القاهرة، ط٢،١٩٤٩م.

٢٠٨. محمد عبده ، **تفسير جزء عمّ**، دار ومكتبة الهلال ــ بيروت، ١٩٨٥م .

٢٠٩. محمد عطية سالم ، **تتمة أضواء البيان** ، مطبعة المدني ــ القاهرة ،د. ط.ت.

٢١٠. محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكـريم** ،دار الفكـر ــ بيـروت ، ١٩٨٧م.

٢١١. محمد نعيم ياسين، **الإيمان** "أركانه. حقيقته. نواقضه" ، ط٣، ١٩٨٢م.

٢١٢. المرادي ، الحسن بن قاسم بن عبد الله (٧٤٩ هـ) ، **الجنى الداني في حروف المعـاني** ، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ، ط٢، ١٩٨٣م.

٢١٣. المراغي، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ)، **تفسير المراغي**، مطبعة مصطفى البابلي بمصر، ط١،١٩٤٦ م.

٢١٤. المصري، جمال الدين عبد الناصر ، **النهيُ في القرآن الكريم** ، دار القلم العربي ، سـوريا، ط٠،٢٠٠٠م.

٢١٥. مصطفى الغلاييني ، **جامع الدروس العربية**، المكتبة العصرية ــ بيروت، ط٣٦ ،١٩٩٩ م.

٢١٦. المطرزي، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي (٦١٠ هـ)**المغرب فـي ترتيـب المعرب** ، تحقيق : محمود فـاخوري وعبـد الحميـد مختـار ، مكتبـة أسـامة بـن زيـد - حلب،ط١،١٩٧٩م.

٢١٧. مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي (١٥٠هـ) **تفسير مقاتل** ، تحقيق:أحمد فريـد ، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١،د.ت.

٢١٨. مقلد ، إسماعيل صبري ، **الاستراتيجية والسياسة الدولية** (المفاهيم والحقـائق الأساسـية)، مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت،ط١، ١٩٧٩م .

٢١٩. مكي بن أبي طالب القيسي(٤٣٧هـ) ،**شرح كلا وبلى ونعم** ، تحقيق :أحمد حسن فرحات، دار المأمون للتراث،ط١،١٩٧٨م.

٢٢٠. المناوي، محمد عبد الرؤوف (١٠٣١هـ)، **التوقيف على مهمات التعاريف**، دار الفكر المعاصر، دمشق،ط١، ١٩٨٩م .

٢٢١. الميداني ،عبد الرحمن حسن حبنكة ، **معارج التفكر ودقائق التدبر** ، دار القلم ـ بيروت،ط١، ٢٠٠٢ م .

٢٢٢. النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل (٣٣٨ هـ) **الناسخ والمنسوخ** ، تحقيق : محمد عبد السلام ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، ط١،١٤٠٨هـ .

٢٢٣. النّحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل (٣٣٨هـ)، **معاني القرآن**، تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، د. ط١. ت.

٢٢٤. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (٧١٠هـ)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط١،١٩٩٨م.

٢٢٥. النويهض ،عادل، معجم المفسرين ،ط١،مؤسسة النويهض الثقافية ،١٩٨٣م.

٢٢٦. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي (٧٨٢هـ)، **غرائب القران ورغائب الفرقان**، دار الكتب علمية ـ بيروت ، ط١، ١٩٩٦م.

٢٢٧. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (٨٠٧هـ) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٤١٢هـ .

٢٢٨. الواحدي ،أبو الحسن علي بن أحمد (٤٦٨هـ)**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، دار القلم ـ دمشق، ط١، ١٩٩٤م.

٢٢٩. ـــــ ، **أسباب النزول** ، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة، ١٩٦٨م .

٢٣٠. وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر ـ دمشق ، ط٢،١٩٨٥م.